

كنوز رياض الصالحين

رئيس الفريق العلمي

أ. د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار

رعاية ودعم

صاحب السمو الملكي

الأمير بندر بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

المجلد الثامن عشر



دار كنوز إشبيليا

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

كنوز رياض الصالحين

(١٨)

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حمد ناصر

كنوز رياض الصالحين/ حمد ناصر العمار - الرياض ١٤٣٠هـ، ٢٢ مج.

٦٢٧ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-١٢-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٨)

١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الحديث - شرح أ- العنوان

ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٣٠/٤٢٨٨

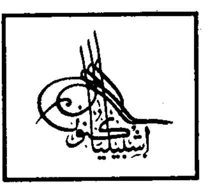
رقم الإيداع: ١٤٣٠/٤٢٨٨

ردمك: ٢-٩٤-٨٠١١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٠-١٢-٨٠٥٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٨)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ - ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia@hotmail.com

٢٥٣- باب كرامات الأولياء وفضلهم

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[يونس: ٦٢- ٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾[مريم: ٢٥ ، ٢٦]، وقال تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَت هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾[الكهف: ١٦-١٧].

الحديث رقم (١٥٠٥)

١٥٠٥- وعن أَبي محمد عبد الرحمن بن أَبي بكرٍ الصديق رضي الله عنهما: أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ وَأَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ مَرَّةً: ((**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ، فَلْيَذْهَبْ بثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أرْبَعَةٍ، فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ بِسَادِسٍ**)) أَوْ كما قَالَ، وأَنَّ أَبَا بكرٍ رضي الله عنه جَاءَ بِثَلاَثَةٍ، وانْطَلَقَ النبيّ ﷺ بعَشَرَةٍ[1]، وأَنَّ أَبَا بَكرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النبيّ ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صَلَّى[2] العِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ[3]، فجاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ. قالت[4] امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ[5]؟ قَالَ: أَوَمَا عَشَّيْتِهِمْ؟ قالت: أَبَوْا حَتَّى

---

(١) عند مسلم زيادة: (وأبوبكر بثلاثة ، قال: فهو وأنا وأبي وأمي، ولا أدري هل قال: وامرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر) وكذا عند البخاري.

(٢) لفظهما: (صليت).

(٣) عند مسلم زيادة: (فلبث حتى نعس رسول الله ﷺ)، وكذا عند البخاري، لكن لفظه: (تعشى) بدل: (نعس).

(٤) عندهما زيادة: (له).

(٥) عندهما زيادة: (أو قالت: ضيفك).

تَجِيءَ وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ[١]، قَالَ: فَذَهَبتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وقالَ: كُلُوا لاَ هَنِيئًا وَاللهِ لا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: وايْمُ اللهِ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إلا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أكثرَ منها حتى شبعوا، وصارتْ أكثرَ مما كانتْ قبلَ ذلكَ، فنظرَ إليها أبو بكر[٢] فقالَ لامرأتِهِ: يا أختَ بني فراسٍ ما هذا؟ قالت: لا وقُرَّةِ عيني لهي الآنَ أكثرُ منها قبلَ ذلكَ بثلاثِ مراتٍ[٣]! فأكل منها أبو بكرٍ وقال: إنَّما كانَ ذلكَ من الشيطانِ، يعني: يمينَهُ. ثم أكلَ منها لقمةً، ثُمَّ حمَلَهَا إِلَى النَّبيِّ ﷺ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ. وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَمَضَى الأجلُ، فَتَفَرَّقْنَا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ، اللهُ أعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ[٤].

وَفِي رِوَايَةٍ[٥]: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لا يَطْعَمُهُ، فَحَلَفَتِ المَرْأَةُ لا تَطْعَمُهُ، فَحَلَفَ الضَّيْفُ - أَو الأَضْيَافُ - أنْ لاَ يَطْعَمُهُ أَوْ يَطْعَمُوهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ[٦]: هَذِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ! فَدَعَا بالطَّعَامِ فَأَكَلَ وأكَلُوا، فَجَعَلُوا لا يَرْفَعُونَ لُقْمَةً إلاَّ رَبَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، فَقَالَ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ، مَا هَذَا؟ فَقَالَتْ: وَقُرَّةِ عَيْنِي إنَّهَا الآنَ لأَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ أنْ نَأكُلَ، فَأَكَلُوا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى النَّبيِّ ﷺ، فَذَكَرَ أَنَّهُ أكَلَ مِنْهَا.

وَفِي رِوايَةٍ[٧]: إنَّ أَبَا بكْرٍ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمنِ: دُونَكَ أَضْيَافَكَ، فَإِنِّي مُنْطلقٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ، فَافْرُغْ مِنْ قِراهُم قَبْلَ أنْ أَجِيءَ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمانِ، فَأَتَاهُمْ بما عِنْدَهُ، فَقَالَ: اطْعَمُوا؛ فقالوا: أين رَبُّ مَنْزِلِنا؟ قَالَ: اطْعَمُوا، قالوا: مَا نحنُ بِآكِلِينَ حَتَّى يَجِيءَ رَبُّ مَنْزِلِنَا، قَالَ: اقْبَلُوا عَنَّا قِرَاكُمْ، فَإِنَّهُ إنْ جَاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا، لَنَلْقَيَنَّ مِنْهُ فَأَبَوْا، فَعَرَفْتُ أنَّهُ يَجِدُ عَلَيَّ، فَلَمَّا جَاءَ تَنَحَّيْتُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ

---

(١) عند مسلم زيادة: (فغلبوهم)، وعند البخاري: (فأبوا).

(٢) عندهما زيادة: (فإذا هي كما هي أو أكثر).

(٣) هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: (مرات).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧/١٧٦).

(٥) أخرجها البخاري (٦١٤١).

(٦) عند البخاري زيادة: (كان).

(٧) أخرجه البخاري (٦١٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٠٧٥/١٧٧).

الرَّحمنِ، فَسَكَتُّ: ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمنِ، فَسَكَتُّ، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ أقْسَمْتُ عَلَيْكَ إنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَوتِي لَمَا جِئْتَ ! فَخَرَجْتُ، فَقُلْتُ: سَلْ أضْيَافَكَ، فقالُوا: صَدَقَ، أتَانَا بِهِ، فَقَالَ: إنَّمَا انْتَظَرْتُمُونِي واللهِ لا أَطْعَمُهُ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ الآخَرُونَ: واللهِ لا نَطْعَمُهُ حَتَّى تَطْعَمَهُ فَقَالَ[1]: وَيْلَكُمْ مَا لَكُمْ لا تَقْبَلُونَ عَنَّا قِرَاكُمْ؟ هَاتِ طَعَامَكَ، فَجَاءَ بِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، الأُولَى مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا. متفق عَلَيْهِ.

ترجمة الراوي:

عبدالرحمن بن أبي بكر: وهو عبدالرحمن بن أبي بكر (واسمه عبدالله) بن أبي قُحافة (واسمه عثمان) بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة القرشي التيمي، ويقال كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة أو عبدالعزى، فسماه النبي ﷺ عبدالرحمن، وكان يكنى بأبي محمد، ويقال: أبو عبدالله، ويقال: أبو عثمان المدني، وهو شقيق عائشة -أم المؤمنين فأمهما واحدة، وهي أم رومان بنت الحارث بن غنيم الكنانية، له صحبة ورواية، فله أحاديث نحو الثمانية، اتفق الشيخان على ثلاثة، وروى له كبار التابعين، شهد بدرًا وأحدًا مع المشركين، ثم أسلم وهاجر إلى المدينة قبل فتح مكة، وكان أسن ولد أبي بكر، وهو الذي أمره النبي ﷺ في حجة الوداع أن يُعَمِّرَ أخته عائشة من التنعيم.

وكان رضي الله عنه من أشجع رجال قريش، وأرماهم بسهم، شهد اليمامة مع خالد بن الوليد، وهو الذي قتل مُحَكِّمَ اليمامة، رماه بسهم في نحره فقتله، وكان مُحكِّم اليمامة في ثُلْمة في الحصن فلما قُتِل دخل المسلمون منها، وشهد غزو إفريقية، وحضر موقعة الجمل مع أخته عائشة، ودخل مصر، وكان شاعرًا وكان امرأً صالحًا من أصدق الناس، قال الزبير بن بكار: وكان امرأً صالحًا وكانت فيه دُعابة، وعن ابن المسيّب قال عن عبدالرحمن بن أبي بكر: لم تُجَرَّب عليه كِذْبة قط، ولا يُعرف في الصحابة أربعةٌ وِلاءً -أي متوالين- أب وبنوة بعده كل منهم ابن الذي قبله أسلموا

---

(١) عند هما زيادة: (لم أرَ في الشرّ كالليلة).

وصحبوا النبي ﷺ إلا أبو قُحافة وابنه أبوبكر وابنه عبدالرحمن بن أبي بكر وابنه محمد بن عبدالرحمن أبو عتيق.

توفي عبدالرحمن بالحَبَشِيِّ، والحَبَشِيُّ على اثني عشر ميلاً من مكة فَحُمل فدفن بمكة، ولما اتصل خبر موته بأخته عائشة أم المؤمنين ظعنت من المدينة حاجّة حتى وقفت على قبره، فبكت وتمثلت بقول الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حِقبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معًا[1]

وقال الحافظ أبو نعيم توفي بمكة في نومة نامها في إمرة معاوية، وقال ابن حجر العسقلاني في كتابه تهذيب التهذيب قلت: وقال العسكري هو أول من مات من أهل الإسلام فجأة، وقال أبو زُرْعة الدمشقي تُوفي بعد مُنصَرف معاوية من المدينة في قَدْمَتِه التي قدم فيها لأخذ البيعة من عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر، ثم توفيت عائشة بعد ذلك بيسير سنة ٥٩ هجرية، أما عن سنة وفاته فقيل (٥٣)، أو (٥٤)، أو (٥٥)، أو (٥٦)، أو (٥٩)[2].

غريب الألفاظ:

أصحاب الصُفّة: الصفة مكان مظلل في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة إبّان العصر النبوي بعد الهجرة، يأوي إليه فقراءُ المهاجرين ينامون فيه[3].

ما حبسك: ما منعك[4].

وقد عرضوا عليهم: أي أن آل أبي بكر -الأهل والخدم- عرضوا على

---

(١) البداية والنهاية ٨/٨٩، والمنتظم ٢/٥٥، والكامل في التاريخ ٢/٢١٨، من شعر متمم بن نويرة في أخيه مالك.

(٢) الاستيعاب ٤٤٦، ٤٤٧، أسد الغابة ٣/٤٦٢-٤٦٤، الإصابة (٦٨٩)، سير أعلام النبلاء (٢/٤٧١-٤٧٣)، تهذيب الكمال (٤/٣٣٧-٣٧٩)، تهذيب التهذيب (٢/٤٩٢)، الأعلام (٣/٣١١، ٣١٢)، موسوعة عظماء حول الرسول (٢/١٢٨٨-١٢٩٠).

(٣) أطلس الحديث النبوي، ٢٣٧.

(٤) القاموس المحيط في (ح ب س).

الأضياف العشاء[١].

الغُنْثُر: الغبي الجاهل[٢].

فجدّع: دعا عليه بالجَدْع وهو: قطع الأذن والأنف أو الشفة، وقيل المراد السب[٣].

ربا: زاد وارتفع[٤].

من أسفلها: الموضع الذي أخذت منه[٥].

وقرة عيني: قرة العين يكنى بها عن المسرة، ورؤية ما يحبه الإنسان ويوافقه، يقال ذلك لأن عينه قرت، أي سكنت حركتها من التلفت لحصول غرضها فلا تستشرف لشيء آخر فكأنه مأخوذ من القرار، وقيل معناه أنام الله عينك وهو يرجع إلى هذا، وقيل بل هو مأخوذ من القر وهو البَرَد أي أن عينيه باردة لسروره، ولهذا قيل دمعة الحزن حارة[٦].

فمضى الأصل: انقضى الوقت الذي تواعدوا إليه[٧].

دونك أضيافك: دون: اسم فعل بمعنى خذ وتوصل بالكاف[٨]، والمعنى خذ أضيافك وقم بحقهم.

القِرى: الضيافةُ والإكرام[٩].

يجد عليَّ: يغضب[١٠].

---

(١) ينظر فتح الباري ٦/٦٩١.

(٢) رياض الصالحين، النووي ٥١٤.

(٣) فتح الباري ٦/٦٩١، رياض الصالحين، النووي ٥١٤.

(٤) النهاية في (ر ب و)، فتح الباري ٦/٦٩٢.

(٥) فتح الباري ٦/٦٩٢.

(٦) فتح الباري ٦/٦٩٢، ٦٩٣.

(٧) النهاية في (أ ص ل)، دليل الفالحين ١٥٥٦.

(٨) المعجم الوسيط في (د و ن).

(٩) شرح صحيح مسلم، النووي ١٣٠٣.

(١٠) رياض الصالحين، النووي ٥١٤.

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يفتتح به الإمام النووي: باب كرامات الأولياء وفضلهم، والكرامات -كما قال صاحب دليل الفالحين-: جمع كرامة، وهي إحدى الخوارق للعادات؛ والخوارق خمس: وهي: إرهاص، ومعجزة، وكرامة، ومعونة، ومهونة أو استدراج والمعجزات من خصائص الأنبياء، لأنها: من خوارق العادات المقرونة بالتحدي الواقع على طبق ما ادعاه النبي ﷺ مع الأمن من المعارضة فيه.

والكرامة من صفات أولياء الله تعالى، والأولياء جمع ولي: وهو المؤمن المطيع لمولاه، وولي على وزن فعيل بمعنى فاعل، لأن العبد الولي وَالَى اللهَ باتباع مرضاته، أو هو على وزن فعيل، بمعنى مفعول: لأن الله تعالى والاه، وهو يتولى الصالحين.

وفي ظل هذا التفسير لمعنى الكرامة، ومعنى الولي نستبطن أسرار الجمال التعبيري في هذا الحديث الشريف، الذي يرشد إلى إضفاء صفة الكرامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه من أولياء الله تعالى، وكذلك عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، والشاهد على ذلك: أن الطعام لم ينقص رغم تعدد الآكلين، بل زاد وربا، وأصبحت القصعة أكثرَ منها قبل أن يأكلوا ... كما قالت "أم رومان" زوجة أبي بكر الصديق: وهي التي خاطبها بقوله: يا أخت بني فراس، ما هذا؟.

والحديث قصة واقعية حقيقية، لإثبات كرامات الأولياء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويقولون ويفعلون، ولا يدعون الولاية، ولا يخصون أنفسهم بشيء، ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذه القصة:

أ-الإخبار عن وقائع القصة عن طريق التأكيد حيث تكررت "أن" المؤكدة أربع مرات في بداية الحديث مرة في الحديث عن أصحاب الصُفّة الذين ظهرت الكرامة في إطعامهم، (إن أصحاب الصفة). ومرة في الحديث عن النبي ﷺ: وهو يوصي بإطعام الفقراء، وفي وصيته إيحاء بالكرامة والزيادة والبركة، حيث قال الراوي: "وأن النبي ﷺ قال مرة..." وفي الموضع الثالث يسوق خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيقول: "وأن أبا بكر جاء بثلاثة"، ثم يجيء التأكيد في موضع رابع ليؤكد صفة الكرامة

وأنها نابعة من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ومحبتهما حيث يقول الراوي في سياق سرد أحداث هذه القصة، "وأن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ".

ب- تكرار أسلوب الشرط مرتين للتأكيد على الإنفاق وإطعام الفقراء: لأن الإنفاق هو السبيل للنماء والخير والبركة، فما نقص مال من صدقة، حيث يقول رسول الله ﷺ: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس بسادس». وأسلوب الشرط يرشد إلى الجزاء الحسن في هذا السياق: حيث الطاعة والبركة والكرامة.

ج-الحوار بين أبي بكر وامرأته، وبين أبي بكر والضيوف: حول هذه الظاهرة العجيبة التي تثبت الكرامة، حيث حدث أمر خارق للعادة وهو زيادة الطعام وعدم نقصه رغم كثرة الآكلين: (قال في أسلوب القسم ليؤكد صدق الخبر، ووقوع الكرامة، "وأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا"، وهذه الكرامة هي ثمرة الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ في بداية الحديث، إلى إطعام أهل الصُّفَّة، وقد طعموا وشبعوا، وصارت القصعة أكثر مما كانت قبل ذلك، وتؤكد أم رومان رضي الله عنها هذه الكثرة... فتقول مؤكدة الخبر المصحوب بالبهجة والبشارة، "لا وقرة عيني: لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات" وتتضاعف الكرامة: فيأكل أبو بكر من هذا الطعام المبارك، ويحمل القصعة إلى رسول الله: فيأكل منها المصطفى ﷺ ومن معه من الناس، ويقول الراوي: الله أعلم كم مع كل رجل فأكلوا منها أجمعون، وقيل في الحديث، ما يقع من لطف الله تعالى بأوليائه، وذلك أن خاطر أبي بكر تَشَوَّشَ، وكذا ولده وأهله وضيفه بسبب امتناعهم من الأكل، وتكدر خاطر أبي بكر رضي الله عنه من ذلك حتى احتاج إلى ما تقدم من الحرج بالحلف والحنث ولغير ذلك فرفعه بالكرامة التي أبداها، فانقلب ذلك الكد صفاء، والتكدر سرورًا، وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[1]، اللهم اجعلنا من أوليائك وأصفيائك.

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل أهل الصفة.

ثانيًا: من صفات الداعية: الكرم والمواساة.

ثالثًا: من صفات الداعية: الكرم والسخاء.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب... والقسم.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة أبي بكر الصديق في تكثير الطعام.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أهل الصفة:

قد كان أهل الصفة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم ورعًا وتوكلاً على الله عز وجل وملازمة لخدمة الله ورسوله ﷺ اختار الله تعالى لهم ما اختاره لنبيه ﷺ، من المسكنة والفقر والتضرع لعبادة الله عز وجل وترك الدنيا لأهلها[١].

"وكان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم"[٢]. كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويقص عليهم ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته وذكر الله والتطلع إلى الآخرة ويشجعهم على احتقار الدنيا وعدم تمني الحصول على متاعها"[٣]، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها[٤]، وكثيرًا ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في بيته"[٥].

وهذا ما ورد جليًا في نص الحديث من قول الراوي "إن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء وأن النبي ﷺ قال مرة: "من كان عنده طعام اثنين، فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة، فليذهب بخامس بسادس" أو كما قال: وأن أبا بكر رضي الله عنه، جاء

---

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري، ٣/٥٥٣.

(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، ١/٣٧٥.

(٣) المرجع السابق ١/٣٤٠، ٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري ٦٢٤٦، ٦٤٥٢.

(٥) السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري، ١/٢٦٦.

بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة".

"وقد كان منشأ وجود أهل الصفة رضي الله عنهم، هو ما أعقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة، من ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين، الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فرارًا بدينهم من طغيان المشركين.

ولا شك أن بعض المهاجرين لم يستطيعوا العمل حال قدومهم إلى المدينة، لأن الطابع الزراعي يغلب على اقتصاد المدينة، وليست للمهاجرين خبرة زراعية فمجتمع مكة تجاري، كما أنهم لا يملكون أرضًا زراعية في المدينة وليست لديهم رءوس أموال فقد تركوا أموالهم بمكة. وقد وضع الأنصار إمكانياتهم في خدمة المهاجرين لكن بعض المهاجرين بقى محتاجًا إلى المأوى.

واستمر تدفق المهاجرين إلى المدينة خاصة قبل موقعة الخندق، حيث كان الكثير منهم يستقرون في المدينة كما طرقت الوفود الكثيرة المدينة، ومنهم من لم يكن على معرفة بأحد من أهل المدينة، فكان هؤلاء الغرباء بحاجة إلى مأوى دائم أو مدة إقامتهم.

ولا شك أن النبي ﷺ فكر في إيجاد المأوى للفقراء المقيمين والوفود الطارقين.

وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وذلك بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة، حيث بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة، ولم يكن لها ما يستر جوانبها"[1].

"وقد انقطع أهل الصفة للعلم والعبادة، فكانوا في خلوتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته ويذكرون الله تعالى، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي ﷺ مثل أبي هريرة رضي الله عنه الذي عرف بكثرة تحديثه، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي اهتم بأحاديث الفتن.

لكن انقطاع الصفة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة في أحداث المجتمع والإسهام في الجهاد، بل كان منهم الشهداء ببدر مثل صفوان بن بيضاء، وخريم بن

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة ومصادرها، د. أكرم ضياء العمري، ١/٢٥٧، ٢٥٨.

فاتك الأسدي وخبيب بن يساف وسالم بن عمير وحارثة بن النعمان الأنصاري، ومنهم من استشهد بأُحد مثل حنظلة الغسيل، ومنهم من شهد الحديبية مثل جرهد بن خويلد وأبو سريحة الغفاري، ومنهم من استشهد بخيبر مثل ثقف بن عمرو، ومنهم من استشهد بتبوك مثل عبدالله ذو البجادين، ومنهم من استشهد باليمامة مثل سالم مولى أبي حذيفة وزيد بن الخطاب، نعم هكذا كانوا رهبانًا في الليل فرسانًا في النهار"[1].

ثانيًا- من صفات الداعية: الإيثار والمواساة:

هذا ما أشار إليه الحديث من قوله ﷺ: "من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس بسادس"، قال النووي: "في الحديث فضيلة الإيثار والمواساة، وأنه إذا حضر ضِيفَانٌ كثيرون فينبغي للجماعة أن يتوزعوهم، ويأخذ كل واحد منهم ما يحتمله، وأنه ينبغي لكبير القوم أن يأمر أصحابه بذلك ويأخذ هو من يمكنه"[2]، والإيثار هو: "تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة والصبر على المشقة"[3].

أما المواساة للمؤمنين فأنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم.

وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة؛ فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت. وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له. ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد، وقد تجرد وهو ينتفض، فقالوا : ماهذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم فأحببت أن أواسيهم في بردهم"[4]. فالمواساة والإيثار من أهم

---

(١) انظر: المرجع السابق ١/٢٦٣، ٢٦٤

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٠٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/٢٦.

(٤) الفوائد، ابن القيم، ٢٤٦، ٢٤٧.

الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها الداعية لما لهما من أثر عظيم في تأليف قلوب المدعوين وحملهم على قبول دعوته..

ثالثًا- من صفات الداعية: الكرم والسخاء:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي: " وأن أبا بكر رضي الله عنه ، جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة"، قال النووي: "هذا مبين لما كان عليه النبي ﷺ من الأخذ بأفضل الأمور والسبق إلى السخاء والجود، فإن عيال النبي ﷺ كانوا قريبًا من عدد ضيفانه هذه الليلة فأتى بنصف طعامه أو نحوه، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بثلث طعامه أو أكثر، وأتى الباقون بدون ذلك"[1]، "وإن صفة الكرم والسخاء من الصفات التي لها أثر فعال في اجتذاب القلوب النافرة وتأليف النفوس المتباعدة،

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ ... وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا سَخَاؤُهُ

تَغَطَّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي ... أَرَى كُلَّ عَيْبٍ فَالسَّخَاءُ غِطَاؤُهُ

وقد بلغ رسول الله ﷺ المنتهى في الكرم والجود: "فعن جبير بن مطعم قال: بينما أسير مع رسول الله ﷺ، ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقت الناس يسألونه حتى اضطروا إلى سمرة -اسم شجرة- فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ فقال: "أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا"[2]، فإذا اتصف الداعية بهذه الصفة باذلاً من ماله ما استطاع مستعينًا بأهل الخير والبذل كان حريًا بالنجاح والتوفيق وقبول الناس له وتأثيره في نفوسهم واستمالة قلوبهم إليه"[3].

رابعًا- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب... والقسم:

قد ورد السؤال والجواب كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث من قول الراوي:

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٣٠٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٢١.

(٣) صفات الداعية الناجح، صالح محمد العليوي، ط١، دار القاسم، الرياض، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ص٧٠.

"قالت امرأته: ما حبسك عن أضيافك؟ قال: أو ما عشيتهم؟ قالت: أَبَوْا حتى تجيء"، وأيضًا من قول أبي بكر ﷺ لامرأته. "يا أخت بني فراس، ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني، فهى الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات"، وكذلك في قول الراوي: "فقالوا: أين رب المنزل؟ قال: اطعموا، وقوله: "فقال: ما صنعتم؟ فأخبروه" وأخيرًا في قول أبي بكر ﷺ، "ويلكم مالكم لاتقبلون عنا قِرَاكم؟ هاتِ طعامَك فجاء به" والسؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة في لفت انتباه المدعوين واستحضار أذهانهم فضلاً عن كونه أمرًا مهمًا جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك فيجب على حامل الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد إلى أقصى حد ممكن"[١].

أما القسم كأسلوب من أساليب الدعوة فقد ورد في الحديث من قول أبي بكر ﷺ: "والله لا أطعمه أبدًا" وأيضًا في قول الراوي: "فقال: " أي أبو بكر ﷺ إنما انتظرتموني والله لا أطعمه الليلة. فقال الآخرون: والله لا نطعمه حتى تطعمه"، "والقسم هو الحلف واليمين"[٢]، (وهو من الأساليب الدعوية التي يستعين بها الداعية لتأكيد خبر أو تعظيم شيء، أو جمع الانتباه حول غاية، فضلاً عن دوره في صناعة التأثير النفسي والعاطفي بواسطة المقسم به، والمقسم عليه وبهما معًا. الأمر الذي يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ويؤمن بها)[٣].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة أبي بكر الصديق في تكثير الطعام:

عندما أرسل الله نبيه ﷺ، اختصه برجال لم تشهد البشرية مثلهم، أقاموا الملة ونصروا السنة، وكان من خيرهم وأفضلهم أبو بكر ﷺ، فهو أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال، وأول الخلفاء الراشدين، وأول من جمع المصحف الشريف، وأول من أقام للناس حجهم في حياة رسول الله ﷺ وبعده، صحب النبي ﷺ قبل البعثة

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حنبكة، ٥٩/٢.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ج٣٨١/٢، مادة أقسم.

(٣) انظر: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، ٣٢٩-٣٤٣.

وسبق إلى الإيمان، فكان أول القوم إسلامًا وأكملهم إيمانًا، وأعظمهم عناءً، وأفضلهم مناقب، وأكثرهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأشبههم برسول الله ﷺ هديًا وخلقًا وسمتًا وفعلاً"[١].

قال ابن عثيمين: (فهو رضي الله عنه أفضل الصديقين منذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض من عليها)[٢].

وقد بين الحق تبارك وتعالى عظيم فضله رضي الله عنه وكرامته له في تكثير الطعام بين يديه، وهذا ما ورد في الحديث من قول الراوي: "قال: وايم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثرُ منها، حتى تشبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني لهى الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات"، وفي الرواية: "إنها الآن لأكثر منها قبل أن نأكل"، قال النووي: (هذا الحديث فيه كرامة ظاهرة لأبي بكر الصديق ﷺ، وفيه إثبات كرامات الأولياء)[٣]، وقال ابن حجر: (والحاصل أن الله أكرم أبا بكر رضي الله عنه فأزال ما حصل له من حرج، فعاد مسرورًا، وانفك الشيطان مدحورًا. واستعمل الصديق مكارم الأخلاق فحنَثَ نَفْسَه زيادة في إكرام ضيفانه ليحصل مقصوده من أكلهم)[٤]، وقد وقع في رواية الجرير عن مسلم أنه رضي الله عنه لما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: "يا رَسُولَ اللهِ بَرُّوا وَحَنِثْتُ. قَالَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: ((بَلْ أَنْتَ أَبَرُّهُمْ وَأَخْيَرُهُمْ))[٥]. قال النووي: (أي أكثرهم طاعة، وخير منهم، لأنك حنثت في يمينك حنثًا مندوبًا إليه محثوثًا عليه، فأنت أفضل منهم)[٦]. وفي ذلك بيان على فضله رضي الله عنه وكرامة الله له".

(١) الإصابة ٨٠٤، ٨٠٥، سير أعلام النبلاء ١/٢١٥-٢٢٠، عظماء حول الرسول، خالد عبدالرحمن العك، ١/٢٦٥-٢٨٩.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٥٧٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٣٠٣.

(٤) فتح الباري ٦/٦٩٣.

(٥) أخرجه مسلم ٢٠٥٧.

(٦) شرح صحيح مسلم ١٣٠٤.

الحديث رقم (١٥٠٦)

١٥٠٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لَقَدْ كَانَ فيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ (نَاسٌ)** [1] **مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ في أُمَّتِي أحدٌ فإنَّهُ عُمَرُ**)). رواه البخاري[2].

ورواه مسلم من رواية عائشة[3]. وفي روايتهما[4] قَالَ ابن وهب: ((**محَدَّثُونَ**)) أيْ مُلْهَمُونَ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

المحدثون: المُلْهَمُون: والمُلْهَم هو الذي يُلقى في نفسه الشيء فيُخبرْ به حَدْسًا وفِراسة، وهو نوع يَخْتَصُّ به الله عز وجل من يشاء من عباده الذين اصطفَى، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنهم حدثوا بشيء فقالوا.

الشرح الأدبي

هذا هو الحديث الثاني في باب كرامات الأولياء وفضلهم، والكرامات جمع كرامة، وهي إحدى الخوارق للعادات: وهي كما قال العلماء خمس: إرهاص، ومعجزة، وكرامة، ومعونة، ومهونة، فالإرهاص: الخارق للعادة المتقدم على تحدي النبي ودعواه النبوة، والمعجزة: الخارق للعادة المقرون بالتحدي الواقع على طِبق ما ادَّعاه مع سلامة الأمر من المعارضة فيه، والكرامة: الخارق للعادة لا على سبيل التحدي،

(١) (ناس) لا توجد عند البخاري. وهذه الزيادة عند الحميدي في جمعه (٨١/٣، رقم ٢٢٦١)، وبهذه الزيادة رواها أحمد في فضائل الصحابة (٥٣٠) بإسناد حسن.

(٢) برقم (٣٤٦٩).

(٣) برقم (٢٣٩٨/٢٣).

(٤) بل في رواية مسلم، عقب الحديث رقم (٢٣٩٨/٢٣)، ولم يروها البخاري.

والمعونة: خارق للعادة يبدو على يد بعض المؤمنين كإنقاذ من مهلكة، وتخليص من ورطة بوجه خارق للعادة، والمهونة خارق للعادة على خلاف دعوى المتحدي كما وقع لمسيلمة الكذاب أنه تفل في بئر ليكثر ماؤها فغار[١].

ولنتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث النبوي الشريف الذي يوضح ما منَّ الله به على الفاروق عمر رضي الله عنه من فراسة وفطانة وكرامة ومعونة وولاية: تؤيدها الأحداث، وتؤكدها الوقائع. وتبرهن عليها شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الذي تضمن جملتين، واللتين تشعان بهذا المضمون الصادق المنبئ عن فضل عمر رضي الله عنه وقيمته في الإسلام، والجملة الأولى إخبارية مُصَدَّرة بالتأكيد حيث جاء قوله: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون": واقتران "قد" باللام يشعر بالقسم: والتقدير والله لقد كان قبلكم: وذلك للتأكيد على صدق الخبر وأهميته.

ولنتأمل ما تضمنته كلمة "محدثون": من دلالات، وما تفيض به من إشعاعات، فالمحدَّثون جمع: مُحدَّث: بفتح الدال وتشديدها: وهو المُلْهَم، وجاء في أساس البلاغة للزمخشري قوله: وكان عمر رضي الله عنه مُحَدَّثًا أي صادق الحدْث، كأنما حدث بما ظن، والحدس: بالسين هو: الفراسة، وقيل: المحدث: هو الرجل الصادق الظن: وهو مَنْ أُلْقِي في رُوعِه شيء من قِبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره، وقيل: هو من يجري الصواب على لسانه من غير قصد.

وهذه الشمائل والخصائص كانت من مميزات شخصية عمر رضي الله عنه، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجملة الثانية من الحديث: "فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر"، والجملة صيغت في قالب الشرط والجواب، "وإن" هنا ليست للشك: ولكنها على سبيل الفرض والتقدير، وهذا من أدلة الإثبات لا النفي، ويؤيد ذلك المعنى ما أخرجه الترمذي بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه))[٢].

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ص١٥٥٩، ١٥٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي، ٣٦٨٢، وابن ماجه، ١٠٨، وصححه الألباني، انظر: (صحيح سنن الترمذي، ٢٩٠٨).

وجواب الشرط جاء مؤكدًا بـ"إن" لبيان صدق هذا الخبر، وتوضيح أفضلية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحذفت صفةُ أحدٌ والتقدير: أحد محدث: أو أحد مثل الأناس المحدثين وهم الأنبياء الملهمون. فإنه عمر رضي الله عنه، وكفاه هذا شرفًا وفخرًا... وكرامة ومعرفة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحديث.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: منقبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التحديث.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: التبشير.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التحديث:

هذا ما ورد في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون"، قال النووي: (واختلف تفسير العلماء للمراد بمحدثون فقال: ابن وهب ملهمون وقيل: مصيبون وإذا ظنوا فكأنهم حدثوا بشيء فظنوا وقيل: تكلمهم الملائكة وجاء في رواية: متكلمون وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم وفيه إثبات كرامات الأولياء)[1]. وقال ابن حجر: (وقوله صلى الله عليه وسلم: "محدَّثون" بفتح الدال جمع محدث، واختلف في تأويله فقيل: ملهم، قاله الأكثر. قالوا: المحدث بالفتح هو الرجل الصادق الظن وهو من ألقى في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدثه غيره به ...، وقيل من يجري الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل مكلم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة)[2].

وقال ابن هبيرة: (ومعنى قول ابن وهب: ملهمون، أن الله يلهمهم الصواب، وهذا تفسير حسن. وكان أبو عبدالله محمد بن يحيى يقول: المحدثون: هم الذين يمكنهم الصبر على حديث الناس، وعلى اختلاف أمورهم وضروب إراداتهم، فيكلمون العلماء بلسان العلم، والعامة بما يصلحهم، ونحو ذلك.

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٤٦٦.

(٢) فتح الباري ٦٢/٧.

والذي أراه أنا في هذا مع كون الوجهين محتملين أن الله سبحانه يكلم عبده، إما على لسان آدمي أو غيره، ولقد كنت مرة مستلقيًا أسأل الله عز وجل حاجة في صدري في الليل، فسمعت جوابها بأذني يعدني نجازها إلى ميقات، فكان كما وُعِدت، وإني سمعت القول بما صيغته: إنه ليس في هذا الشهر، ولكن في الشهر الآخر، فكان كما سمعت ولم يعلم ما في نفسي لا ملك ولا شيطان، إنما يعلمه الله عز وجل وحده[1].

وبين ابن القيم: (أن التحديث أخص من الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: "إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر" يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾[3]، وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[4]. فهذا كله وحي إلهام"[5].

وقال ابن القيم: "إن مرتبة التحديث من مراتب الهداية وهي دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما قال النبي ﷺ "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب".

وسمعت ابن تيمية يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلق وجودهم في هذه الأمة بإن الشرطية، مع أنها أفضل الأمم لاحتياج الأمم، قبلنا إليهم واستغناء هذه الأمة

---

(١) الإفصاح، ٢٠١/٦ بتصرف.

(٢) سورة القصص، آية: ٧.

(٣) سورة المائدة، آية: ١١١.

(٤) سورة النحل، آية: ٦٨.

(٥) مدارج السالكين ١١٠/١.

عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدّث ولا ملهم ولا صاحب كشف ولا منام فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدَّث هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يُحَدّث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث لأنه استغنى بكمال صديقيته. ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف فإنه قد سلّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عما منه[1].

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قَبِلَه وإلا رده فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالاتِ والجهالاتِ، حدثني قلبي عن ربي فصحيح أن قلبه حدثه ولكن عن من؟ عن شيطانه أو عن ربه؟ فإذا قال حدثني قلبي عن ربي، كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب، قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ولا تفوّه به يوما من الدهر وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك بل كتب كاتبه يومًا (هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب فقال: لا. امحه واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريء) وقال في الكلالة (أقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله. وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان) فهذا قول المحدَّث بشهادة الرسول وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح، والسماعي مجاهر بالقِحَة والفرية. يقول: حدثني قلبي عن ربي، فانظر إلى ما بين القائِلَيْن والمرتبَتيْن والقَوْلَيْن والحالين. وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل الخالص شيئًا واحدًا"[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: منقبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التحديث:

لقد كان التحديث بما يوافق الحق من أجلّ مناقب عمر رضي الله عنه وفضائله، وهذا ما

---

(١) قال محقق المدارج عبدالعزيز الجليل: إن المقصود: فاستغنى بكمال صديقته ومتابعته للرسول ﷺ عن الذي يأتي من التحديث، مدارج السالكين، ١/١٠٢)

(٢) مدارج السالكين ١/١٠١-١٠٣.

أكده نص الحديث في قوله ﷺ : "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر"، قال ابن عثيمين رحمه الله : "يعني: ملهمون للصواب، يقولون قولاً فيكون موافقًا للحق وهذا من كرامة الله للعبد أن الإنسان إذا قال قولاً، أو أفتى بفتوى، أو حكم بحكم، تبين له بعد ذلك أنه مطابق للحق، فعمر رضي الله عنه من أشد الناس توفيقًا للحق"[١]، وهذا ما أكده ابن عمر رضي الله عنه في قوله: "ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن"[٢]، "وعن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه : "وافقت ربي في ثلاث: فقلت يارسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى"، وآية الحجاب، قلت يارسول الله: لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت هذه الآية"[٣].

قال ابن حجر: (في قوله: "وافقت ربي في ثلاث" أى وقائع، والمعنى وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، لكن لرعاية الأدب، أسند الموافقة إلى نفسه وأشار به إلى حدوث رأيه وقدم الحكم، وليس في تخصيص العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها، لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه من مشهورها، "قصة أساري بدر"، "وقصة الصلاة على المنافقين"، وهما في الصحيح...)[٤].

وفي بيان ذلك قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : ((فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : مَا تَرَى؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! قُلْتُ: لاَ. وَاللّهِ يَا رَسُولَ

(١) شرح رياض الصالحين ١٥٧٩/٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٦٦.

(٣) أخرجه البخاري ٤٠٢.

(٤) فتح الباري ٦٠٢/١.

اللّهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ (نَسِيبًا لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ. لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللّهِ) وَأَنْزَلَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[1]، فَأَحَلَّ اللّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ))[2].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قوله: فَضَلَ النَّاسَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، بِأَرْبَعٍ: ثم ذكر من ذلك – قول: "بِذِكْرِ الأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ، أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللّهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]"[4].

وفي بيان موافقته رضي الله عنه لما نزل من القرآن في منع الصلاة على المنافقين قال ابن عمر رضي الله عنهما: ((لما توفي عبدالله بن أبيّ بن سلول جاء ابنهُ عبدالله بنُ عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيّرني الله وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[5]، وسأزيد على السبعين)). قال: إنه منافق. فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٦٧-٦٩.

(٢) أخرجه مسلم، ١٧٦٣. جزء من حديث مطول.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٨.

(٤) أخرجه أحمد ٤٥٦/١ رقم ٤٣٦٢، وقال محققو المسند، حسن لغيره ٢٧٢/٧.

(٥) سورة التوبة، آية: ٨٠.

الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[١]))[٢].

قال النووي: (وجاءت موافقته في تحريم الخمر فهذه ست وليس في لفظه ما ينفي زيادة الموافقة والله أعلم)[٣].

وقال ابن حجر: (وهذا دال على كثرة موافقته، وأكثر ما وقفنا منها بالتعيين على خمسة عشر لكن ذلك بحسب المنقول)[٤].

وفي ذلك بيان على عظيم فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومنقبته في التحديث.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: التبشير:

هذا ما ورد في الحديث من تبشيره صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه من المحدّثين: (والبشارة: هى كل خبرٍ صدقٍ تتغير به بشرةُ الوجه، ويستعمل في الخير والشر، وفي الخير أغلب)[٥]، (وقد وردت البشارة في القرآن على اثني عشر وجهًا لاثني عشر قومًا باثني عشرة كرامة، منها بشارة المستقيمين بثبات الولاية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦]،[٧]، وقد أُمِر النبي صلى الله عليه وسلم بالبشارة، "فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذًا إلى اليمن، فقال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا)[٨]، والبشارة من الأساليب الدعوية التي تبعث في نفس المدعو البهجة وتجلب إليه الطمأنينة فيحمله ذلك على حب الأمر المدعو إليه وسرعة الامتثال له.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٨٤.

(٢) أخرجه البخاري، ١٢٦٩، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢، ٥٧٩٦، ومسلم، ٢٤٠٠.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٤٦٦.

(٤) فتح الباري ٦٠٢/١.

(٥) التعريفات، الجرجاني، ٧١.

(٦) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٧) موسوعة نضرة النعيم ٧٨٠/٣.

(٨) أخرجه البخاري ٣٠٢٨، ومسلم ١٧٣٣.

الحديث رقم (١٥٠٧)

١٥٠٧- وعن جابر بنِ سُمْرَةَ رضي الله عنهما، قَالَ: شَكَا أهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا (يعني: ابنَ أَبي وقاص رضي الله عنه)[1]، إلَى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فَعزَلَهُ، واستَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عمَّارًا، فَشَكَوا حَتَّى ذَكَرُوا أنَّهُ لا يُحْسِنُ يُصلِّي، فَأَرْسَلَ إليْهِ، فقَالَ: يَا أَبَا إسْحَاقَ، إنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعَمُونَ أنَّكَ لا تُحْسِنُ تُصَلِّي، فقَالَ: أمَّا أنا واللهِ فإنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بهِمْ صَلاَةَ رسولِ الله ﷺ، لا أُخْرِمُ عَنْها، أُصَلِّي صَلاَةَ العِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ، وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ.

قَالَ: ذَلِكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إسْحَاقَ، وأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلاً - أَوْ رِجَالاً - إلَى الكُوفَةِ يَسْأَلُ عَنْهُ أهْلَ الكُوفَةِ، فَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إلاَّ سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، يُقالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، يُكَنَّى أَبَا سَعْدَةَ، فَقَالَ: أمَا إذْ نَشَدْتَنَا فَإنَّ سَعْدًا كَانَ لا يَسِيرُ بالسَّرِيَّةِ ولاَ يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ.

قَالَ سَعْدٌ: أمَا وَاللهِ لأَدْعُونَّ بِثَلاَثٍ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً، وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمُرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ لِلْفِتَنِ. وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ.

قَالَ عَبدُ الملكِ (بن عُمَيْرٍ الراوي عن جابرِ بنِ سَمُرَةَ)[2]: فَأَنا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وإنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوارِي فِي الطُّرُقِ فَيَغْمِزُهُنَّ. متفق عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

جابر بن سمرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٤٨).

غريب الألفاظ:

لا أخرم عنها: لا أنقص منها[4].

---

(١) هذه الزيادة من المؤلف.

(٢) هذه الزيادة من المؤلف.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٥) واللفظ له، ومسلم (٤٥٣/١٥٨) مختصرًا.

(٤) فتح الباري ٢٧٨/٢.

صلاتي العشاء: الظهر والعصر، وقيل المغرب والعشاء[١].

فأركد في الأولين: أطول القراءة في الركعتين الأوليين، أو أن المراد بالتطويل ما هو أعم من القراءة كالركوع والسجود[٢].

معروفًا: المعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع والمعروف بمعنى النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم[٣].

نشدتنا: سألتنا وأقسمت علينا[٤].

السَّرِيَّةُ: طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو وجمعها السرايا[٥].

السوية: العدل والنصفة[٦].

السمعة: ما نُوِّه بذكره ليُرى ويسمع[٧].

فيغمزهنَّ: من الغمز ومن معانيه الإشارة كالرمز بالعين، أو الحاجب أو اليد[٨].

الشرح الأدبي

هذا الحديث تموج معانيه بكرامة: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وفضله، واستجابة الله تعالى لدعوته: حيث تحققت كل الدعوات التي دعا بها على الرجل إن كان كاذبًا في التهم التي وجهها إلى سعد رضي الله عنه.

ويبدأ الحديث بحوار بين عمر بن الخطاب وسعد بين أبي وقاص رضي الله عنهما حول حقيقة التهم التي وجهها أهل الكوفة إليه، والحوار يتضمن عدة ظواهر أسلوبية تنبئ عن

---

(١) انظر: فتح الباري ٢/٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) انظر: فتح الباري ٢/٢٧٩.

(٣) انظر: النهاية في (ع ر ف).

(٤) انظر: النهاية في (ن ش د).

(٥) النهاية في (س ر ي)، فتح الباري ٢/٢٨٠.

(٦) المعجم الوسيط في (س و ي).

(٧) القاموس المحيط في (س م ع).

(٨) ينظر النهاية في (غ م ز).

كياسة ابن الخطاب، وحدْسه وفراسته في الوصول إلى الحقيقة، ومن هذه الظواهر الأسلوبية:

أ- النداء في قول عمر ﷺ: يا أبا إسحاق: وهو للملاطفة: وعدم الغلظة، وعدم تصديق الاتهام بأنه لا يحسن أن يصلي.

ب- التأكيد المشوب بالشك في صيغة الخبر المسوق لسعد، وجاء التأكيد مرتين حيث قال عمر ﷺ: إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فالتأكيد في بداية الجملة بـ"إن"، وفي وسطها بـ"أن"، ولكن هذا التأكيد لا يدل على صدق الخبر، لأن اختيار الفعل "يزعمون"، يوحي بأن عمر ﷺ غير مصدق لما يقولون: ولم يقل: إن هؤلاء: يقولون: ولكن قال: يزعمون وقوله: هؤلاء: يشعر بعدم الاهتمام: ولم يقل: أهل الكوفة: لأن الذين ادعوا ذلك قلة قليلة وهم بنو عبس أو رجل منهم وهو أسامة بن قتادة.

ج- إجابة سعد: تتضمن تفصيل القول وتوضيح المشكلة، وبيان الحقيقة: فالتفصيل يتضح في قوله: "أما" وهي تتضمن الشرط والتفصيل والتأكيد، وقوله: "أنا"، يحدد المسؤولية، ويوحي بنفي التهمة، ثم القسم والتأكيد في قوله: "أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ" ليصبح الأمر أكثر صدقًا ووضوحًا، ولذلك أيده عمر وقال: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، واسم الإشارة هنا للبعيد يوحي بالتقدير والمكانة الرفيعة، والنداء فيه إعلاء من شأن: سعد، ونفي التهمة عنه.

ولنتأمل المشهد الثاني من مشاهد هذا الحديث الواقعي الذي يحكي عدْل عمر، وتقصيه للحقيقة، حيث أرسل من يسأل أهل الكوفة ليزداد اقتناع الناس بصواب موقف سعد بن أبي وقاص، وجاء في سياق هذا المشهد هذه الظواهر الأسلوبية:

أ- أسلوب القصر في قوله: فلم يدع مسجدًا إلا سأل عنه، "ويثنون معروفًا": وهذا الأسلوب يؤكد صواب موقف عمر، وصدق كلام ابن أبي وقاص.

ب- ادعاء أسامة بن قتادة، وإنكاره لفضل سعد صِيغَ في ثلاث جمل متوازية تتسم بالسجع والقصر، والإيقاع السريع، وقد بدأها بالتأكيد: ولكنها تُهَمٌ غير صحيحة، وبرغم ذلك ساقها في قالب إيقاعي، وتأثير صوتي حتى يضمن تصديق رسل الخليفة،

ولكنهم لم يصدقوه، وموقف سعد من هذه التهم يظهر كرامته وولايته حيث جاء في صيغة هذا الدعاء الصادق: "اللهم" وبدأ بالنداء، وبجملة الشرط، واسم الإشارة هذا لتحديد كذب هذا العبد، وجواب الشروط جاء في ثلاث جمل قصيرة ذات إيقاع صوتي مؤثر وسجع بليغ غير متكلف: فأطل عمره، وأطل فقره، وقد حدث ذلك ولقي الكاذب جزاءه حسرةً وندمًا.

فقه الحديث

١- حكم الغصب: اتفق الفقهاء على تحريم الغصب وتغليظ عقوبته[١].

٢- حكم غصب الأرض: ذهب جمهور الفقهاء المالكية، والشافعية، والحنابلة وأبو يوسف في قول، ومحمد بن الحنفية إلى القول بإمكان غصب الأرض[٢]. واستدلوا على ذلك بحديث الباب، وبأن ما ضمن في البيع وجب ضمانه في الغصب كالمنقول، ولأن الأرض يمكن الاستيلاء عليها على وجه يحول بينها وبين مالكها[٣].

وذهب أبو حنيفة وأبو محمد وأبو يوسف في قول إلى عدم إمكان غصب الأرض لأن من شروط الغصب أن يكون المغصوب منقولاً، والأرض ليست منقولاً[٤].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء، لأن العبرة في الغصب هو عدم تمكين المالك من الانتفاع بملكه وهو متحقق في العقار والمنقول.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

---

(١) بدائع الصنائع ١٤٨/٧، مواهب الجليل ٢٧٣/٥، مغني المحتاج ٣٣٤/٣-٣٣٥، المغني ١٣٩/٥، شرح صحيح مسلم ٤٩/١١.

(٢) بداية المجتهد ٢٥٨/٢، مغني المحتاج ٣٥٨/٣، المغني ١٤٠/٥، بدائع الصنائع ١٤٥/٧-١٤٦، شرح صحيح مسلم ٤٩/١١.

(٣) المغني ١٤١/٥.

(٤) بدائع الصنائع ١٤٥/٧-١٤٦.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل ومكانة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على التثبت والتحقق في الأمور التي يتهم فيها المسلمون.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على اتباع هدى النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: مراعاة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للعدل والإنصاف في الدعاء على من أغضبه وافترى عليه.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: كرامة الله تعالى لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إجابة الدعاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الحوار:

قد ورد الحوار كأسلوب من أساليب الدعوة في الحديث من قول الراوي "فقال -أي عمر بن الخطاب رضي الله عنه-: "يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي، فقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أخرم عنها".

(والحوار هو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب)[1].

(وقد دعا الإسلام إلى الحوار لا بين المسلمين فقط، بل دعا للحوار بينهم وبين غيرهم من الأجناس الأخرى، وحثهم على آداب الحوار، هذا الأمر أحد العوامل المهمة في انتشار الإسلام سواء في بداية عهده بل حتى في عصرنا الحاضر. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2])[3].

---

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في أصول الحوار، الرياض: الندوة العالمية، ١٤١٥هـ، ص١١.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

(٣) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد المغامسي، ص٣.

(والحوار المثمر يتم وفق أصول حتى يعطي الفائدة المنشودة منه، ومن هذه الأصول ضبط النفس، والاتفاق على أصول ثابتة يمكن الرجوع إليها والتزام القول الحسن وحسن الاستماع، وتجنب المقاطعة، وإشعار المحاور بالمحبة رغم الخلاف وعدم السخرية وإنهاء الحوار بأدب ولباقة)[١].

ومن هنا كان الحوار "هو القوى الكبرى في فن العلاقات الإنسانية... إنه المنهج الوحيد الذي تتحقق به المواجهة المباشرة بين القلوب والعقول، ولما كانت القلوب والعقول خاضعة للفطر السليمة من ناحية، وللتعاليم المنحرفة التي تطرأ عليها من ناحية أخرى، فقد وجب أن تكون الغلبة في النهاية للحوار الذي يستتير بهذه الفطرة السليمة، فلا تعود هناك أى حاجة إلى أساليب التخويف، والضغط المادي، والإثارة الوقتية التي تحدث أثارًا عابرة في النفوس، تذهب بذهاب العصر الذي ظهرت فيه"[٢]. فعلى الداعية أن يحرص على الأخذ بأسلوب الحوار لما له من وقع في نفوس المدعوين فضلاً عن إقناعهم. وفي ذلك عظيم الفائدة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة:

قد ورد ذلك في الحديث، من عزل عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص، وتولية عمارًا رضي الله عنهما بعد أن شكى أهل الكوفة سعدًا، قال ابن حجر: (وفي الحديث جواز عزل الإمام بعض عماله إذا اشْتُكِيَ إليه وإن لم يثبت عليه شيء إذا اقتضت ذلك المصلحة، قال مالك: قد عزل عمر سعدًا وهو أعدل من يأتي بعده إلى يوم القيامة ... والذي يظهر أن عمر عزله حسمًا لمادة الفتنة...، وقيل عزله إيثارًا لقربه منه لكونه من أهل الشورى، وقيل؛ لأن مذهب عمر أنه لا يستمر بالعامل أكثر من أربع سنين)[٣]. وقال

---

(١) انظر: المرجع السابق بتوسع ١٦٠-١٩٠.

(٢) عن مقال "السياسة الإعلامية في القرآن بين التاريخ والمعاصرة" للأستاذ محمد رمضان لاوند في كتاب (الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية)، ص ٢٤٢.، منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٣٩٩هـ، نقلًا عن الدعوة الإسلامية الوسائل والأساليب، محمد خير رمضان، ص ١١٥.

(٣) فتح الباري ٢/ ٢٨١.

الزرقا: (في أن التصرف على الرعية منوط بالمصلحة، أي: إن نفاذ تصرف الراعي على الرعية ولزومه عليهم شاءوا أو أَبَوْا معلقٌ، ومتوقف على وجود الثمرة والمنفعة في ضمن تصرفه، دينية كانت أو دنيوية، فإن تضمن منفعة ما وجب عليهم تنفيذه، وإلا رد؛ لأن الراعي ناظر، وتصرفه حينئذ متردد بين الضرر والعبث، وكلاهما ليس من النظر في شيء)[١]، وفي ذلك بيان على أن تصرف الإمام في الرعية منوط بالمصلحة وهذا ما أظهره ابن حجر عن مالك.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل ومكانة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

هذا ما يستفاد من نص الحديث وسياقه وفي بيان عظيم فضله رضي الله عنه ومكانته، قال عبدالله بن شداد "سمعت عليا يقول: ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه لأحد، غير سعد بن مالك، فإنه جعل يقول له: يوم أحد ((ارْمِ. فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))[٢]، وعن قيس قال: ((سمعت سعدًا رضي الله عنه يقول: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعيرُ أو الشاةُ، ما له خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرني على الإسلام؟ لقد خِبْتُ إذًا وضل عملي. وكانوا وشوا به إلى عمر، قالوا: لا يحسن يصلي))[٣]. وقال سعيد بن المسيب. "سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام، وإني لثلث الإسلام"[٤]، وأما ما ورد في الحديث من عزل عمر رضي الله عنه له لم يكن ليقدح في فضله رضي الله عنه ومكانته، وهذا ما بينه عمر رضي الله عنه حين وفاته، فقال: "ما أجد أحدًا أحق بهذا الأمر، - أى الخلافة- من هؤلاء النفر، أو الرهط، الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راض، فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا و عبدالرحمن، وقال: يُشْهَدُكم عبدالله بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت

---

(١) شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمد الزرقا، ط٢، دار القلم –دمشق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ٣٠٩، والأشباه والنظائر للسيوطي، ص ١٢٢.

(٢) أخرجه مسلم ٢٤١١.

(٣) أخرجه البخاري ٣٧٢٨.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٢٧.

الإمرة سعدًا فهو ذاك، إلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة"[١]. وهذا ما بينه ابن حجر في " قول مالك: قد عزل عمر سعدًا وهو أعدل من يأتي بعده إلى يوم القيامة... والذي يظهر أن عمر عزله حسمًا لماده الفتنة...، وقيل عزله إيثارًا لقربه منه لكونه من أهل الشورى، وقيل لأن مذهب عمر لا يستمر بالعامل أكثر من أربع سنين"[٢]، وفي ذلك بيان على عظيم فضل ومكانة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على التثبت والتحقق في الأمور التي يتهم فيها المسلمون:

هذا ما ورد في الحديث من تثبت عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما ورد من شكاية أهل الكوفة لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وذلك بإرساله رجالاً إلى أهل الكوفة يسألونهم عن سعد وسيرته، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بالحرص على التثبت والتحقق في الأمور التي يتهم فيها المسلمون فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[٣]، قال ابن كثير: (يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله، فيكون -في نفس الأمر- كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين)[٤]، وقال ابن القيم "والنبأ" هو خبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن و "التبين" طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علمًا"[٥]، فعلى المدعو أن يستجيب لأمر الله في التثبت والتحقق في الأمور التي يتهم فيها المسلمون.

خامسًا- من موضوعات المدعو: حرص الصحابة رضي الله عنهم على اتباع هدى النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة:

هذا ما أشار إليه الحديث من قول سعد رضي الله عنه "أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٠٠.

(٢) فتح الباري ٢/ ٢٨١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٧٠.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٦٢٧.

صلاة رسول الله ﷺ، لا أخرم عنها، أصلي صلاتي العشاء، فأركد في الأولين، وأخفف في الآخريين، قال ابن حجر في قوله : "ما أخرم" أى لا أنقص"[١]، وقال النووي: (في قوله "إني لأركد بهم في الأولين" يعني أطولهما وأديمهما وأمدهما"، وقوله: وأخفف في الآخريين"، وفي رواية مسلم: "وأحذف في الآخريين"[٢]، يعني أقصرهما عن الأولين لا أنه يخله بالقراءة ويحذفها كلها)[٣].

قال ابن القيم: "وكان هديه ﷺ الراتب في ذلك إطالة الركعتين الأوليين من الرباعية على الأخريين، وإطالة الأولى من الأوليين على الثانية، ولهذا قال سعد لعمر: أما أنا فأطيل في الأوليين، وأحذف في الآخريين، ولا آلُو أن أقتدي بصلاة رسول الله ﷺ"[٤].

وفي ذكر التثنية في قوله أصلي صلاتي العشاء، قال ابن حجر: "والمراد بهما الظهر والعصر ولا يبعد أن تقع التثنية في الممدود ويراد بهما المغرب والعشاء، ولكن يعكر عليه قوله للآخريين لأن المغرب إنما لها أخرى واحدة والله أعلم، وأبدى الكرماني لتخصيص العشاء بالذكر حكمة، وهو أنه لما أتقن فعل هذه الصلاة التي وقتها الاستراحة كان ذلك في غيرها بطريق الأولى وهو حسن، ويقال مثله في الظهر والعصر لأنهما وقت الاشتغال بالقائلة والمعاش. والأولى أن يقال: لعل شكواهم كانت في هاتين الصلاتين خاصة فلذلك خصها بالذكر"[٥]. وفي ذلك بيان على حرص الصحابة رضي الله عنهم على اتباع هدي النبي ﷺ في الصلاة.

سادسًا- من موضوعات الدعوة: مراعاة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للعدل والإنصاف في الدعاء على من أغضبه وافترى عليه:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي: "فقام رجل منهم، يقال له: أسامة بن قتادة

(١) فتح الباري ٢/٢٧٨.

(٢) أخرجه مسلم ٤٥٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ٤٥٣.

(٤) زاد المعاد ١/٢٥٠.

(٥) فتح الباري ٢/٢٧٨-٢٧٩.

يكنى "أبا سعدة"، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسَّريَّة، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا، قام رياء، وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن"، قال ابن حجر: (قوله "لا يسير بالسرية" الباء للمصاحبة والسرية بفتح المهملة وكسر الراء المخففة قطعة من الجيش، ويحتمل أن يكون صفة لمحذوف أي لا يسير بالطريقة السرية أي العادلة، والأول أولى لقوله بعد ذلك "ولا يعدل". والأصل عدم التكرار، والتأسيس أولى من التأكيد. ويؤيده رواية جرير وسفيان بلفظ "ولا ينفر في السرية)[1]. وفي بيان عدل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وإنصافه في الدعاء على من أغضبه، قال ابن حجر في قوله: " (لأدعون بثلاث) أي عليك، والحكمة في ذلك أنه نفى عنه الفضائل الثلاث وهي الشجاعة حيث قال "لا ينفر" والعفة حيث قال "لا يقسم" والحكمة حيث قال " لا يعدل " فهذه الثلاثة تتعلق بالنفس والمال والدين، فقابلها بمثلها: فطول العمر يتعلق بالنفس، وطول الفقر يتعلق بالمال، والوقوع في الفتن يتعلق بالدين، ولما كان في الاثنتين الأوليين ما يمكن الاعتذار عنه دون الثالثة قابلهما بأمرين دنيويين والثالثة بأمر ديني، وبيان ذلك أن قوله " لا ينفر بالسرية " يمكن أن يكون حقًا لكن رأى المصلحة في إقامته ليرتب مصالح من يغزو ومن يقيم، أو كان له عذر كما وقع وهو في القادسية وقوله " لا يقسم بالسوية " يمكن أن يكون حقًا فإن للإمام تفضيل أهل الغناء "أى أهل النفع والكفاية"[2] في الحرب، والقيام بالمصالح، وقوله "لا يعدل في القضية " هو أشدها لأنه سلب عنه العدل مطلقا وذلك قدح في الدين، ومن أعجب العجب أن سعدا مع كون هذا الرجل واجهه بهذا وأغضبه، حتى دعا عليه في حال غضبه، راعى العدل والإنصاف في الدعاء عليه، إذ علقه بشرط أن يكون كاذبا، وأن يكون الحامل له على ذلك الغرض الدنيوي"[3].

---

(١) فتح الباري ٢/٢٨٠.

(٢) المعجم الوسيط ٦٦٥.

(٣) فتح الباري ٢/٢٨٠.

وهذا ما أمر الحق تبارك وتعالى به، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(١). قال ابن كثير: (أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا؛ ولهذا قال: "اعدلوا هو أقرب للتقوى" أى: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه)(٢).

سابعًا- من موضوعات الدعوة: كرامة الله تعالى لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إجابة الدعاء:

هذا ما ورد في الحديث من قول سعد رضي الله عنه: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا، قام رياء، وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن. قال الراوي: وكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد. قال عبدالملك بن عمير الراوي عن جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن"، وقد كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مستجاب الدعوة، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: "اللهم استجب لسعد إذا دعاك"(٣). قال ابن عثيمين: (فأجاب الله دعاءه، فكان هذا الرجل طويل العمر حتى إن حاجبيه سقطت على عينيه من الكبر، وكان فقيرًا، وعرض للفتن، حتى وهو في هذه الحال وهو كبير إلى هذا الحد كان يتعرض للجواري...، وكان يقول: شيخ مفتون كبير أصابتني دعوة سعد، فهذه من الكرامات التي أكرم الله بها سعد بن أبي وقاص)(٤).

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦٢/٣.

(٣) أخرجه الترمذي، ٣٧٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥٠).

(٤) شرح رياض الصالحين ١٥٨٢/٢.

الحديث رقم (١٥٠٨)

١٥٠٨- وعن عروة بن الزبير: أنَّ سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيلٍ ﷺ، خَاصَمَتْهُ أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ[١] إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، وادَّعَتْ أنَّهُ أخَذَ شَيْئًا مِنْ أرْضِهَا، فَقَالَ سعيدٌ: أنا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أرْضِهَا شَيئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رسول الله ﷺ؟! قَالَ: مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((مَنْ أخَذَ شِبْرًا مِنَ الأرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أرْضِينَ)) فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لا أسْألُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ سعيد: اللَّهُمَّ إنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، فَأَعْمِ بَصَرَها، وَاقْتُلْهَا فِي أرْضِها، قَالَ: فَما ماتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، وَبَيْنَما هِيَ تَمْشِي فِي أرْضِهَا إذ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَماتَتْ. متفق عَلَيْهِ[٢].

وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ[٣] عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عُمَرَ بِمَعْنَاهُ، وأنه رآها عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الجُدُرَ تقولُ: أصابَتْنِي دَعْوَةُ سَعيدٍ، وأنَّها مَرَّتْ عَلَى بئرٍ في الدَّارِ الَّتي خَاصَمَتْهُ فِيهَا، فَوَقَعَتْ فِيهَا، وكَانتْ قَبْرَها.

ترجمة الراوي:

سعيد بن زيد بن عمرو: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٥٨).

غريب الألفاظ:

شبرًا: وهو ما بين رأس الخنصر والإبهام من كف مفتوح[٤].

طوقه إلى سبع أرضين: أي يخسف الله به الأرض فتصير البقعة المغصوبة منها في عنقه كالطوق[٥].

---

(١) عند مسلم: (أُويس) بدل: (أوس) قال ابن علان في دليل الفالحين (٣٢٢/٤): (أوس) بفتح، فسكون آخره سين مهملة، ورأيته بخط الحافظ ابن سيّد الناس في مؤلفه: (المقامات العليّة): أُوَيْس بالتصغير. وسماها الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٩٥/٦) مرة: (أروى بنت أنيس)، وفي (١٠٤/٥) مرّة أخرى: أروى بنت أويس.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٣٨/١٦١٠) واللفظ له.

(٣) برقم (١٣٨/١٦١٠).

(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء ٢٢٨.

(٥) النهاية ٥٧٠.

البَيِّنةُ: الحجة الواضحةُ[١].

تلتمس الجدُرَ: تدور حول الجُدُر -جمع جدار- وتمسكها[٢].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء في هذا الحديث الشريف نجده يموج بكثير من الظواهر الأسلوبية والفنية، والحديث في صياغته الكلية، محاورة أو مخاصمة بين سعيد بن زيد وأروى بنت أوس، حيث خاصمته إلى مروان بن الحكم، الخليفة الأموي، في العهد الثاني للدولة الأموية، وكانت الشكوى إليه وهو أمير على المدينة المنورة، ولنتأمل قول الراوي: "خاصمته" وادعت أنه أخذ شيئًا من أرضها، فقوله: "خاصمته" يفيد بأنها هي التي بدأت بالخصومة، وقوله: "وادَّعت" يوحي بعدم صدق دعواها، ولكنها أكدت هذه الدعوى الكاذبة في قول الراوي حكاية عنها أنه أخذ شيئًا من أرضها، ويأتي رد سعيد نافيًا هذه الدعوى، ولكن ليس في صيغة النفي المباشر، حيث صاغ قوله في أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يستبعد حصول هذا الفعل منه، حيث قال: "أنا آخذ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ"، وفي الحديث بلاغة الحذف للإيجاز، حيث حذف معمول "سمعت"، وقيل: أبهمه للتشوق إليه فيسأل عنه فيذكره عن طلب فيكون أقر عند السامع، ولذلك سأله الأمير مروان بن الحكم، مبتدئًا الحوار المقنع الجميل: "ماذا سمعت من رسول الله ﷺ" وهذا استفهام حقيقي للوصول إلى الحقيقة، والوصول إلى الحكم الصائب في الفصل بين المتخاصمين.

ويصاغ قول رسول الله ﷺ في صيغة، الشرط والجواب، للإفادة بأنه لابد من الثواب أو العقاب على كل ما يقدمه الإنسان من خير أو شر، وجاء حديث رسول الله ﷺ مناسبًا للمقام، وبرهانًا على صدق كلام سعيد بن زيد رضي الله عنه، وكذب دعوى أروى بنت أوس، ولنتأمل هذا البيان النبوي الكريم، "من أخذ شبرًا من الأرض

---

(١) الوسيط في (ب ي ن).

(٢) مرقاة المفاتيح ١٠/٢٩٣.

ظلمًا طوقه إلى سبع أرضين"، وقوله: "شبرًا من الأرض" كناية عن منتهى القلة في المأخوذ، وقوله: "ظلمًا"، يحتمل أن يكون حالاً، أي حال كونه ظالمًا، ويمكن أن يكون تمييزًا أي بجهة الظلم.

وبناء الفعل للمفعول، في قوله: طُوِّقَه: للعلم بالفاعل وهو الله سبحانه وتعالى.

ويتوج الحوار ببراءة سعيد بن زيد رضي الله عنه حيث قال له مروان، لا أسألك بينة بعد هذا؟؟.

وصيغة الدعاء التي توجه بها سعيد بن زيد رضي الله عنه مناجيًا ربه، وشاكيًا إليه أمر هذه المرأة، أظهرت كرامته وولايته، حيث استجاب الله تعالى لدعائه، حين نادى ربه: "اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها"، وقيل: أتى بـ"إن" الشرطية وهي للشك، مع أنه يعرف أنها كاذبة، لاحتمال صدقها في نفس الأمر بأن دخل بعض أرضها في أرضه غفلة أو فعله بعض الخدم من غير علم به.

ودعا عليها بالعمى وقتلها في أرضها، واستجاب الله تعالى له كرامةً ومعونةً، وفضلاً وإنصافًا لأنه اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمسك بالتوجيه النبوي الراشد، فما ماتت المرأة حتى ذهب بصرها، وقالت معترفة بذنبها: "أصابتني دعوة سعيد، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت"، ولذلك صارت حكايتها مثلاً من أمثال العرب: فيقولون إذا دَعُوا: كعمى أروى، وكان أهل المدينة يقولون: عماه الله تعالى كعمى أروى، يريدون هذه القصة الواقعية، التي تبين كرامة أولياء الله تعالى وأحباب رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحدد العقاب الذي يلحق بكل من يتهم المسلمين ويتجنى عليهم ويجحد فضلهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من الادعاء والافتراء على المؤمنين.

ثانيًا: من مصادر الدعوة: السنة النبوية.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب والتحذير من الظلم.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة سعيد بن زيد رضي الله عنه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من الادعاء والافتراء على المؤمنين:

هذا ما يستفاد في الحديث من قول الراوي إن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم، وادعت أنه أخذ شيئًا من أرضها. "والافتراء: هو العظيم من الكذب، ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يصح أن يكون، وهذا أعم مما لا يجوز أن يقال وما لا يجوز أن يفعل. وإذا كان بحضرة المقول فيه: سمي بهتانًا"[1]. وقال ابن حجر: (قال ابن بطال: الافتراء الكذب العظيم الذي يتعجب منه)[2]، وقد توعد الحق تبارك وتعالى لمن انتهج ذلك فقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[3]، وقد ذم النبي ﷺ الافتراء ورهب منه، وأمر بالبعد عنه، "فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه - وكان شهد بدرًا- وهو أحد النقباء ليلة العقبة، أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه"، فبايعناه على ذلك)[4].

قال ابن حجر: (في قوله ﷺ، "ولا تأتوا ببهتان"، "البهتان الكذب الذي يبهت سامعه، وخص الأيدي والأرجل بالافتراء لأن معظم الأفعال تقع بهما...، ويحتمل أن يكون المراد بما بين الأيدي والأرجل، القلب، لأنه هو الذي يترجم اللسان عنه، فلذلك نسب إليه الافتراء، كأن المعنى: لا ترموا أحدًا بكذب تزوّرونه في أنفسكم ثم تبهتون صاحبه بألسنتكم)[5].

---

(١) الكليات، للكفوي، ١٥٤.

(٢) فتح الباري ١٢/٤٤٩.

(٣) سورة طه، آية: ٦١.

(٤) أخرجه البخاري ١٨، ومسلم ١٧٠٩.

(٥) فتح الباري ١/٨٣.

ثانيًا- من مصادر الدعوة: السنة النبوية:

هذا ما يستفاد من الحديث من قول سعيد بن زيد ﷺ: "أنا كنت آخذ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: -أي مروان- وما سمعت من رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ... إلخ"، (والسنة النبوية هي كل ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية. وهي المصدر الثاني للداعية بعد القرآن الكريم وهي شارحة القرآن ومبينة له، ومفصلة لما أجمل منه، كما أنها قصة كفاح وخلاصة تجارب لأعظم داعية وأكرم عقل في الوجود، كما أنها نفحات قدسية وتوجيهات ربانية وتجليات إلهية لفهم القرآن، وتوجيهه في الحياة ليعمل عمله، في آلاء الكون، وسنن الاجتماع، وعلل النفوس، ومشكلات الحياة، وضروب الإصلاح، وسياسة الأمم ورسم الطريق المستقيم)[١].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب والتحذير من الظلم:

هذا ما أشار إليه الحديث في قوله ﷺ: من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه إلى سبع أرضين"، وفي رواية قال ﷺ: من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين"[٢]، قال النووي: (قال القاضي:... وأما التطويق المذكور في الحديث فقالوا: يحتمل أن معناه أنه يحمل مثله من سبع أرضين ويكلف إطاقه ذلك، ويحتمل أن يكون يجعل له كالطوق في عنقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٣]، وقيل معناه: أنه يطوق إثم ذلك ويلزمه كلزوم الطوق بعنقه، وعلى تقدير التطويق في عنقه، يطول الله تعالى عنقه، كما جاء في غلظ جلد الكافر، وعظم ضرسه، وفي هذه الأحاديث تحريم الظلم وتحريم الغصب وتغليظ عقوبته)[٤].

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي، ١٢٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٥٢، مسلم ١٦١٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٨٠.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٠٢١-١٠٢٢.

وقد حذر ورّهب النبي ﷺ من الظلم، وغَصْب الأرض ونحو ذلك، فقال: ((الظلم ظلمات يوم القيامة))[١]، وبين ﷺ أن للمظلوم في ذلك دعوة لا ترد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن، فقال: ((اتق دعوة المظلوم، فإنها ليست بينها وبين الله حجاب))[٢]. وقد حث النبي ﷺ على التحلل من الظلم ونحوه في الدنيا قبل الآخرة فقال: ((مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ))[٣].

قال ابن حجر: (وقوله ﷺ: "من كانت له مظلمة لأخيه" اللام في قوله "له" بمعنى على، أي من كانت عليه مظلمة لأخيه، وقوله ﷺ: "من عرضه أو شيء" أي من الأشياء، وهو عطف العام على الخاص، فيدخل فيه المال بأصنافه والجراحات حتى اللطمة ونحوها، وقوله ﷺ: "قبل أن لا يكون دينار ولا درهم" يوم القيامة.

وقوله ﷺ: (أخذ من سيئات صاحبه) أي صاحب المظلمة (فحمل عليه) أي على الظالم، وفي رواية مالك "فطرحت عليه"، وهذا الحديث قد أخرج مسلم معناه من وجه آخر، وهو أوضح سياقا من هذا ولفظه: "المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وسفك دم هذا وأكل مال هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه وطرح في النار"[٤]، ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٥]، لأنه إنما يعاقب بسبب فعله وظلمه، ولم يعاقب بغير جناية منه بل بجنايته، فقوبلت الحسنات بالسيئات على ما اقتضاه عدل الله تعالى في عباده[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٤٨.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

(٤) أخرجه مسلم ٦٥٧٩.

(٥) سورة الزمر، آية: ٧.

(٦) فتح الباري ١٢٢/٥.

فعلى المرء أن يجتنب المظالم، وأن يسعى في ردها إلى أصحابها، حتى يتسنى له النجاة يوم القيامة، من ظلم مظلمته وسوء غائلته.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة سعيد بن زيد رضي الله عنه:

الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد ولي[١]. وهذا ما ظهر في الحديث من قول سعيد رضي الله عنه : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها، قال الراوي: فما ماتت حتى ذهب بصرُها، وبينما هي تمشي في أرضها إذا وقعت في حفرة فماتت، وفي رواية مسلم قال الراويك وأنه رآها عمياء تلتمس الجُدُر تقول: أصابتني دعوة سعيد، وإنها مرت على بئر في الدار التي خاصمَتْه فيها، فوقعت فيها، وكانت قبرها.

"وسعيد بن زيد رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن السابقين الأولين البدريين، ومن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه"[٢]، وهو القائل رضي الله عنه: ((أَشْهَدُ عَلَى التِّسْعَةِ أَنَّهُمْ فِي الجنَّةِ وَلَوْ شَهِدْتُ عَلَى العَاشِرِ لَمْ آثَمْ. قِيلَ وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِرَاءَ فقَالَ اثْبُتْ حِرَاءُ فإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ، قِيلَ وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعلِيٌّ وَطَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وَسعْدٌ وَعبْدُ الرَّحْمنِ بنُ عَوْفٍ، قِيلَ فَمَنِ العَاشِرُ قالَ أَنَا))[٣]. وقد أجاب الله تعالى دعائه كرامة له في قوله من الحديث: "اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها" قال ابن عثيمين: (فما كان لهذه المرأة إلا أن أعماها الله عز وجل قبل أن تموت، وبينما هي تمشي في أرضها ذات يوم إذ سقطت في بئر فماتت، فكانت البئر قبرها، في نفس الأرض التي كانت تخاصم سعيد بن زيد رضي الله عنه فيها، وهذا من كرامة الله عز وجل لسعيد بن زيد أن الله أجاب دعوته وشاهدها حيًا قبل أن يموت)[٤].

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، ٣٦١/١، ط مكتبة الرياض الحديثة.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٢٤/١.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٧٥٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥٥).

(٤) انظر: شرح رياض الصالحين ١٥٨٤/٢.

الحديث رقم (١٥٠٩)

١٥٠٩- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أُحُدٌ دعَانِي أَبي من اللَّيلِ فَقَالَ: مَا أُرَاني إلاَّ مَقْتُولاً في أوْلِ مَنْ يُقْتَلُ من أصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ، وإنِّي لا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رسول الله ﷺ، وإنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فأصْبَحْنَا، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدَفَنْتُ مَعَهُ آخَرَ في قَبْرِهِ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أنْ أتْرُكَهُ مَعَ آخَرَ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أشْهُرٍ، فإذا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ غَيْرَ أُذنِهِ (فَجَعَلْتُهُ في قَبْرٍ عَلَى حِدَةٍ)[١]. رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

جابر بن عبدالله الأنصاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

أُحُد: الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد التي وقعت ٣هـ[٣].

ما أراني: بضم الهمزة بمعنى الظن[٤].

على حِدةٍ: بمفردي، والحدة بمعنى التوحد[٥].

الشرح الأدبي

إن هذا الحديث صفحة مشرقة ناصعة من سجل الشهداء المُفْعَم بالبطولات والكرامات، والمفاخر والانتصارات، وهذه الصفحة يروي أحداثها الصحابي الجليل جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، حيث يحكي عن أبيه قصته هذه الكرامة الحقيقية التي مَنَّ الله تعالى عليه بها في غزوة أحد، وهذه القصة تتماوج أحداثها، وتتألق مشاهدها،

---

(١) هذه الزيادة عند البخاري برقم (١٣٥٢).

(٢) برقم (١٣٥١).

(٣) أطلس الحديث النبوي ٢٣، أطلس السيرة النبوية ١١٩، معجم لغة الفقهاء ٤٢٠.

(٤) فتح الباري ٢٥٦/٣.

(٥) انظر: القاموس المحيط في (و ح د).

وتفيض بكثير من جماليات الأسلوب، وأسرار التعبير، ولنتأمل قوله: "دعاني أبي من الليل"، والمراد في الليل أو في جزء من الليل لأن "من" إما أن تكون بمعنى في أو تكون للتبعيض؛ وأسلوب القصر في قوله: "ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل": يكشف عن النية الصادقة والرغبة في الاستشهاد، والإقدام على القتال والدفاع عن الإسلام.

وقد تحقق لعبدالله ﷺ ما أراد: وصدق حدْسُه، فكان أول قتيل، وفي قوله: "من أصحاب رسول الله ﷺ"، بيان بعد الإيهام في قوله: "في أول من يقتل"، وهذا البيان يوحي بأن هذا الشهيد يشعر بالشرف في استشهاده مع أصحاب رسول الله ﷺ الذين يدافعون عن راية الإسلام، ويوحي كذلك بأنه يبعد عن نفسه أي شبهة تلحقه بالفريق الآخر من المشركين والمنافقين.

ولنتأمل ما يوحي به أسلوب القصر من شدة المحبة لرسول الله ﷺ قبل محبة الابن، وهذه المحبة هي التي تدفعه إلى التضحية والاستشهاد في سبيل الله تعالى؛ حيث قال لابنه: وإني لا أترك بعدي أعز عليّ منك غيرَ نَفْسِ رسول الله ﷺ، والقصر هنا طريقه النفي، "لا" والاستثناء "غير".

وتكرار التأكيد، في قوله: "وإني لا أترك"، و"إن عليّ دَينًا"، يرشد إلى حرص هذا الصحابي الشهيد على تأكيد محبته لرسول الله ﷺ، وحرصه كذلك على أن يموت وليس عليه دين لأحد، وأن يستوصي ابنه بأخواته خيرًا، وهذه الوصية التي تكرر فيها فعل الأمر مرتين، "فاقض واستوص بأخواتك خيرًا"، توحي بأن الرجل مُقدم على الاستشهاد وفي شجاعة وحب للإسلام، وشوق للقاء الله عز وجل، حيث الجزاء الأوفى.

والعطف بـ"الفاء" في قوله: "فأصبحنا فكان أول قتيل": يدل على سرعة الحركة، وسرعة المبادرة إلى القتال، والاستشهاد، وتتحقق الكرامة، ويتجلى الفضل، وتصدق النية.

والعطف بـ"ثم" في قوله: "ثم لم تطب نفسي" يوحي باتساع المدة الزمنية، حيث مرت ستةُ أشهر، وظهرت كرامة أخرى، وهي أن جسده وجد كيوم وضع في القبر غير أذنه، والعطف بالفاء في قوله: "فاستخرجته، فإذا هو، فجعلته في قبره يدل على تتابع

الأحداث، والإسراع في نقل جثمان الشهيد ودفنه عملاً بالسنة النبوية الشريفة، واتباعًا لتعاليم الإسلام في وجوب الإسراع في دفن الميت، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهو فرحون بما أتاهم الله تعالى من فضله.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: غزوة أحد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة عبدالله، والد جابر رضي الله عنهما.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حرص أصحاب رسول الله ﷺ على الشهادة في سبيل الله.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: أهمية قضاء الدَيْن عن الميت والشهيد.

أولاً- من تاريخ الدعوة: غزوة أحد:

هذا ما يستفاد في الحديث من قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: لما حضَرْت أحدٌ دعاني أبي من الليل، "وقد كانت وقعة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، ورجع قَفَلُهُم إلى مكة قال أبناء من قتل، ورؤساء من بقى: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وَتَرَكم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا، وخرجت قريش بحدّها وحديدها وأحابيشها في قريب من ثلاثة الآف، حتى نزلوا قريبًا من أحد تلقاء المدينة"[1]، "واستشار رسول الله ﷺ الناس، أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبدالله بن أبيّ بالـمُقَام بالمدينة، وأشار آخرون من الصحابة رضي الله عنهم ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم، وسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كان "بالشوط"[2] رجع عبدالله بن أبي في ثلث الجيش مغضبًا لكونه لم يُرْجَع إلى قوله، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، والرماه

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، (٣/٢٤، ٢٣).

(٢) وهو اسم حائط من بساتين المدينة، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٤٩٥.

يومئذ خمسون رجلاً"[١]، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم، إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))[٢]. فلاّح النصر للمسلمين وتخلف الرماة عن أمر النبي ﷺ، فانتهز خالد بن الوليد رضي الله عنه - قبل إسلامه - الموقف، وحقق التفافًا جعل المسلمين في موقف حرج، واستشهد حمزة، ومصعب بن عمير رضي الله عنهما. وقد استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون شهيدًا"، ولكن على الرغم من الانتصار العسكري لقريش إلا أنها لم تستطع استئصال المسلمين، ولم يتحقق لها فتح طريق تجارة مكة.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة عبدالله، والد جابر رضي الله عنهما:

هذا ما أشار إليه الحديث من قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما : لما حضرت أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ...، فكان أول قتيل؛ ودفنت معه آخر في قبره ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه، فجعلته في قبر على حدة، قال ابن حجر: في بيان قوله ﷺ: "ما أُراني" "بضم الهمزة"، بمعنى الظن، "وذكر الحاكم في المستدرك" عن الواقدي أن سبب ظنه ذلك منام رآه أنه رأى مبشر بن عبدالمنذر -وكان ممن استشهد ببدر- يقول له : أنت قادم علينا في هذه الأيام، فقصها على النبي ﷺ فقال: هذه الشهادة"[٣]...)[٤]، وقال ابن حجر: (وفي الحديث كرامة لعبد الله رضي الله عنه وذلك بوقوع الأمر على ما ظن، وكرامته بكون الأرض لم تُبْلِ جسده مع لبثه فيها)[٥]، وقال ابن عثيمين: (وفي الحديث كرامة لأبي جابر وهو عبدالله بن حرام أنه رضي الله عنه صدق الله رؤياه، فصار أول قتيل في أحد، دفن ولم تأكل الأرض منه شيئًا إلا يسيرًا، وقد مضى عليه ستة أشهر وهذا من كراماته، واعلم أن الإنسان إذا

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، ٢٣٨/٥.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام، ٢٩/٣، بدون إسناد.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤٩٦٨، قال محقق المستدرك: قال الذهبي: بإسناده مظلم، انتهى.

(٤) فتح الباري ٢٥٦/٣.

(٥) انظر: فتح الباري ٢٥٨/٣.

دفن فإن الأرض تأكله "لا يبقى إلا عَجَبُ الذنب)"[١]، قال النووي أي: (العظيم اللطيف في أسفل الصلب وهو: رأس العصعص... وهو أول ما يخلق من الآدمي، وهو: الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه)[٢]. (إلا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإن الأرض لا تأكلهم، كما قال النبي ﷺ: "... إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)[٣]، أما غير الأنبياء، فإن الأرض تأكل أجسادهم، ولكن قد يمنع الله الأرض أن تأكل أحدًا كرامة له)[٤]، وهذا ما كان لعبدالله بن حرام رضي الله عنه.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حرص أصحاب رسول الله ﷺ على الشهادة في سبيل الله:

هذا ما أشار إليه الحديث من قول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما. "لما حَضَرَتُ أحدٌ دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ"، قال ابن حجر نقلاً عن ابن التين في قوله " ما أُرَاني"[٥] إنما قال ذلك بناء على ما كان عزم عليه، وفي ذلك بيان على حرصه رضي الله عنه على الشهادة في سبيل الله، وقد كان ذلك نهجًا وطريقًا لأصحاب رسول الله ﷺ، وليس أدل على ذلك من حرصهم رضي الله عنهم على الشهادة في نَهَاوند، فبعد أن أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيش المسلمين إلى نهاوند وقد أمّرَ عليهم النعمان بن مُقرّن المزني، أرسل إليهم بنذاذقان العلج - وهو رأس فارس وقائدهم والعلج هو الرجل من كفار العجم- أن أرسلوا إلينا يامعشر العرب رجلاً منكم نكلمه، فاختار الناس المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فأغلظ له بنذاذقان القول، فقال له المغيرة رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "واللهِ ما أَخْطَأْتَ مِنْ صِفَتِنا ونَعْتِنا شيئًا، إنْ كُنَّا لأَبْعَدَ الناسِ دارًا، وأَشَدَّ الناسِ جُوعًا، وأعظمَ الناسِ شَقَاءً، وأبعدَ الناس مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، حتى بَعَثَ اللّهُ إلينا رسولا، فَوَعَدَنا النَّصْرَ في الدُّنْيَا والجَنَّةَ في الآخرةِ، فَلَمْ نَزَلْ نتعرفُ من رَبِّنَا مُذْ جَاءَنا رسولُه، الفَلْجَ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٥٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٧٠٦.

(٣) ابن ماجه ١٠٨٥، صححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه٨٨٩).

(٤) شرح رياض الصالحين ١٥٨٥/٢، ١٥٨٦.

(٥) فتح الباري ٢٥٦/٣.

- أي: الظفر والفوز- والنصرَ حتى أتيناكُمْ، وإنَّا واللَّهِ نَرَى لكُمْ مُلْكًا وعَيْشًا، لا نَرْجِعُ إلى ذَلِكَ الشقاءِ أَبَدًا، حتى نَغْلِبَكُمْ على ما في أَيْدِيكُمْ أو نُقْتَلَ في أَرْضِكُمْ"، وبعد أن تجيش جيش الإسلام عابرًا إلى نهاوند قال النعمان: اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وأهله، وذل الكفر وأهله، ثم اختم لي على إثر ذلك بالشهادة، وقد استجاب الله للنعمان ففتحت نهاوند، واستشهد النعمان، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فبكى واسترجع وقال: لمن أخبره بذلك. ومن ويحك؟ فقال: فلان وفلان وفلان، حتى عد ناسًا، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين: لا تعرفهم - يقصد بذلك من كتب الله لهم الشهادة- فقال عمر رضوان الله عليه وهو يبكي: لا يضرهم أن لا يعرفهم عمر لكن الله يعرفهم[1]، وفي ذلك بيان عظيم على حرص الصحابة رضي الله عنهم على بذل أنفسهم في سبيل الله وطلبهم للشهادة.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: أهمية قضاء الدين عن الميت والشهيد:

هذا ما أشار إليه الحديث من قول عبدالله لابنه جابر رضي الله عنهما: وإنّ على دينًا فاقضِ، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية وضرورة قضاء الدين عن الميت والشهيد، فقال: "القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدَّيْن"[2]، وعن أبي قتادة، "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قتلت في سبيل الله، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّيْن، فإن جبريل عليه السلام، قال لي ذلك"[3]، قال النووي في قوله صلى الله عليه وسلم "إلا الدين" "ففيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق الله"[4].

---

(١) انظر: صحيح ابن حبان ٤٧٥٦، وقال محققو الصحيح إسناده قوي.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٨٦.

(٣) أخرجه مسلم 5١٨٨.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٢١١.

الحديث رقم (١٥١٠)

١٥١٠- وعن أنس رضي الله عنه: أنَّ رجلين مِنْ أصحاب النَّبيِّ ﷺ، خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبيِّ ﷺ، في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا. فَلَمَّا افْتَرَقَا، صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أتَى أهْلَهُ[١].

رواهُ البُخاريُّ مِنْ طُرُقٍ[٢]؛ وفي بَعْضِهَا[٣]: أنَّ الرَّجُلَيْنِ أُسَيْدُ بنُ حُضير، وَعَبّادُ بنُ بِشْرٍ رضي الله عنهما[٤].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

الشرح الأدبي

يقول رسول الله ﷺ: "أصحابي كالنجوم" في الهداية، بأيهم اقتديتم اهتديتم، وهذا الحديث الشريف برهان ساطع، ودليل قاطع على أفضلية الصحابة الأخيار، الكرام الأطهار، فنورهم يسعى بين أيديهم، وكما أضاء الله تعالى قلوبهم بأنوار الإيمان، أضاء لهم ظلمات الليل ببصيرة العرفان، وعطاء الرحيم الرحمان، وبفضل حبهم للمصطفى العدنان ﷺ.

والحديث يبدأ بتأكيد خبر هذه الكرامة، وذلك الفضل الكبير، حيث يؤكد أنس روايته في قوله: "أن رجلين"، والرجلان هما أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، ولم يحدد في هذه الرواية لتعميم الفضل، وللإيحاء بأن أي رجلين من صحابة النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٥).

(٢) أرقامها: (٤٦٥)، و (٣٦٣٩)، و (٣٨٠٥).

(٣) قال البخاري عقب الحديث رقم (٣٨٠٥): وقال معمر، عن ثابت، عن أنس، إنَّ أسيد بن حُضير ورجلًا من الأنصار. وقال حمّاد: أخبرنا ثابت، عن أنس: كان أسيد بن حُضير وعبّاد بن بشر عند النبي ﷺ.

(٤) بل أكّد أنهما أسيد بن حُضير وعبّاد بن بشر، حيث ترجم للحديث بقوله: (باب: منقبة أسيد بن حضير وعبّاد بن بشر).

سينعمان بهذا الفضل، وذلك التكريم لأنهم كلهم، كالنجوم في الهداية، ولذلك زاد الأمر تأكيدًا بهذا البيان الذي حدد نوعية الرجلين، فهما من أصحاب النبي ﷺ، والأمر يزداد تأكيدًا، وفضلاً حين يحدد الراوي أنهما اكتسبا ذلك النور الحسي الذي أضاء لهما ظلمات الليل، وكأن في يد كل منهما مصباح، هذا النور اكتسباه لأنهما صحابيان، ولأنهما خرجا من عند النبي ﷺ، وتحديد الوقت الذي خرجا فيه، وطبيعته وهو في ليلة مظلمة يوحي بشدة إكرام الله تعالى لهذين الرجلين، وإسناد الإظلام إلى الليلة مجاز عقلي، لأن الليلة ذات ظلمة، وهي لا تظلم بنفسها، وجملة "ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما"، في موقع الحال، فهي تصور هذين الصحابين حالة خروجهما من عند رسول الله ﷺ، والظلام دامس، ولكن الله تعالى أكرمهما بأن جعل النور يشع بين أيديهما.

وتكتمل مشاهد هذه القصة حينما يفترقان، لم ينقطع النور، ولم يستأثر به أحدهما دون الآخر.

ولكن صار مع كل واحد منهما مثل المصباح، والتعبير بقوله: "مع كل واحد منهما" يفيد التحديد والتخصيص، وقوله: "واحد"، أي مصباح، إشارة إلى أن هذا النور من كرم الله تعالى، وعطائه، وفيوضاته، فالله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والتعبير بقوله: "حتى أتى أهله"، يفيد الغائية. ويوحي بطول المسافة واتساع المساحة الزمنية، وفيه كذلك كناية عن السلامة والوصول والأمن والأمان، وبأن هذا النور الإلهي كان من أسباب حفظهما من شرور الظلام، وقِطَع الليل المظلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة أسيد بن حضير، وعباد بن بشر رضي الله عنهما.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان أن مبنى الكرامات على الإيمان والتقوى.

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد:

قد ورد التوكيد كأسلوب دعوي في الحديث من قول أنس رضي الله عنه مؤكدًا كرامة

اثنين من أصحاب النبي ﷺ في خروجهم من عنده ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، والتوكيد من الأساليب الدعوية الهامة التي تعين الداعية على تقوية كلامه وإثبات ما يدعو إليه في أذهان المدعوين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة أسيد بن حضير، وعباد بن بشر رضي الله عنهما:

هذا ما ورد في نص الحديث من قول أنس رضي الله عنه: إن رجلين من أصحاب النبي ﷺ، خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما... إلخ"

وفي رواية: أن الرجلين أسيد بن حضير وعباد بن بشر. قال ابن عثيمين: "...، وهو حديث الرجلين أسيد بن حضير، وعباد بن بشر رضي الله عنهما، كانا عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وكان في ذات الوقت ليس في الأسواق أنوار، بل ولا في البيوت مصابيح، فخرجا من عند النبي ﷺ في تلك الليلة، الليلة المظلمة، فجعل الله تعالى بين أيديهما مثل المصابيح...، وليس هذا من فعلهما ولا بسبب منهما، ولكن الله تعالى خلق نورًا يسعى بين أيديهُما، حتى تفرقا وتفرق النور مع كل واحد منهم، حتى بلغا بيوتهما، وهذا كرامة الله عز وجل لهما"[1]، "والكرامة: الاسم من كَرُم، والجمع كرامات، وهى ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات، وهى عامة وخاصة. فالعامة هى ما كَرَّم الله به بني آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة، والخلق في أحسن تقويم، والعقل والمنطق، وتدبير المعاش وإصلاحه، ... قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2]، والخاصة وهى أفضلهما: ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات...، وأخص من هذه الكرامات، كرامة الإيمان والاستقامة، ما يكرم الله

(١) شرح رياض الصالحين، ٢/١٥٨٦.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى، من الورع والتقلل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة، وصدقات، ورباط، وجهاد، وصيام، وحج، وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[1]...، فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية، إذا يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبون، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات"[2]. وهذا ما ظهر في الحديث من كرامة الله تعالى لأسيد بن حضير، وعباد بن شبر رضي الله عنهما، من جعل بين أيديهما مثل المصابيح.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان أن مبنى الكرامات على الإيمان والتقوى:

هذا ما يستفاد من الحديث في ذكر صحابيين جليلين، هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما، فأما أسيد بن حضير رضي الله عنه فقد حظى بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "نعم الرجل أسيد بن حضير"[3]،

"وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن"[4]، وقد قرأ من القرآن ليلة فإذا مثلُ الظُلّة فيها أمثال المصابيح، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، قال له: "تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأْتَ لأصبحَتْ ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم"[5]، وأما عباد بن بشر فقد فاز بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم اغفر له"[6]، "وهو الذي قالت فيه عائشة رضي الله عنها ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بني عبد الأشهل، سعد بن

(١) سورة الواقعة، الآيات: ١٠-١٤.
(٢) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ١٧٥.
(٣) أخرجه الترمذي ٣٧٩٥، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٩٥٩).
(٤) سير اعلام النبلاء، الذهبي، ٣٤١/١.
(٥) أخرجه البخاري ٥٠١٨.
(٦) أخرجه البخاري ٢٦٥٥.

معاذ، وعباد بن بشر، وأسيد بن حضير"[١]. "فكرامات الأولياء لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله"[٢]، وهذا ما أكده ابن حجر في قوله: "إن الذي استقر عند العامة أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك من أولياء الله تعالى، وهو غلط ممن يقوله، فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق، وأولى ما ذكروه أن يختبر حال من وقع له ذلك فإن كان متمسكا بالأوامر الشرعية والنواهي كان ذلك علامة ولايته ومن لا فلا"[٣].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في الإصابة، ٧٦/١ ط الزيني، ومن طريقه الحاكم في المستدرك ٢٢٩/٣، وإسناده حسن فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فانتفت شبه تدليسه.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، مطبعة معارف لاهور، باكستان، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ١٧٠.

(٣) فتح الباري ٤٤٣/٧.

الحديث رقم (١٥١١)

١٥١١- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: بعث رسول الله ﷺ عَشْرَة رَهْطٍ عَيْنًا سَرِيَّة، وأمَّرَ عَلَيْهَا[١] عاصِمَ بنَ ثَابتٍ الأنْصَارِيَّ رضي الله عنه، فانْطلقوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بالْهَدْأةِ[٢]؛ بَيْنَ عُسفَانَ وَمَكَّةَ؛ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْل يُقالُ لَهُمْ: بَنُو لحيانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ[٣] بِقَرِيبٍ مِنْ مِئَةِ[٤] رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ[٥]، فَلَمَّا أحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وأصْحَابُهُ، لَجَأُوا إِلَى مَوْضِعٍ[٦]، فَأَحاطَ بِهِمُ القَوْمُ، فَقَالُوا: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بأيْدِيكُمْ وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ أنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أحَدًا. فَقَالَ عَاصِمُ بنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا القَوْمُ، أَمَّا أنا، فَلاَ أنْزِلُ عَلَى ذِمَّةِ كَافِرٍ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ، فَرَمُوهُمْ بِالنَّبْلِ فقَتَلُوا عَاصِمًا[٧]، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ عَلَى العَهْدِ والمِيثاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ، وَزَيدُ بنُ الدَّثِنَةِ وَرَجُلٌ آخَرُ. فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أطْلَقُوا أوْتَارَ قِسيِّهِمْ، فَرَبطُوهُمْ بهَا. قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أوَّلُ الغَدْرِ واللهِ لا أصْحَبُكُمْ إنَّ لِي بِهؤُلاءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ القَتْلَى، فَجَرُّوهُ[٨] وعَالَجُوهُ، فأبى أنْ يَصْحَبَهُمْ، فَقَتَلُوهُ، وانْطَلَقُوا بِخُبَيبٍ، وزَيْدِ بنِ الدَّثِنَةِ، حَتَّى بَاعُوهُما بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ؛ فابْتَاعَ بَنُو الحارِثِ بن عامِرِ بنِ نَوْفَلِ بنِ عبدِ مَنَافٍ خُبيبًا، وكَان خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ. فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أسيرًا حَتَّى أجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ، فاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أتَاهُ، فَوَجَدتهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَالموسَى بِيَدِهِ، فَفَزِعَتْ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ. فَقَالَ: أتَخْشَيْنَ أن أقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لأفْعَلَ ذَلِكَ! قالت: واللهِ مَا رَأيْتُ أسيرًا خَيرًا مِنْ خُبَيْبٍ، فواللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يومًا يَأكُلُ

---

(١) لفظ البخاري: (عليهم).

(٢) عند البخاري زيادة: (وهو). وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه.

(٣) إلى هنا لفظ البخاري برقم (٣٠٤٥).

(٤) في رواية شعيب برقم (٣٠٤٥): (مئتي).

(٥) عند البخاري زيادة: (حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقال: تمر يثرب).

(٦) في رواية شعيب: (إلى فدفد).

(٧) في رواية شعيب: (في سبعة).

(٨) لفظ البخاري في هذه الرواية: (فجرروه).

قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بالحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ خُبَيْبًا. فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ: واللهِ لَوْلاَ أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بِدَدًا، ولاَ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا. وقال:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[١]

[٢] وكان خُبَيبٌ هُوَ الذي سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلاَةَ. وأخْبَرَ -يعني: النبيّ ﷺ- أصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أن يُؤْتَوا بِشَيءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وكَانَ قَتَلَ رَجُلاً مِنْ عُظَمَائِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِروا أنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا. رواه البخاريُّ[٣].

وفي الباب أحاديث كثيرةٌ صَحيحةٌ سَبَقَتْ فِي مَوَاضِعِها مِنْ هَذَا الكِتَابِ.

مِنْهَا: حديثُ الغُلامِ الَّذي كَانَ يأتِي الرَّاهِبَ والسَّاحِرَ[٤].

ومنْها: حَديثُ جُرَيْج[٥].

وحديثُ أصْحابِ الغَارِ الذين أطْبقَتْ عَلَيهِم الصَّخْرَةُ[٦].

وَحديثُ الرَّجُلِ الَّذي سَمِعَ صَوْتًا فِي السَّحَابِ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ[٧].

وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَالدلائِل فِي البابِ كثيرةٌ مشهُورةٌ، وباللهِ التَّوفيقِ.

---

(١) الإصابة ١٢٦٣/٢، وحلية الأولياء ١١٣/١، والمنتظم ٢٠٢/٣.

(٢) عند البخاري زيادة: (ثمّ قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله).

(٣) برقم (٣٩٨٩) وبرقم (٣٠٨٦)، انظر: الجمع للحميدي (٢٥٣/٣، رقم ٢٥٥٤).

(٤) تقدم برقم (٣٠).

(٥) تقدم برقم (٢٥٩).

(٦) تقدم برقم (١٢).

(٧) تقدم برقم (٥٦١).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

رهط: الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه[١].

سَرِيّة: السرِيّة: طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو[٢].

عُسفان: موضع بين الجحفة ومكة المكرمة[٣].

الهدأة: محل بين مكة وعسفان[٤].

نفروا لهم: خرجوا لقتالهم[٥].

فاقتصوا: تتبعوا آثارهم[٦].

آثارهم: الآثار جمع أثر وهو بمعنى العلامة، من أثر المشي على الأرض[٧].

فأعطوا بأيديكم: كناية عن الدخول في الطاعة[٨].

الذمة: العهد والأمان والضمان[٩].

أوتار قسيهم: جمع وَتَر وهو معلّق القوس[١٠].

وعالجوه: صارعوه[١١].

---

(١) النهاية في (ر هـ ط).

(٢) النهاية في (س ر ي).

(٣) ينظر: أطلس الحديث النبوي ٢٦٩.

(٤) ينظر دليل الفالحين ١٥٦٧.

(٥) النهاية في (ن ف ر).

(٦) النهاية في (ق ص ص).

(٧) النهاية والوسيط في (أ ث ر).

(٨) دليل الفالحين ١٥٦٧.

(٩) النهاية في (ع ل ج).

(١٠) المعجم الوسيط في (و ت ر).

(١١) النهاية في (ع ل ج).

بدر: غزوة بدر، هي الغزوة التي كانت بين المسلمين وقريش في رمضان ٢هـ[١].

يستحد: من الاستحداد وهو حلق العانة بالحديد[٢].

فدرجُ بنَيٌّ لها: مشى مشية الصاعد في الدَّرَج، بُنَيّ: ولد صغير تصغير ابن[٣].

قطفًا: عنقودًا، وهو اسم لكل ما يقطف[٤].

لموثق بالحديد: مأسور مشدود في الحديد[٥].

جَزَع: الجَزَع: الحزن والخوف[٦].

واقتلهم بِددًا: جمع بِدَّةٍ، وهي النصيب، ومعناه اقتلهم حصصًا منقسمة لكل واحد منهم نصيب، ومن فتح الباءَ قال: معناه: متفرقين في القتل واحدًا بعد واحد من التبديد[٧].

مصرعى: موتى[٨].

أوصال: أعضاء جمع وِصل[٩].

شِلْو: الشِلْو: القطعة من اللحم[١٠].

ممزع: مقطع[١١].

الظُّلَّةُ: السحاب[١٢].

---

(١) أطلس الحديث النبوي ٦٥.

(٢) النهاية في (ح د د).

(٣) انظر القاموس المحيط في (د ر ج)، المعجم الوسيط في (ب ن و).

(٤) النهاية في (ق ط ف).

(٥) النهاية في (و ث ق).

(٦) النهاية في (ج ز ع).

(٧) رياض الصالحين، النووي ٥١٨.

(٨) دليل الفالحين ١٥٦٩.

(٩) النهاية في (و ص ل).

(١٠) النهاية في (ش ل و).

(١١) النهاية في (م ز ع) .

(١٢) رياض الصالحين، النووي ٥١٨.

الدَّبر: النحل[١].

قُتِل صبرًا: أصل الصبر الحبس، والقتل صبرًا: أن يُمْسَك ويُحْبس شيءٌ من ذوات الأرواح حيًا ثم يرمي بشيء حتى يموت والمعنى أنهم حبسوه حتى قتلوه[٢].

الشرح الأدبي

ما أعظم المشاهد الجليلة التي سطرها صحابة رسول الله ﷺ، وما أجمل وقائع السيرة النبوية العطرة التي تحفل بجلائل الأعمال، ونوادر المواقف، وأجلِّ العظات والعبر.

وهذا الحديث فصل واقعي مجيد من فصول تاريخ الدعوة الإسلامية، وقد جرت أحداثه في السنة الثالثة من الهجرة النبوية الشريفة، حيث قَدم وفدٌ من قبائلَ عضل والقارة[٣] على رسول الله ﷺ يذكر أن أخبار الإسلام قد وصلتهم، وأنهم بحاجة إلى من يعلمهم شؤون هذا الدين، فبعث الرسول ﷺ نفرًا من أصحابه، وفيهم هذا الرهط، والرهط معناه، الجمع، وقال ثعلب: الرهط والنفر والقوم والمعشر والعشيرة معناهم الجمع وهو للرجال دون النساء.

وهذه القصة الواقعية تموج بكثير من الظواهر الفنية والأسلوبية، وتحتشد جوانبها بعناصر القصة ففيها.. الأمكنة، والشخصيات، والأحداث، والحوار، والحبكة والعقدة. والحل أو لحظة التنوير، وهي تتوج بإظهار كرامة الصحابة وبيان فضلهم، لأنهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فالذي بعثهم هو رسول الله ﷺ، وهو الذي أَمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

ومن الظواهر الأسلوبية في هذا الحديث القصص الواقعي التاريخي:

أ- الحوار بين وفد المسلمين "السرية" وبني لحيان من هذيل، وهذا الحوار يكشف عن صدق المسلمين[٤] وعن غدر الكفار الذين أعطوا المسلمين العهد والميثاق بأن لا يقتلوا منهم أحدًا، ولكنهم غدروا بهم وقتلوهم، وباعوا بعضهم في مكة.

---

(١) رياض الصالحين، النووي ٥١٨.

(٢)النهاية، ومختار الصحاح، والمعجم الوسيط في (ص ب ر)، و(ق ت ل).

(٣) برقم (٣٩٨٩) وبرقم (٣٠٨٦)، انظر: الجمع للحميدي (٢٥٣/٣، رقم ٢٥٥٤)..

(٤) برقم (٣٩٨٩) وبرقم (٣٠٨٦)، انظر: الجمع للحميدي (٢٥٣/٣، رقم ٢٥٥٤)..

ب- النداء والتأكيد في موقف عاصم ورفضه الإذعان للكفار، في قوله: "أيها القوم: أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر"، وحذف حرف النداء لأن المقام مقام الإيجاز والاختصار والتحذير، وهو أميرهم، وقد تضمن كلام عاصم الشرط، والتأكيد من خلال هذا الأسلوب الشرطي، "وأما" للتفصيل والتوضيح.

ج- قولهم: "فأعطوا بأيديكم"، يتضمن الكناية عن الدخول في الطاعة، والباء مزيدة للتأكيد.

د- الدعاء الصادق المستجاب، حين دعا عاصم ربه، اللهم "أخبر عنا نبيك"، أي بالوحي إليه، وقد عرف رسول الله ﷺ خبر هؤلاء الصحابة، وذلك من معجزاته ﷺ ومن كرامات عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

هـ- العطف بالفاء في قوله: "فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا" يجسد غدر الكفار، وإسراعهم في القتل ونكث العهد، ويزداد الغدر حين استمكنوا منهم، وقتلوا الرجل الثالث، وباعوا خبيبًا وزيدًا بمكة.

و- العُقْدة: تتجلى في أحداث القصة، حيث المفارقة التي أفزعت الأم وهبت مذعورة حين رأت طفلها يجلس على فخذ خبيب رضي الله عنه وفي يده الموسى التي استعارها ليستحدَّ بها، وظنت المرأة أن خبيبًا سيقتل الطفل وينتقم لنفسه، ولكنها وقفت مندهشة حينما رأت خبيبًا يلاطف ابنها كأنه أب شفوق. وقال لها في صيغة الاستفهام الإنكاري، "أتخشين أن أقتله: ما كنت لأفعل ذلك".

ز- تكرار القسم والتأكيد في شهادة الأم لخبيب بعد موقفه الإيماني من الطفل: حيث أقرت بكرامة خبيب وولايته تقول: "والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب، فوالله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من العنب، وأنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، ودعاء خبيب على المشركين استجابه الله تعالى وهزمهم، وكذلك حمى عاصم منهم، وبعث له مثل الظلة من النحل، حتى لا يمثلوا بجثته؟!!!

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحكمة من بعث السرايا ودورها في الجهاد في سبيل الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية أخذ الحيطة والحذر وعدم الأمن لمكر الأعداء.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحرص على سنن الفطرة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان أخلاق الإسلام في عدم الغدر أو قتل الأولاد.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة خبيب بن عدى رضي الله عنه.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحكمة من بعث السرايا ودورها في الجهاد في سبيل الله:

هذا ما يستفاد في الحديث من قول أبي هريرة رضي الله عنه: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عشرة رهط عينًا سرية، والسرية في النهاية "هى طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو، وجمعها السرايا، سموًا بذلك لأنهم خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السري النفيس، وقيل: سُموا بذلك لأنهم ينفذون سرًا وخفية"[1]، والحكمة من إرسال السرايا وتوجيهها يكمن في قوله تعالى: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[2]، "فبعد أن استقر أمر المسلمين أخذوا يرسلون سراياهم المسلحة تجوس خلال الصحراء المجاورة، وتخترق طريق القوافل المارة بين مكة والشام، وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك، وكان الهدف من ذلك إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم. ذلك الضعف الذي مكّن قريشًا في مكة، من مصادرة عقائدهم وحرياتهم واغتصاب دورهم، وأموالهم، ومن حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآلة شأنها، فإن المتربص بالإسلام في المدينة كثر، ولن يصدهم عن النيل منه إلا الخوف وحده"[3]. فكان للسرايا دور عظيم في الجهاد في سبيل الله.

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، ٤٢٧.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٣) فقه السيرة، محمد الغزالي، ٢١٢-٢١٣.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية أخذ الحيطة والحذر وعدم الأمن لمكر الأعداء:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي "فأحاط بهم القوم، فقالوا: انزلوا، فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا، فقال عاصم بن ثابت أيها القوم أما أنا، فلا أنزل على ذمة كافر"، قال ابن عثيمين: (أي لا أنزل على عهد كافر؛ لأن الكافر قد خان الله عز وجل، ومن خان الله خان عباد الله)[١].

"وقد وقع في رواية ابن إسحاق رضي الله عنه أن عاصم رضي الله عنه أخذ ينشد قائلاً:

مَا عِلَّتِي وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلٌ وَالقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عُنَابِلُ

تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا المَعَابِلُ المَوْتُ حَقٌّ وَالحَيَاةُ بَاطِلُ

وَكُلُّ مَا حَمَّ الإِلَهُ نَازِلٌ بِالمَرْءِ وَالمَرْءُ إِلَيْهِ آيِلُ[٢]

إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ[٣]

هابل: أي: فاقد: يقال: "هبلته أمه. إذًا فقدته"[٤].

قال ابن حجر: (وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يمكن من نفسه ولو قتل، أنفة من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة فإذا أراد الأخذ بالرخصة له أن يستأمن)[٥].

وقد أمر الحق تبارك وتعالى المؤمنين باتخاذ الحيطة والحذر وعدم الأمن لمكر الأعداء من الكفار فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾[٦]، قال السعدي: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٥٨٩.

(٢) البداية والنهاية ٤/٦٤، والبدء والتاريخ ٤/٢١٠، والأبيات لعاصم ابن ثابت.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/١٢٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٩٩٨.

(٥) فتح الباري ٧/٤٤٤.

(٦) سورة النساء، آية: ٧١.

الكافرين. وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمى والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم، ومخارجهم، ومكرهم والنفير في سبيل الله)[١]، ثم بين الحق تبارك وتعالى الحكمة من اتخاذ الحيطة والحذر فقال: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً﴾[٢].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحرص على سنن الفطرة:

وهذا ما أشار إليه الحديث من حرص خبيب رضي الله عنه على الاستحداد، وقد ورد ذلك في قول الراوي: "فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته." قال ابن حجر: (في قول "ليستحد بها" أى يحلق عانته)[٣]، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الحرص على سنن الفطرة فقال: "الفطرة خمس - أو خمس من الفطرة- الختان والاستحداد ونتف الإبط، وتقليم الأظافر وقص الشارب"[٤]، قال ابن حجر: (ويتعلق بهذه الخصال مصالح دينية ودنيوية تدرك بالتتبع. منها تحسين الهيئة، وتنظيف البدن جملة وتفصيلاً، والاحتياط للطهارتين، والإحسان إلى المخالط والمقارن، بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة، ومخالفة شعار الكفار أو المجوس واليهود والنصارى وعبّاد الأوثان، وامتثال أمر الشارع، والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾[٥]، لما في المحافظة على هذه الخصال من مناسبة ذلك، وكأنه قيل قد حسّنتُ صوركم فلا تشوهوها بما يقبحها، أو حافظوا على ما يستمر به حسنها وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة وعلى التآلف المطلوب، لأن الإنسان إذا بدا في الهيئة الجميلة كان أدعى لانبساط النفس إليه، فيقبل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٥٠.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٢.

(٣) فتح الباري ٧/٤٤٢.

(٤) أخرجه البخاري ٥٨٨٩.

(٥) سورة غافر، آية: ٦٤.

قوله، ويحمد رأيه، والعكس بالعكس. وأما شرح الفطرة فقال الخطابي: ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالفطرة هنا السنة، وكذا قال غيره، قالوا والمعنى أنها من سنن الأنبياء. وقالت طائفة المعنى بالفطرة الدين)[1]، فعلى المدعو أن يحرص على سنن الفطرة لما في ذلك من فضل عظيم.

رابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان أخلاق الإسلام في عدم الغدر أو قتل الأولاد:

هذا ما أظهره خبيب رضي الله عنه في الحديث من قول الراوي: " فدرَجَ بُنَيٌّ لها وهي غافلةٌ حتى أتاهُ، فوجَدَتهُ مُجلسَهُ على فخذهِ والموسى بيده، ففزِعتُ فَزعةً عرَفَها خُبيب. فقال: أتخشَينَ أن أقتلَه؟ ما كنتُ لأفعلَ ذلك. قالت: واللهِ مارأيتُ أسِيرًا قطُّ خيرًا من خُبَيب"، "وهذا ما أمر الله به النبي صلى الله عليه وسلم، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذَا أَمَّرَ أَميرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاه في خَاصَّتِهِ بتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ منَ الْمُسْلِمينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبيلِ الله قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله أغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا"[2]، قال النووي: (في قوله صلى الله عليه وسلم: "ولا تغدروا" بكسر الدال، والوليد الصبي، وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها وهي تحريم الغدر وتحريم الغلول وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا وكراهة المثلة)[3]. وقال ابن حجر: (في حديث أبي هريرة: وفيه الوفاء للمشركين بالعهد والتورع عن قتل أولادهم)[4]. وما ذلك إلا لكمال وعظم خلق الإسلام.

خامسًا- من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة خبيب بن عدى رضي الله عنه:

قد أشار الحديث إلى ذلك من قول الراوي: "قالت: والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب، فوَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيْبًا"، قال ابن حجر: (القطف

---

(١) فتح الباري ٣٥١/١٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٣١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١١١٦.

(٤) فتح الباري ٤٤٤/٧.

بكسر القاف العنقود)[١]، وفي رواية ابن إسحاق: "وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل"[٢]، قال ابن عثيمين: (قد هيأ الله سبحانه وتعالى له هذا العنب وهو أسير لا يملك لنفسه شيئًا لا يستطيع أن يخرج إلى السوق يشتري أو يطعم، تحت رحمة هؤلاء ...، وهذا كقصة مريم رضي الله عنها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣]. فهذه من كرامة الله تعالى لخبيب رضي الله عنه)[٤]، وقد ذكر ابن حجر في الإصابة: (عن ابن أبي شيبة، وعن أبي يوسف أن رسول الله ﷺ أرسل المقداد والزبير في إنزال خبيب عن خشبته، فوصلا إلى التنعيم، فوجدا حوله أربعين رجلا نشاوى، فأنزلاه فحمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء فنذر بهم المشركون، فلما لحقوهم قذفه الزبير فابتلعته الأرض فسمي: بليع الأرض أ. هـ، وذكر أيضًا أن خبيبا لما قتل جعلوا وجهه إلى غير القبلة فوجدوه مستقبل القبلة فأداروه مرارا ثم عجزوا فتركوه، وفي ذلك بيان على كرامة الله تعالى لخبيب رضي الله عنه وعظيم فضله)[٥].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل وكرامة عاصم بن ثابت رضي الله عنه:

هذا ما ورد في الحديث من قول الراوي " وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثُوا أنه قتل أن يأتوا بشيء منه يعرف، وكان قتل رجلاً من عظمائهم، فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا، ووقع عند ابن إسحاق "إن عاصمًا لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد؛ لئن قدرت على رأس

---

(١) فتح الباري ٧/٤٤٢.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ٣/١٢٧

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣٧.

(٤) شرح رياض الصالحين ٢/١٥٩٠.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ٣٣٦.

عاصم لتشربن في قحفه الخمر -"وقحف الرأس: هو الذي فوق الدماغ. وقيل هو ما انفلق من جمجمته وانفصل-"[١].

فمنعته الدبر"[٢]، قال ابن حجر: في قوله: مثل الظلة من الدبر "الظلة بضم المعجمة السحابة، والدبر بفتح المهملة وسكون الموحدة الزنابير، وقيل ذكور النحل، وقوله: "فحمته" أي منعته منهم"[٣]، وقال ابن إسحاق: (فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه فبعث الله الوادي، فاحتمل عاصمًا فذهب به، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا؛ تنجسًا، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته)[٤].

قال ابن حجر: (وفي الحديث: إثبات كرامة الأولياء.، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيًا وميتًا ...، وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه)[٥]، وفي ذلك بيان على كرامة الله تعالى لعاصم بن ثابت رضي الله عنه وعظيم فضله.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٧٣٣.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ١٢٥/٣.

(٣) فتح الباري ٤٤٤/٧.

(٤) السيرة النبوية، ابن هشام، ١٢٥/٣-١٢٦.

(٥) فتح الباري ٤٤٤/٧-٤٤٥.

الحديث رقم (١٥١٢)

١٥١٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ عمر رضي الله عنه يقولُ لِشَيءٍ قَطُّ: إنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا ، إلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ. رواه البخاريُّ[١].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

إن الفاروق عمر -كما يقول العقاد- كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق، وخبايا النفوس، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد، أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد، بل علم الدنيا، وعلم كيف يتقلب الإنسان، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور، وكانت له في استيحاء الخفايا قدرة تقرب من الإلهام أو من مكاشفة الغيب، لولا أنها تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة[٢].

وهذا التصور لشخصية عمر ليست إطراءً من العقاد تدفع إليه المبالغة والتحيز والتعصب، ولكنه حقيقة واقعة تؤيدها الحوادث التاريخية، والمواقف العمرية المأثورة، ويكفي عمر بن الخطاب شهادة رسول الله ﷺ له، وقوله مشيدًا بحدْسه وفطنته، وقوة حجته وقدرته على استقراء الأحداث، واستخلاص الحقائق المطوية في تراكمات الزمن.

يقول المصطفى ﷺ "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"[٣]، ويقول -عليه الصلاة والسلام- عمر معي، وأنا معه، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان[٤].

وفي ضوء هذه الصورة المتألقة بالفطنة والإلهام: للفاروق عمر الحاكم العادل

---

(١) برقم (٣٨٦٦).

(٢) انظر: عبقرية عمر، عباس محمود العقاد.

(٣) أخرجه الترمذي، ٣٦٨٢، من حديث عبدالله بن عمر، والحديث صححه الألباني، انظر(صحيح سنن الترمذي، ٢٩٠٨).

(٤) الطبراني ٢٨١/١٨ ، مجمع الزوائد ٢٦/٩.

الإمام، نقرأ دلالات هذا الحديث الشريف، ونتأمل جماليات الأسلوب فيه.

فالحديث يتكون من جملة واحدة صيغت في أسلوب القصر عن طريق النفي بما والاستثناء بإلا، والقصر هنا غايته التأكيد على دلالة المضمون في الحديث... وترسيخ حقيقة فطنة عمر وقوة حدْسه في أذهان الناس، وتحقق كل ما كان يتوقعه أو يذهب إليه من آراء، والراوي هو عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فهو ليس بعيدًا عن مشاهدة أبيه، وسماعه، ومعايشته في كل لحظة، وهذا أكبر دليل على قوة هذه الخصلة التي صورها الشاعر العربي في قوله:

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا[1]

وقوله: "لشيء قط"، يجعل هذا الأمر أكثر ثباتًا في الأذهان، و"قط" توحي بالاستقصاء، وقوله: "شيء": يفيد العموم والشمول حيث يشمل كل أمور الحياة المتشعبة والمتنوعة.

والتأكيد في قوله: "إني لأظنه"... ينفي أي شبهة يدعيها المغرضون حول شهادة ابن عُمر لأبيه واللام في "لأظنه"، تؤكد المعنى وتشعر بالقسم وتجعل من الظن هنا مرحلة من مراحل اليقين، وليس تخمينًا أو افتراضًا يفتقد البرهان الساطع والدليل القاطع، وقوله: "إلا كان كما يظن" يجعل من الظن حقيقة، ومن الحدْس واقعًا.

وموافقات عمر للقرآن والسنة كثيرة، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد من أحكام لا تنجلي مآتيها ومراميها، فهو كما قالت عاتكة بنت زيد في رثائه:

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى أخي ثقة في النائبات منيب[2]

---

(١) وفيات الأعيان ٤١٧/٢، والكامل في الأدب ٢٢٠/٢، والحماسة البصرية ٣٥٤/١.

(٢) تاريخ الطبري ٥٧٥/٢، والكامل في التاريخ ٤٥٦/٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية العقائدية:

إن من أصول التربية الإسلامية التي يجب تربية النشء المسلم عليها، التربية العقائدية حيث يجب بيان العقيدة الصحيحة التي يؤمن بها المسلم ومما يرتبط بهذه العقيدة ما يتعلق بكرامة الأولياء، مما ورد في مجمل أحاديث الباب، حيث دلت على كمال قدرة الله تعالى ونفوذ مشيئته، لما يجريه تعالى من خوارق العادات على أيدي أوليائه المتبعين لأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم[1].

ولكن تربية النشء المسلم على الاعتقاد بكرامة الأولياء يجب أن تكون واضحة لا يكتنفها أي نوع من الغموض، أو تلك الخرافات والأباطيل التي يعتقدها العامة والدهماء من الناس، لذا ينبغي أن يعني القائمون على التربية بأهمية التركيز على ما يلي:

١- بيان حقيقة أولياء الرحمن حيث بين سبحانه ذلك في كتابه الكريم في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

٢- بيان أن الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، والولي لله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، فمن ادعى في نفسه ولاية الله ومحبته وهو لم يتبعه، فليس من أولياء الله[3].

٣- التأكيد على أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون، وبحسب إيمان العبد تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس

---

(١) الموسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ١٨٢/١.

(٢) سورة يونس، آيات: ٦٢-٦٤.

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، ٧، ٩.

متفاضلون في ولاية الله عز وجل، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1][2].

٤- ضرورة تصحيح الأفهام الخاطئة في عقول عامة المسلمين من المتربين والمتعلمين والتي منها أنه ليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحًا، ولا يحلق شعره أو تقصيره أو ظفره، إذا كان مباحًا، كما قيل: كم من صدّيق في قباء، وكم من زنديق في عباء.

وكذلك ضرورة تصحيح أن يكون المجنون وليًا لله، فإن كان لا يصح منه إيمان ولا تقوى، وقد رفع القلم عنه، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء، فكيف نُثبت أنه وليًا لله!!!!، فالعاقل هو من يثبت للمجنون حاجته إلى علاج واستشفاء، أما الاحتجاج بأن للمجنون مكاشفة، أو نوعًا من تصرف، مثل أن يُرى أنه قد أشار إلى واحد، فمات أو صرع، فهذا الاحتجاج مردود بأن للكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية، كالكهان والسحرة وعباد المشركين، وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد من المتربين والمتعلمين الاستدلال بمجرد ذلك على كون الشخص وليًا لله[3].

ثانيًا: التربية على الإحسان الفردي:

هذا ما يجب غرسه كقيمة تربوية في نفس النشء المسلم، ومن شواهد ذلك في

---

(١) سورة التوبة، آيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٢) الفرقان، ابن تيمية، ٢٤.

(٣) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، ٤٣، ٤٤، ٤٦ بتصرف.

أحاديث الباب قوله ﷺ: ((مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ بِسَادِسٍ، وقَالَ راوي الحديث: وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ، ...إلخ)).

"وفي ذلك تربية إسلامية على تكوين النفس الخيرة، المعطية الباذلة، النفس التي تعطي أكثر مما تطلب، وتنفق أكثر مما يجب عليها، بل تعطي بغير طلب ولا سؤال، وتنفق في السراء والضراء، بالليل والنهار، سرًا وعلانية، فيكون صاحبها بذلك محبًا للناس مما يحب لنفسه، بل يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، وهو بذلك يعد المال وسيلة لا غية، وسيلة للإنفاق والبر بالناس، فيفيض قلبه بالخير فيضًا، ويبسط يده بالعطاء بسطًا، ابتغاء رضاء الله ومثوبته، لا حبًا في جاه، ولا طلبًا لسمعة أو شهرة، ولا خشية من عقوبة سلطان"[1].

وبذلك يغرس الإحسان في النفس غرسًا، وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه تربية النشء على الإحسان كخلق يقيم مبدأ التكافل الاجتماعي، وجب عليهم ما يلي:

١ - بيان ما ورد في آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم ﷺ من ترغيب وترهيب في البذل والإنفاق، والتحذير من الشح والبخل بأروع الصور الفنية، وأبلغ الأساليب الأدبية، التي يذيب وعيدها القلوب الجامدة، ويحرك وعدها الأيدي الممسكة، فتفيض بالخير، وتنبسط بالعطاء[2].

٢ - بيان حال السلف الصالح في إحسانهم الفردي وتكافلهم الاجتماعي: "كما حكى عن الإمام الليث بن سعد أن أمواله كانت تدر عليه كل يوم نحو ألف دينار ومع هذا حكوا أنه لم تكن تجب عليه فيها زكاة؛ لأنه لم يكن يدعها حتى يحول عليها الحول بل يتصدق بكل ما جاءه من مال، وينفقه في سبيل الله، قالوا: وكان الليث لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمائة وستين مسكينًا. وحكي أن امرأة سألته شيئًا من عسل، فأمر لها بزق منه، فقيل له: إنها كانت تقنع بدون هذا. فقال: إنها

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ١٤٢ بتصرف يسير.

(٢) انظر: المرجع السابق، ١٤٣.

سألت على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا"[١]، وبذلك يرسخ مفهوم الإحسان الفردي كقيمة تربوية في نفوس النشء المسلم، وتزكوا بذلك أخلاقهم.

ثالثًا- التربية بالاستفهام والسؤال:

إن المتربي والمتعلم في حاجة ماسة إلى معرفة كل ما غاب عنه وخفي، حتى يكمل له علمه، ويسد عليه جهله، وليس أنفع في ذلك ولا أجدى من استفهامٍ وسؤالٍ لعالم، يكشف ظلمة جاهل، ويسكن حيرة سائل.

ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب، استفهام زوجة الصديق رضي الله عنهما بقولها: ((... ما حبسك عن أضيافك؟))، وكذلك استفهام الصديق رضي الله عنه بقوله: ((...أو ما عشيتم؟))، وقوله رضي الله عنه: ((... يا أخت بني فراس ما هذا؟)).

لذا وجب على كل متربي ومتعلم أن يسأل ويستفهم عن كل ما غاب عنه وخفي، حتى يكون على علم وبينة.

رابعًا- التربية الجهادية:

إن من أبرز ما يجب أن يتربى عليه النشء المسلم، والذي تراءى من أحاديث الباب، التربية الجهادية، حيث قوله جابر بن عبدالله بن حرام رضي الله عنهما: ((لمّا حَضرَ أُحُدٌ دعاني أبي مِنَ الليلِ فقال: ما أُراني إلاّ مَقتولاً في أوّلِ مَن يُقتل مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ.....))، وقول ضبيب رضي الله عنه:

فَلَسْتُ أبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كَانَ لله مَصْرَعِي

وذلِكَ في ذَاتِ الإلهِ وإنْ يَشأ ... يُبَارِكْ عَلَى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فتربية النفوس على الجهاد مما تشرف به الهمة، ويُرفع به الذل عن الأمة، وبه يحق الحق، ويرفع الظلم، وتصحو الأمة من رقدتها، وتنهض من كبوتها، وتستعيد أمجادها، وتصبح مهيبة الجانب موفورة الكرامة.

وهذا مما يؤكد أهمية تنمية روح الجهاد في نفوس النشء المسلم والتنفير من

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢٤١/١.

الركون إلى الدنيا وشهواتها، والترغيب في التضحية وبذل الأنفس والأموال ابتغاء مرضاة الله، وتعويد النشء المسلم وترويضه على التجلد والصبر والاخشوشان[1].



(١) انظر: الموسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد مصطفى متولي، ٢/٢٨٢-٢٨٤.

١٧- كِتَاب الأُمُورِ المَنْهِي عَنْهَا

٢٥٤- باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللّهَ إنَّ اللّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات: ١٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

اعْلَمْ: أنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَميعِ الكَلامِ إلاَّ كَلاَمًا ظَهَرَتْ فِيهِ المَصْلَحَةُ، ومَتَى اسْتَوَى الكَلاَمُ وَتَرْكُهُ فِي المَصْلَحَةِ، فالسُّنَّةُ الإمْسَاكُ عَنْهُ، لأَنَّهُ قَدْ يَنْجَرُّ الكَلاَمُ المُبَاحُ إلَى حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، وذَلِكَ كَثِيرٌ فِي العَادَةِ، والسَّلاَمَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.

الحديث رقم (١٥١٣)

١٥١٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: ((**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**)) متفق عَلَيْهِ[١].

وهذا الحديث صَرِيحٌ فِي أنَّهُ يَنْبَغي أنْ لا يَتَكَلَّمَ إلاَّ إِذَا كَانَ الكلامُ خَيرًا، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، ومَتَى شَكَّ فِي ظُهُورِ المَصْلَحَةِ، فَلاَ يَتَكَلَّم.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

حيث نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف نجد أنه يتكون من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧/٧٤) ولفظهما سواء، وقد تقدم برقمي ٣١٤، و٧٠٦. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٩٤) بتمامه.

جملة لغوية واحدة، ولكنها تنطوي على كثير من الدلالات، وتتوهج بعديد من التوجيهات والإرشادات... وهذه الجملة صيغت في قالب الشرط والجواب، فالشرط مقدمة تمهد للجواب... وتستند إليه: لأنه لا نتيجة بدون مقدمة، والنتيجة لابد أن تنبثق من خلال إرهاصات المقدمة ومعالمها.

وأداة الشرط: "مَنْ" وهي للعاقل، وفي ذلك إيحاء وإرشاد بأن المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، لابد أن يتمتع بقوة عقلية متزنة، وإرادة إيمانية قوية، وسلوك قولي وفعلي إيجابي مؤثر، وجملة فعل الشرط تتضمن فعلين أحدهما ماضي وهو "كان"، والآخر: مضارع وهو "يؤمن"، ولا تناقض بين دلالة الفعلين، فدلالة الفعل "يؤمن"، الاستمرار وعدم انقطاع تيار الإيمان عن قلب المؤمن، والفعل كان يفيد ثبات هذا اليقين المستمر، وذلك الإيمان المتوهج، ولذلك جمع فعل الشرط بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فالإيمان بالله: هو اليقين بوجود الله تعالى في حياة الإنسان، وأنه كل متعلقات المؤمن وكل الخلق أجمعين بحول الله تعالى وقدرته.

وأما اليوم الآخر: أي يوم القيامة فهو أمر مستقبلي، وخصه بالذكر لأن الإيمان به يستلزم التصديق بما فيه من ثواب وعقاب، وذلك مستلزم للإيمان لكل ما يجب الإيمان له من ضرورة الحياة.

وجواب الشرط يتضمن لام الأمر في قوله: "فليقل خيرًا"، وهي تجعل من قول الخير أمرًا واجب التنفيذ: والكلام الخير هو الذي ظهرت مصلحته، وكلمة "خيرًا"، من الكلمات المشحونة بطاقات الإيجاز، فهي تتسع لكثير من الدلالات والتصورات، فكل ما تصدر عن الإنسان من أقوال نافعة للناس، نابعة من تعاليم الإسلام، وقواعد الشرع يُعدُّ خيرًا، ولذلك تكررت اللام مرة أخرى في الفعل المعطوف على"فليقل"، وهو "أو ليصمت"، والصمت واجب شرعًا إذا فقد الكلام خيريته، وشابَهُ عدمُ النفع، أو حكمته اللامبالاة، وسيطرت عليه نزعة التحرر من قواعد التعاليم الإسلامية، وضوابط التفكير الإسلامي، ومعايير الكلمة الجميلة التي يحترمها الإسلام.

المضامين الدعوية [1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الجزء الأخير من الحديث رقم (٣١٤).

الحديث رقم (١٥١٤)

١٥١٤- وعن أَبي موسى رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ أَيُّ المُسْلِمِينَ أفْضَلُ؟ قَالَ: ((مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو موسى الأشعري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

الشرح الأدبي

هذا الحديث الشريف يقدم في صيغة السؤال والجواب، وهذه الطريقة الحوارية إحدى وسائل الإقناع التي كثيرًا ما تجيء الأحاديث على نهجها حتى يتعلم الصحابة ومَنْ بعدهم من المسلمين، والحوار هنا بين الراوي الأعلى أبي موسى ورسول الله ﷺ، ويبدأ بأداة الاستفهام "أي" مضافة إلى المسلمين، وفي ذلك تشويق للسامع، وبيان لأهمية المسلم الذي يفضله ربه، ومجيء المسلمين في صيغة الجمع يفصح عن الأفضلية في أي زمان ومكان، وليست الأفضلية مقيدة بزمن الرسالة أو غيره، وقوله: "أفضل": أفعل تفضيل فكل المسلمين فضلاء لانتمائهم إلى الدين الحنيف، ولكن منهم الفاضل، ومنهم الأفضل، أي الأكثر فضلاً، والفضل هو الزيادة والشرف، وقولهم: أفضل في الحسب: إذا حاز الشرف وإجابة رسول الله ﷺ تتضمن إيجازًا وهو من بلاغة الحذف، حيث أجاب: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"، والتقدير: أفضل المسلمين: من سلم المسلمون... إلخ.

والمشاكلة بين قوله: "سلم"، وقوله: "المسلمون"، تفيد التقارب بين مدلول اللفظين، فمادة سلم، هي: الجذر اللغُوَي: للفظ "المسلمون"، وفي كتاب أساس البلاغة ربطٌ دلاليٌّ بين جَذْر الفعل، وبين دلالاته ومعانيه، فقوله: "سلم"، أي سلم من البلاء سلامة وسلامًا؛ وسلم من المرض، أي برئ، ويقولون: سَالَمْت العدو مسالمة، ويقولون: فلان سِلْمٌ لفلان وحرب له.

---

(١) أخرجه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢/٦٦) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٠٠).

وكل هذه الدلالات تتآزر في إضاءة المعاني التي يموج بها الحديث الشريف، حيث لا يكون المسلم سبّابًا ولا شتامًا ولا لعانًا، ولا مغتابًا ، ولا نمامًا، ولا كذوبًا، وينجو المسلمون من كل آفات اللسان، وكذلك من كل أذى يلحق بهم باليد أو بغيرها.. ويندرج في إطار السلامة من اللسان واليد ما لا يحصى من السلوكيات التي يرفضها الإسلام، وتأباها طبيعة المسلم الذي يتسم بالأفضلية، وقيل: خص اللسان واليد بالذكر لغلبة صدور الأمر عنهما، فالقول باللسان، والفعل باليد، وإلا فيكون بغيرهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: سلامة المسلمين من لسان المسلم ويده.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: سلامة المجتمع وتحقيق الأخوة.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "قلت يارسول الله: أى المسلمين أفضل؟"وما لاشك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفتح أذهان المدعوين، وتعرفهم بأحكام الإسلام، قال الشيخ عبدالرحمن الميداني: "وللسؤال والجواب قيمة تأثيرية عظيمة لدى طارحي الأسئلة، الذين يتلقون الإجابات على أسئلتهم ممن وجهوها لهم، ولدى المستمعين الآخرين، ذلك أن من طبيعة السائلين أن يطرحوا أسئلتهم عادة على من يحترمونه ويقدرونه ويثقون بعلمه وأمانته العلمية وبقدرته على فهم أسئلتهم فهمًا دقيقًا فهم إذا تلقوا منه الجواب تلقفوه تلقفًا، لأن كل أبواب أفكارهم ونفوسهم متفتحة لتلقي الإجابة منه"[1]. وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب، قوله

---

(١) فقه الدعوة إلى الله تعالى، ٢/٥٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٢]، فعلى الداعية، حامل رسالة الدعوة، استخدام هذا الأسلوب وتنمية القدرة لديه للإجابة على أسئلة المدعوين.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: سلامة المسلمين من لسان المسلم ويده:

حيث جاء في الحديث: "من سلم المسلمون من لسانه ويده"، قال النووي: (ومعناه: من لم يُؤْذ مسلمًا بقول ولا فعل، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال بها، والمراد المسلم الكامل، وليس المراد نفى أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة، وكمال الإسلام متعلق بخصال أُخر كثيرة، وإنما خص ما ذكر لما ذكرناه من الحاجة الخاصة)[٣].

ومما يبين حرص الرسول ﷺ على سلامة الجماعة المؤمنة ما جاء عن عبدالله بن عمرو: ((أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللّهِ : أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ. وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ))[٤].

قال القاضي عياض: (وقوله ﷺ للسائل: "أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ. وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ"، معناه: أي خصال الإسلام خير، وهذا حض منه ﷺ على تأليف قلوب المؤمنين، وأن أفضل خلقهم الإسلامية ألفة بعضهم بعضًا، وتحببهم وتوادهم، واستجلاب ما يؤكد ذلك بينهم بالقول والفعل، وقد حض ﷺ على التحابب والتودد وعلى أسبابهما من التهادي، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، ونهي عن أضدادها من التقاطع، والتدابر، والتجسس، والتحسس، والنميمة، وذي الوجهين.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٢) سورة الأنفال، آية: ١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢٠.

(٤) أخرجه مسلم ٣٩.

والألفة أحد فرائض الدين وأركان الشريعة ونظام شمل الإسلام. وفي بذل السلام لمن عرفت ولمن لم تعرف إخلاص العمل فيه لله تعالى لا مصانعة ولا ملقًا، لمن تعرف دون من لا تعرف، وجاء في الحديث: "إن السلام آخر الزمان يكون معرفة"، وفيه مع ذلك استعمال خلق التواضع وإفشاء شعار هذه الأمة، من لفظ السلام ومن قوله: ((افشوا السلام بينكم)). وقوله: ((تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)): أي تسلم. قال أبو حاتم: تقول: اقرأ عليه السلام وأقرئه الكتاب ولا تقول: أقرأه السلام إلا في لغة سوء، إلا أن يكون مكتوبًا فتقول: أقرأه السلام، أي جعله يقرأه.

وقوله: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)): أي الكامل الإسلام والجامع لخصاله من لم يؤذ مسلمًا بقول ولا فعل. إذ أكثر الأفعال بالأيدي، فأضيفت عامتها إليها.

وهذا من جامع كلامه، وفصيحه، ومحاسنه، ولا يفهم من هذا أن من ليس بهذه الصفة ليس بمسلم. وهو كما يقال: المال الإبل، والناس العرب، على التفضيل لا على الحصر، وجوابه بعد هذا بأن هذا أفضل الإسلام، وقد تقدم في الحديث الآخر جواب آخر دل أنه ﷺ أجاب كل واحد من السائلين بمارآه أنفع له، وأخص به، وقد يكون ظهر من أحدهما كبر وإمساك وانقباض عن الناس، فأجابه بما في الحديث الأول من إطعام الطعام وإفشاء السلام، وظهر من الآخر قلة مراعاة ليده ولسانه فأجابه بالجواب الآخر، أو يكون ﷺ تخوف عليهما ذلك، أو كانت الحاجة في وقت سؤال كل واحد منهما للعامة أمس بما جاوب به)[1].

وقال القرطبي: (وقوله: أي المسلمين خير؟ فقال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده" هذا السؤال غير السؤال الأول وإن اتحد لفظهما بدليل افتراق الجواب، وكأنه - عليه الصلاة والسلام - فهم عن هذا السؤال إنما سأل عن أحق المسلمين باسم الخيرية وبالأفضلية. وفهم عن الأول أنه سأل عن أحق خصال الإسلام بالأفضلية؛ فأجاب كلاً منهما بما يليق بسؤاله -والله تعالى أعلم- وهذا أولى من أن تقول: الخبران واحد، وإنما

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١/٢٧٦، ٢٧٧.

بعض الرواة تسامح؛ لأن هذا التقدير يرفع الثقة بأخبار الأئمة الحفاظ العدول مع وجود مندوحة عن ذلك.

وقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" أي: من كانت هذه حاله كان أحق بهذا الاسم وأمكنهم فيه، ويبين ذلك: أنه لا ينتهي الإنسان إلى هذا حتى يتمكن خوف عقاب الله تعالى من قلبه ورجاء ثوابه، فَيُكْسِبه ذلك ورعًا يحمله على ضبط لسانه ويده، فلا يتكلم إلا بما يعنيه، ولا يفعل إلا ما يسلم فيه، ومن كان كذلك فهو المسلم الكامل، والمتقي الفاضل. ويقرب من هذا المعنى بل يزيد عليه قوله - عليه الصلاة والسلام -: «لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1]. إذ معناه: أنه لا يتم إيمان أحد الإيمانَ التام الكامل حتى يضم إلى سلامة الناس منه إرادته الخير لهم، والنصح لجميعهم، فيما يحاوله معهم، ويستفاد من الحديث الأول: أن الأصل في الحقوق النفسية والمالية المنع، فلا يحل شيء منها إلا بوجه شرعي، والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم)[2].

جاء في فتح الملهم: قوله: "قال: من سلم المسلمون من لسانه" الخ: أي: بالشتم، واللعن، والغيبة، والبهتان، والنميمة، والسعي إلى السلطان، وغير ذلك، حتى قيل: أول بدعة ظهرت قول الناس: الطريق الطريق.

قوله: "ويده"... إلخ: بالضرب، والقتل، والهدم، والدفع، والكتابة بالباطل، ونحوها. وخصا لأن أكثر الأذى بهما، أو أريد بهما التمثيل، وقدم اللسان لأن الإيذاء به أكثر وأسهل، ولأنه أشد نكاية، كما قال:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان[3]

ولأنه يعم الأحياء والأموات، وابتلى بهما الخاص والعام، خصوصًا في هذه الأيام. وعبر بالسلامة من اللسان دون القول، ليشمل إخراج اللسان استهزاء بغيره، وقيل: كنى

---

(١) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، قافية النون ١٠/٦٢.

باليد عن سائر الجوارح، لأن سلطنة الأفعال إنما تظهر بها، إذ بها البطش، والقطع، والوصل، والمنع، والأخذ، فقيل في كل عمل: هذا ما عملته أيديهم، وإن لم يكن وقوعه بها.

ثم الحد والتعزيز وتأديب الأطفال والدفع لنحو الصيال ونحوها فهي: استصلاح وطلب للسلامة، أو مستثنى شرعًا، أو لا يطلق عليه الأذى عرفًا.

قوله: "المسلم من سلم المسلمون" إلخ: أي: المسلم الكامل، كما يقال: زيد: الرجل، أي: الكامل في الرجولية، ويقال: المال: الإبل، والناس: العرب، على التفصيل، لا على الحصر، والمراد: أن المسلم الكامل: من سلم المسلمون من لسانه ويده، مع مراعاة باقي الأركان والآداب.

والمراد بذلك الإشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه "من حيث كونهم إخوانه في الإسلام" فأولى أن يحسن معاملة ربه من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وذِكْر "المسلمين" ههنا خرج مخرج الغالب، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدًا، ولأن الكفار بصدد أن يقاتلوا وإن كان فيهم من يجب الكف عنهم[1].

وقال ابن حجر: "قال الخطابي: المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى، أداء حقوق المسلمين، انتهى. ويحتمل أن يكون المراد بذلك أن يبين علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه، وهى سلامة المسلمين من لسانه ويده وذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب، لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدًا والإتيان بجمع التذكير للتغليب فإن المسلمات يدخلن في ذلك، وخص اللسان بالذكر لأنه المعبر عما في النفس، وهكذا اليد لأن أكثر الأفعال بها، وفي التعبير باللسان دون القول نكتة، فيدخل فيه من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وفي ذكر اليد دون

---

(١) فتح الملهم، الشيخ/شبير أحمد العثماني، ١/٥٧٩، ٥٨٠.

غيرها من الجوارح نكتة، فيدخل فيها اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق"(١). وقال ابن علان: "وقوله: "أى المسلمين أفضل" أى أكثر ثوابًا وأعلى مقامًا والمراد من الحديث من سلم الناس من أذاه، والفعل الخارج على الغالب لامفهوم له، فأفضل المسلمين من لم يصدر منه أذى لأحد منهم"(٢).

ثالثًا- من أهداف الدعوة: سلامة المجتمع وتحقيق الأخوة:

يتضح هذا من سياق الحديث، فإن المسلم الذي يرفع أذاه عن إخوانه إنما يساهم في تحقيق السلام، والأمن، والأخوة في داخل المجتمع المسلم، وهذا يبين أن من أهم أهداف الدعوة تحقيق الأخوة لسلامة المجتمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٣)، وقال الرسول الكريم ﷺ: "وكونوا عباد الله إخوانًا"(٤)، وهذا يجعل الدين عبادة وسلوكًا ومعاملة بين الناس.

قال الشيخ محمد الغزالي: (في المجتمع المتحاب بروح الله الملتقي على شعائر الإسلام، يقوم إخاء العقيدة مقام إخاء النسب، وربما ربت رابطة الإيمان على رابطة الدم، والحق أن أواصر الأخوة في الله هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت رايته، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ في تأسيس أمة صابرت هجمات الوثنية الحاقدة وسائر الخصوم المتربصين، ثم خرجت بعد صراع طويل وهي رفيعة العماد وطيدة الأركان، على حين ذاب أعداؤها وهلكوا، لقد كانت المدينة التي احتضنت الإسلام ومجدت كلمته تقيم العلاقات بين القاطنين والوافدين على التباذل في ذات الله، والإيثار عن سماحة رائعة، والمساواة بين الأنساب والأجناس، وتبادل الاحترام والحب وإشاعة الفضل وتقديس الحق، وإسداء المعروف عن رغبة فيه لا عن تكليف به، وهذه علائم الإخاء الصحيح، إخاء العقيدة الخالصة لوجه الله، لا إخاء المنافع الزائلة،

---

(١) فتح الباري، ١/٦٩، ٧٠.

(٢) دليل الفالحين، ١٥٧٤.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٦٦، ومسلم ٢٥٦٣ واللفظ له.

ولا إخاء الغايات الدنيا[١].

إن الرسول الكريم ﷺ بهذا التوجيه يريد أن تتكاتف الجماعة المسلمة في إيجاد المجتمع الظاهر الذي تراعى فيه المشاعر وتقدر فيه الصلات وتحترم فيه الحرمات.

(إن النبي ﷺ بهذا التوجيه الواقعي الفعال يحب أن يقيم مجتمعًا إسلاميًا له حرمته، وله نظمه وإجراءاته، وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضهم البعض، وله آدابه السلوكية مع الآخرين. وهذه الروابط تزداد قوة ومتانة بإطعام الطعام، وإفشاء السلام. وقوله: "من سلم المسلمون" أي: والمسلمات إما تغليبًا وإما تبعًا، والمرأة المسلمة مطالبة أيضًا باتخاذ وسيلة إطعام الطعام وإفشاء السلام. وهناك رواية أخرى توسع دائرة المجتمع الإسلامي، فعن أنس رضي الله عنه: «مَنْ صَلَّى صَلاتَنا، واسْتَقبَلَ قِبلتَنا، وأَكلَ ذَبيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ وذمة رسولِهِ، فلا تَخفِروا اللهَ في ذِمَّتِهِ»[٢]. ولذلك قال العلماء: إنه يلحق بالمسلمين أيضًا أهل الذمة حكمًا في حسن معاملتهم.

وهو ﷺ يريد بذلك أن يقيم مجتمعًا نظيف المشاعر، مكفول الحرمات مصون الغيبة والحضرة، لا يؤخذ فيه أحد بظنه، ولا تتبع فيه العورات، ولا يتعرض فيه أمن الناس وكراماتهم وحرياتهم لأدنى مساس، وهو مجتمع له فكرته السامية عن وحدة الإنسانية المختلفة بشريعة الأجناس المتعددة الشعوب، له ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع معتقداً أنه ميزان شريعة الله المبرأة من شوائب الهوى وأنه ميزان الأخوة. والحديث بهذا المفهوم يرسم معالم المجتمع، الرفيع، الكريم، النظيف، ويحدد معالم الإيمان، الذي باسمه دعا إلى إقامة ذلك المجتمع، وفي مثل هذا الجو يطالب المسلم بأن يعيش مع الجماعة، يعمل ويبني ويتآخى، وإذا تطلب الأمر فيتحمل بعض ما يكره ويتغاضى عن بعض مالا يستطيع مقاومته، ويتدرب ألا يتلفظ بكلمة جارحة، ولا يؤذي أحدًا بلسانه؛ لأن المسلم مرهف الحس.

---

(١) خلق المسلم ١٧٠، ١٧١.

(٢) أخرجه البخاري، ٣٩١.

وبهذا الشعور المتبادل، والأخوة الحية، تكون للجماعة المسلمة، قوة قادرة على مواجهة الأعداء، وكبح جماحهم، ويترتب على هذا التأني والحذر، أن يكون الحب والسلام والتعاون والوئام والتراحم والتناصح هو الأصل في البيئة الإسلامية، وأن يكون الخلاف والنزاع هو الاستثناء الذي يجب أن يعالج وأن يرد إلى الأصل فور وقوعه. وهذا معنى قوله ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجرَ ما نَهى اللّهُ عنه».

ومن فوائد هذا الحديث:

أن الإسلام الحقيقي لا يتم للمسلم إلا بالقيام بحقوق الله وحقوق المسلمين، وبأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وتمامه بكف أذاه عنهم وسلامتهم من شر لسانه وبطش يده. وأن المؤمن الحقيقي هو الذي تمكن الإيمانُ من قلبه، ودفعه إلى رعاية مصالح المسلمين وحافظ على أمانتهم ودمائهم. ويشير إلى وجوب تجنب إيذاء المسلمين بشتى صوره باللسان وبالقلم وبالسنان. وأن الإيمان يدفع المؤمن لأن يؤمن على أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم. وأن إيذاء المسلمين ومن لا يأمنه الناس لا إيمان له.، وأن الهجرة نوعان: ترك الوطن الأصلي إلى مكان آخر وهي خاصة، وهجرة عامة هي ترك ما نهى الله عنه.

ومن هذا الحديث يتضح أن المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله[1].

---

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ٨٦-٨٨ بتصرف.

الحديث رقم (١٥١٥)

١٥١٥- وعن سهل بن سعد، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ((**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد الساعدي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٧٥).

غريب الألفاظ:

لحييه: هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان[٢].

الشرح الأدبي

حين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث نجده يتكون من جملة واحدة، ولكنها تتسم بالإيجاز، والإيحاء، حيث تشع وتتوهج بالمعاني والدلالات الاجتماعية، التي تصلح ما بين الناس من علاقات، وهي كذلك تتوّج حياة المسلم بالفوز بالجنة في الآخرة.

والحديث يبدأ باسم الموصول "مَنْ" وهو للعاقل وبمعنى الذي، وهو ينطبق على أي مسلم في كل زمان ومكان يتسم بهذا السلوك الإسلامي الذي حدده رسول الله ﷺ وهو أن يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه.

وقوله: "ما بين لحييه" كناية عن اللسان، واللحيان: هما: العظمان اللذان ينبت عليهما الأسنان علوًا وسفلاً، وقد أبرزه في صورة التمثيل ليكون التأكيد فيه بليغًا.

وقوله "ما بين لحييه" فيه إشارة كذلك إلى أن اللسان وما يجاوره وما يعلوه، من أجزاء الفم من الحلق: والفم والأسنان، وغيرها هي محل مخارج الحروف التي يتكون منها الكلام، فحروف الحلق، ستة، والحروف التي تخرج من جانبي اللسان وأطرافه،

---

(١) اخرجه البخاري (٦٤٧٤)، ولم يروه مسلم. وأورده الحميدي في جمعه (٥٥٧/١، رقم ٩٢٨) في أفراد البخاري. أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٥٧) وعزاه إلى البخاري والترمذي.

(٢) فتح الباري: ٢١٦/١١.

وما يحيط به: ثمانية عشر حرفًا كما قال علماء اللغة، ومن الفم، ومن الشفتين تخرج الحروف الأربعة الأخرى، فإذا التزم الإنسان بحفظ اللسان من القول الزائف والباطل، فقد فاز بالجنة، وقوله: "يضمن لي" إشارة إلى ضرورة التزام المسلم بالأقوال التي لا تتعارض مع كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله ﷺ، وقوله: "وما بين رجليه"، كناية عن الفرج، والضمان معناه: أن لا يرتكب الإنسان الحرام عن طريق الفرج، فلا يزني، ولا يرتكب كل ما يغضب الله في هذا الإطار الذي يفسد العلاقات، ويشوه الأنساب، ويدنس الأعراض.

وقوله: "أضمن له الجنة"، يمكن أن يكون جوابًا للشرط المقدر لكونه في جواب الطلب وقصد به الجزاء، لأن وعد الرسول ﷺ بالجنة وضمانها لكل من حافظ على مابين لحييه، وما بين رجليه شهوة القول، وشهوة الفرج، وبينهما شهوة البطن، وإذا حافظ الإنسان على أقواله، وتغلب على غرائزه وشهواته الجسدية، فإنه كذلك لابد أن يحافظ على مطعمه ومشربه، فلا يكون إلا حلالاً، ولا يكون مصدره إلا طيبًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان والفرج.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: فضل الله على المسلم وإعانته على العفاف.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

جاء في الحديث: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"، "من وقاه الله شر ما بين لحييه..."، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو، وتشده إلى ما يقول الداعية، وتبين له وجه الربط بين الشرط والجزاء، وارتباط الثواب بالعمل، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ

أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾(١)، وقوله جل شأنه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان والفرج:

حيث جاء في الحديث: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"، وقوله: "من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة"، ولاشك أن في هذا حث على حفظ اللسان والفرج، قال الطيبي: والمعنى من يضمن لي لسانه أى شر لسانه وبوادره، وحفظه عن التكلم بما لا يعنيه ويضره مما يوجب الكفر والفسوق، وفرجه بأن يصونه من الحرام أضمن له دخول الجنة، وقد أكد الوعد تأكيدًا بليغًا فأبرزه في صورة التمثيل"(٣)، وقال ابن حجر: والضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال، كفه عن الحرام يضمن له الجنة، وحمل الحديث على أن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم، وقال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه، فمن وقى شرهما وقى أعظم الشر"(٤)، قال الإمام أبو الحسن الماوردي: "قال عمر بن عبدالعزيز: من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه، وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه، وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك"(٥).

وفي خطورة فضول النظر والكلام قال ابن القيم: (إن فضول النظر من مقدمات حفظ الفرج لأنه يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/٩٨.

(٤) فتح الباري ١١/٣١٥ -٣١٦.

(٥) أدب الدنيا والدين ٢٦٧.

به والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر.

فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وقال آخر:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[١]

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

إنه يفتح للعبد أبوابًا من الشر، كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[٢].

وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسئمان، بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان[٣].

ومن الآيات التي تأمر بحفظ الفرج عن طريق النظر قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ إلى قوله

(١) الحماسة البصرية ٢/١٢١، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/٨٤.
(٢) أخرجه الترمذي، ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ٢١١٠).
(٣) طب القلوب، جمع وترتيب صالح أحمد الشامي، ص ٦٢، ٦٣.

تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

قال السعدي: (فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره أنار الله بصيرته.

ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع دواعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعاه في بلايا ومحن)[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[4]، وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[6].

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠-٣١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥١٥.

(٣) سورة المعارج، الآيات: ٢٩-٣٥.

(٤) سورة النساء، آية: ٣١.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ١-٧.

(٦) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: "أضمن له الجنة" وقوله "دخل الجنة"، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحبب المدعو في الطاعة وتحثه عليها، "والترغيب والترهيب يفيض بهما بحر الكتاب والسنة، ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كل شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل ومن هنا تحرص النفوس الموفقة على وعى هداية القرآن وهدى الرسول ﷺ"[١].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: فضل الله على الإنسان وإعانته على العفاف:

حيث جاء في الحديث: "من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة"، وهذا يبين فضل وقاية الله للإنسان، قال المباركفوري: "أراد في الحديث وقايته من شر لسانه وفرجه، ومعنى "دخل الجنة" أى بغير عذاب أو مع السابقين"[٢]. وهذا يؤكد أن الجزاء من جنس العمل فمن أنعم الله عليه بالوقاية دخل الجنة، ونظير هذا ما جاء في الحديث "احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تجِدْهُ تجَاهَكَ"[٣].

قال ابن رجب: (ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله عز وجل: اللسان والفرج، فمن حفظ حدود الله، وراعى حقوقه حفظه الله فإن الجزاء من جنس العمل وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان: أحدهما: حفظ له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كِبَره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله، قال بعض السلف: من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله الغني عنه. الثاني: وهو أشرف النوعين: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان)[٤].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، ٣٠٨/١.

(٢) تحفة الأحوذي ١٨٩٥/٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

(٤) جامع العلوم والحكم، ٤٦٥/١-٤٦٨ بتصرف.

ومن الأمثلة التي تبين حفظ الله لعبده ما جاء في قصة يوسف عليه السلام لتكون قدوة لغيره من الشباب، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾[1].

قال ابن القيم: (وقد ذكر الله جل جلاله عن يوسف الصديق عليه السلام من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه عليه السلام كان شابًا، والشباب مركز الشهوة، وكان عَزَبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي تزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي تناله العيون، وزادت مع تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعف لله ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله)[2].

وما من شك أن من أعظم نعم الله على العبد إعانته على حفظ فرجه ولسانه.

"كم يرتاح الإنسان نفسيًا ويطمئن قلبه إذا ما وقع بصره فجأة على ما يثير كوامن الغريزة فيصرف الإنسان بصره ابتغاء مرضاة الله، إن الذي يصرف بصره عن كل منظر محرم من صورة فاتنة أو امرأة متبرجة، أو منظر لا يليق أن ينظر إليه، يجد حلاوة الإيمان حقيقية ويشعر بها في قلبه، ويعتز بدينه الذي رفعه هذه الرفعة ونزهه هذه

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٢٣-٣٣.

(٢) روضة المحبين ٢٧٣.

النزاهة، وجعله طاهرًا، باطنًا وظاهرًا.

إن العبد المسلم النظيف الحيي العفيف، تجده في منعة من ربه، يصرف الله عز وجل عنه البلاء صغيره وكبيره، ويقيه مواطن الهلاك أيًا كانت، ويحفظه من الشائعات والشبه التي يتلوث بها الفساق. وتجده في منعه من الناس، فلا يقذفه إنسان، ولا يتهمه آخر، ويستأمنه القاصي والداني على أي شيء فهو في الدنيا من أشرف الناس، وفي الآخرة -إن شاء الله- في أعلى الدرجات"[1].

---

(١) والذين هم لفروجهم حافظون، خميس السعيد محمد، ٦٥.

الحديث رقم (١٥١٦)

١٥١٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: ((إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بهَا إِلَى النَّارِ ابْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يتبين: يفكر أنها خير أم لا[٢].

يزل: يسقط[٣].

الشرح الأدبي

إن الكلمة الطيبة في الإسلام: أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أما الكلمة الخبيثة فهي كشجرة خبيثة، وهي لا نفع لها، ولا ديمومة لظلالها.. فهي كما قال تعالى محددًا مصير الكلمة الخبيثة، ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[٤]، وفي ضوء هذا المنظور نقرأ هذا الحديث الذي يكشف عن مصير الكلام الفاسد، وعن مصير صاحبه، وفي بداية الحديث يؤكد أبو هريرة قوله: ويقنع كل قارئ وكل مسلم، بقوله: إنه سمع النبي ﷺ، ولم يقل: قال النبي، ولكن أكد الكلام بـ"أن"، وأنه حفظ هذا الكلام سماعًا ومباشرة من النبي ﷺ، ويتكرر التأكيد مرة أخرى في قول النبي ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة"، ومجيء اللام في الفعل "يتكلم": يشعر بالقسم، وذلك لأهمية الأمر، والحرص على ترسيخه وتوصيله للانتباه واتخاذ الحذر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٥٠/٢٩٨٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٣٦).

(٢) رياض الصالحين، ٥٢٠.

(٣) فتح الباري، ٣١٧/١١.

(٤) سورة إبراهيم، آية: ٢٦.

وقوله: "العبد" ولم يقل المسلم، للإشعار بأن الكلام فطرة إنسانية، وبأن الخلق جميعًا هم عبيد الله، وما ربك بظلام للعبيد، وبأن أضرار الكلام الخبيث تفتك بالمجتمعات، وتُمزِّق الأواصر، وقوله: "الكلمة"، يراد بها: كل من معنييها اللغويين: أي: القول المفرد، والجملة المفيدة من استعمال المشترك اللفظي في معنييه جملة.

فالكلمة: يراد بها الكلمة الواحدة، أو مجموع الكلام الذي يخرج من الإنسان في غير وعي أو روية ويحمل الشرور والمفاسد، وقد يؤدي إلى الكفر أو الوقيعة بين الناس، أو التجديف في أمور الدين.

وهذا هو ما يشع به قوله: "ما يتبين فيها": أي لا يفكر أنها خير أم لا.

وصيغة المضارع في قوله: "ليتكلم"، "وما يتبين"، يفيد استمرار هذا الصنف من الناس على هذه الطريقة في إرسال الكلام، وعدم التفكر والتدبير في عواقبه.

وقوله: "يزل بها إلى النار": أي بسببها: فالباء للسببية، والجملة تتضمن إيجازًا بالحذف، فهي إجابة عن سؤال مقدر: كأن قائلاً قال: ماذا يناله بها: فقيل: يزل بها، والزلل: معناه السقوط، وهو تصوير للعذاب وكيفية الانحدار إلى الهاوية.

وكأنه يسقط من جبل عالٍ إلى سَفْحٍ منحدر، بل إلى نار لا تبقى ولا تذر.

وقوله: "أبعد من المشرق والمغرب"، كناية عن بعد المسافة وبشاعة السقوط، وهول العذاب: ولا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

المضامين الدعوية(1)

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصمت وحفظ اللسان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: مسؤولية الكلمة في الإسلام.

رابعًا: من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين.

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٥١٦- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥١٧، ١٥١٨).

أولاً- من أساليب الدعوة: التوكيد، والترغيب والترهيب:

١- التوكيد: حيث جاء في الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة"، "إن الرجل ليتكلم" وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي لها أثر في الدعوة إلى الله، حيث تبين للمدعو مدى قناعة الداعية بما يقول، وتأكيده لكلامه دلالة على صدقه فيه، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب التوكيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[2].

٢-الترغيب والترهيب: حيث جاء في الحديث: "يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب" وقوله: "يرفعه الله بها درجات"، وقوله:"يهوى بها في جهنم"، ولاشك أن أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب الدعوية النافعة، حيث يخاطب عواطف الإنسان ومشاعره، للحث على فعل الطاعات وترك المنكرات، جاء في موسوعة "نضرة النعيم": والترغيب مصدر. قولهم: رغبة في الشيء، أى أوجد فيه الرغبة ويكون ذلك بتحسينه وتزيينه، لأن النفس لا ترغب إلا فيما فيه سعادتها وصلاح أمرها وما جاء به الشرع الحنيف كله - بعد الإقرار بالوحدانية، وصدق الرسول ﷺ- لا يعدوا أن يكون ترغيبًا في الخيرات، وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى والرهبة من عقابه"[3]. قال ابن الأثير: "قالوا لعمر رضي الله عنه عند موته: جزاك الله خيرًا فعلت وفعلت، فقال: راغب وراهب. والمراد راغب فيما عند الله وراهب من عذابه"[4]، إن الداعية الناجح هو الذي يستطيع الموازنة بين الترغيب والترهيب ويستخدم كلا في موضعه، "إن النفوس البشرية مختلفة الطباع منها ما يجلبه الترغيب

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٣١.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٢١٢٧/٦.

(٤) النهاية ٣٦٤.

ومنها ما يخفيه الترهيب ولهذا جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بالأسلوبين والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كل حسب ما يناسبه، على أن يقدموا الترغيب لأنه فعل إيجابي ومطلوب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين"[١]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترغيب والترهيب قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصمت وحفظ اللسان:

حيث جاء في الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب"، قال أبو البقاء الكفوي: الصمت: إمساك عن قول الباطل دون الحق"[٣]. وقال الإمام الماوردي: "اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يقدر على رد شوارده، فحق على العاقل أن يحترز من زلته بالإمساك عنه أو بالإقلال منه"[٤]. وفي الصمت جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت"[٥].

قال القرطبي: (وقوله: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها" أي: من الإثم والعقاب، وذلك لجهله بذلك، أو لترك التثبت، أو للتساهل. وفي غير كتاب مسلم: «أن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يلقى لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفًا»[٦]. وفيه من الفقه: وجوب التثبت عند الأقوال والأفعال، وتحريم التساهل في شيء من الصغائر، وملازمة الخوف، والحذر عند كل قول وفعل، والبحث عما مضى من

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٣٠-٣١.

(٣) الكليات ٥٠٧.

(٤) أدب الدنيا والدين ٢٦٦.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠١٨، ومسلم ٤٧.

(٦) أخرجه البخاري ٦٤٧٨.

الأقوال والأفعال، واستحضار ما مضى من ذلك، وتذكره من أول زمان تكليفه؛ لإمكان أن يكون صدر من المكلف شيء لم يتثبته يستحق به هذا الوعيد الشديد، فإذا تذكر واستعان بالله، فإن ذكر شيئًا من ذلك تاب منه، واستغفر، وإن لم يتذكر وجب عليه أن يتوب جملة بجملة، عما عَلِم وعما لم يعلم، فمن فعل ذلك وصدقت نيته قبلت بفضل الله تعالى توبته.

وقوله: "من سخط الله" أي: مما يسخط الله، وذلك بأن يكون كذبة، أو غيبة، أو نميمة، أو بهتانًا، أو بخسًا، أو باطلاً يضحك به الناس، كما قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل للذي يتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل له»[1][2].

قال الإمام الغزالي: "قيل لعيسى عليه السلام: "دُلَّنا على عمل ندخل به الجنة، قال: لا تنطقوا أبدًا، قالوا: لا تستطيع ذلك، فقال: لا تنطقوا إلا بخير". وقال سليمان بن داود عليهما السلام: "إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"[3]، وقال الإمام ابن حجر: "وقوله في الحديث "ما يتبين ما فيها"، أى لا يتطلب معناها، أى لا يثبتها بفكره ولا يتأملها حتى يثبت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول. وقال العز بن عبدالسلام: هى "الكلمة التي لا يعرف القائل حسنها من قبحها"، قال: "فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه"[4].

وجاء في فتح الملهم: "قوله: (ليتكلم بالكلمة) أي: الكلام المشتمل على ما يفهم. وقد تطلق الكلمة على الكلام سواء طال أو قصر، كما يقال: كلمة الشهادة، وكما يقال للخُطْبة: كلمة فلان.

ويحتمل أن يكون المراد أنه يتكلم بكلام دون تحقيق وتثبت، فينسب إلى رجل قولاً أو فعلاً بدون أن يتحقق من صحة النسبة إليه.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٩، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤١٧٥).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/٦١٦.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/١٢٠.

(٤) فتح الباري ١١/٣١٧.

قوله: (ينزل بها) وفي رواية البخاري: (يزلّ بها) ومعناهما قريب.

قوله: (أبعد ما بين المشرق والمغرب) يعني: ينزل بها إلى أعماق جهنم بقدر أبعد مسافة ما بين المشرق والمغرب. وزاد ابن بطال: "بالبغي أو بالسعي على المسلم، فتكون سببًا لهلاكه، وإن لم يُرِد القائلُ ذلك، لكنها ربما أدت إلى ذلك فيكتب على القائل إثمها"، ونقل عن ابن وهب أن المراد بها التلفظ بالسوء والفحش ما لم يرد بذلك الجحد لأمر الله في الدين. وقال القاضي عياض: "يحتمل أن تكون تلك الكلمة من الخنى والرفث، وأن تكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو بمجون، أو استخفاف بحق النبوة والشريعة وإن لم يعتقد ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الصمت والحذر من آفات اللسان"[1].

وقال ابن عثيمين: "والمراد أن الإنسان يتكلم بالكلمة لا يتبين ولا يتثبت ولا يدرس معناها، ولا يدرس ماذا توصل إليه يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ومسافة ما بين المشرق والمغرب بعيدة جدًا نصف الكرة الأرضية. وهذا يدل على وجوب التأكد مما تتكلم به سواء نقلته إلى غيرك أو نقلته عن غيرك"[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: مسؤولية الكلمة في الإسلام:

حيث جاء في الحديث: "إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ ما يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم". ومما لاشك فيه أن الكلمة في الإسلام مسئولة، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[3]، قال النسفي: ومعنى قوله: "ما يلفظ من قول"أى ما يتكلم به وما يرمي من فيه إلا لديه، رقيب حافظ، وعتيد حاضر، ثم قيل: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه، وقيل: لا يكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر، وقيل: إن الملكين لا

---

(١) تكملة فتح الملهم، الشيخ محمد تقي العثماني، ١٢/٢٧٣.

(٢) شرح رياض الصالحين، ٢/١٦٠٠.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

يجتنبانه: إلا عند الغائط والجماع"[١]. وقال الإمام ابن كثير: "أى ما يتكلم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركه"، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]. وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت، ذهبت جئت، رأيت، حتى إذا كان يومُ الخميس، عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره. وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات"[٣].

وقال النووي: (ومعنى الحديث أنه لا يتدبر الكلمة، ويفكر في قبحها ولا يخاف ما يترتب عليها، وهذا كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة، وكالكلمة تقذف، أو معناه: كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك، وهذا كله حث على حفظ اللسان، وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك)[٤].

وقال ابن حجر: (وقوله: "لا يلقي لها بالاً" أي لا يتأملها بخاطره ولا يتفكر في عاقبتها ولا يظن أنها تؤثر شيئًا، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[٥]، وقوله في الحديث "يهوى" قال عياض: المعنى ينزل فيها ساقطا، وقد جاء بلفظ "ينزل بها في النار" لأن درجات النار إلى أسفل، فهو نزول سقوط، وقيل أهوى من قريب وهوى من بعيد"[٦]. وقال الماوردي: قال بعض الأدباء: "سَعِدَ مَنْ لسانهُ صَمُوت

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل١١٦١.

(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٩٨/٧-٢٩٩.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٧١٧.

(٥) سورة النور، آية: ١٥.

(٦) فتح الباري ٣١٨/١١.

وكلامه قوت، وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة في الكلام، ويقول: إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم. وقال أبو تمام الطائي:

ومما كانت الحكماء قالت   لسان المرء من تبع الفؤاد[١]

قال أبو بكر العربي: ومحل الكلام والعلم القلب، وأن هذه العبارات الدائرة على الألسن بتقطيع الحروف والأصوات دليل عليه، شرف الله تعالى به الآدمي، كما قال سبحانه مخبرًا عن هذه المنة: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٢]، ثم لما خلقه من حمأ مسنون، وكتب عليه إساءة الأقوال كما كتب عليه إساءة الأفعال، بين معاقد الجواز في القول، كما بيّن مراتبه في الفعل، وجعل محل الدليل على الكلام على الاختصاص للسان، وجعل سائر الجوارح تدل عليه بالإشارة، وعلى عظيم شرف اللسان سلط الله سبحانه الآفات، ففيه خصلة واحدة، وهي الصدق، وفيه نيف على عشرين آفة، شرها الكذب"[٣].

رابعًا- من واجبات الداعية: بيان الحقائق للمدعوين:

يتضح هذا من سياق الأحاديث حيث إن من أهم واجبات الداعية أن يبين للمدعوين الحقائق ويرشدهم إلى ما ينفعهم، وقد بين الله تعالى: أن من وظيفة النبي ﷺ البيان للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤]، قال السعدي: "والمراد بالذكر القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه

---

(١) أدب الدنيا والدين، ٢٦٥-٢٦٧، والأبيات لأبي تمام، البحر: وافر تام.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٣-٤.

(٣) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٣٥٩/٢٣ بتصرف.

(٤) سورة النحل، آية: ٤٤.

العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، والبيان للناس شامل لتبين ألفاظه وتبين معانيه[١]. "هذا وواجب الدعاة إلى الله الحرص على بيان الحقائق للمدعوين وتبليغها، قال ﷺ: "بلغوا عني ولو آية"[٢].

قال محمد الشيخ الخضر حسين: "والدعوة نوعان:

دعوة يقصد بها إنقاذ الناس من ضلالة أو شر واقع.

ودعوة يقصد بها تحذيرهم من أمر يخشى عليهم الوقوع في بأسه.

أما الأولى: فيحتم القيام بها لأول وقت ممكن، ويُلوِّح إلى هذا الواجب قوله تعالى ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣]، فقوله: "من أقصى المدينة" إظهار لعناية هذا الداعي وشدة رغبته في الإصلاح، حيث لم يثبطه بعدُ المسافة عن السعي إليه والوفاء بحقه؛ وقوله: "يسعى"؛ تذكرة لدعاة الإصلاح وإيقاظ لهممهم؛ كي ينفقوا في هذه الغاية وسعهم، ويسارعوا إلى النصيحة جهدهم، لأن السعي في لسان العرب[٤] بمعنى العَدْو، والمشي بسرعة.

وأما النوع الثاني من الدعوة، فإن كان مما ينشأ عن تأخيره حرج، التحق بالأمر الواقع، ووجبت المبادرة إلى الدعوة حسب الطاقة، وإن كان بينك وبين وقوعه فسحة، جاز إرجاؤها إلى زمن الحاجة.

وما يقوله بعض أهل العلم، من جواز السكوت عن العلم إلى أن يسأل عنه، إنما يحمل على هذا النوع، الذي لم يدع الحال إلى معرفته في الوقت الحاضر.

حكى القاضي عياض في كتاب "المدارك": أن سحنون وصاحبيه عون بن يوسف وابن رشيد دخلوا على أسد بن الفرات، فسألهم عن مسألة؟ فابتدر لجوابه صاحبا سحنون، وسكت سحنون، فلما خرجوا قال له صاحباه: لِمَ لَمْ تتكلم؟ فقال سحنون:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣٩٤.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) سورة يس، آية: ٢٠.

(٤) انظر: لسان العرب ١٥١/٢، والقاموس المحيط، ١٠، ١٧٧، وتاج العروس، ص١٦٧٠.

ظهر لي أن جوابكم خطأ، وبين لهما ذلك، فقالا: لِمَ لَمْ تتكلم بهذا عنده، فقال: خشيت أن ندخل عليه ونحن أصدقاء ونخرج ونحن أعداء.

قال القاضي عياض: وسكت سحنون حين علم أن القضية لا يفوت أمرها، ولو علم ذلك لبادر بما ظهر له[1].

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح ٣٧-٣٩.

الحديث رقم (١٥١٧)

١٥١٧- وعنه، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا[١] يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)). رواه البخاري[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا يلقى لها بالاً: لا يتأملها بخاطره، ولا يتفكر في عاقبتها، ولا يظن أنها تؤثر شيئًا[٣].

الشرح الأدبي

إن إمساك اللسان من مفاتيح النجاة، وحصائد الألسن من المهلكات إذا لم يَكُفَّ الإنسان لسانه، ويحكم بيانه، وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا البيان النبوي العميق الدقيق، نجد الحديث الشريف يعقد مقابلة ترغيبية وترهيبية بين حالتي الإنسان، وهو يتفوه بالكلام، حالة الفوز برضوان العزيز الغفار، وحالة الخسران حيث يبوء العبد بسخط من الواحد القهار، لأنه لم يمسك عليه لسانه، ولم يعرف كيف يتخير كلماته، ولم يدرك عواقب حركاته وسكناته، ولم يتأمل مباني كلامه ودلالاته.

والحديث في صياغته المتوازنة يفصح عن ضرورة التوازن في شخصية المسلم، ومعيار التوازن هو الكلام الطيب، النابع من تعاليم القرآن الكريم وسنة المصطفى المختار ﷺ.

---

(١) لفظ البخاري: (لا)، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٦٤٧٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٣٧). تنبيه: الحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٨/٤٩) مختصرًا، ولم يشر إليه.

(٣) فتح الباري، ٣١٨/١١.

وسمة التوازن في الحديث تتجلى في صياغته المتقنة المتعادلة المتوازنة، فهو يتكون من جملتين متناسقتين في المبني، متضادين في المعنى، والجملتان يتكون كل منهما من إنَّ واسمها وخبرها.

ويبدأ الحديث بالتأكيد لأهمية القضية التي يحدد أبعادها، وهي معيار الكلمة الطيبة وثمرتها، ومعيار الكلمة الخبيثة وثمرتها، ونتيجتها المهلكة، والاسم متحد في كلتا الجملتين، "إن العبد ليتكلم بالكلمة"، ولكن شتان بين الكلمة في كل موقف، فالكلمة في موقف الفوز، "من رضوان الله تعالى"، أي صادرة من قلب مؤمن صادق سابح في محبة الله تعالى ورضوانه؛ وقوله: "العبد"، يوحي بأن الإنسان مهما علا شأنه فهو من عبيد الله وعباده، والتعبير بالمضارع في قوله: "ليتكلم" يشعر بالقسم لوجود اللام بعد التأكيد، وكذلك يوحي باستمرار هذا السلوك الحياتي، وقوله: "لا يلقى لها بالا"، أي تصدر منه الكلمة أو الكلمات على البديهة والارتجال بمنأى عن القصد والاستعداد، لأنه فطر على الكلم الطيب وتَعوَّد على المنطق الإسلامي السديد الرشيد، وخبر "إن" هو تمام الجملة، وهو تاج الفوز، وثمرة الرضوان: في قوله: "يرفعه الله بها درجات"، في الجنة، وفي الحياة الدنيا.

وأما الجملة الثانية: فهي على النقيض من دلالة الجملة الأولى، ولكنها تماثلها في صياغتها ومبناها، ولنتأمل الطباق بين قوله: "من رضوان الله" في الموقف الأول، وقوله: "من سخط الله" في الموقف الثاني، وكذلك الطباق بين ثمرتي الموقفين: ولنتأمل مصير كل من صاحب الكلمتين: ففي الأولى: "يرفعه الله بها درجات"، وفي الثانية: "يهوي بها في جهنم"، ولم تُذكر الجنة في الموقف الأول ترفعًا عن جعل الجنة في موقف موازٍ لجهنم، لأن الجنة من رضوان الله تعالى، وجهنم من سخط الله تعالى وهي مصير المغضوب عليهم والضالين، جعلنا الله من الذين يرفعهم الله درجات حتى يكون مكانهم الفردوس الأعلى من الجنة.

المضامين الدعوية[1]

---

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥١٨)

١٥١٨- وعن أَبي عبد الرحمن بلالِ بن الحارثِ المُزَنيِّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((**إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَومِ يَلْقَاهُ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ الله لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ**)). رواه مالكٌ في المُوَطَّأ، والترمذيُّ[١]، وقال: (حديثٌ حسنٌ صحيحٌ).

ترجمة الراوي:

بلال بن الحارث المزني: هو أبو عبدالرحمن المَدَنيُّ، صحابي، شجاع، من أهل البادية بالمدينة، أسلم سنة (٥) من الهجرة، وكان أول من قَدِم من مُزَينة على النبي ﷺ وكان ذلك في رجب سنة إسلامه.

وقد أقطعه النبي ﷺ العقيق وكتب له كتابًا كان نصه: ((بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ بلال بن الحارث أعطاهُ معادنَ القبيلة غوريَّها وَجَلْسيَّها غَشْيَةَ وذات النُّصُبِ وَحَيثُ صَلُحَ الزَّرْعُ مِنْ قُدس إن كان صادقًا))[٢].

وكان يسكن موضعًا وراء المدينة يعرف بالأشعر، ثم تحول إلى البصرة وكان حاملاً للواء مزينة يوم الفتح، وقد شهد غزو إفريقية مع عبدالله بن سعد بن أبي سرح وكان يحمل لواء مُزَينة يومئذ، ومعه أربعمائة مقاتل.

وروى عن النبي ﷺ، وعن عمر بن الخطاب، وابن مسعود ﷺ وتوفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ سنة ٦٠هـ وهو ابن ٨٠ عامًا[٣].

---

(١) الموطأ (٢/٩٨٥، رقم٥)، والترمذي (٢٣١٩). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٢٨٠)، وقال الحاكم (١/٤٥): هذا حديثٌ صحيحٌ وقد احتجَّ مسلم بمحمد بن عمرو، وقد أقام إسناده عنه سعيد بن عامر كما أوردته عاليًا، هكذا رواه سفيان الثوري، وإسماعيل بن جعفر، وعبد العزيز الدراوردي، ومحمد بن بشر العبدي وغيرهم. تنبيه: هذا الحديث عزاه المنذري في ترغيبه (٣/٥١٨) إلى البخاري، ولم يروه البخاري عن بلال بن الحارث.

(٢) المعجم الكبير، الطبري، رقم ١١٤١، (١/٣٧٠).

(٣) الاستيعاب (٨٣)، أسد الغابة (١/٤١٣-٤١٤)، الإصابة (١٣٨)، تهذيب الكمال (١/٣٨٧-٣٨٨)، تهذيب التهذيب (١/٢٥٣)، الأعلام للزركلي (٢/٧٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يتموج داخل دائرة القبول والرفض، قبول الكلم الطيب ورفض الكلم الخبيث، ويتضمن الحديث أسرارًا أسلوبية، وظواهر فنية: منها:

أ- التأكيد: وقد تكرر ثلاث مرات في الحديث حيث ورد على لسان الراوي في صدر الحديث لشحذ الأذهان لأهمية الأمر، وضرورة الإصغاء إلى بيان المصطفى ﷺ، وورد التأكيد بإن في بداية الجملة الأولى: "إن الرجل"، وكذلك، ورد في بداية الجملة الثانية: "وإن الرجل ..."، لأن الموقفين على طرفي نقيض... أحدهما غايته الفوز بالدرجات العلى، والآخر غايته الخسران المبين، ولذلك جاء التأكيد متوافقًا مع المقام، وفيه مراعاة للمخاطَب الغافل عن العاقبة الحسنة أو السيئة.

ب- تكرار التوكيد، وكثير من الجمل، تكرارًا لفظيًا في جملتي الحديث، للإيحاء بالمزاوجة والمشاكلة الظاهرية، ولكن الدلالة تختلف، والثمرة تتنوع حسب ما يقدمه العبد من عمل وسلوكيات وكلمات، وقد تكرر قوله: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة"، مرتين، لأن مصدر الكلام هو اللسان. والكلام إما أن يكون طيبًا، أو خبيثًا، وكذلك تكرر قوله ﷺ: "ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت" أي الترقي في الفضل، في موقف الرضوان، وفي التردي إلى الدرك الأسفل في موقف السخط والخسران!!!

والسياق هو الذي يحدد دلالة هذه الكلمة، ففي الموقف الأول: هي كلمة "الرضا"، وقد بلغت من الفوز مبلغًا عظيمًا، وفي الموقف الثاني: هي الكلمة التي باء صاحبها بسخط من الله تعالى، وقد بلغت من الخسران مبلغًا عظيمًا.

وقد تكرر قوله ﷺ "إلى يوم يلقاه" ولكن اليوم شاسع بين لقاء الله تعالى في كل من الموقفين، فالمعنى في الموقف الأول: أي: يوفقه لما يرضى عنه من الطاعات، ويثيبه عليها إلى يوم موته أو يوم القيامة، فيلقى الله مطيعًا، ولكن المفارقة تتجلى في قوله: "يكتب الله له بها رضوانه"، وقوله: "يكتب الله له بها سخطه"، فالتعبير بفعل الكتابة واحد، والمراد هنا الفرض والتقدير والقضاء المحكم، ولكن الله تعالى

يكتب الرضوان للطائعين المتكلمين بالحسنى، ويكتب الخسران للعاصين الذين يجهرون بالسوء من القول.

والحديث في ظل هذا التكرار لا ضعف فيه ولا إسهاب، ولا حشو ولا إغراب، وإنما أسلوبه محكم البنيان، مصقول العبارة، جزل التركيب، نظمه رائق قشيب، ومعناه فائق عجيب.

المضامين الدعوية[1]

(١) تم دمجها مع مضامين الحديث رقم (١٥١٦).

الحديث رقم (١٥١٩)

١٥١٩- وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ الله حدِّثني بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ: ((قلْ: رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ)) قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((هَذَا)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

سفيان بن عبدالله الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٥).

غريب الألفاظ:

أعتصم به: أستمسك به[2].

الشرح الأدبي

ما أبلغ هذا الحوار بين رسول الله ﷺ وسفيان بن عبدالله ﷺ !! وما أصدقه!! وما أوجزه، فآفاقه الدلالية تتسع وتمتد لتشمل كل جوانب الحياة التي يتغياها المسلم في ظل معالم التصور الإسلامي، ومحاور شخصية المسلم؛ ويبدأ الحوار بإخبار الراوي عن بداية موضوع هذه المحاورة، حيث يقر على نفسه بأنه قال: وساق الخبر مجردًا من التأكيد، لأنه القائل وهو المقر بذلك، والقول مسند إلى الضمير المتصل "تاء الفاعل" وهي للمتكلم، "قلت"، فلا انفصال بين الفعل والفاعل، ولا بين القول والقائل؛ والنداء في قوله: "يا رسول الله"، للتعظيم والإجلال، وتقديم لفظ "رسول الله" المقترن بياء النداء على الفعل "حدثني"، لمزيد من التقدير والمحبة، ولأن رسول الله ﷺ هو مصدر الحديث الناصح، وهو لا ينطق عن الهوى، ولأنه لا يطلب الهدي من غير رسول الله ﷺ في عصر البعثة فهو المبلغ عن ربه.

---

(١) برقم (٢٤١٠). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٦٩٨)، وقال الحاكم (٣١٣/٤): هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢١٦). تنبيه: الحديث أخرجه مسلم (٣٨/٦٢) بلفظ: (قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: قل: آمنتُ بالله ثم استقم).

(٢) النهاية في (ع ص م).

والأمر في قوله: "حدثني"، للإشعار بمزيد من النصح، ولمزيد من الشعور بالأنس، لأن الحديث فيه ملاطفة، وفيه زيادة في القرب والمحبة، والرغبة في المعرفة والاسترشاد.

وقوله: "بأمر أعتصم به": أبلغ من قوله: بقول: لأن الأمر أعم وأشمل، والتعبير بقوله: "أعتصم به" يوحي بأن الإنسان في خطر دائم، وهو في مهب الريح، والشرور تتربص به، ولا منجاة له إلا بالطاعة والتوحيد والاستقامة، وما أبلغ نصيحة رسول الله ﷺ وما أوجزها حيث قدم له معيار النجاة في جملتين، وهما "قل ربي الله ثم استقم"، أي لابد أن تقر بالتوحيد، وتقر بالربوبية والإلهية، وهو إقرار ينبع من الجنان قبل الإقرار باللسان: لأن الإيمان: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

ولذلك نجد العطف بـ"ثم"، يعطي دلالة التأني واليقين، والتأمل.. فالاستقامة أفق سلوكي تتضوأ في أفلاكه كل مدارات الحياة؛ وسلامة المعتقد مع صدق اللسان، مع صلاح العمل يحتاج إلى مجاهدة ومكابدة، وتختم المحاورة بسؤال حقيقي يريد به السائل أن يأمن على نفسه من فتنة القول والفعل؛ وصيغة التفضيل مع تكرار مادة الخوف في قوله: "ما أخوف ما تخاف علي": يدل على حرص ذلك الصحابي على الاعتصام الكامل بالمعتقد الصحيح والعمل الصالح؛ وتأتي إجابة رسول الله ﷺ في حركة تصويرية مرئية لتأكيد النصيحة، وتعميق الدلالة، والحرص على الإقناع، حيث أخذ بلسان نفسه، ثم قال: "هذا"، وفي هذه الإشارة الحركية إيجاز بليغ وإقناع سديد، والتقدير: أخوف ما أخاف عليك، وعلى كل مسلم، هذا أي اللسان.

وقيل لأن اللسان سهل الحراك، وفي حراكه أنواع الهلاك إلا إذا قيد بقيود الشريعة وحبس عليها[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله والاستقامة.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطورة اللسان على الإنسان.

---

(١) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ١٥٧٧.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ..."، وقوله: "يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟" ومما لاشك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفيد المدعوين، وتشجعهم على الحوار والاستجواب، "ومن أبرز أساليب النبي ﷺ في التعليم الحوار والمساءلة لإثارة انتباه السامعين، وتشويق نفوسهم إلى الجواب، وحضهم على إعمال الفكر للجواب، ليكون جواب النبي ﷺ إذا لم يستطيعوا الإجابة أقرب إلى نفوسهم وأفهامهم وأوقع في قلوبهم"(١). وقال الشيخ الميداني: (إن مجالس السؤال والجواب مجالس مفيدة ونافعة في نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات مفصلات لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح)(٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل الإيمان بالله والاستقامة:

حيث جاء في الحديث: "قل ربى الله ثم استقم"، قال المباركفوري: وقوله في الحديث: اعتصم به" أى أستمسك به، وقوله: "قل ربى الله ثم استقم" هو لفظ جامع لجميع الأوامر والنواهي، فإنه لو ترك أمرًا أو فعل منهيًا فقد عدل عن الطرق المستقيمة حتى يتوب، فإن من رضى بالله ربًا يؤدي مقتضيات الربوبية ويحقق مراضيه ويشكر نعماءه"(٣). وقد أمر الله نبيه بالاستقامة فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(٤). قال الطيبي: قال الفخر الرازي: استقامة المأمور صعب شديد؛ فإنها تشتمل على العقائد والأعمال والأخلاق. والاستقامة في العقائد أن يجتنب التشبيه والتعطيل، وفي الأعمال أن يحترز عن التغيير والتبديل، وفي الأخلاق أن يبعد عن طرفى الإفراط والتفريط"(٥).

---

(١) الحوار: آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي، ص ٨.

(٢) فقه الدعوة إلى الله تعالى، ٦٢/٢٠.

(٣) تحفة الأحوذي ١٨٩٥/٢.

(٤) سورة هود، آية: ١١٢.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٣٥/١.

ونظير هذا الحديث قوله تعالى في فضل الإيمان بالله والاستقامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١]، قال ابن كثير: قال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر ثم قال: استقاموا -والله- لله بطاعته، ولم يَرُوغُوا رَوَغَان الثعالب، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس "قالوا ربنا الله ثم استقاموا" على السواء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: "ثم استقاموا" أخلصوا له العمل والدين"[٢]. إن تعاليم الإسلام تحث على الإيمان والاستقامة على منهج الله وأمر الله سبحانه.

"تعتبر هذه الآيات الكريمات في هذا السياق أشمل منهج إسلامي: اعتقادًا، وقولاً، وعملاً واستقامة، مصحوبًا بالنتائج الحميدة المثلى، عاجلاً وآجلاً.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ...﴾[٣] الآية، لما أطنب المولى في الوعيد قبلها، أردفه بهذا الوعد الشريف، ويعني بالوعيد الشديد قبلها من بداية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾[٤]، ثم بين موقفهم من القرآن بقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ

(١) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٧.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٤) سورة فصلت، الآيات: ١٩-٢٤.

تَغْلِبُونَ﴾ وأعاد الوعيد مرة أخرى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾[1].

وبعد هذا العرض من شدة الوعيد على سوء أعمال الكفار، جاء السياق بأحسن البشري في العاجل والآجل لعباد الله المؤمنين: "الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" فهو بمثابة مقارنة بين الفريقين، ويهمني في هذا السياق بيان منهج الفريق الفائز بالسعادة والبشرى، السائرين على منهج الاستقامة، وحقيقة الاستقامة هنا كما جاء عن الخلفاء الراشدين الأربعة، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قالوا ربنا الله ثم استقاموا، أي: ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله. وعن علي وعثمان مثل ذلك. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر وهو يخطب: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب.

فأجمل معنى الاستقامة إلى الله، وقد فصلها الفخر الرازي بقوله: ليس المراد منه القول باللسان فقط، لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، يعني قولهم: "ربنا الله" لأنه سبحانه أعقب القول: "ربنا الله". بالاستقامة، ففيه الدلالة على أن ذلك القول مقرون باليقين التام، وتكون الاستقامة في الدين والتوحيد، وفي الأعمال الصالحة.

أما الاستقامة في التوحيد: فإن من علم أن لهذا الكون صانعًا. أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل؛ ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وكذلك يبقى مستقيمًا على الخط الفاصل بين الجبر والقدر، وفي الرجاء والقنوط، لا يفرط في الرجاء ويُسَوّف العمل، ولا يفرط في القنوط فييأس من رحمة الله، أي يدعو ربه رغبًا ورهبًا.

وكذلك في الأعمال: لا يفرط في حمل نفسه على العزائم وما يشق عليها، ولا يفرط في تتبع الرخص، وقد وقع البيان لهذا الخط من الاستقامة في الأعمال قوله صلى الله عليه وسلم: «أكلفوا من الأعمال ما تُطيقون»[2]. وقوله: «إنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٢) أخرجه مسلم، ١١٠٣.

وَلا ظَهْرًا أَبْقَى». وقال ردًا على النفر الثلاثة الذين قال أحدهم سأصوم فلا أفطر، وقال الآخر سأقوم الليل ولا أنام، وثالثهم قال: لن أتزوج النساء. فغضب لذلك ﷺ وقال: ((أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[١]. وجاء عنه ﷺ: أن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به. قال ﷺ: ((قل آمنت بالله ثم استقم)) قلت: يارسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: "هذا"[٢].

ولعل أوضح مناهج الاستقامة ما جاء عمليًا في شخصية رسول الله ﷺ في قوله تعالى عنه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، فقد شمل مجالات التكليف كلها، من معتقدات وأقوال وأعمال، في الحياة والممات، أما ما أعده الله تعالى لأهل هذه الاستقامة، فهو كذلك من الشمول ما وسع أمر الدنيا وأمور الآخرة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[٤]. قال قتادة: لأوسعنا عليهم من الدنيا. قال ابن كثير: وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[٥]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦]. وفي هذا

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٠٦٣، واللفظ له، ومسلم، ١٤٠١.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٤١٠ وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي، ١٩٦٥).

(٣) سورة الأنعام، الآيات: ١٦١-١٦٣.

(٤) سورة الجن، الآيتان: ١٦-١٧.

(٥) سورة المائدة، آية: ٦٦.

(٦) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

الإنعام سعادة الدنيا ورغد العيش، أما من جانب أمور الآخرة فقد جاء مجملاً ثم مفصلاً، فالمجمل في سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وأما التفصيل ففي هذا السياق في قوله تعالى: "تتنزل عليهم الملائكة" أي: عند آخر لحظة من الدنيا وأول لحظات الآخرة بهذه البشرى السعيدة "ألا تخافوا" أي: مما أمامكم. "ولا تحزنوا" أي: عما وراءكم. "وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون" ثم يؤنسونهم بالولاية والمحبة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[2]. ما أحسنها بشرى! وما أحوجنا إليها![3].

قال الإمام ابن القيم: (ومن منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" منزلة "الاستقامة".

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[4]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾[5]. وقال لرسول الله ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ

---

(١) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٣-١٤.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٣١-٣٢.

(٣) آيات الهداية والاستقامة، الشيخ عطية محمد سالم، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط أولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٢/٦٢-٦٤.

(٤) سورة فصلت، آية: ٣٠.

(٥) سورة الأحقاف، الآيتان: ١٣-١٤.

وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [(١)].

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان؛ وهو مجاوزة الحدود في كل شيء. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [(٣)].

سئل صِدّيق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق ﷺ عن الاستقامة؟ فقال: "أن لا تشرك بالله شيئًا". يريد الاستقامة على محض التوحيد. وقال عمر بن الخطاب ﷺ : "الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب".

وقال عثمان بن عفان ﷺ "استقاموا: أخلصوا العمل لله".

وقال علي بن أبي طالب ﷺ ، وابن عباس ﷺ "استقاموا: أدوا الفرائض".

وقال الحسن "استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته".

وقال مجاهد "استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله".

وسمعت ابن تيمية يقول: "استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة.

وفيه عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ. وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ»[(٤)].

والمطلوب من العبد الاستقامة؛ وهي السداد؛ فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: يَا

---

(١) سورة هود، آية: ١١٢.

(٢) سورة فصلت، آية: ٦.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ١٦-١٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٢٢٤)

رَسُولَ اللّهِ وَلاَ أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا. إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[١].

فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة؛ وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها؛ فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض؛ فإن لم يصبه يقاربه. ومع هذا فأخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة؛ فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين؛ وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك الاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- قدس الله تعالى روحه، يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة[٢].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطورة اللسان على الإنسان:

حيث جاء في الحديث : "يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: هذا" ومما لا شك فيه أن اللسان هو مورد الخطورة للإنسان، قال الإمام الغزالي: "كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فمه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : "والله الذي لا إله غيره ما شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان. وقال الحسن: ما عقل

---

(١) أخرجه البخاري ٣٩، ٥٦٧٣، ومسلم ٢٨١٦.

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٦-٣٣٩.

دينه من لم يحفظ لسانه"[١]، وقال الحسن بن هانئ:

مُت بداءِ الصمت	خيرٌ لكَ مِنْ داءِ الكلام
إنما العاقِلُ من	ألجم فاهُ بلجام[٢]

قال الشيخ محمد الغزالي: "نعمة البيان من أجلّ النعم التي أسبغها الله على الإنسان، وكرمه بها على سائر الخلق، وإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام، ولا تهدأ لألسنتهم حركة فإذا ذهبت تحصى ما قالوا وجدت جله اللغو الضائع، أو الهذر الضار، وما لهذا ركب الله الألسنة في الأفواه، ولا بهذا تقدر الموهبة المستفادة، وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام وأسلوب أدائه لأن الكلام الصادر عن إنسان ما يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه، ولأن طرائق الحديث في جماعة ما تحكم على مستواها العام ومدى تغلغل الفضيلة في بيئتها، وإن المسلم لا يستطيع هذا إلا إذا ملك لسانه، وسيطر على زمامه بقوة، فكبحه حيث يجب الصمت، وضبطه حين يريد المقال أما الذين تقودهم ألسنتهم فإنما تقودهم إلى مصارعهم"[٣].

إن اللسان خطره عظيم على الإنسان، عندما يجعله يتحدث فيما لا يعنيه، "وذلك لأنه تضييع للوقت الذي هو رأس مال المسلم، فقد كان بإمكانه أن يستغله في ذكر الله عز وجل فينال به الأجر الكثير، فالكلام فيما لا يعني إن لم يكن فيه ضرر، ففيه الخسارة وتضييع الأجر.

ولذلك جاء عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[٤].

وقال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لَهُنّ أحب إلي من الدهم[٥] الموقوفة:

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/١٢٠.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/٣٨، والأبيات في تاريخ دمشق ١٣/٤٥١.

(٣) خلق مسلم ٧٧، ٧٨.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

(٥) الدهم: نوع جيد من أنواع الإبل.

١- لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر.

٢- لا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعًا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت.

٣- ولا تمارِ حليمًا ولا سفيهًا فإن الحليم يقليك والسفيه يؤذيك.

٤- واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به.

٥- واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازي بالإحسان مأخوذ بالاحترام.

وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني.

وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

والسؤال عن المعاصي وعن كل ما يخفيه المسلم ويستحي منه فلا تسأل عنه، وكذلك إذا قابلت أخاك في الطريق وسألته أين كنت؟ فربما يمنعه مانع من الجواب فإن ذكره تأذى، وإن لم يصدق وقع في الكذب، وكنت في ذلك السبب.

فيجب عليك أن تتجنب الكلام فيما لا يعنيك واعلم أن ذلك صعب على النفس.

يقول مورق العجلي: أَمْرٌ أَنَا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه، قالوا: ما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيك ولكن ما العلاج لمن ابتلى بذلك؟.

قلت: ويستعين على ذلك بالتفكر في معنى الكلمة قبل النطق فإن كانت لمصلحة أطلقها وإلا أمسكها[1].

---

(١) حفظ اللسان، وحيد عبدالسلام بالي، ص ٨-١٠.

الحديث رقم (١٥٢٠)

١٥٢٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((لا تُكْثِرُوا الكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ؛ فَإنَّ كَثْرَةَ الكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلقَلْبِ! وإنَّ أبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي)). رواه الترمذيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يفتح أفق النجاة أمام المسلم الذي اعتصم بالطاعة، ولجأ إلى ربه، وكف لسانه، ولذلك يبدأ الحديث بأسلوب النهي في خطاب موجهًا لجماعة المسلمين في كل زمان، وكل مكان، "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله"، والذكر كلمة جامعة مانعة: والمراد منه: ما يشمل الدعاء، وأشرف الذكر: القرآن، فكل قول لابد أن يعمر بذكر الله عز وجل، كما قال الرافعي: ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه.

والجملة الثانية: تعليل للنهي في الجملة الأولى على سبيل الاستئناف البياني، والفاء للإفصاح والتعليل.

ولنتأمل تَكْرَار التأكيد في بداية الجملتين الثانية والثالثة: حيث قال: "فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة القلب"، وبلاغة التعبير تتجلى في إسناد القسوة إلى

---

(١) برقم (٢٤١١). وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. قال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٦٤٠/٤): سكت عنه عبدالحق، وهو حديث يدورُ على إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، يرويه عن عبد الله بن دينار، وإبراهيم المذكور مدنيٌّ، روى عنه القعنبيّ، وعلي بن حفص وغيرهما، ومع ذلك لا تعرف حاله. وقال الذهبي في الميزان (٤١/١): مدني مُقلٌّ ما علمتُ فيه جرحًا. وذكر من غرائبه هذا الحديث. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٤٢).

كثرة الكلام بغير الذكر، وهو من الإسناد للسبب، لأن كثرة الكلام اللاهي العابث يؤدي إلى قسوة القلب.

وفي الكلام بلاغة أخرى وهي طريقة اختيار الكلمة المشعة بالدلالات المتعددة، فقد تكرر في الحديث قوله: "قسوة القلب"، و"القلب القاسي"، حيث أسندت القسوة إلى كثرة الكلام ثم وصف القلب بالقاسي، ومادة: قسا، توحي بكل أمراض القلب، فهي تعني: الخشونة والرداءة والظلمة والزيف، والقحط، والجدب، وعدم الإنبات، وعدم الإثمار، والقلب القاسي الذي لا ينشغل بذكر الله تعالى تفتك به كل هذه الآفات والعلل فهو قلب سقيم، وصاحبه أبعد الناس من الله تعالى.

قال الزمخشري في أساس البلاغة: في مادة: "قسو"، حجر قاس: أي: صلب، وهو أقسى من الصخر، ومن المجاز قولهم: قسا قلبه علي، وفيه قسوة وقساوة: أي مثل الصخر يخلو من الشعور النبيل والعاطفة الرقيقة، ويقولون، قاسيت الأمر: أي عالجت شدته، ودرهم قسى، لأن ما خلص فضة فيه لين، والدرهم الردئ: قاسٍ صلب، ويقولون: هذا كلام قسي: أي كلام زائف وبهرج، ويوم قسي وليل قسي: أي شديد من برد أو شدة ظلمته أو شر؛ ويقولون: قسا ليلنًا أي: أظلم؛ وعام قسي أي: قحط، وأرض قاسية: أي: لا تنبت شيئًا.

فتأمل دلالة القسوة، في ظل هذه المعاني المتعددة التي تتجمع في قلب القاسي، فما أعظم بلاغة رسول الله ﷺ في اختيار الكلمات المشعة بالدلالات الكاشفات عن المعاني الباهرات، ولنتأمل في ظل الدلالات السابقة هذا البيان النبوي البليغ، وأن أبعد الناس من الله تعالى: القلب القاسي.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهى والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الكلام بغير ذكر الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطورة قسوة القلب.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي، والترهيب:

١- النهي: حيث جاء في الحديث: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله" وأسلوب النهى من أساليب الدعوة التي يجب أن يستخدمها الدعاة إلى الله في دعوتهم حيث تشعر المدعو بخطورة المنهي عنه وضرورة اجتنابه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [(١)]، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب النهى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾[(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [(٤)].

٢- الترهيب: حيث جاء في الحديث: "فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي"، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة النافعة التي تخيف المدعو وترهبه من الوقوع في محظور شرعي، والنفس بفطرتها تخاف من الوعيد "والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"[(٥)]. وقال الشيخ محمد الغزالي: "وكما تقاد النفس عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة، فتكف عن الرزيلة وَجَلاً مما يعقبها من منغصات، أو تندفع إلى الفضيلة خوفًا من مغبة التراخي والتفريط. والله سبحانه وتعالى قوي متين وعزيز ذو انتقام، وديَّان لا يموت والتخويف به حق وأثر الخوف منه بعيد المدى ولذلك قال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥١.
(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٢.
(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٢.
(٥) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

الجنة"[١].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطورة الكلام بغير ذكر الله:

حيث جاء في الحديث: "فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب"، قال الطيبي: "والمراد أنه سبب لقسوة القلب، وهي عبارة عن عدم قبول ذكر الله، والخوف والرجاء، وغير ذلك من الخصال الحميدة، وعدم هذه الخلال يبعد الناس من الله"[٢].

وقال المباركفوري: "فيه إشارة إلى أن بعض الكلام مباح وهو ما يعنيه والمراد بقساوة القلب: النبو عن سماع الحق، والميل إلى مخالطة الخلق، وقلة الخشية وعدم الخشوع والبكاء، وكثرة الغفلة عن دار البقاء"[٣]. وهذا وقد وصف الله المؤمنين بأنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[٤]، وبين أن من صفات عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٥]، وقال ابن مفلح: روى الخلال عن عطاء قال: كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام - كل كلام تنطق به - ما عدا كتاب الله أن تقرأه، أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لابد لك منه[٦].

ولخطورة الكلام بغير ذكر الله تعالى بوّب الإمام مالك في موطئه باب سمَّاه: ما يكره من الكلام بغير ذكر الله.

قال أبو بكر العربي: "وأما الكلام بغير ذكر الله تعالى: فإن مالكًا رحمة الله عليه، عقده عقدًا بديعًا؛ وذلك أن اللسان عبدالله، فلا ينبغي أن يذكر سواه، فيكون خدمةَ عبدٍ لغير مولاه، وهذا هو أصل الدين، والذي عليه كافة المسلمين، وعلى العبد

---

(١) مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، ٣١٦.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٤/٢٣٩.

(٣) تحفة الأحوذي ٢/١٨٩٥.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٣.

(٥) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

(٦) الآداب الشرعية ١/٦٢.

أن يذكر ربه، كان مطيعًا له أو عاصيًا، وإن الله تعالى جوز للعبد لحاجة النفس أن يتكلم في معاشه ورياشه[١] بغير ذكر ربه.

وقد قال عيسى عليه السلام: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم[٢]. ولذلك قال مالك في حديث النبي ﷺ: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»[٣]. إنه مكروه؛ لأنه يخدع الناس خدعة الساحر. هذا هو رأيه فيه، وعليه تدل ترجمة الباب الذي أدخله عليه. وقال غيره من العلماء: إنما أراد به مدح الكلام؛ لأنه أثنى وذم، وكان الكل صدقًا، وصرفه بمقدار الحاجة، فصار أمرًا بديعًا، فأثنى عليه النبي ﷺ، ولا سيما وكان من حاجة المتكلم في الإعراب عن نفسه. والذي ذهب إليه مالك أصح، والدليل عليه ما تفطن له مالك، من أن المرء إذا اتخذ هذا عادة لم يأمن أن يسقط، ولذلك أدخل بعده كلام عيسى: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، إلى آخره. وأما حديث عائشة: «ألا تريحون الكُتَّاب؟»[٤]. فليس عليهم تعب؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم عباد مكرمون، لا يستحسرون ولا يفترون، ولكنها أخذت ذلك من قول النبي ﷺ للحولاء: «إن الله لا يمل وأنتم تملون»[٥]. فضرب لقطع الأجر مثلاً؛ الملل الذي يقطع به العبد العمل، فكذلك قالت: ألا تقطعون كلامكم حتى تقطع الملائكة عملها؟ وكذلك روي أن اليهود قالت: إن الله خلق الخلق في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، فأنزل الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[٦].

فإن كانت اليهود قد وجدت هذه اللفظة في التوراة، فذلك جائز، ولكنها أخطأت في حملها على ظاهرها، فقد جاء في القرآن أمثالها، ولكن من حملها على ظاهرها كان أخا اليهود. وقد مرّ مالك بن دينار على قوم يتحدثون فيكثرون فقال لهم: لو اشتريتم

---

(١) الرياش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس، انظر: لسان العرب مادة (ر-ي-ش).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ١٩٢٠.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، ١٩١٩.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ١٩٢١.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢٥٨.

(٦) سورة ق، آية: ٣٨.

الرَقّ[١] والمداد من دراهمكم للكتبة، لكان كلامكم أقل. سمعت أبا سعيد بالمسجد الأقصى يقول: سمعت الإمام أبا القاسم القشيري بنيسابور يقول: قال الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٢]. وكان قادرًا على أن يخلقها في لحظة، ولكن أراد أن يعلم الناس ترك العجلة مع القدرة[٣].

وقال ابن عبدالبر: وعن مالك أنه بلغه أن عيسى بن مريم كان يقول: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية[٤].

قال أبو عمر: هذا عندي أفضل كلام قيل في معناه، أو من أفضل كلام قيل؛ أجمعه للخير وأدله عليه، ولقد أحسن القائل:

ارْحَمِ النّاسَ جَميعًا ... فَهُمُ أبْناءُ جِنْسِكْ
ابْغِ للنّاسِ مِنَ الخَيْـ ... ـرِ كمَا تَبغي لنَفْسِكْ

وعن آدم بن علي قال: سمعت أخا بلال مؤذن النبي ﷺ يقول: الناس ثلاثة: فسالم، وغانم، وظالم لنفسه. قال: فالسالم الساكت، والغانم الذي يأمر بالخير وينهي عن المنكر، والظالم لنفسه الناطق بالخنا والمعين على الظلم.

وقال أبو بكر: عن بكر بن ماعز، قال: كان الربيع بن خثيم يقول: لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل الله، وتسبيح الله، وتكبير الله، وتحميد الله، وسؤالك الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن.

وروينا عن سيبويه أنه قال: رأيت الخليل بن أحمد في المنام، فقال لي: أرأيت ما كنا فيه، فإني لم انتفع بشيء منه، إنما انتفعت بقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا

---

(١) الرق: ما يكتب فيه وهو جلد رقيق، انظر لسان العرب (ر-ق-ق)

(٢) سورة ق، آية: ٣٨.

(٣) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٤٠٦/٢٣-٤١٠ بتصرف.

(٤) أخرجه مالك بن الموطأ ١٩٢٠.

الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وقول بالحق.

وعن مالك، أنه بلغه أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت ترسل إلى أهلها بعد العتمة فتقول: ألا تريحون الكُتَّاب؟.

قال أبو عمر: الكُتَّاب هاهنا: الكرام الكاتبون، وهم الحفظة الرقباء، قال الله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١). فكأن عائشة رضي الله عنها ذهبت إلى أن النوم راحة للحفظة؛ لأنه لا يُكْتَب على النائم شيءٌ، وكره ﷺ السمر بعد العشاء إلا لمصل أو مسافر، وكان عمر بن الخطاب يشدد في ذلك وقال مجاهد: لا يجوز السمر بعد العشاء إلا لمصل أو مسافر أو مذاكر بعلم(٢).

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطورة قسوة القلب:

حيث جاء في الحديث: "إن أبعد الناس من الله القلب القاسي" فقد أخبر النبي ﷺ أن صاحب القلب القاسي أبعد الناس من الله، وبين الله أن قسوة القلب من صفات اليهود ونهانا عن التشبه بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٣)، قال ابن كثير: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله أى تلين عند الذكر والموعظة، وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيع، وقد نهى الله المؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب عندما قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد"(٤).

وذم الله اليهود على قسوة قلوبهم فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾(٥). وتوعد الله قساة القلوب التي لا تلين لذكر الله فقال:

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) الاستذكار، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٢/٤٢١-٤٢٣.

(٣) سورة الحديد، آية: ١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/١٩-٢٠.

(٥) سورة البقرة، آية: ٧٤.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. وبين الله مصير الأمم السابقة عندما قست قلوبها قال ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]. قال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم[3].

جاء في موسوعة نضرة النعيم: "ومن مضار القسوة أنها تذهب اللين والرحمة والخشوع من القلب، وصاحب القلب القاسي بعيد من الله بعيد من الناس، والقسوة تزيل النعم وتحل النقم، وفي الفظاظة وغلظ القلب مع المسلمين ما يؤدي إلى تفرق كلمتهم وطمع العدو فيهم، والفظاظة والغلظة تؤديان -خاصة في مجال الدعوة إلى الله- إلى انصراف الناس عن الداعية ونفورهم منه"[4].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبدالله القرطبي، ١٥/ ١٦١.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ١١/ ٥٣٢٨.

الحديث رقم (١٥٢١)

١٥٢١ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ**)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لحييه: هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان[2].

الشرح الأدبي

الوقاية توحي بالحفظ، والمنع، والحماية، ونسبتها لله تعالى تعطيها مع توكيدها أبعادا إيحائية تشمل الدنيا، ومواقف الآخرة، وقوله (ما بين لحييه) كناية عن اللسان، أي الذي بين الشارب، واللحية الفم، واللسان، وتكرار لفظ (شر) للدلالة على استقلالية الحكم في كل واحد منهما وقوله (وما بين رجليه) كناية عن الفرج فلا يستعمله في معصية الله فيما لا يحل له وقوله دخل تفيد التحقق، والجنة من الألفاظ الموحية بطبيعتها بالمتاع الحسي، والمعنوي، والنعيم الأبدي الذي يذهب فيه العقل كل مذهب، وفي الحديث دعوة إلى كف الجوارح عن إيذاء الناس.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) برقم (٢٤٠٩) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٠٣)، وقال الحاكم (٣٥٧/٤): صحيح الإسناد. أورده المنذري في ترغيبه (٣٥٥٨، و ٤٢٠٨).

(٢) فتح الباري، ٣١٦/١١.

(٣) تقدم شرح هذا الحديث برقم (١٥١٥).

الحديث رقم (١٥٢٢)

١٥٢٢ - وعن عقبة بن عامرٍ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: ((أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عقبة بن عامر الجهني: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٥١).

غريب الألفاظ:

وليسعك بَيْتُك: أي: تعرض لما هو سبب للزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من وصايا رسول الله ﷺ الجامعة التي تفيء النفوس إلى ظلالها من هجير الصراع النفسي، والقلق الذاتي، والتنافر الاجتماعي.

والحديث: سؤال وجواب، وهذه من الصيغ المألوفة في الحديث النبوي، وهي صيغة إقناعية ثمرتها التعليم والإرشاد، والهدي والسداد

ويبدأ الحديث بالنداء، والمنادي هو رسول الله ﷺ، وكان السياق يقتضي أن يبدأ السائل بالمسؤول عنه وهو النجاة، ولكنه عدل عن ذلك وقدم نداء لرسول الله ﷺ تعظيمًا وتوقيرًا، ولأن السؤال عن مثل هذه الأمور لا يكون إلا لرسول الله ﷺ، لأنه لا ينطق عن الهوى، وهو المبلغ عن ربه.

وفي قوله: (ما النجاة؟) إيجاز بالحذف: لأن السؤال عن الأسباب المحصلة للنجاة، والسؤال عن النجاة يوحي بأن الإنسان وهو يخوض غمار الحياة في خطر دائم، ومعرض للهلاك.

---

(١) برقم (٢٤٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٣٨).

(٢) تحفة الأحوذي، ١٨٩٤/٢.

وإجابة رسول الله ﷺ جاءت في ثلاث جمل، "أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك" وكلها جاءت في نسق لغوي واحد "صيغة الأمر"، وهي متناسقة التركيب، منسجمة الإيقاع، ومتسقة البناء، وكلها تختم بكاف الخطاب: لسانك.. بيتك.. خطيئتك، وكأن هذا التوازن البنائي صورة لتوازن السلوك الاجتماعي، وصورة لاتزان شخصية المسلم، واستواء نفسيته، وقوله: (أمسك عليك لسانك) فيه عدول عن الظاهر المألوف إلى غيره فالظاهر كما قال صاحب دليل الفالحين أن يقال: حفظ اللسان: فأخرجه على سبيل الأمر المقتضى للتحقيق مزيدًا للتقرير، وقيل الحديث من أسلوب الحكيم، فإن السؤال عن حقيقة النجاة، والجواب بسببها لأنه أهم، والأمر في: (وليسعك بيتك) للبيت: وفي الحقيقة لصاحبه: أي: اشتغل بما هو سبب لزومه، وهو طاعة الله تعالى والاعتزال عن الأغيار.

وقوله: "وابك على خطيئتك": فيه أمر، والأمر للوجوب، والتعدية بـ"على: تضمن الفعل: "ابك"، معنى الندامة، أي: اندم على خطيئتك، والفعل أخطأ يفيد معنى دقيقًا وهو: تعمد الذنب، ومن دلالة الخطأ: الغليان والفوران حيث يقولون: خطأت القدر بزبدها عند الغليان أي قذفت به، والخطأ يعني المحل والجدب، حيث يقول العرب: أخطأ المطرُ الأرض أي لم يصبها، ويقولون: استخطأت الناقة أي لم تحمل سنتها.

وهذه الدلالات اللغوية تتجمع لتشكل صورة منفرة لمرتكب الخطيئة وتجعله إذا أراد النجاة أن يبكي، وأن يندم، وأن يتوب إلى الله تعالى، حتى ينجو من المحل والجدب، والغضب والعصيان، والهلاك والخسران، ويفيء إلى ظلال السكينة والإيمان.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات المدعو: السؤال والاستفسار عما ينفعه.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان طرق النجاة.

رابعًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً- من واجبات المدعو: السؤال والاستفسار عما ينفعه:

حيث جاء في الحديث: "قلت يارسول الله ما النجاة؟" ومما لا شك فيه أن من أهم واجبات المدعو السؤال والاستفسار عما ينفعه وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، قال السعدي: "وهذه الآية عامة في كل مسألة من مسائل العلم والدين أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك"[2]. هذا وقد استنكر الرسول ﷺ على من لم يسأل عند جهله ففي قصة المجروح الذي اغتسل فمات قال ﷺ، "قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العِيِّ السؤال"[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الأمر:

حيث جاء في الحديث: "أمسك عليك لسانك" وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي تشعر المدعو بأهمية المأمور به، وضرورة تنفيذه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[4]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[5]، وقوله جل شأنه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[6].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤٦٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٤) سورة الحشر، آية: ٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٦) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان طرق النجاة:

حيث جاء في الحديث: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». قال الطيبي: "وقوله أمسك عليك لسانك" أي لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك وعن بعضهم، اجعل لسانك مملوكًا لك فيما عليك وَبَالُه وَتَبِعتُه، وأمسكه عما يضرك وأطلقه فيما ينفعك، ومن النجاة أن يتعرض لما هو سبب للزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار، وضمن "بكى" معنى الندامة، وعداه بـ "على" أى أندم على خطيئتك باكيًا"[١]. هذا وقد جعل النبي ﷺ إمساك اللسان عن الكلام أول طريق النجاة، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال "من صمت نجا"[٢].

وقال بعضهم:

احْفَظْ لِسَانَكَ أيُّهَا الإنْسَانُ	لا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَم فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ	كَانَتْ تَهَابُ لقَاءهُ الشُّجْعَانُ[٣]

والواجب على المسلم حفظ اللسان عن فضول الكلام.

وهو الزيادة التي لا فائدة من ورائها فإذا أدى مقصوده بكلمة: فذكر كلمتين، فالثانية فضول.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤].

وعن ركب المصري مرفوعًا: "طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله".

وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١٢/٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٥٠١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣١).

(٣) الأذكار للنووي، ٢٩٨، والأبيات للإمام الشافعي، البحر: كامل تام، المستظرف ١٨٦/١.

(٤) سورة النساء، آية: ١١٤.

وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب، حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول له: سأشتري لك كذا وكذا فيكتب كذابًا.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر، فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا.

وقد قيل:

وَزِنِ الكلامَ إذا نطقت فإنما ... يبدي عيوبَ ذوي العقولِ المنطق[1]

وقيل أيضًا:

خَيْر الكلامِ قَليلُ ... على كَثير دَليلُ

والعِيُّ مَعنى قَصيرُ ... َحويه لفظٌ طَويلُ

وفي الكَلام فضُول ... وفيه قَال وقيلُ[2]

وقوله ﷺ "وليسعك بيتك" فقد أرشد ﷺ إلى إحدى طرق النجاة، وهو أن يبتعد الإنسان عن مخالطة الناس إذا كان في ذلك ضرر له في دينه، وإشغال له عن عبادة ربه وتسبب المخالطة في وقوعه في الفتن والمعاصي.

قال ابن قدامة: "وفوائد العزلة ست:

الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصًا في البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلى الأنس بالله.

وقال أويس القرني ﷺ: ما كنت أرى أن أحدًا يعرف ربه فيأنس بغيره. واعلم أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا

---

(١) الأبيات لصالح بن عبدالقدوس، تاريخ دمشق ٢٣/ ٣٥٠، وفيات الأعيان ٢/ ٤٩٣.

(٢) حفظ اللسان، وحيد عبدالسلام بالي، ١١، والأبيات في معجم الأدباء ١/ ٣٠٦، والعقد الفريد ٢/ ١١٤.

بالمخالطة، وهي أربعة: الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرياء، ومسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم.

وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ذكر الفتن، ووصفها وقال: ((إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، فكانوا هكذا)) وشبك بين أصابعه، فقلت: ما تأمرني؟ فقال" ((الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة)).

وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ[1]

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من خلطاء السوء.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر من تعرف. وقال رجل لأخيه: أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعش في ستر الله، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه، وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.

أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائمهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

---

(١) البداية والنهاية، قافية الباء ١١/٧٤، والأبيات لابن الرومي، بحر: وافر تام.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.

وأما انقطاع طمعك: فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء لم يلبث أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فانجر الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك"(٢).

وذكر فوائدَ المخالطةِ وَتَرْك العزلة فقال:

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. ومن فوائد المخالطة:

"التعلم والتعليم والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة"(٣).

ثم بين الضابط في المسألة والراجح فيها فقال:

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحاكم عليها مطلقًا بالتفصيل نفيًا وإثباتًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

فقد قال الشافعي: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة

(١) سورة طه، آية: ١٣١.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١١٩-١٢٢

(٣) المرجع السابق نفسه ١٢٢، ١٢٣.

للسوء، فكن بين القبض والبسط، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: فما آداب العزلة؟، قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كفَّ شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبدًا، فهذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلوته مواظبًا على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيادة ليصفوا وقته، وليكف عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبورًا على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغى إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عند كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسى، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه، فهو شهيد، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[2].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ١٢٥، ١٢٦.

وذكر الإمام ابن القيم الضابط في أمر الخلطة من عدمها باعتبار أن لزوم البيت سبيل النجاة فقال: "والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير -كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة- ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلاً، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، وبأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجوء إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة)[1].

وقال أيضًا: (والناس في مخالطتها أربعة أقسام:

أحدها: مَنْ مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه

---

(١) طب القلوب، جمع وترتيب صالح أحمد الشامي، ص ٥٥، ٥٦.

ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: مَنْ مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث.

القسم الثالث: وهم من خالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلابد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربًا فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل، المبغض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث[1]، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة، التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يومًا عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إلي وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال.

---

(١)أي لا يفكر في الكلام ولا يزنه بعقله.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة آكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين. وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير، قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة، وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه، واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَـذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ   فَهْيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي فَاضِلُ(١)

وقوله ﷺ في الحديث: "وابك على خطيئتك" فهو بيان للطريق الثالث من طرق النجاة أن يتذكر الإنسان معصيته، ويراجع نفسه ويندم على ما فعل وقصر وتجاوز في حق الله.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٧٤، ٢٧٥، البداية والنهاية ١١/٢٥٨، والبيت مما استحسنه ابن الجوزي من شعر المتنبي.

قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي: "ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين الآدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل.

وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء عفا فعفا[1] كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ وأخذ باليسير، فالحذر الحذر.

ولقد رأيت أقوامًا من المترفين كانوا يتقلبون في الظلم والمعاصي الباطنة والظاهرة، فتعبوا من حيث لم يحتسبوا، فقلعت أصولهم، ونقض ما بنوا من قواعد أحكموا لذراريهم.

وما كان ذلك إلا أنهم أهملوا جانب الحق عز وجل، وظنوا أن ما يفعلونه من خير يقاوم ما يجرى من شر، فمالت سفينة ظنونهم، فدخلها من ماء الكيد ما أغرقهم.

ورأيت أقوامًا من المنتسبين إلى العلم أهملوا نظر الحق عز وجل، إليه في الخلوات، فمحا محاسن ذكرهم في الجلوات، فكانوا موجودين كالمعدومين، لا حلوة لرؤيتهم، ولا قلب يحن إلى لقائهم.

فالله الله في مراقبة الحق عز وجل؛ فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مرصد للمخطئ، ولو بعد حين.

وربما ظن أنه العفو، وإنما هو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة.

فالله الله، الخلوات الخلوات، البواطن البواطن، النيات النيات؛ فإن عليكم من الله عينًا ناظرة.

وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم قد استدرج. وكونوا على مراقبة الخطايا مجتهدين في محوها.

وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا، فلعله[2]...

وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه.

---

(١) عفا الأولى من العفو، وهو الصفح والمغفرة، والثانية من التعفية وهي المحو والإزالة.

(٢) يعني لعله ينفع إن شاء الله.

ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى: قدرت على لذة وليست بكبيرة فنازعتني نفسي إليها، اعتمادًا على صغرها، وعظم فضل الله تعالى وكرمه، فقلت لنفسي: إن غلبت هذه فأنتِ أنتِ، وإذا أتيتِ هذه فمن أنت؟.

وذكّرتُها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم في مسامحة؛ كيف انطوت أذكارهم، وتمكن الإعراض عنهم.

فارعوت[1]، ورجعت عما همَّت به[2].

وقال ابن القيم: "ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله تعالى ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له، ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فذكره قوته، وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذاته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه.

فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة.

فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبدًا.

وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه.

وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده.

فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

---

(١) ارعوت: كفت وامتنعت.

(٢) صيد الخاطر ٢٠٤، ٢٠٥.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها؛ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعيم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات فيها - أي الدنيا -: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته.

وقال أبو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني: الحياة مع الله تعالى لا غير.

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟

وقال آخر: من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات.

وقال يحيى بن معاذ: من سُرّ بخدمة الله سرت الأشياء كلُّها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه.

ومن علامات صحة القلب: ألا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدله عليه، ويذكره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده، وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرت عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شحًا بما له ومنعًا.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منة الله فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ستة مشاهد لا يشهدها إلا القلب الحي السليم[1].

رابعًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث إن من مهام الداعية أن يرشد الناس ويدلهم على الخير ويجيب على تساؤلاتهم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]، وبين الرسول الكريم ﷺ أن من يدل على خير له أجر وثواب ففي الحديث "من دل على خير فله مثل أجر فاعله أو قال عامله"[3]. وإلى هذا يجب أن ينطلق الدعاة ويحرصوا على دلالة الناس وإرشادهم إلى الخير.

قال الإمام النووي: (وفي الحديث فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لاسيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)[4].

---

(١) طب القلوب ٤٨-٥٠ بتصرف.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٢١٥.

الحديث رقم (١٥٢٣)

١٥٢٣ – وعن أَبي سعيد الخدري ﷺ ، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تَكْفُرُ اللِّسانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّما نَحنُ بِكَ؛ فَإنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**)). رواه الترمذيُّ[1].

ترجمة الراوي:

ابو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

تكفر اللسان: أي: تذل وتخضع له[2]. ويراد بها هنا: أنها تتكر عليه كل كلمة غير مشروعة، لأنها تجر على الأعضاء الأذى في الدنيا والهلاك في الآخرة.

وإن اعوججت اعوججنا: أي: ملت عن طريق الهدى ملنا عنه اقتداء بك[3].

الشرح الأدبي

إن اللسان زمام الإنسان – كما قال العاقولي- فإذا أطلقه لزم منه ما لا يرضي صاحبه شاء أو أبى، وإمساك اللسان وحفظه من أسباب النجاة.

وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث الشريف الذي يصور الصراع بين اللسان وأعضاء الجسد كلها.. نجد الحديث مُفْعَمًا بأساليب عدة منها الشرط والقصر والأمر والتأكيد، وهو كذلك يتضمّن أسلوب التشويق والإقناع.. عن طريق التصوير والتشخيص.

ويبدأ الحديث بأسلوب الشرط، وأداة الشرط "إذا" في صدر الحديث: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان"، وقوله "أصبح" فعل الشرط، وذلك يوحي

(١) برقم (٢٤٠٧). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٢٨).

(٢) رياض الصالحين، ٥٢٢.

(٣) تحفة الأحوذي، ١٨٩٤/٢.

بأن هذا شأن يومي؛ فكل صباح تتوجه جميع الأعضاء إلى اللسان بهذا الاتهام، وتناشده أن يتقي الله تعالى وأن يستقيم.

وهذه المناشدة يقينية وحقيقية في كل يوم لأن أداة الشرط "إذا" تدل على التحقق والوقوع، وقوله: "ابن آدم"، يوحي بأن الناس جميعًا مطالبون بالإسلام، وبإقامة الحجة على اللسان، ولا بد أن يقر بالتوحيد، وأن ينطق بالشهادتين، وجواب الشرط: مُحصَّن بالتوكيد "فإن الأعضاء كلها" التوكيد "بإن" وبلفظ "كلها" وفي ذلك إشارة إلى الصراع بين فطرة الإنسان الخالصة، وبين ما يلوث هذه الفطرة من آفات اللسان، ورذائل الحياة، وفي قوله تكفر اللسان تصوير وتشخيص، فالتكفير هنا كناية عن تنزيل الأعضاء اللسان إذا أخطأ منزلة الكافر النعم، أو الخارج عن الإسلام إلى الكفر مبالغة فهي تكفره بهذا الاعتبار وبلسان الحال.

ولذلك جاء البيان بعد ذلك في صيغة الأمر حيث تقول الأعضاء للسان: "اتق الله"، وهذه الجملة متصلة بما قبلها كمال الاتصال عن طريق عدم ذكر أي رابط أو فاصل فهي: بدل مما قبلها أو بيان له.

وأسلوب القصر في قوله: "فإنما نحن بك". ينبئ عن الترابط الكامل بين اللسان وجميع أعضاء الجسد لأنه المعبر عن الرغبات والأهواء، وهو المفصح عن الأمنيات والاعتقادات والآراء.

ويختم الحديث بعد القصر والتأكيد بجملتين شرطيتين: تفصحان عن الترابط الوثيق بين صلاح اللسان وصلاح الإنسان كله واستقامة أعضائه، وتعللان كذلك لهذا الترابط، والجملة الأولى تفصح عن العلاقة بين استقامة اللسان واستقامة الأعضاء، والقوام هو العدل والاعتدال، وبدأ بالاستقامة لأنها الثمرة المرجوة، والطريق المبتغى.

والجملة الثانية الشرطية تربط بين اعوجاج الأعضاء واعوجاج اللسان، والتضعيف في فعل الشرط وكذلك في جواب الشرط، والنقل الصوتي الذي يحدثه تكرار حرف الجيم المسبوق بحرف العين، وهي من أقصى الحلق، وتكرار هذا الثقل في الجواب والشرط يجسد ثقل المعصية، وفداحة الانحراف عن طريق الإيمان، وتعاليم الرحمن.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطر اللسان على الأعضاء.

أولاً- من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء..." وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة الهامة التي تبين وتلفت انتباه المدعو وتشده إلى معرفة جواب الشرط، وتبين له من وجه آخر مدى ارتباط الشرط بالجزاء، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط، قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (١)، وقوله سبحانه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (٢).

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على حفظ اللسان:

يتضح هذا من الحديث: "فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان"، ولا شك أن المسلم مطالب بالمحافظة على لسانه حتى لا يورده المهاوى والمهالك، قال الإمام الماوردي: "ومن شروط الكلام، أن يكون لداعٍ يدعو إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر ذلك أن ما لا داعي له هذيان، وما لا سبب له هجر، ومن سامح نفسه في الكلام إذا عَنَّ، ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه، كان قوله مرذولا، ورأيه مغلولا، ومن شروطه أن يقتصر منه على قدر حاجته فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة، ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية، ولا لقدره نهاية، وما لم يكن من الكلام محضورًا كان إما حصرًا إن قَصّر، أو هذرًا إن كَثّر، ومن شروطه اختيار اللفظ الذي يتكلم به لأن اللسان عنوان

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٣.

(٢) سورة النصر، الآيات: ١-٣.

الإنسان يترجم عن مجهوله، ويبرهن عن محصوله، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريًا، وبتقويم لسانه مليًا"(١). وكان ﷺ يحفظ لسانه من اللغو فإن عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة..."(٢).

قال الإمام القاسمي: اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير. فقد قال معاذ بن جبل قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: ياابن جبل: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(٣).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: يالسان قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم. وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَسْكُتْ»(٤).

فمن آفات اللسان، الكلام فيما لا يعني، اعلم أن رأس مال العبد أوقاته: فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابًا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله، ولهذا قال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعْنِيهِ»(٥). وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها. وعلاج ذلك كله أن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان. فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين.

ومن آفات اللسان: فضول الكلام.

وهو أيضًا مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فإن ذكر كلمتين فالثانية فضول، أي فضل عن الحاجة وهو أيضًا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. واعلم أن

---

(١) أدب الدنيا والدين٢٦٧-٢٦٨.

(٢) أخرجه النسائي ١٤١٤، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي١٣٤١).

(٣) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٥، ومسلم ٤٧.

(٥) أخرجه الترمذي ٢٣١٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٨٨٦).

فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى: قال الله عزوجل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(١).

ولقد قلب الناس الأمر فأمسكوا فضل المال، وأطلقوا فضل اللسان. قال عطاء: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو تنطق لحاجتك في معيشتك التي لابد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين. عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد؟! أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. وفي الأثر: ما أوتى رجل شرًا من فضل لسانه.

ومن آفات اللسان: الخوض في الباطل: وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق، وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة، فإن ذلك مما لا يحل الخوض فيه، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾(٢). وبقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(٣). وعنه ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»(٤).

---

(١) سورة النساء، آية: ١١٤.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٥.

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٠.

(٤) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ٢١٨-٢٢٠.

قال عائض القرني أمسك عليك لسانك: كررت هذا المعنى كثيرًا لأنني رأيت في حياتي أن اللسان أضر شيء على الإنسان، فكم من رجل حبس في كلمة وآخر جلد لأجل عبارة، وثالث فقد رأسه وسال دمه من أجل جملة، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيكفيك حديث معاذ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» فاحذر لسانك! ولا تتكلم إلا بخير ولا تتعرض لأذية سلطان أو عالم أو داعية أو أي مسلم فإنك سوف تدفع الثمن إما هنا وإما هناك يوم العرض الأكبر، وتفكر في كلامك قبل أن تنطق به، فإنه إذا خرج منك لن تستطيع إرجاعه أو إصلاحه، واجعل الناس لك لا عليك، وقد كثر الغش وانتشر الحسد، وزاد الطمع، فأنقذ نفسك من رق كلمة غير نافعة، قد تكون سبب كدرك العاجل وعذابك الآجل وانظر لأحمد بن حنبل مع تقواه وورعه ونسكه، كان إذا جلس مجلسًا قال: اللهم سلّم سلّم. فاطلب ربك السلامة، فإن الهالكين أكثر من الناجين"[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطر اللسان على الأعضاء:

حيث جاء في الحديث: " فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا"، قال المباركفوري: "إذا دخل الصباح فإن الأعضاء تتذلل وتتواضع للسان وتقول له حقيقة أو بلسان الحال: اتق الله فينا، أى خفه في حفظ حقوقنا فإنما نحن نتعلق ونستقيم ونعوج بك فإذا اعتدلت اعتدلنا تبعًا لك، وإن اعوججت أى ملت عن طريق الهدى ملنا عنه اقتداء بك"[2]. وقال الطيبي: "ولا يتعارض هذا الحديث مع ما جاء من ارتباط الأعضاء بالقلب فإن اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن، فإذا أسند إليه الأمر يكون على سبيل المجاز في الحكم كما في قولك: شفى الطبيب المريض. قال الميداني في قوله: " المرء بأصغريه" يعني بهما القلب واللسان أى تقوم معانيه بهما ويكمل بهما".

---

(١) هكذا حدثنا الزمان ٨٧، ٨٨.

(٢) تحفة الأحوذي ١٨٩٤/٢.

وأنشد لزهير:

وكَمْ تـرَى مـن صـامتٍ لـك مُعجِـبٍ زِيادَتُـه أوْ نَقْـصُهُ في الـتّكلّمِ

لِسانُ الفَتـى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُهُ فلَـمْ يَبْـقَ إلاّ صُـورَةُ اللّحـمِ[1]

قال ابن القيم: "وقد أودع الله اللسان في الفم الذي هو أحد الآيات الدالة عليه وجعله ترجمانًا لتلك الأعضاء مبينًا له مؤديًا عنه، ولما كان اللسان أشرف الأعضاء بعد القلب، ومنزلته منه منزلة ترجمانه، ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه"[2].

قال الشيخ الحسيني هاشم: (وفي الحديث أن الأعضاء تتأثر بخطأ العضو، وفيه إشارة إلى أن الفاسد لا يقتصر فساده على نفسه بل يضر إخوانه وعليهم ردعه ومقاومته وتوجيهه)[3].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١٢/٩-١١٣، والأبيات في البيان والتبيين للجاحظ ١٠٢/١، وفوات الوفيات ٤١٧/١.

(٢) مفتاح دار السعادة ١٩١/١.

(٣) شرح رياض الصالحين ٧١٥.

الحديث رقم (١٥٢٤)

١٥٢٤ - وعن مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُني مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: ((لَقَدْ سَألتَ[١] عَنْ عَظيمٍ، وإنَّهُ لَيَسيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ)) ثُمَّ قَالَ: ((ألاَ أدُلُّكَ عَلَى أبْوابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)) ثُمَّ تَلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٦ - ١٧] ثُمَّ قَالَ: ((ألاَ أُخْبِرُكَ بِرَأسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ)) قُلْتُ: بَلَى يَا رسولَ اللهِ، قَالَ: ((رَأسُ الأمْرِ الإسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ الجِهادُ)) ثُمَّ قَالَ: ((ألاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ!)) قُلْتُ: بَلَى يَا رَسولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسانِهِ وقال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) قُلْتُ: يَا رسولَ الله وإنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[٢]! وَهَلْ يَكُبُّ النَاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ[٣] إلاَّ حَصَائِدُ ألْسِنَتِهِمْ؟)). رواه الترمذيُّ[٤]، وقال: (حديث حسن صحيح)، وَقَدْ سبق شرحه في باب قبل هَذَا[٥].

ترجمة الراوي:

معاذ بن جبل: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

جُنة: الجُنَّةُ: الوقاية، أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات[٦].

---

(١) لفظ الترمذي: (سألتني).

(٢) عند الترمذي زيادة: (يا معاذ).

(٣) عند الترمذي زيادة: (أو على مناخرهم).

(٤) برقم (٢٦١٦). قال الحاكم (٢/٤١٣): هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٢٠).

(٥) لم يكرر المؤلف هذا الحديث في غير هذا الموضع، وأورده في الأذكار (ص: ٥٨٤) وشرح فيه بعض الكلمات.

(٦) النهاية في (ج ن ن).

جوف الليل: ثلثه الآخِرُ[١].

تتجافى: تتباعد[٢].

المضاجع: المفارش والمراقد[٣].

وذروة سنامه: أعلاه[٤].

بملاك ذلك كله: المِلاكُ: قِوامُ الشيء ونظامه وما يعتمد عليه[٥].

ثكلتك أمك: أي: فقدتك. وهو دعاء على ظاهره، ولا يراد وقوعه، بل هو تأديب وتنبيه من الغفلة وتعجيب وتعظيم للأمر[٦].

حصائد ألسنتهم: أي: ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه، واحدتها حصيدة، تشبيهًا بما يحصد من الزرع وتشبيهًا للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به[٧].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من وصايا رسول الله ﷺ الجامعات، ومن توجيهاته المشرقات، وإرشاداته النيرات، والحديث جامع لكل أمور الدين، وهو من جوامع كلمه ﷺ.

وهذه المحاورة الجامعة المانعة بين رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل رضي الله عنه تموج بالأساليب البديعة والتراكيب المفصحة عما يستكن في خبايا نظمها من دلالات وتوجيهات، وتبدأ المحاورة بسؤال من معاذ رضي الله عنه ورد في صيغة الأمر، ولكنه أمر متلبس بالرجاء، وهذه البداية تتضمن طباقًا بين موقفين: موقف النجاة في قوله:

---

(١) النهاية في (ج و ف).

(٢) النهاية في (ج ف و).

(٣) اللسان والوسيط في (ض ج ع).

(٤) الوسيط في (ذ ر و) و (س ن م).

(٥) النهاية في (م ل ك).

(٦) النهاية في (ث ك ل).

(٧) النهاية في (ح ص د).

"يدخلني الجنة"، وموقف الخسران في قوله: "يباعدني من النار"، والتضاد الدلالي يكمن في قوله: "يدخلني، ، ويباعدني"، وبين: "الجنة والنار"، وقدّم موقف النجاة على موقف الخذلان لمزيد من الرغبة في الطاعة ومعرفة طرقها وشعائرها، وصيغة المفاعلة في قوله: "يباعدني" للمبالغة في البعد، فقوله: "يباعدني" أبلغ من يبعدني.

وتكون الوصية من أربعة أقسام، وبدأ بالأركان في القسم الأول: لأنها فرائض لا يقوم الإسلام إلا بها.

وتبدأ إجابة رسول الله ﷺ بالتأكيد الذي يُشعر بالقسم في قوله: "لقد سألت عن عظيم"، والتقدير: والله لقد سألت عن عظيم، والتنوين في قوله: "عظيم" للتعظيم، والتأكيد في قوله: "وإنه ليسير": فيه ترغيب للإقبال على ميادين الطاعة، وفي هذه الجملة المرغبة طباق بين قوله: عظيم ويسير، فعظيم تعطي دلالة الشدة والثقل، والمسؤولية، وبدأ رسول الله ﷺ بأركان الإسلام، وقد ساقها مجردة من التوكيد لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يشك في ضرورة ووجوب الإقرار والعمل بأركان الإسلام، فهو مصدق للخبر لا يَشُكُّ ولا يُنْكِر؛ ولنتأمل صيغة المضارع ودلالتها في بيان رسول الله ﷺ البليغ الموجز "تعبد الله، تقيم الصلاة، تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت". وهذه الصياغة تفيد وجوب الاستمرار في هذه العبادات، وتواصل الطاعة وعدم انقطاعها.

وفي القسم الثاني من الوصية يزداد الترغيب عن طريق التصوير البياني.. وبعض الأساليب الدالة على ترسيخ المعاني: لأن الوصايا هنا توضح ثمرة العمل بالأركان والإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وما أرق هذا الاستفتاح، وما أجمله حيث يبدأ بالاستفهام الترغيبي وأداة الاستفتاح : "ألا أدلك على أبواب الخير"، وكأن الخير مدائن تتعدد أبوابها وعلى كل متجه إليها أن يعرف ما هية هذه الأبواب المُشْرَعة، وقد شبه الرسول ﷺ الصوم بأنه جُنَّةٌ أي درع يقي به الإنسان نفسه من النار.. فهو مصدر للقوة والحماية، وليس سببًا في الضعف كما يتوهم الأدعياء والجهلاء، وما أبلغ تصوير الرسول ﷺ للصدقة بالماء العذب الفرات الذي ينهمر على النار فيطفئها فهي تطفئ

الخطايا المشتعلة في النفس وهي تطفئ الأحقاد بين الناس، وتزرع السكينة والتراحم فيما بينهم.

ويتكرر أسلوب الترغيب بعد ذلك مرتين في قوله: "ألا أخبرك برأس الأمر"، و: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله"، وما أصدق هذا التصوير الأدبي وما أبلغه حيث صُور الدين بالكائن الحي، والخيمة الكبرى أو البناء الضخم، والبعير القوي: وكلها تشبيهات وصور منتزعة من البيئة المشاهدة، فرأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، واللسان هو الطريق لترجمة ذلك كله، فحصائد الألسن هي الطريق إلى الهلاك، والنجاة تتمثل في إمساك اللسان، وترطيبه بذكر الله، والإقرار بالتوحيد، والاعتراف بأفضال الله تعالى ونعمه التي لا تحصى.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ثانيًا: من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه.

ثالثًا: من مهام الداعية: البيان والتفصيل للأمور العظيمة.

رابعًا: من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى والمحافظة على أركان الإسلام.

خامسًا: من أساليب الدعوة: التشويق.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: فضل الصوم والصدقة وصلاة الليل.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: بيان خطورة اللسان والأمر بحفظه.

ثامنًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل معاذ بن جبل رضي الله عنه:

حيث جاء عن معاذ رضي الله عنه: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه" ولاشك أن لمعاذ بن جبل رضي الله عنه فضلاً عظيمًا ومنزلة عالية، قال ابن عبدالبر: (هو معاذ بن جبل ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبدالرحمن قال الواقدي: كان

معاذ بن جبل طوالاً حسن الشعر عظيم العينين أبيض براق الثنايا، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالله بن مسعود، قال الواقدي: هذا ما اختلاف فيه عندنا. شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها، وبعثه رسول الله ﷺ قاضيًا إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن)[١].

وقال أبو الفرج بن الجوزي: " عن يحيى بن سعيد قال: كانت تحت معاذ بن جبل امرأتان فإذا كان عند إحداهما لم يشرب في بيت الأخرى الماء. وعن ثور بن يزيد قال: كان معاذ بن جبل إذا تهجد من الليل قال: اللهم قد نامت العيون وغارت النجوم وأنت حى قيوم، اللهم طلبي للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هُدىً ترده إليَّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. وعن شهر بن حوشب قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ رضي الله عنه نظروا إليه هيبة له"[٢].

وقال ابن حجر: "هو الإمام المقدم في علم الحلال والحرام، قال كعب بن مالك: كان شابًا جميلاً سمحًا من خير شباب قومه، وقال الشعبي عن مسروق: كنا عند ابن مسعود فقرأ إن معاذًا كان أمة قانتًا لله، فقال: فروة بن نوفل: نسيت؛ فقال: ما نسيت إنا كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام، وقال عمر رضي الله عنه - عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر... وكانت وفاته رضي الله عنه بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة وعاش أربعًا وثلاثين سنة"[٣]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل"[٤].

ثانيًا- من واجبات المدعو: السؤال عما ينفعه:

حيث جاء في الحديث: "أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار"، ومما

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٦٥٠ – ٦٥١.

(٢) صفة الصفوة ١/٢٢١-٢٢٢.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١٢٥٢-١٢٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي ٣٧٩٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي٢٩٨١).

لاشك أن من أهم واجبات المدعو السؤال عما ينفعه ويفيده قال الطيبي: "أى سألتني عن شيء عظيم مشكل متعسر الجواب ولكنه سهل على من يسره الله تعالى عليه لأن معرفة العمل الذي يدخل الرجل الجنة من علم الغيب، وعلم الغيب لا يعلمه أحد إلا الله، ومن علّمه الله تعالى"(١). هذا وقد أمر الله المسلم أن يسأل عندما يجهل أمرًا من الأمور، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

قال السعدي: "وهذه الآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين - أصوله وفروعه - إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك"(٣).

ثالثًا- من مهام الداعية: البيان والتفصيل للأمور العظيمة:

حيث جاء في الحديث: "تعبد الله ولا تشرك به شيئًا... ألا أدلك على أبواب الخير..." ومما هو معلوم أن من أولى مهام الداعية البيان والتفصيل للمدعوين الأمور العظيمة التي يحتاجونها، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٤)، وقال جل شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥)، قال ابن عاشور: "والتبيين: هو إيضاح المعنى وإسناد التبيين إلى النبي ﷺ باعتبار أنه المبلغ للناس هذا البيان، والمراد بالتبيين على هذا، تبيين ما في القرآن من المعاني، فمن حكم إنزال القرآن أن يبينه النبي ﷺ فتحصل فوائد

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ١/١٦٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ٤٦٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٥) سورة النحل، آية: ٤٤.

العلم والبيان"[١]. وفي أهمية البيان والتفصيل للعلم وعدم منعه يقول الإمام الماوردي: " ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون، فإن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودًا من غير بخل، وأتوه عفوًا من غير بذل؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما أن بذلوه، زاد ونما، وإن كتموه، تناقص ووهى، ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم، ولانقرض عنهم بانقراضهم، ولصاروا على مرور الأيام جهالاً، وبتقلب الأحوال وتناقصها أرذالاً"[٢].

رابعًا- من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى والمحافظة على أركان الإسلام:

حيث جاء في الحديث: "تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت"، ومما هو معلوم أن من أهم أهداف الدعوة أن يستقيم الناس على عبادة الله عز وجل، ويمتثلوا أركان الإسلام فإن الغاية من خلق العباد هي العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣]، قال ابن كثير: "إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "إلا ليعبدون" أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا، وقال الربيع بن أنس : أى: إلا للعبادة. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون"[٤]. وقال الإمام الراغب: "والعبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٥]، والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير وهى للإنسان والحيوان والنبات، وعبادة بالاختيار وهى لذوي النطق وهى المأمور بها في نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾[٦]، والناس كلهم عباد لله بل الأشياء

---

(١) التحرير والتنوير مج٦/١٤/١٦٤.

(٢) أدب الدنيا والدين ٨٧.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٤) تفسير القرآن المظيم ٧/٤٢٥.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٢٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١.

كلها، كذلك[1].

قال السيد سابق: إن سلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة، مظهر من مظاهر عقيدته، فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام. وإذا فسدت فسد واعوجّ. ومن ثم كانت عقيدة التوحيد، والإيمان ضرورة، لا يستغنى عنها الإنسان ليستكمل شخصيته، ويحقق إنسانيته.

ولقد كانت الدعوة إلى هذه العقيدة أول شيء قام به رسول الله ﷺ لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة المسلمة. ذلك أن رسوخ هذه العقيدة في النفس الإنسانية، يسمو بها عن الماديات الوضيعة، ويوجهها دائمًا وجهة الخير والنبل، والنزاهة والشرف.

وإذا سيطرت هذه العقيدة أثمرت الفضائل الإنسانية العليا، من الشجاعة والكرم، والسماحة والطمأنينة، والإيثار والتضحية.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

فالإيمان مثله مثل الشجرة المثمرة التي لا ينقطع ثمرها؛ فهي تؤتي أكلها كل حين في صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، والمؤمن كذلك، لا يزال يرفع له عمل صالح، في كل وقت وحين.

يقول الفيلسوف ابن سينا:

العارف شجاع.

وكيف لا؟ وهو بمعزل عن تقيَّة[3] الموت.

وجواد.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٣١٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٣) لا يتخذ الوقاية من الموت.

وكيف لا؟ وهو بمعزل عن محبة الباطل.

وصفّاح.

وكيف لا؟ ونفسه أكبر من أن تجرحها زلّة بشر.

ونسّاء للأحقاد.

وكيف لا؟ وفكره مشغول بالحق.

ولهذا كثر في القرآن الكريم اقتران الإيمان بالعمل الصالح، لأنه ثمرة من ثماره، وأثر من آثاره"[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: التشويق:

حيث جاء في الحديث: "ألا أدلك على أبواب الخير"، "ألا أخبرك برأس الأمر"، "ألا أخبرك بملاك ذلك كله"، وأسلوب التشويق من أساليب الدعوة التي تشد المدعو وتلفت انتباهه، ومن هنا كان على الدعاة إلى الله مراعاة التشويق في عرض الدعوة ليشجع المدعوين على الإقبال عليها، قال العلامة: محمد الخضر حسين: "العمل على إنقاذ النفوس من وادي الغواية، والإقبال بها على مطالع السعادة مسلك وعر لا يمر فيه على استقامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمدًا قاصيًا. فلا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة أو موعظة يلقيها في أى صورة شاء فإن المخاطبين يختلفون ذوقًا وثقافة اختلاف الزمن والبيئة، ومن اللائق أن تصاغ دعوة كل طائفة في أدب يليق بأذواقها أو ثقافتها"[٢].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: فضل الصوم والصدقة وصلاة الليل:

حيث جاء في الحديث: "الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل"، ومما لاشك فيه فضل هذه الأمور والثواب الجزيل عليها، قال الطيبي:

"جعل هذه الأشياء أبواب الخير لأن الصوم شديد على النفس وكذا إخراج المال في

---

(١) إسلامنا، ٢٧.

(٢) الدعوة إلى الإصلاح ٧١.

الصدقة، وكذا الصلاة في جوف الليل فمن اعتادها يسهل عليه كل خير ويأتي منه كل خير لأن المشقة في دخول الدار يكون بفتح الباب المغلق. وجعل الصوم جنة من النار لأن في الجوع سَدّ مجاري الشيطان فإذا سد مجاريه لم يدخل فيه، فلم يكن مسببًا للعصيان الذي هو سبب لدخول النار، والصوم جنة لأنه يقمع الهوى والشهوة، والصدقة تذهب الخطيئة الحاصلة والصلاة في جوف الليل تفيد الإدخال في الجنة، لأن قرة العين كناية عن السرور والفوز التام، وهو مباعدة النار ودخول الجنة"[١]. وقال المباركفوري: "والصوم جنة أى وقاية مانع من النار أو من المعاصي بكسر الشهوة وضعف القوة، والصدقة تذهب الخطيئة وتمحوها وتمحو أثرها أي إذا كانت متعلقة بحق الله تعالى، وإذا كانت من حقوق العباد فتدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضًا عن مظلمته. وأما صلاة الرجل من جوف الليل فالمعنى أنها تطفئ الخطيئة أو هى من أبواب الخير والأول أظهر. وهو شعار الصالحين"[٢]. ويكفي قول الله في حق المصلين بالليل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٣].

إن قيام الليل يورث العبد محبة الله.

"إن أصحاب الليل هم بلاشك من أهل المحبة. بل هم من أشرف أهل المحبة، لأن قيامهم في الليل بين يدي الله تعالى يجمع لهم جل أسباب المحبة.

- فهم لا يقرءون القرآن فحسب، بل يقومون به متدبرين خاشعين.
- وهم في قيامهم يتقربون بأقرب النوافل إلى الله.
- وهم في تجافيهم عن المضاجع لذكر الله بالليل، أحرى أن يكونوا ذاكرين له في النهار.
- ومجافاتهم تلك دالة على إيثارهم لمحاب الله على محاب أنفسهم.
- وهم في قيامهم يطالعون بقلوبهم أسماء الله وصفاته ويتقلبون في رياضها.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١/١٦٥-١٦٦.

(٢) تحفة الأحوذي، ٢/٢٠٠٤.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٧.

- وهم يتفكرون أثناء تلاوتهم في آلاء الله، وآيات بره، وإحسانه، وإنعامه على سائر الخليقة.

- ثم إنهم لا يقومون هذا المقام بين يدي الله تعالى في جوف الليل والناس حولهم يُغطّون، إلا وهم منكسرون بقلوبهم له سبحانه.

- وتوفيقهم لهذا القيام؛ توفيق للخلوة بربهم وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

فأهل القيام بذلك قد ذهبوا بنحو ثلاثة أرباع أسباب المحبة.

ولهذا فلا عجب أن يتنزل أمين السماء جبريل عليه السلام على أمين الأرض محمد ﷺ ويقول له: «وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزُّهُ ... اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»[1]. وإنما كان قيام الليل شرفًا لأصحابه، لأنهم يستشرفون به - وهو أشق الطاعات - رضا الله في أشد الساعات، ولهذا فهم يقلدون أوسمة الشرف الإلهي نورًا في القلوب ونورًا في الوجوه ونورًا في الحياة ونورًا في الممات، جزاء طول قيامهم لله في الظلمات.

يقول الحسن البصري "لم أجد من العبادة شيئًا أشد من الصلاة في جوف الليل"، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: "لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره". وقال أبو سليمان الداراني "أهل الليل في ليلتهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا".

وقال الضحاك: "أدركت قومًا يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة".

فإذا كان هذا شأن القيام ومنزلة القوامين، فلينهض المقصرون والكسالى والمخلطون -مثلنا- للحاق بركب الشرف الذي سلكوه، قبل أن ينقطع الطريق وتغلق الأبواب.

ومع شدة هذه العبادة، فإن لها من رحمة الله- ميسرات تذللها، ووصفات تسهلها

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦١/١، والحاكم ٣٢٤/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني بمجموع طرقه، انظر السلسلة الصحيحة، حديث رقم ٨٣١، ص ٥٠٥/٢.

على النفس الخالدة إلى الراحة الموقوتة العاجلة، والغافلة عن الراحة الأبدية الآجلة.

فإذا أراد أحدنا اللحاق بقافلة المحبوبين من الله فليَعْجَل إلى مرضاته، وليجعل إخلاص النية وصلاحها أولى خطواته، وليستعن بالله على ذلك[1].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: بيان خطورة اللسان والأمر بحفظه:

حيث جاء في الحديث: "أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أمك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، إِلاَ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ". ولا شك أن هذا يدل على خطورة اللسان وكيف أنه سبب في دخول النار والعياذ بالله، قال الطيبي: "والمعنى لا يكب الناس في النار شيء من الأشياء إلا حصائد ألسنتهم من الكلام القبيح مثل الكفر والقذف والشتم والغيبة والبهتان، وهذا الحكم وارد على الأغلب والأكثر لأنك إذا جربت وفكرت لم تجد أحدًا حفظ لسانه عن السوء، ولا يصدر منه شيء يوجب دخول النار إلا نادرًا"[2].

وقال ابن علان: (واستبعد معاذ رضي الله عنه المؤاخذة به لسهولة مزاولته وسرعة حصوله وقوله: "هل يكب الناس" أى يقلبهم في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم، وتقدير الكلام: أو تسأل عن هذا مع ظهوره وأنت الفقيه الألمعي؟ ولذا عقبه بالاستفهام الإنكاري أى ما يكبهم فيها إلا ما يتكلمون به)[3].

وقال ابن عثيمين: (وقوله: "ثكلتك أمك يامعاذ"، وهذه كلمة يقصد بها تعظيم الأمر فيجب على المسلم أن يحذر حصائد اللسان ويحفظه، ومن حفظه أن يحفظ عن الكذب والغش وقول الزور والنميمة والغيبة وكل قول يبعده من الله تعالى، ويوجب عليه العذاب. فإنه يجب أن يتنزه منه)[4].

---

(١) شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدّها الإمام ابن القيم، عبدالعزيز مصطفى، ص١٣٠، ١٣١.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٦٩/١.

(٣) دليل الفالحين ١٥٨٠.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٦٠٣/٢.

ثامنًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

ويتضح هذا من سياق الحديث: ومما لاشك فيه أن أسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة التي لها دور رئيس في الدعوة إلى الله وحث المدعوين على الطاعة"، والترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، والترهيب كل ما يخيف المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"[1]، فيجب على الدعاة إلى الله الموازنة بين الأسلوبين في الدعوة واستخدام كل في موضعه.

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

الحديث رقم (١٥٢٥)

١٥٢٥ - وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسُولَ الله ﷺ، قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟)) قالوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: ((ذِكْرُكَ أخَاكَ بِما يَكْرَهُ)) قِيلَ: أفَرَأيْتَ إنْ كَانَ فِي أخِي مَا أقُولُ؟ قَالَ: ((إنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فقد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ (مَا تَقُولُ) [١] فَقَدْ بَهَتَّهُ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

بهته: كذبت وافتريت عليه[٣].

الشرح الأدبي

هذا الحديث محاورة بليغة موجزة بين رسول الله ﷺ والصحابة الأخيار ﷺ وغرضها التعليم والإرشاد إلى السلوك الاجتماعي القويم، ومعرفة أبعاد العلاقة الحسنة بين أفراد الأمة وطوائفها فهم عباد الله تعالى، وهم إخوان في الدين والحياة.

ويبدأ الحديث بسؤال توجيهي من رسول الله ﷺ إلى صحابته حتى يلفت انتباههم، ويسترعي أسماعهم وأنظارهم، ويدعوهم لمزيد من الإصغاء، وإجابة السؤال لم تكن بالنفي، ولكنها تضمنت تسليم الأمر لله تعالى ولرسوله ﷺ، فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقيل: ردُّوا العلم إليهما عملاً بالأدب ووقوفًا عند حد العلم.

ويأتي توضيح رسول الله ﷺ في أسلوب خبري خالٍ من التوكيد: لأن الصحابة ﷺ لا ينكرون كلام النبي ﷺ ولا يشكون في صدقه، فهم قالوا: الله

---

(١) هذه الزيادة ليست عند مسلم، وإنما عند أبي داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤) نقله المؤلف عن المنذري في ترغيبه.

(٢) برقم (٧٠/٢٥٨٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٨٩).

(٣) النهاية في (ب هـ ت).

ورسوله أعلم، فالأسلوب هنا مطابق لمقتضى الحال، حيث قال موضحًا مفهوم الغيبة: "ذكرك أخاك بما يكره"، وهذه الجملة الاسمية تفصح اسميتُها عن ثبات هذه الدلالة في كل زمان ومكان، وقوله: "أخاك" يوحي بالتأنيب والتقريع، فكيف يذكر الإنسان أخاه بما يكره، والأخوة هنا: أخوة الدين، فالمسلم أخو المسلم، "أيحب أحدكم أكل لحم أخيه ميتا؟".

والسؤال الذي وجهه بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ يتضمن الرغبة في معرفة الحكم الصحيح حيث قال: أو قيل له: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ وجواب الشرط محذوف: تقديره: فهو غيبة، وتوضيح رسول الله ﷺ يتضمن جملتين شرطيتين لأن القضية بها مقدمات ونتائج.

والجملة الأولى تؤكد رفض الرسول ﷺ للغيبة حتى لو كان في الإنسان هذه الخصال المعيبة.

والجملة الثانية: تضاعف من رفض الخوض في سير الناس بالباطل "وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته": أي افتريت عليه الكذب، وأداة الشرط في الجمل الثلاث: "إن" وهي بدلالتها الاحتمالية تفيد عدم اليقين، وتفيد بأن الغيبة أمر غير مرغوب فيه، ولذلك جاءت الجملة الأولى في كلام رسول الله ﷺ بدلالة الغيبة، والتعبير بـ"إن" يوحي بالتشكيك في هذا الأمر: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته"، والجملة الثانية كذلك تفيد وتعطي دلالة البهتان وهو الكذب والافتراء، والغيبة مرفوضة والبهتان مرفوض، لأن الإسلام يحرص على صون اللسان من آفات الكذب والسب والشتم، حفاظًا على روابط الأخوة بين المسلم وأخيه المسلم.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم الغيبة: اتفق الفقهاء على حرمة الغيبة، وأنها كبيرة من الكبائر[1].

---

(١) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢، الفواكه الدواني ٢٨٩/٢، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٣/٢، مطالب أولي النهى ٤٠٢/٢، شرح صحيح مسلم ١٤٢/١٦.

٢- أن الغيبة كما تكون باللسان تكون أيضًا بالفعل، وبالتعريض، وبالكتابة والحركة، وبالرمز، وبغمز العين، وكل ما يفهم منه المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام[١].

٣- أن غير المؤمن ممن ليس بأخ كاليهودي والنصراني وسائر أهل الملل تجوز غيبته[٢].

٤- بيان توكيد غلظ تحريم الأموال، والدماء، والأعراض، والتحذير من ذلك[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من واجبات الداعية: بيان حقائق الأمور للمدعوين.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر الغيبة على الإنسان والمجتمع.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: أتدرون ما الغيبة؟ "أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟" وأسلوب السؤال والجواب، من أساليب الدعوة النافعة "وعلى الدعاة إلى الله أن يعقدوا مجالس السؤال والجواب ذلك لأن حاضري هذه المجالس تثير الأسئلة المطروحة انتباههم إذ يشعرون بأن الدافع إليها في الغالب أمر مهم في نفوس السائلين، وهي تثير فيهم الرغبة في معرفة الجواب، وقد تنزع نفوسهم إلى المشاركة في الإجابة عليها كأنهم هم المسؤولون، وفي كلتا الحالتين تتفتح أذهانهم لمعرفة الجواب من المتصدر للجواب، العالم بأجوبة الأسئلة المطروحة"[٤].

ولقد كان النبي ﷺ يهتم بإثارة الأسئلة في نفوس المدعوين، لتتطلع نفوسهم إلى

---

(١) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢.

(٢) سبل السلام ٣٣٣/٤.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٩/١١.

(٤) فقه الدعوة إلى الله، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٩/٢.

معرفة الجواب، "وأسلوب الحوار والاستجواب كان ينتهجه النبي ﷺ مع من يلتقي بهم ويدعوهم ليثير انتباههم ويحرك فطنتهم وذكاءهم، ويُذْهب مَلَلَهم وسآمتهم ويصيب في مشاعر أحاسيسهم معين المعرفة وسلسبيل الهدى"[١].

ثانيًا- من واجبات الداعية: بيان حقائق الأمور للمدعوين:

حيث جاء في الحديث: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته"، إن من أهم واجبات الداعية بيان الحقائق للمدعوين حتى لا يلتبس عليهم الأمر، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]، قال المباركفوري: "وقوله: إن كان فيه ما تقول" أى من العيب، ولا معنى للغيبة إلا هذا، وهو أن تكون المنقصة فيه، وقوله "وإن لم يكن فيه ما تقول"، بتاء الخطاب أى قلت عليه البهتان، وهو كذب عظيم، يبهت فيه من يقال في حقه"[٣]. ففي هذا الحديث فرق النبي ﷺ للمدعو بين الغيبة والبهتان، وهذا ما يجب أن يفطن إليه الدعاة من تبيين الحقائق للمدعوين.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطر الغيبة على الإنسان والمجتمع:

يتضح هذا من سياق الحديث: "وقد نهى الله عن الغيبة، فقال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤]. قال أبو حامد الغزالي: "قال الحسن: ذِكْرُ الغيرِ ثلاثة: الغيبةُ والبهتانُ والإفكُ وكل في كتاب الله عز وجل، فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك، وذكر ابن سيرين رجلاً فقال: ذلك الرجل الأسود ثم قال: استغفر الله، إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعى فوضع يده على

---

(١) صفات الداعية، د. حمد العمار، ٩٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تحفة الأحوذي ١٦٣١/٢.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٢.

عينه ولم يقل الأعور"[١].

وقال النووي: (والغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارًا في الناس، حتى لم يسلم منها إلا القليل من الناس، والغيبة هى ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خُلقه أو خَلْقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو ثوبه أو مشيته وحركته وبشاشته وخلاعته وعبوسه وطلاقته أو غير ذلك مما يتعلق به)[٢].

قال الشيخ السيد سابق: (إن ذكر الغير بالنقص، والتماس عيوبه فضلاً عن كونه يؤلم الإنسان ويخدش كرامته، فإنه كثيرًا ما يثير الفتن، ويقطع الروابط، ويمزق الصلات، وينسى المرء عيوب نفسه، ومن ثمَّ فإن الإسلام اعتبر هذا التنقيص والتحقير كأكل لحم الأخ الميت لينفر منه، فكما أن النفس تشمئز من أكل لحم الأخ بعد موته، وتنفر منه فكذلك يجب النفور والاشمئزاز من الغيبة. والنهي عن الغيبة ليس مقصورًا على الذكر باللسان فقط، بل هو شامل لكل ما يفيد معنى التحقير سواء كان بالإشارة أم بالتلميح. قال عمر بن عبدالعزيز: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم، ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس. إن كرامة الإنسان وصيانة الأمة، يجب أن يظلا بعيدين عن عبث العابثين، وليس ثمة سبب من الأسباب يبيح التفريط في أية ناحية من هاتين الناحيتين)[٣].

قال القاضي أبو بكر العربي: "وأما الباب الرابع: في الغيبة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[٤]. معناه: يذكره بما فيه مما يكره، فإن ذَكَرَه بغير ما فيه فهو البهتان، حرم الله تعالى ذلك؛ لأنه تناول الأعراض، وكما حرم على الناس تناول أموال الناس ودمائهم بغير حق، كذلك حرم عليهم تناول أعراضهم بغير حق، ولا

---

(١) إحياء علوم الدين ١٦٠٧/٣.

(٢) الأذكار ٢٧٤.

(٣) إسلامنا ٢٨٣، ٢٨٤.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٢.

فرق بين الأحوال الثلاثة، وقد حَفَّ الله تعالى الدماء بالقصاص، وحَفَّ الأموال بالقطع، وحف الأعراض بالحد، كل ذلك حجب لا يَحِل اختراقها، فمن اخترقها بالأدنى أدب، ومن اخترقها بالأقصى حد، ترتيب حكيم للمصلحة، وتدبير عزيز له القهر والغلبة، أخبرنا أبو سعد الزنجاني قال: قال لنا أبو القاسم القشيري: قال الله عز وجل في الغيبة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1]. فذكر وجوها؛ أولها وأولاها تنزيل الغائب منزلة الميت؛ لأن الحاضر ينتصر لنفسه إذا سمع عرضه، والغائب لا ناصر له من نفسه كالميت[2].

جاء في موسوعة فقه القلوب:

والغيبة: ذكرك أخاك الغائب بما يكره.

والغيبة محرمة، والمستمع للغيبة شريك فيها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك.

وعلاج الغيبة: أن يعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى من اغتابه، وإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وإذا عرضت له الغيبة تفكر في عيوب نفسه، واشتغل بإصلاحها، فيستحي أن يعيب وهو معيب.

وإن ظن أنه سليم من العيوب فليشكر ربه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضي نفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه. وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالتجسس، وذلك منهي عنه؛ لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، وهو محرم كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

---

(١) الآية السابقة نفسها.

(٢) القبس، ضمن موسوعة شروح الموطأ ٢٣/ ٤٢٤، ٤٢٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٢.

أما كفار الغيبة:

فالمغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: جناية على حق الله تعالى حيث فعل ما نهاه الله عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

الثانية: جناية على عرض المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، أو مات، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، والدعاء له، والثناء عليه، ولا يخبره بما لا يعلمه إن كان حياً؛ لئلا يوغر صدره.

قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[1]، [2].

---

(١) أخرجه البخاري، ٢٤٤٩.

(٢) موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم التويجري، ص٤/٣١٤٥، ٣١٤٦.

الحديث رقم (١٥٢٦)

١٥٢٦- وعن أَبي بَكْرة ﷺ : أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: ((إنَّ دِماءكُمْ، وَامْوَالَكُمْ، واعْرَاضَكُمْ،(حَرَامٌ عَلَيْكُمْ) [١] كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، الا هَلْ بَلَّغْتُ)) متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

ابوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

الشرح الأدبي

إن خطبة حجة الوداع تعد دستورًا - لكل مسلم - يضيء الطريق، وينير القلوب، ويشحذ العقول؛ وينقذ المجتمعات من ظلام الشرك والصراعات التي تفتك بكل القيم الإنسانية الجميلة، وحين ألقى الرسول ﷺ خطبته أنصتت الدنيا لتسمع قوله، وأنصت الحجر والقفر والمدر إلى الكلمة المودِّعة، ينطق بها فم رسول الله ﷺ بعد أن أنِسَت وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستين عاما، وها هو الآن يلخص المبادئ التي جاء بها وجاهد في سبيلها في كلمات جامعة،وبنود معدودة، يلقي بها إلى سمع العالم.

وهذا الحديث قبس من هذه الخطبة المباركة،وقد ورد في صدر الحديث تحديد زمن الخطبة ومكانها ومناسبتها، فهي في يوم النحر في العام العاشر من الهجرة،ومكان الخطبة: "منى"، وفي بعض الروايات أن الخطبة كانت في يوم عرفة وسميت: حجة الإسلام، أو: حجة رسول الله ﷺ ،وحين نتأمل جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الجزء من الخطبة نجده يشع بكثير من الدلالات من خلال نظم الكلمات، وتنوع الأساليب، ودقة التراكيب، فالمباني تفصح عن المعاني.

---

(١) قوله: (حرام عليكم) ليس عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١٠٥) بلفظ: (عليكم حرام) وكذا عند مسلم. والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩/٣٠). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٥٩).

ويبدأ الحديث بالتأكيد في كلام الراوي الذي يروي كلام أبي بكر رضي الله عنه في صيغة مؤكدة، "أن رسول الله ﷺ قال" فالخبر مؤكد، ولا مجال للإنكار أو للتشكك في الرواية، وكلام رسول الله ﷺ يبدأ كذلك بالتأكيد بإن: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم" وهذا التأكيد يوجب الإيمان بهذا الحكم، وعدم التعدي على الأنفس والأموال والأعراض، والترتيب في الجملة ليس تعاقبيًا، لأنّ الواو لمطلق الجمع. ولكنَّ تقديم الدماء يفيد بأن الحفاظ على الأنفس وعدم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، هو الطريق إلى الحفاظ على الأموال والأعراض، ويأتي خبر "إن" بعد ذلك وهو: "حرام عليكم"، ليجمع الكل في دائرة واحدة وهي حرمة الدماء، وحرمة الأموال، وحرمة الأعراض.

والتكرار من وسائل تأكيد المعاني في هذا الحديث، وهو من سمات الأداء الأسلوبي في الخطابة، لأنه من أقوى وسائل التأثير والإفادة، والإمتاع والإقناع، وتكرار لفظ "هذا" يؤكد هذه الحرمة التي شبهها الرسول ﷺ بحرمة يوم الحج الأكبر، وحرمة شهر ذي الحجة، وحرمة البلد الحرام، وهذه الموازنة تذكر المسلم دائمًا في كل عصر بما قدمه رسول الله ﷺ والذين معه من جهاد وبلاء، وعناء وفداء، في سبيل الدعوة الإسلامية، وحماية البيت الحرام، وكل ديار الإسلام؛ وتكرار كاف الخطاب الدالة على الجمع سبع مرات.. له تأثيره الصوتي والإيقاعي، حيث ينفذ الكلام إلى القلوب قبل الأسماع، وكل من يسمعه يحفظه ويعيه، وختام الحديث فيه استفهام وحض على الإصغاء والتنفيذ، وفيه حث على الاستجابة والذي لا يستجيب لا يلومن إلا نفسه "ألا هل بلغت اللهم فاشهد".

المضامين الدعوية [1]

---

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢١٢).

الحديث رقم (١٥٢٧)

١٥٢٧- وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قُلْتُ للنبيّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كذا وكَذا. (قَالَ بعضُ الرواةِ[1]: تَعْنِي قَصيرَةً، فقالَ: ((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ!)) قالت: وَحَكَيْتُ لَهُ إنْسَانًا فَقَالَ: ((مَا أُحِبُّ أنِّي حَكَيْتُ إنْسانًا وإنَّ لِي كَذَا وَكَذَا)). رواه أبُو داود والترمذيُّ[2]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

حسبك: كافيك[3].

مزجت: خلطت[4].

لمزجته: لخالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها[5].

الشرح الأدبي

يدور المعنى حول بيان خطر الغيبة، والترهيب منها، وهو بيان عملي في حوار بين أم المؤمنين رضي الله عنها وبين الرسول ﷺ وقد بدأ الحوار بقول عائشة (حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وكَذَا) كناية عن ما ذكرت فيها من قصرها، وقول الرسول ﷺ (لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ!) صدور المعنى في ثوب الشرط بـ(لو) يفيد تعليق مزج البحر على مزج الكلمة المقولة في صاحبتها دلالة على عظم خطرها، وبين قوله مزجت،

---

(١) لفظ أبي داود: (قال غير مسدد). والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) واللفظ له، والترمذي (٢٥٠٢)، وقد تقدم مطولًا برقم ٢١٣. اورده المنذري في ترغيبه (٤١٦٧).

(٣) المعجم الوسيط في (ح س ب).

(٤) اللسان في (م ز ج).

(٥) رياض الصالحين ٥٢٣.

ومزجته جناس يؤكد المعنى ويقرر تحقق الأثر المعلق بالفعل الأول وتخصيص ماء البحر للتكثير مبالغة في بيان الأثر، وقولها (: وَحَكَيْتُ لَهُ إنْسَاناً) كناية عن ذكره بعيب (مَا أُحِبُّ أنّي حَكَيْتُ إنْساناً وإنَّ لِي كَذَا وَكَذَا) أسلوب نفي لذكر عيوب الناس مهما كان المقابل - هذا إن لم يكن هناك غرض شرعي يستلزم الغيبة - أي لا أحب أن أذكر أحد، وقوله (وإن لي كذا، وكذا) كناية عن المقابل المذكور لحكاية فلان، والحديث تحذير بليغ من خطر الغيبة.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التحذير من خطر الغيبة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عما يتكلم به.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التحذير من خطر الغيبة:

يتضح هذا من سياق الحديث: ومما لاشك فيه أن الغيبة خطرها عظيم. قال النووي: "وقوله "مزجته" أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدَّة نتنها وقبحها، وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمُها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ في الذمِّ لها هذا المبلغ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[1]، نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه، والغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها وروينا عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، أنه دعى إلى وليمة فحضر، فذكروا رجلاً لم يأتهم، فقالوا: "إنه ثقيل، فقال إبراهيم: أنا فعلت هذا بنفسي حيث حضرت موضعًا يغتاب فيه الناس، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام وما أنشدوه في هذا:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ القَبِيحِ ... كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ

فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ القَبِيحِ ... شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ"[2]

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

(٢) الأذكار ٣٧٧-٣٧٨، والأبيات في: معجم الأدباء، قافية الهاء ٣/ ٢٠٠، والمستطرف ٢/ ١٩٠١، ومحاضرات الأدباء ١/ ٩٧.

قال ابن كثير: (والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها سبحانه وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، فكما تكرهون هذا طبعًا فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها"[١]. وقال الإمام الغزالي: "قال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس، فإنه داء. وقال الحسن البصري: (والله للغيبة أسرع في دين الرجل من الأكلة في الجسد)[٢].

(والغيبة حرام باتفاق الفقهاء، وذهب بعض المفسرين والفقهاء إلى أنها من الكبائر ونص الشافعية على أن الغيبة إن كانت في أهل العلم وحملة القرآن الكريم فهي كبيرة وإلا فصغيرة)[٣].

والإنسان الذي يغتاب الناس ضعيف النفس مرذول الخلق.

"والغيبة لا تصدر إلا من نفس ضعيفة وضيعة دنيئة.

والغيبة هي -كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»[٤].

والمغتاب يريد التسلق على أكتاف الآخرين، وذلك بالحط من أقدارهم، وتزهيد الناس بهم.

وما علم هذا المغتاب أن الرافع الخافض هو الله عز وجل، وأن بصنيعه يهدي حسناته - وهي أعز ما يملك - لمن يقع في عرضه.

فأين هذا المغتاب من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٨٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٢.

(٣) الموسوعة الفقهية ٣١/ ٣٣٢.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٩.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٢.

بل أين هو من أهل الجاهلية التي كان أشرافها يتمدحون بترك الغيبة.

قال المثقب العبدي:

لا تَرانـــي راتِعًـــا في مَجلِـــسٍ   في لحـومِ النـاسِ كالـسَّبعِ الـضَّرِمْ[1]

والغيبة لا تقتصر على اللسان فحسب، بل قد تكون بالإشارة بالعين، أو اليد، أو نحو ذلك.

أما أسبابها فكثيرة، منها التشفي من الآخرين، ومجاملة الأقران والرفقاء، والحسد، وكثرة الفراغ، والتقرب لدى أصحاب الأعمال والمسؤولين عن طريق ذم العاملين.

ومن أسبابها الإعجاب بالنفس، والغفلة عن التفكر في عيوبها.

وأعظم أسبابها قلة الخوف من الله سبحانه وتعالى"[2].

هذا وقد أفاض الإمام الغزالي في الإحياء في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة فعدّد لذلك أحد عشر سببًا، ذكر أن ثمانية من تلك الأسباب تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية التي تطرد في حق العامة فهي:

الأول: أن يشفي الغيظ.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره.

السادس: الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزكية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة.

---

(١) خزانة الأدب، البغدادي، قافية الميم ٨٩/١١، المفضليات، قافية الميم ٢٩٤/١.

(٢) سوء الخلق مظاهره – أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص١٩، ٢٠.

الثامن: السخرية والاستهزاء استحقارًا للغير، فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضًا في الغيبة.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة، فهي أغمضها وأدقها، وهي:

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان، فإنه قد يكون به صادقًا ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتابًا وآثمًا من حيث لا يدري.

الثاني: الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به غيره فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره فيصير بذلك مغتابًا فيكون غمه ورحمته خيرًا، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، وهو ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء.

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أنّ التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى. كان عذرًا في ذكر الاسم وهو خطأ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا ترخص الغيبة في سواها"[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عما يتكلم به:

حيث جاء في الحديث: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته"، وهذا يدل على مسئولية الإنسان عما يتكلم به، قال النووي: "وعن أبي علي الفضيل بن عياض ﷺ قال: "من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه فيما لا يعنيه". وقال الشافعي: (لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك، ولم تملكها، وعن عبدالله بن مسعود قال: "ما من شيء أحق بالسجن من اللسان، وقال غيره: مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك، ومما أنشدوه في هذا الباب:

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/١٤٣-١٤٥، والأبيات للإمام الشافعي في الديوان، قافية النون، البحر: كامل تام.

احْفَـظْ لِسَانَكَ أيُّهـا الإنْسَانُ ... لا يَلْـدَغَنَّكَ إنَّـهُ ثُعْبَـانُ
كـم فيِ المَقَـابِرِ مِـنْ قَتِيـلِ لِسَانِهِ ... كانَـتْ تَهَـابُ لقـاءَهُ الشُّجْعَانُ[1]

وفي خطورة الكلام ومسئولية كل إنسان عما يتكلم به قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَسْكُتْ»[2].

قال ابن عبدالبر: "وهذا وما كان مثله إنما معناه نقصان الإيمان وعدم كماله لا الكفر، وأما في خطورة الغيبة فعن ابن لهيعة قال: أخبرني سليمان بن كيسان قال: كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر عنده رجل بفضل أو صلاح قال: كيف هو إذا ذكر عنده إخوانه؟ فإن قالوا: إنه ينتقصهم وينال منهم، قال عمر: ليس هو كما تقولون وإن قالوا: إنه يذكر منهم جميلاً وخيرًا ويحسن الثناء عليهم، قال: هو كما تقولون، إن شاء الله.

قال أبو عمر: يكفي في ذم الغيبة قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[3].

وقال الشاعر:

احـذر الغيبـة فهـي الـ ... ـفـسق لا رخـصة فيـه
إنمـا المغتـاب كـالآ ... كـل مـن لحـم أخيـه

وعن محمد بن سيرين قال: ظلم لأخيك المسلم أن تقول أسوأ ما تعلم فيه.

وعن الحسن البصري أنه سأله رجل فقال: يا أبا سعيد، اغتبتُ فلانًا وأنا أريد أن أستحله؟ فقال: لم يكفك أن اغتبته حتى تريد أن تبهته!.

---

(١) الأذكار ٣٧٣-٣٧٤.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١٩، ومسلم ٤٨.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٢.

وعن قتيبة بن مسلم أنه سمع رجلاً يغتاب آخر فقال: أمسك عليك، فوالله لقد مضغت مُضغَة طالما لفظها الكرام.

وعن عتبة بن أبي سفيان أنه قال لابنه عمرو: إياك واستماع الغيبة، نزه سمعك عن الخنا كما تنزه لسانك عن البذا، فإن المستمع شريك القائل وإنما نظر إلى أخبث ما يكون في وعائه فألقاها في وعائك، ولقد أحسن القائل:

تحرَّ من الطرق أوساطها ... وعَدٌ عن الموضع المُشْتَبِه

وسمعك صُن عن سماع القبيـ ... ـح كصون اللسان عن القول به

فإنك عند استماع القبيـ ... ـح شريك لقائله فانتبه[(1)]

وهذا مأخوذ من قول كعب بن زهير، والله أعلم:

فالسامع الذم شريك له ... ومطعم المأكول كالآكل[(2)]

وكان أبو حازم يقول: أربح التجارة ذكر الله وأخسر التجارة ذكر الناس يعني بالشر:

وهذا باب يحتمل أن يفرد له كتاب وقد أكثر العلماء والحكماء من ذم الغيبة والمغتاب وذم النميمة وجاء عنهم في ذلك من نظم الكلام ونثره ما يطول ذكره ومن وفق كفاه من الحكمة يسيرها إذا استعملها.

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول القائل:

إن شرّ الناس من يكشر لي ... حين يلقاني وإن غبتُ شتم

ويُحَيِّيني إذا لاقيته ... وإذا يخلو له لحمي كدم

وكلامٌ سيءٌ قد وُقرت ... منه أذناي وما بي من صمم

---

(١) معجم الأدباء، قافية الهاء ٢/٢٠٠، والمستظرف ١/٩٠، ومحاضرات الأدباء ١/٩٧ مع تعديل في بعض الكلمات.

(٢) خزانة الأدب، البغدادي، قافية اللام ٩/١٥٥.

لا يراني راتعًا في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضرم[١]

وعن المغيرة بن مسلم عن يحيى البكاء قال: كنت عند ابن عمر فجاءه رجل فوقع في الحجاج وشتمه فقال ابن عمر: أرأيت لو كان شاهدًا أكنت تقول هذا؟ فقال: لا فقال: كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ[٢].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

"ويتضح من سياق الحديث، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي لها أثر في نفوس المدعوين، وحثهم على ترك المحظورات الشرعية، "والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله والترهيب يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"[٣].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٥].

---

(١) خزانة الأدب، البغدادي، قافية الميم ٨٩/١١ مع تبديل في بعض الكلمات وترتيب الأبيات.

(٢) التمهيد، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٤٢٨/٢٣-٤٣١.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٤) سورة النبأ، الآيتان: ٢١-٢٢.

(٥) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤-٧٥.

الحديث رقم (١٥٢٨)

١٥٢٨ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بِقَومٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هؤُلاءِ يَا جِبرِيلُ؟ قَالَ: هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أعْرَاضِهِمْ**)). رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

يخمشون: يخدشون[2].

يأكلون لحوم الناس: يغتابونهم[3].

يقعون في أعراضهم: يسبُّونهم[4].

الشرح الأدبي

قوله (لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بِقَومٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ) العروج معناه الحركة صعودا جهة السماء، وبناء الفعل للمفعول يشير إلى أنه لم يعرج بنفسه 'أي أنه ليس من فعل النبي ﷺ وإنما من فعل الله تعالى بواسطة ملائكته فليس من عجب أن يصعد السماء بهذه الصفة، وليس لمعترض أن يعترض جهلا بكيف؟ والجار والمجرور (بي) يؤكد هذا، وأنه ليس من فعله وإنما من تصرف القادر الذي لا يعجزه شيء، وقوله (مررت) نسب المرور لنفسه ؛ لأنه فعله بينما العروج لغيره (لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ) صورة من الهول المرتقب، والتعبير بالخمش يصور شدة الأثر،

---

(١) برقم (٤٨٧٨) إسناده صحيح. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٧٩).

(٢) النهاية والمصباح المنير في (خ م ش).

(٣) عون المعبود ٢١٠٥.

(٤) المصباح المنير في (و ق ع).

وتخصيص الوجه والصدر لأنهم مجمع محاسن الإنسان، وخمشه أشد شناعة من غيره، وقال الطيبي لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات جعلهما جزاء من يغتاب ويفري في أعراض المسلمين إشعارا بأنهما ليستا من صفات الرجال بل هما من صفات النساء في أقبح حالة وأشوه صورة)، وسؤال الرسول ﷺ (مَنْ هؤُلاء يَا جبرِيلُ؟) استفهام يحمل مع طلب المعرفة تعجبا من حالهم لأنهم هم الذين يباشرون أنفسهم بالتعذيب، وكأنه يقول لهذا الذي يقع في أعراض الناس أنك بما تقول تعذب نفسك بنفسك، وقوله (هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أعْرَاضِهِمْ !) والإشارة لتميزهم أكمل تمييز مع ما تحمله من ذمهم، والتعبير بأكل لحوم الناس استعارة لانتهاك أراضهم، واغتيابهم وذكر عيوبهم وما يذم فيهم، وفائدتها التنفير من الفعل الذي تأباه الطباع، وقوله (ويقعون في أعراضهم) التعبير بالوقوع يوحي بشدة أثر أقوالهم في الناس وأكده بالتعبير بحرف الجر (في) التي تدل على الانغماس في هذه الأعراض، وفيه ترهيب بليغ بالمشهد المحكي من الوقوع في أعراض الناس.

المضامين الدعوية

أولاً: من تاريخ الدعوة: معراج النبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الغيبة وعقوبة فاعلها.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من تاريخ الدعوة: معراج النبي ﷺ:

حيث جاء في الحديث: "لما عرج بي مررت بقوم" ومما لا شك فيه أن معراج النبي ﷺ حدث هام في تاريخ الدعوة الإسلامية، "ولقد كان المعراج بالنبي ﷺ في السنة العاشرة من سنى البعثة النبوية، كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان، إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وما لاقى أثناءه من جوع وحرمان، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها"(١).

---

(١) هذا الحبيب، أبوبكر جابر الجزائري، ١٠٧.

وقال البوطي: (لقد عانى رسول الله ﷺ ألوانًا كثيرة من المحن التي لاقاها من قريش، فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريمًا من الله تعالى له، وتجديدًا لعزيمته وثباته، ثم جاءت دليلاً على أن هذا الذي يلاقيه ﷺ من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه، أو أنه قد غضب عليه،وإنما هى سنة الله مع محبيه ومحبوبيه، وهى سنة الدعوة الإسلامية في كل عصر وزمن)[1]، وقال الشيخ محمد الغزالي: (إن جهاد الدعوة الذي حمله محمد ﷺ على كواهله عرّضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء، ومزق شمل أتباعه فما ذاقوا، مذ آمنوا به، راحة الركون إلى الأهل والمال فمن تطمين الله له، ومن نعمائه عليه أن يهيء له هذه الرحلة السماوية لتمس فؤاده المُعَنَّى ببرد الراحة، وليشعر أنه بعين الله، مذ قام يوحده ويعبده، ويعلم البشر توحيده وعبادته، إن الإسراء والمعراج يقعان قريبًا من منتصف الرسالة التي مكث ثلاثة وعشرين عامًا، وبذلك كانا علاجًا مسح متاعب الماضي، ووضع بذور النجاح للمستقبل)[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطورة الغيبة وعقوبة فاعلها:

حيث جاء في الحديث: "مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاءِ يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم". قال الطيبي: (ومعنى يخمشون أى يخدشون، ولما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات، جعلهما جزاء من يغتاب ويفرى من أعراض المسلمين، إشعارًا بأنهما ليسا من صفات الرجال، بل هما من صفات النساء في أقبح حالة وأسوء صورة)[3].

ولا شك أن هذا الحديث يبين عقوبة الغيبة، قال ابن مفلح: "قال عدى بن حاتم: الغيبة مرعى اللئام، وقال أبو عاصم النبيل: لا يذكر في الناس ما يكرهونه إلا سفلة لا دين لهم"[4].

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ١٦٦.

(٢) فقه السيرة ١٣٢.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢١٨/٩.

(٤) الآداب الشرعية ٣١/١.

فإذا كانت الغيبة بهذه الخطورة فالواجب على العاقل أن يخزن لسانه عن الوقوع فيها.

قال ابن عبدالبر: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه! غفر الله لك. فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد.

قال أبو عمر: إذا كان أبو بكر، وموضعه من الدين والفضل والسابقة أعلى المواضع، يخاف من لسانه، ويقول إنه يورده موارد يخشى منها على نفسه، فما ظنك بغيره؟!، وعلى قدر علم الإنسان يكون خوفه ووجله وإشفاقه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1]. ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2].

روينا عن ابن مسعود أنه قال: ((المؤمن يرى كأنه جالس تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، فتندق عنقه، والفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فصرفه بيده))[3].

وقال عبدالله بن مسعود: أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل.

وروينا عن سلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود أنهما قالا: ما شيء أحق بطول سجن من لسان.

ولقد أحسن امرؤ القيس في قوله:

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليه لِسَانَهُ ... فليس على شَيءٍ سِواهُ بخَزَّانِ[4]

وقال آخر:

رأيتُ اللسانَ على أهله ... إذا ساسه الجهلُ لَيْثًا مغيرا

وقال منصور الفقيه:

خَرِسٌ إذا نطقوا وإن ... قالوا عَيى أو جبانُ

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٢) سورة الرحمن، آية: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري ٦٣٠٨.

(٤) خزانة الأدب، البغدادي، قافية النون ٨/٥٥١، البحر: طويل. الشاعر امرئ القيس.

فالعي ليس بقاتل ولربما قتل اللسان[1]

والغيبة خطر على دين المسلم.

قال الحسن البصري: والله للغيبة أسرع في دين الرجل من الأكلة في الجسد.

وقال الحسن أيضًا: يا ابن آدم لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا.

وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

وروى عن الحسن البصري أن رجلاً قال له: إن فلانًا قد اغتابك فبعث إليه الحسن رطبًا على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إليّ من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

وقال بشار بن برد:

خَيْرُ إِخْوَانِكَ المُشَارِكُ فِي المُرِّ وأَيْنَ الشَّرِيكُ فِي المرِ أَيْنَا

الذي إن شهدْتَ سَرَّكَ فِي الحيِّ وإِنْ غِبْتَ كانَ أذْنًا وعيْنَا

مِثْلَ حُرِّ الياقوت إِنْ مَسَّه النَّارُ جَلاه البلاَءُ فازداد زَيْنا

أنتَ فِي معشر إذا غبت عنهم بدَّلُوا كلَّ ما يَزِينُكَ شَيْنا

وإِذا ما رأَوْكَ قالوا جميعًا أنتَ من أَكرَم البرايا علينا

ما أَرى للأَنامِ وُدًّا صحيحًا صار ود الأَنام زُورًا وقينا[2]

ولما كانت الغيبة بهذه الخطورة فالواجب أن يتوب المسلم عنها، ويكفر عما بدر منه، ويعاهد الله عز وجل أن لا يكون من المغتابين، ويحسن توبته بألا يعاود الكرة إليها أبدًا.

جاء في الموسوعة الفقهية: وكلُّ من ارتكب معصية، لزمه المبادرةُ إلى التوبة

---

(١) الاستذكار، ضمن موسوعة شروح الموطأ، ٢٣/٤٥٠-٤٥٣.

(٢) انظر: حفظ اللسان، الشيخ وحيد عبدالسلام بالي، ص٣٧-٤٧ بتصرف، والأبيات لبشار بن برد، قافية النون، البحر: خفيف تام.

منها، والتوبةُ من حقوق الله تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء: أن يُقلِعَ عن المعصية في الحال، وأن يندَم على فعلها، وأن يَعْزِمَ ألاَّ يعود إليها.

والتوبةُ من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابعٌ: وهو ردُّ الظُّلامة إلى صاحبها، أو طلبُ عفوه عنها والإبراء منها، فيجب على المغتاب التوبةُ بهذه الأمور الأربعة، لأن الغيبَةَ حقُّ آدميَ، ولا بد من استحلاله ممن اغتابه.

وقد ذكر الشافعية وجهين في كونه هل يكفيه أن يقول: قد اغتبتك فاجعلني في حل، أو لابد أن يبين له ما اغتاب به؟

أحدهما: يشترط بيانه، فإن أبرأه من غير بيانه، لم يصحّ، كما لو أبرأه عن مال مجهول.

والثاني: لا يشترط، لأن هذا مما يتسامح فيه، فلا يشترط علمه، بخلاف المال، والأول أظهر، لأن الإنسان قد يسمح بالعفو عن غيبة دون غيبة، فإن كان صاحب الغيبة ميتًا أو غائبًا فقد تعذَّر تحصيل البراءة منها، لكن قال العلماء: ينبغي أن يكثر من الاستغفار له، والدعاء ويكثر من الحسنات. وهو قول الحسن في الاقتصار على الاستغفار دون الاستحلال.

وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك: أن تثني عليه وتدعو له بخير. وصحح الغزالي قول عطاء في جواب من سأله عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبتُ فيما قلت وظلمتُك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت.

وأما قول القائل: العرض لا عوض له، فلا يجب الاستحلال منه، بخلاف المال، كلام ضعيف، إذ قد وجب في العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به. بل في الحديث الصحيح ما جاء أنه ﷺ قال: «مَن كانت لهُ مَظلمةٌ لأخيهِ مِن عِرضِه أو شيءٍ فليَتحلَّلْهُ منهُ اليومَ قبلَ أن لا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ، إن كانَ لهُ عملٌ صالِحٌ أُخِذَ منهُ بقدْرِ مَظلمتِه، وإن لم تكنْ لهُ حَسناتٌ أُخِذَ من سيِّئات صاحبه فحُمِلَ عليه»[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل: قد اغتبتيها فاستحليها. فإذن لا بد

(١) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائبًا أو ميتًا فينبغي أن يكثر الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات.

وذكر النووي في الأذكار: أنه يستحب لصاحب الغيبة أن يبرئ المغتاب منها، ولا يجب عليه ذلك، لأنه تبرع وإسقاط حق، فكان إلى خيرته، ولكن يستحب له استحبابًا مؤكدًا ليخلص أخاه المسلم من وبال هذه المعصية، ويفوز هو بعظيم ثواب الله تعالى في العفو ومحبة الله سبحانه وتعالى، وقال: إن الصواب هو الحث على الإبراء من الغيبة[1].

ولقد جعل رسول الله ﷺ الشخص المغتاب خيرًا من الذي اغتاب ووقع في الغيبة، فعن أبي الطفيل عامر بن واثلة: «أن رجلاً مر على قوم، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: والله إني لأبغض هذا في الله، فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت، أما والله لننبئنه، قم يا فلان - رجلاً منهم - فأَخْبِره، قال: فأدركه رسولهم فأخبره بما قال، فانصرف الرجل حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان، فسلمت عليهم، فردوا السلام، فلما جاوزتهم أدركني رجل منهم، فأخبرني أن فلانًا قال: والله إني لأبغض هذا الرجل في الله، فادْعُه، فسله عَلامَ يبغضني؟ فدعاه رسول الله ﷺ، فسأله عما أخبره الرجل، فاعترف بذلك، وقال: قد قلت له ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ فلم تبغضه؟ قال: أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر، قال الرجل: سله يا رسول الله هل رآني قط أخّرتها عن وقتها؟ أو أسأت الوضوء لها؟ أو أسأت الركوع والسجود فيها؟ فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: لا، ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر الفاجر، قال: يا رسول الله، هل رآني قط أفطرت فيه؟ أو انتقصت من حقه شيئًا؟ فسأله رسول الله ﷺ، فقال: لا، ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلاً قط، ولا رأيته ينفق من ماله شيئًا في شيء من سبيل الله بخير، إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٢٧/٣١-٢٢٩، وانظر: الأذكار للنووي، ٣٠٨-٣٠٩.

والفاجر، قال: فسله يا رسول الله، هل كتمت من الزكاة شيئًا قط؟ أو ماكست فيها طالبها؟ قال: فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: لا، فقال له رسول الله ﷺ: قم، إن أدري لعله خير منك»[1].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديث وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، "والترهيب أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها. ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن"[2].

ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترهيب قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا...﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥٥/٥، حديث رقم ٢٣٨٠٣. وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لإرساله – لكن صحح إسناده الحافظ العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ص١٤٥/٣ بهامش الإحياء.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ٢٣٢/١.

(٣) سورة فاطر، آية: ٣٦.

(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤-٧٥.

الحديث رقم (١٥٢٩)

١٥٢٩ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

العِرْضُ: جانبُ الإنسان الذي يصونُه من نفسه وحسبه، ويُحامي عنه أن يُنْتَقَص ويُعابَ[2].

الشرح الأدبي

بدأ الحديث بلافتة قصيرة تعجل بالحكم الذي يريد ترسيخه من حرمة دم المسلم، وعرضه، ودينه وتقرير حقوق الأخوة بين المسلمين وهو تفصيل بعده إجمال ففي قوله: (كل المسلم على المسلم حرام) وال في المسلم للعهد أي المعهود وهو ما يعطي الحكم عموما، وفي العبارة إجمال فصَّله بقوله: (دمه، وعرضه، وماله) وهو من وسائل التشويق والإثارة مع ما يحققه من تأكيد المعنى، وتثبيته بذكره مجملاً ثم تفصيله، والأمور الذي قرر حفظها هي تقريبا كل ما للإنسان، وقد جعل كل المسلمين مطالبين بحفظ دم الفرد، وعرضه، ودينه، كما جعل كل فرد حارسا أمينا على دم أخيه، وعرضه، ودينه وهو من ذكاء النبي ﷺ في حفظ الأمة.

المضامين الدعوية[3]

(١) برقم (٣٢/٢٥٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٩٥).

(٢) النهاية في (ع ر ض).

(٣) تقدم شرح هذا الحديث برقم (٢١٣).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على حفظ اللسان:

إن تربية الإنسان على حفظ لسانه من أهم ما يجب الاعتناء به، حيث أعلى الشرع منزلة حفظ اللسان، ويكفي في ذلك ما أشارت إليه أحاديث الباب، من ارتباط حفظ اللسان بالإيمان، وذلك في قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، وكذلك في جعل حفظ اللسان سببًا لدخول الجنان والبعد عن النيران، كما في قوله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ...إلخ»، وقوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة...إلخ».

والتربية على حفظ اللسان تحتاج إلى ترويض ومجاهدة للنفس، وتعويد لها على المنطق الحسن، واختيار الألفاظ الطيبة والبعد عن الفحش، وهذا مما يشق ويحتاج لمجاهدة، قال ابن القيم: "ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خص أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله مالا يعلم وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة، لا يبالي بارتكاب الحرام"(١).

"لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه تربية الأنفس على حفظ اللسان والبعد عن الألفاظ المحرمة شرعًا، سواء كانت متعلقة بحق الله، أم بحق المخلوق كالسب والشتم والسخرية والغيبة...إلخ"(٢).

ثانيًا- التربية بالترغيب والترهيب:

إن من جملة الأساليب التربوية، التي تراءت في أحاديث الباب، أسلوب التربية بالترغيب والترهيب، حيث الترغيب في حفظ اللسان وصونه، والترهيب من مخالفة ذلك

---

(١) عدة الصابرين، ص٧٠.

(٢) تربية الشباب، "الأهداف والوسائل"، محمد عبدالله الدويش، ١٥٥، ١٥٦ بتصرف.

بإطلاقه فيما خالف شرعًا أو تجاوز حدًا.

"والترغيب كأسلوب تربوي يقوم على وعد بتحقيق منفعة، مقابل الالتزام بأداء أمر، أو اجتناب نهي"[1]، وذلك كما ورد في حديث الباب من الترغيب في الجنة لمن حفظ لسانه، وذلك في قوله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ».

أما "الترهيب فيقوم على وعيد بعقوبة أو حرمان منفعة، إذا لم يلتزم بما أمر به، أو نُهي عنه"[2]، وذلك كقوله ﷺ مرهبًا من إطلاق اللسان فيما لا حل له - «.... وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

والتربية بالترغيب والترهيب من الأساليب التربوية المهمة التي يُبنى عليها إعداد نفس المتربي للاستجابة، والالتزام بأوامر الشرع، "فالإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، وعازف عن كل ما يسبب له الألم، ولهذا العامل تأثير كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه، من خلال الترغيب والترهيب"[3].

ثالثًا- التربية بالسؤال:

إن كل إنسان في هذه الحياة له طاقات معينة، وبالتالي فإن معارفه محدودة ولن يحيط بكل شيء. ومن عرف أشياء غابت عنه أشياء أخرى كثيرة. ولذا تراه يبحث عن إجابات لما يجهل. ومن ضمن وسائل الكشف عن المجهول السؤال. وللسؤال مزايا متعددة من توفير للجهد والوقت والمال، كما أن فيه تحصيل منفعة ودفع مضرة في أمور الدنيا والدين، خاصة إذا كان المسؤول من أهل الخبرة والاختصاص. قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[4][5]، وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من سؤال معاذ

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٢.

(٢) المرجع السابق، ٣٩٢.

(٣) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، محمد الصيد الزنتاني، ٦٤٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤٣، سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٥) التربية الذاتية من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٤.

ﷺ للنبي ﷺ في قوله: «يَا رَسُولَ اللّٰه أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ؟..إلخ».

وفي ذلك يقول أمية بن الصلت:

لا يــذهبنَّ بــك التفــريط منتظــرًا	طــول الأنــاة ولا يطمــع بــك العَجَــلُ
فقــد يزيــد الــسؤال المــرءَ تجربــةً	ويــستريح إلى الأخبــار مــن يــسلُ
ولــيس ذو العلــم بــالتقوى كجاهلــها	ولا البــصير كــأعمى مــا لــه بــصرُ
فاســتخبرِ النــاس عمَّــا أنــت جاهلُــهُ	إذا عَميــتَ فقــد يجلــو العمــى الخــبرُ[1]

ولما كان الأمر كذلك فلا ينبغي للعاقل التردد في السؤال والسكوت على الجهل حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه سواء في القريب العاجل أو في البعيد الآجل. ويذكر عبدالحميد الهاشمي أن "سكوت الإنسان على جهله قد يكلفه غير قليل من تجارب فاشلة، ومن آلام ومتاعب، لأنه لو عرف الإجابة الموفقة لضمن لنفسه العمل السليم أو السلوك الصائب لاسيما في أمور تتصل بالمحاولة والخطأ والتجريب"[2][3].

والتربية بالسؤال لا تكون دائمًا من المتعلم أو المتربي للمعلم، بل قد تكون من العالم على أسماع المتربي، كما في قوله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ...إلخ».

وفي ذلك تعظم الفائدة، وتتضح الفكرة، وتتضح المعرفة في أذهان المتعلمين والمتربين.

رابعًا: التربية العقائدية:

إن التربية الإسلامية تقوم على أصول واضحة تتمثل في العقيدة الإسلامية، حيث

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة عبدالحفيظ السهلي، ط٢، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٣٩٤هـ، ص٤٣٦.

(٢) الرسول العربي المربي، ص٢٣٣، نقلًا عن التربية الذاتية، من الكتاب والسنة، هاشم علي أحمد، ١٢٤.

(٣) التربية الذاتية، هاشم علي أحمد، ١٢٥.

الأسس التي يؤمن بها الإنسان، ويصدر عنها تصرفاته وسلوكه، وتطلق العقائد الإسلامية على أركان الإيمان وما يتفرع عنها والبعد عن شبهات الشرك.

وهذا ما أشار إليه حديث الباب في قوله ﷺ: - بعد سؤال معاذ رضي الله عنه له عما يدخله الجنة ويباعده من النار - «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، ...إلخ».

وعقيدة التوحيد والإيمان بالله لها عظيم الأثر التربوي في حياة المسلم، وتتضح فيما يلي:

١ - تحرير الإنسان من الذل والمهانة لمغريات الحياة، فلا يستعبده جاه ولا مال، ولا يذل للطواغيت.

٢ - تحرير الإنسان من العبودية إلا لله. فلا يخضع أو يستسلم بالعبادة لأي من بني البشر أو كائن آخر أو جماد.

٣ - تربية عقل الإنسان على سعة الأفق والتأمل والرغبة في الاطلاع على أسرار الكون، وذلك للاستدلال على قدرة الله في خلقه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1].

٤ - توفير الاستقرار النفسي والراحة النفسية للإنسان فيما يتعلق بتساؤله دائمًا عن القوة التي هي أكبر منه تسيطر عليه وعلى الحياة من حوله، فهو يفزع إليها عند الحاجة ويطمئن بوجودها.

٥ - تربية المؤمن على النفس الموحدة لله، وقد شبه الله تعالى النفس الموحدة لربها بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فكل تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده، وبهذا تهدأ نفسه، وتستقيم حياته، وتكون تصرفاته بنسق واحد خاليًا من الصراعات والاعتراضات، أما العبد الذي يملكه أكثر من فرد فإن تصرفاته تكون حائرة بينهم بسبب اختلافهم وتناقضاتهم، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ١٧.

لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1][2].

خامسًا: التربية الروحية:

إن العبادات تربية عملية وثمرة الامتثال لأوامر الله تعالى، وتهذيب للنفس وتزكية لها وإشباع للروح، ومن شواهد ذلك في حديث الباب ما ورد في قوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «....وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ،.... وَالصَّدَقَةُ تُطْفِىءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ الْمَاءُ النَّارَ،....إلخ».

فالصلاة، هي المرتكز الأساسي للروح في صلتها بالله وهي محور إحياء معاني الإيمان للإنسان، "ففي الصلاة يتذكر الإنسان ربه، من مبدأ الصلاة وحتى منتهاها، والصلاة تربي الإنسان روحيًا وخلقيًا، إذ تربط بين الإنسان وخالقه، وتعلم الإنسان الطاعة والشكر لله، كما أنها تقوي إرادة الإنسان وتعوده على ضبط النفس والصبر والمثابرة والمحافظة على المواعيد"[3].

والصوم له مقصود عظيم في تربية الأنفس:

"حيث حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بما للأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين"[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) التربية الإسلامية "مصادرها وتطبيقاتها"، د. عماد محمد محمد عطية، ٦٥-٦٧باختصار.

(٣) نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، د. محمد فاضل الجمالي، ط١، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٠م، ص١٠٥.

(٤) زاد المعاد، ابن القيم، ١٥٢/١.

أما الزكاة "فبها تطهر نفوس الأفراد من الذنوب، ومن أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والعدوان والفتن والحروب، وتزكي أنفسهم أن تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية"[١].

والمؤمن في تربيته يحتاج - بعد صلاته التي يصليها، وبعد شهر رمضان الذي يصومه كل عام، وبعد الزكاة التي يقوم بها إذا أتم النصاب وحال الحول - إلى أن يشهد موسمًا هو ربيع الحب والحنان، وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين ألا وهو الحج.

وفيه يتربى المؤمن على أن يروي ظمأ روحه، ويقضي حاجة حنانه، ويكسر ثورة نفسه، ويثور على وثنية" عاداته ومألوفه.

فالحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر المجرد، وسعي وراء الأمر، وتلبية وإجابة للطلب[٢].

فالقصد من الحج تربية النفس على الانقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية، وانتهاضًا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه[٣].

وذلك فضلاً عن تربية الأنفس على الاقتصار على الضروريات من الحياة، والتجرد لله في جميع الحركات والسكنات[٤].



(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٤٣.

(٢) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ٢٤٣، ٢٤٦.

(٣) المرجع السابق، ٢٤٦.

(٤) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٣٤٣.

٢٥٥- باب تحريم سماع الغيبة

وأمر من سمع غيبةً مُحرَّمةً بردِّها والإنكار علَى قائلها فإنْ عجز أو لَمْ يقبل منه فارق ذلك المجلس إن أمكنه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[القصص: ٥٥]، وقال تَعَالَى: ﴿والَّذينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الحديث رقم (١٥٣٠)

١٥٣٠- وعن أَبي الدرداء ﵁، عن النبيِّ ﷺ قَالَ: ((**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أخيهِ، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يومَ القيَامَةِ**)). رواه الترمذيُّ[(١)]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٢).

غريب الألفاظ:

ردّ عن عرض أخيه: أي: منع غيبة عن أخيه، والعِرْضُ: جانبُ الإنسان الذي يصونُه من نفسه وحسبه، ويُحامى عنه أن يُنْتَقَص ويُعابَ[(٢)].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول معنى الذَّب عن المسلم، والدفع عنه في غيابه وهو ما يصوب خطأ المغتاب أو السَّاب أو القاذف وقد صاغ المعنى في ثوب الشرط الذي يحيط المعنى بمزاياه وخصائصه حيث يعطيه اطرادا مع الزمان المكان ويربط الجزاء بالشرط،

(١) برقم (١٩٣١). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٩٤).

(٢) النهاية في (ع ر ض).

ويشعر المخاطب بأنه حر الاختيار في الرد عن أخيه، أو عدم الرد، ولكن ربط الجزاء به تشجيعا، وترغيبا على إتيان الفعل فقد ربط رد المسلم عن عرض أخيه برد الله النار عن وجهه يوم القيامة، والتعبير بالرد يوحي بتقدم فعل أو قول فيه انتهاك لعرضه، والتعبير بالأخ وإضافته إلى الضمير يشعر برابطة الرحم التي تستلزم المودة، والرحمة، والنصرة، وإن كان المراد أخوة الإسلام، ونسبة الرد في الجزاء لله توكيد للتحقق كما أكدته صيغة الماضي وتخصيص الوجه بالذكر لأن العذاب فيه أنكى، وأكثر مهانة وهو أول ما يحاول الإنسان حمايته عند الخطر، وتعلق الرد بالنار يزيد الرغبة في العمل الموجب للرد وتقييد الرد بيوم القيامة يصعِّد الرغبة في الرد عن أعراض المسلمين رغبة في النجاة من هول اليوم.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١- فضيلة رد غيبة المسلم الذي ليس بمتهتك في الباطل وأن هذا من مهمات الآداب وحقوق الإسلام[١].

٢-التنبيه على من يظن به الفساد في الدين عند الإمام على جهة النصيحة ولا يعد ذلك غيبة، وأن على الإمام أن يتثبت من ذلك ويحمل الأمر فيه على الوجه الجميل[٢].

٣- لا يخلد في النار من مات على التوحيد[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الترغيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الدفاع عن عرض المسلم في غيبته.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: ثواب الدفاع عن عرض المسلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٨٩/٧، فتح الباري ٥٤/٨، سبل السلام ٣٥٧/٤.

(٢) فتح الباري ٦٥٢/١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦١/١٥، فتح الباري ٦٥٢/١.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترغيب:

إن الترغيب في فعل الخير والتحلي بالفضائل من أساليب الدعوة التي تحدو بالمدعوين وتدفعهم دائمًا إلى عمل الخير وخير العمل، وقد جاء الترغيب في الحديث "رد ودفاع المسلم عن عرض أخيه برد الله النار عن وجهه يوم القيامة، فقال ﷺ: "من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، وأسلوب الترغيب من الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العظيمة لما فيه من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه والحث على طاعة الله تعالى[1]، خاصة وأن أسلوب الترغيب والترهيب من أوفق الأساليب للنفس البشرية، وذلك أن النفس البشرية تعيش بين شد ولين وقبض وبسط، والترغيب والترهيب من أقوى المؤثرات في هذا المخلوق العجيب، والوعد والوعيد عاملان حاسمان في استقامة البشر وتقويم سلوكهم[2]، وآيات القرآن حافلة بأسلوب الترغيب، منها قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

إن من عظمة دين الإسلام وكمال نهجه أنه يربي الناس على الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، فكما أن هنالك من آيات الترهيب وأحاديث التخويف ما يزلزل النفوس، ويهز الأفئدة، ويرهب النفس، فهناك من آيات الترغيب ما يسلي القلب، ويؤنس الخاطر، ويبعث على الأمل.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٢) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٤.

(٣) سورة النحل، آية: ٩٧.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٦٧.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[2].

إن من الواجب على العالم في علمه، والداعي في دعوته، والواعظ في وعظه والمربي في تربيته، أن يجمع بين الأمرين، ويقرن بين الحسنيين، ويمزج بين الغرضين، فليس التخويف بمفرده سبيلاً للعلاج، وأداة للتقويم، وطريقة للدعوة، بل قد يكون الرجاء أجمل، والترغيب أوقع، وإن المتأمل لكتاب الله تعالى ولسنة نبيه ﷺ يجد جانب الترغيب، ونصوص الرجاء أكثرَ عددًا وأجمل موقعًا، وألذ سماعًا، وأطرب استمتاعًا.

إن الرجاء ليس له قيمة ولا تبدو له فائدة، ولا تنال منه ثمرة إن لم يكن مصحوبًا بالعمل، مقرونًا بالطاعة، ممزوجًا بالعطاء، فليس معنى الرجاء أن ينغمس المرء في الذنوب، ويتقاعس عن الطاعة، ويتنكر للعبادة، ويفرط في الحقوق، ويضيع الواجبات، ثم يرجو النجاة من النار والفوز بالجنة، بل هو يعمل ويرجو، ويجتهد ويطمع، ويبذل ويرغب، وهو معترف بتقصيره مقر بذنوبه، مؤمل في نيل غفران ربه[3].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحث على الدفاع عن عرض المسلم في غيبته:

إن من أعظم الأسباب أثرًا في جلب محبة المسلم لأخيه المسلم الذَّب والدفاع عنه في غيبته إذا قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك تقصير في حق الأخوة[4].

وقد وردت النصوص الجمة في حض المسلم على الرد والدفاع عن عرض أخيه إذا تعرض لسوء أو أذى، ومن ذلك ما روى عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ أُرَاهُ قال بَعَثَ الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة القارعة، الآيات: ٦-٩.

(٣) انظر: كتاب: "الله أهل الثناء والمجد"، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٦٦٤، ٦٦٥.

(٤) انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية، سعد يوسف أبو عزيز، ٣٧٦.

الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ الله عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ))[١].

وكذلك ما جاء من قوله ﷺ "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، أى من منع غيبةً عن أخيه صرف الله عن وجه الرادِّ نار جهنم، قال المناوى أى عن ذاته العذاب، وخص الوجه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام وأشد في الهوان[٢]، والحث على الدفاع عن أعراض الغير من حقوق الإخاء الذي هو أوثق الروابط، فالإخوة رباط تزول أمامها جميع الفوارق، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣]. وهذه الأخوة والمؤاخاة في الله سبحانه، وقد جعل الإسلام هذا النوع من الأخوة فوق كل أخوة، وجعله من كمال الإيمان، حيث جعله رابطة قوية بين المسلم وأخيه المسلم، ومن كمال الإيمان أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، ومن ذلك أن يرد عن عرضه إذا انتهك أمامه[٤]، وهذا الإخاء يقتضي تبعات وحقوقًا، فليس هو إخاءً عقيمًا لا ثمرة له في الواقع ولا أثر له في الحياة العملية، فهو يقتضي أن يهتم كل أخ بأمر أخيه، وأن يعني بشأنه، والدفاع عنه، والذياد عن حياضه، والعمل الدائب على ترقية حاضره وإعداده لمستقبل أعز وأكرم، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[٥]، ومن حق المسلم على المسلم أن يحفظ عرضه، ويصون حرمته، في حضوره أو غيبته، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً[٦].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: ثواب الدفاع عن عرض المسلم:

بين الحق تبارك وتعالى أن جزاء العمل من جنسه، قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ

---

(١) اخرجه ابو داود ٤٨٨٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابي داود ٤٠٨٦).

(٢) تحفة الأحوذي، المباركفوري، ١٦٢٨/٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم ١١٦/٢.

(٥) سورة التوبة، آية: ٧١.

(٦) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٨١-١٨٢.

إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[٢]، فإن ذلك هو الجزاء الحق ومقتضى الحكمة والعدل[٣]. والحديث فيه بيان لصورة من ذلك في بيان ثواب الدفاع عن عرض المسلم، فقال ﷺ "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"، وذلك لأنه رد مريد الغيبة عن عذابها لو فعلها، فجوزي بردها عنه في الآخرة، ورد عن المغتاب ما يلقاه مما رمى به من اغتابه، فردها - أي النار - الله عنها[٤].

وجاء من حديث سهل بن معاذ بن جبل عن أبيه عن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ أُرَاهُ قال بَعَثَ الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ الله عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قالَ))[٥].

قال العظيم آبادى في شرح الحديث: "من حمى مؤمنًا" أي: حرس وحفظ مؤمنًا في عرضه من منافق يغتابه بعث الله ملكًا يحمي لحم حامي المؤمن، ومن رمى مسلمًا أي قذفه بشيء من العيوب يريد عيبه به، أوقفه الله يوم القيامة على جسر جهنم حتى يخرج مما قال، أي من عهدته، والمعنى حتى ينقي من ذنبه ذلك، بإرضاء خصمه أو بشفاعته أو بتعذيبه بقدر ذنبه[٦].

قال النووي: اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردها ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان فارق ذلك المجلس فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حق، أو كان من أهل الفضل والصلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر[٧].

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٦٠.

(٢) سورة النبأ، آية: ٢٦.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج١١/٢٧/٢٧١.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٥٨٤.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٨٨٣، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٦).

(٦) انظر: عون المعبود ٢١٠٧.

(٧) الأذكار ٣٠٤.

الحديث رقم (١٥٣١)

١٥٣١- وعن عِتبَانَ بنِ مَالكٍ ﷺ، في حديثه الطويل المشهور الَّذي تقدَّمَ في باب الرَّجاء[١] قَالَ: قام النبيّ ﷺ يُصلّي فقَالَ: ((أينَ مالِكُ بنُ الدُّخْشُمِ؟)) فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللهَ ولا رَسُولَهُ، فقَالَ النبيّ ﷺ: **((لاَ تَقُلْ ذَلِكَ ألاَ تَراهُ قَدْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ يُرِيدُ بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ! وإنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ يَبْتَغي بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ))**. متفق عَلَيْهِ[٢].

(وَعِتْبان) بكسر العين عَلَى المشهور وحُكِيَ ضَمُّها وبعدها تاءٌ مثناة مِن فوق ثُمَّ باءٌ موحدة. و(الدُّخْشُم) بضم الدال وإسكان الخاء وضم الشين المعجمتين.

ترجمة الراوي:

عِتبان بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤١٧).

الشرح الأدبي

الحديث يحكي قصة عملية للرد عن المسلم ونصرته في غيبته، وقول الرسول ﷺ (أيْنَ مالِكُ بنُ الدُّخْشُمِ؟) سؤال تفقد للمسلمين عند الصلاة يدل على حرص الرسول ﷺ على أصحابه، حتى يعود المريض ويعين الضعيف، ويعطي الفقير، ويصلي على الميت، وتنكير (رجل) لعدم تعلق غرض بذكره، أو من باب الستر على المخطيء وقول الرجل (ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللهَ ولا رَسُولَهُ) هو موضع الخطأ، واسم الإشارة (ذلك) للذم وقول الرسول ﷺ (لاَ تَقُلْ ذَلِكَ) نهي يقتضي أنه أتى مخالفة شرعية (ألاَ تَراهُ قَدْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ يُرِيدُ بذَلكَ وَجْهَ اللهِ !) استفهام تقريري أي أنه قالها، وقوله (يريد بذلك وجه الله) يفيد نفي النفاق عنه، ويثبت له الإخلاص، وقوله (وإنَّ الله قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ يَبْتَغي بذَلِكَ وَجْهَ اللهِ) خبر مؤكد

---

(١) باب (٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥) واللفظ له، ومسلم (٥٤/٣٣)، وتقدم برقم (٤١٧).

بمؤكدات متعددة منها (إن) واسمية الجملة، وحرف التحقيق (قد) والفعل الماضي المفيد للتحقيق تعظيما للخبر، وتنبيها إليه والخبر يقرر نجاة الموحد المخلص.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٤١٧).

الحديث رقم (١٥٣٢)

١٥٣٢- وعن كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصةِ تَوْبَتِهِ وَقَدْ سبق في باب التَّوبةِ. قَالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ وَهُوَ جالِسٌ في القَوْمِ بِتَبُوكَ: ((**مَا فَعَلَ كَعبُ بن مالكٍ؟**)) فَقَالَ رَجلٌ مِنْ بَنِي سَلمَةَ: يَا رسولَ الله، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ. فَقَالَ لَهُ مُعاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه: بِئْسَ مَا قُلْتَ، والله يَا رسولَ الله مَا علمنا عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رسُولُ الله ﷺ. متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

كعب بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٢).

غريب الألفاظ:

حبَسَه: منعه[2].

بُراده: ثنى بُرْدٍ: ضربٌ من الثياب[3].

عطفاه: جانباه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه[4].

الشرح الأدبي

قول النبي ﷺ (مَا فَعَلَ كَعبُ بن مالكٍ؟) هو من تفقد أصحابه عن الغزوات، لذلك سأل عن فعله، ولم يسأل عن مكانه، وقول الرجل: (حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ) أي جانبيه وقوله (حبسه برداه) مجاز مرسل بنسبة الفعل لسببه مبالغة في درجة الانشغال، والعبارة كناية عن انشغاله بالزينة، وللباس عن الجهاد، وهو موضع الخطأ ؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩/٥٣) واللفظ له، وتقدم برقم (٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣١٠).

(٢) الوسيط في (ح ب س).

(٣) الوسيط في (ح ب س).

(٤) رياض الصالحين.

لأنه فيه غمز، ولمز لكعب بن مالك رضي الله عنه، وقول معاذ بن جبل رضي الله عنه (بِئْسَ مَا قُلْتَ) رد على الرجل بأسلوب إنشائي غير طلبي يفيد الذم لقوله، وهو أدب من معاذ رضي الله عنه لأنه ذم القول دون أن يذم صاحبه مباشرة، ثم زكّى كعب بن مالك رضي الله عنه بقوله (واللّه يَا رسولَ الله مَا علمنا عَلَيْهِ إلاَّ خَيْراً) وقد أكد الجملة بعدة مؤكدات تصدرها القسم الذي يوحي بالثقة فيما يقول، تلاه النداء الذي يقصد به مزيد التنبيه والإقبال عليه مع ما يحمل من التكريم ثم أسلوب القصر بالنفي، والاستثناء المناسب لمقام الإنكار حيث قصر علمه عنه على الخير لا يتعداه لغيره، وسكوت الرسول رضي الله عنه وعدم رد قوله يقرر صدقه، ونهاية القصة، ونزول القرآن فيه، وفي من معه دليل على ذلك.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢١).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على رد الغيبة وعدم سماعها:

من أهداف التربية الإسلامية، تهذيب الأخلاق والارتقاء بالسلوك، ومن ذلك التربية على عفة اللسان عن الخوض في الحديث عن الآخرين، والحث على رد غيبة المسلم، وعدم السكوت على ذلك لأنه يمثل انتهاكًا صارخًا لحرمة المسلم، وإن التربية الإسلامية تعمل على تنمية شعور الغيرة المحمودة والتي من مظاهرها رد غيبة المسلم والنبي ﷺ قال في توجيهاته التربوية: «مَنْ رَدَّ عن عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّه عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فهذه تربية نبوية صريحة من الرسول ﷺ توجه إلى أهمية وضرورة رد غيبة المسلم وعدم سماع الغيبة وردها وزجر قائلها، ويعلمنا النبي ﷺ أن من لم يستطع رد الغيبة عليه أن يفارق المجلس، وإن رد الغيبة له آثار إيجابية منها: البعد عن الوقوع في الحرام، مراعاة حقوق وحرمات المسلمين، وكذلك صيانة روح المحبة والمودة بين المسلمين، ومن الشواهد على أهمية رد الغيبة من أحاديث الباب: قول معاذ عندما سمع الغيبة قال: «بئس ما قلت...»، لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه غرس القيم الإيجابية التي تعمل على رد الغيبة وتربية الجيل على أن الله يوم القيامة يبدل حسنات من قام بالغيبة بسيئات من اغتابه، ويعرفهم بأن الله شبه من يغتاب بأنه: ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1].

ومن الأهداف التربوية في هذا المضمون: احترام الآخرين، وذلك لأن الإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك يعتز فيه بكرامته وحريته، وينسب علاقاته مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل والثقة الكاملة، وبذلك يطمئن الإنسان على نفسه وعرضه وماله، ومن هنا حرم رسول الله ﷺ كل ما يؤدي إلى سلبية الإنسان، ودعا إلى كل ما يقوي الصلات الاجتماعية ويوثق عرى المحبة والتعاون بين الناس، والتي منها "رد

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

الغيبة"، والقاعدة العامة في العلاقات الاجتماعية هي صيانة حرمة وعرض المسلم والتي منها الغيبة، ولن يتأتى هذا الأمر في السلوك الإسلامي التربوي إلا بالتربية على الوازع الديني الذي يعد في ضوابط السلوك[1].

ثانيًا: التربية بالترغيب:

التربية بالترغيب تؤثر في النفوس تأثيرًا إيجابيًا، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث الباب قول النبي ﷺ: «لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله، وإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

وقد أراد النبي ﷺ الترغيب في الإيمان ومراقبة الله والتحلي بالقيم الإسلامية "كرد الغيبة"، وذلك لأن الرسول ﷺ يعلم أن الإنسان مفطور على حب كل ما يُدخل عليه الراحة والسرور، لذا كان للترغيب تأثيرٌ كبير في تربية الإنسان وتوجيه سلوكه من خلال الترغيب بالجنة، مما حمل قلب الإنسان نحو الخير وتوجيهه لذلك الخير، والرسول ﷺ أراد من هذا النموذج التربوي تعليم المسلم جلب الخير لنفسه وكره الشر والشقاء، كل هذا يدفع بالإنسان للاستجابة بالمؤثرات الترغيبية، وبهذا يكون الإنسان قد أعد لنفسه وقاية، من المخالفة، من هنا نخلص إلى أن النبي ﷺ أراد من هذا الهدي النبوي إعانة الإنسان على تحديد أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ٤٢٢، ٤٢٣، التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم نهاد العمري، ٢١١، القيم بين الإسلام والغرب، د. مانع علي مانع، ص٤٢٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٣. التربية الإسلامية، د. سليمان بن عبدالرحمن، ص٥٩، ط الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

٢٥٦- باب مَا يباح من الغيبة[1]

اعْلَمْ أنَّ الغِيبَةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرْعِيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصُولُ إلَيْهِ إلاَّ بهَا، وَهُوَ ستَّةُ أسْبَابٍ:

الأوَّلُ: التَّظَلُّمُ، فَيَجُوزُ لِلمَظْلُومِ أنْ يَتَظَلَّمَ إلَى السُّلْطَانِ والقَاضِي وغَيرِهما مِمَّنْ لَهُ وِلاَيَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى إنْصَافِهِ مِنْ ظَالِمِهِ، فيقول: ظَلَمَنِي فُلاَنٌ بكذا.

الثَّاني: الاستِعانَةُ عَلَى تَغْيِيرِ المُنْكَرِ، وَرَدِّ العَاصِي إلَى الصَّوابِ، فيقولُ لِمَنْ يَرْجُو قُدْرَتهُ عَلَى إزالَةِ المُنْكَرِ: فُلانٌ يَعْمَلُ كَذا، فازْجُرْهُ عَنْهُ ونحو ذَلِكَ ويكونُ مَقْصُودُهُ التَّوَصُّلُ إلَى إزالَةِ المُنْكَرِ، فَإنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ كَانَ حَرَامًا.

الثَّالِثُ: الاسْتِفْتَاءُ، فيقُولُ لِلمُفْتِي: ظَلَمَنِي أبي أَوْ أخي، أَوْ زوجي، أَوْ فُلانٌ بكَذَا فَهَلْ لَهُ ذَلِكَ؟ وَمَا طَريقي في الخلاصِ مِنْهُ، وتَحْصيلِ حَقِّي، وَدَفْعِ الظُّلْمِ؟ وَنَحْو ذَلِكَ، فهذا جَائِزٌ لِلْحَاجَةِ، ولكِنَّ الأحْوطَ والأفضَلَ أنْ يقول: مَا تقولُ في رَجُلٍ أَوْ شَخْصٍ، أَوْ زَوْجٍ، كَانَ مِنْ أمْرِهِ كذا؟ فَإنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الغَرَضُ مِنْ غَيرِ تَعْيينٍ، وَمَعَ ذَلِكَ، فالتَّعْيينُ جَائِزٌ كَمَا سَنَذْكُرُهُ في حَديثِ هِنْدٍ[2] إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الرَّابعُ: تَحْذيرُ المُسْلِمينَ مِنَ الشَّرِّ وَنَصيحَتُهُمْ، وذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا جَرْحُ المَجْرُوحينَ مِنَ الرُّواةِ والشُّهُودِ وذلكَ جَائِزٌ بإجْمَاعِ المُسْلِمينَ، بَلْ وَاجِبٌ لِلْحَاجَةِ.

ومنها: المُشَاوَرَةُ في مُصاهَرَةِ إنْسانٍ أو مُشاركتِهِ، أَوْ إيداعِهِ، أَوْ مُعامَلَتِهِ، أَوْ غيرِ ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِهِ، ويجبُ عَلَى المُشَاوَرِ أنْ لا يُخْفِيَ حَالَهُ، بَلْ يَذْكُرُ المَسَاوِئَ الَّتي فِيهِ بِنِيَّةِ النَّصيحَةِ.

ومنها: إذَا رأى مُتَفَقِّهًا يَتَرَدَّدُ إلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ فَاسِقٍ يَأَخُذُ عَنْهُ العِلْمَ، وخَافَ أنْ يَتَضَرَّرَ المُتَفَقِّهُ بذَلِكَ، فَعَلَيْهِ نَصيحَتُهُ بِبَيانِ حَالِهِ، بِشَرْطِ أنْ يَقْصِدَ النَّصيحَةَ، وَهَذا مِمَّا يُغلَطُ

---

(١) انظر: الأذكار ٣٨٠-٣٨٢ ط مكتبة الصفا.

(٢) سيأتي برقم (١٥٣٧).

فيهِ. وَقَدْ يَحمِلُ المُتَكلِّمَ بذلِكَ الحَسَدُ، وَيُلَبِّسُ الشَّيطانُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، ويُخَيِّلُ إليْهِ أنَّهُ نَصيحَةٌ فَليُتَفطَّنْ لِذلِكَ.

وَمِنها: أنْ يكونَ لَهُ وِلايَةٌ لا يقومُ بِهَا عَلَى وَجْهِها: إمَّا بِأنْ لا يكونَ صَالِحًا لَهَا، وإما بأنْ يكونَ فَاسِقًا، أَوْ مُغَفَّلاً، ونَحوَ ذَلِكَ فَيَجِبُ ذِكْرُ ذَلِكَ لِمَنْ لَهُ عَلَيْهِ ولايةٌ عامَّةٌ لِيُزيلَهُ، وَيُوَلِّيَ مَنْ يُصْلِحُ، أَوْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ لِيُعَامِلَهُ بِمُقْتَضَى حالِهِ، وَلاَ يَغْتَرَّ بِهِ، وأنْ يَسْعَى فِي أنْ يَحُثَّهُ عَلَى الاسْتِقامَةِ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ.

الخامِسُ: أنْ يَكُونَ مُجَاهِرًا بِفِسْقِهِ أَوْ بِدْعَتِهِ كالمُجَاهِرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المَكْسِ، وجِبَايَةِ الأمْوَالِ ظُلْمًا، وتَوَلِّي الأمُورِ الباطِلَةِ، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِمَا يُجَاهِرُ بِهِ، وَيَحْرُمُ ذِكْرُهُ بِغَيْرِهِ مِنَ العُيُوبِ، إلاَّ أنْ يكونَ لِجَوازِهِ سَبَبٌ آخَرُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ.

السَّادِسُ: التعريفُ، فإذا كَانَ الإنْسانُ مَعْرُوفًا بِلَقَبٍ، كالأعْمَشِ، والأعرَجِ، والأَصَمِّ، والأعْمى، والأحْوَلِ، وغَيْرِهِمْ جاز تَعْرِيفُهُمْ بذلِكَ، وَيَحْرُمُ إطْلاقُهُ عَلَى جهَةِ التَّنَقصِ، ولو أمكَنَ تَعْرِيفُهُ بِغَيرِ ذَلِكَ كَانَ أوْلَى، فهذه سِتَّةُ أسبابٍ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ وأكثرُها مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَدَلائِلُهَا مِنَ الأحاديثِ الصَّحيحَةِ مشهورَةٌ. فمن ذَلِكَ:

الحديث رقم (١٥٣٣)

١٥٣٣- عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ رجلاً استَأذَنَ عَلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: ((ائْذَنُوا لَهُ، بِئسَ أخُو العَشِيرَةِ؟)). متفق عَلَيْهِ[1].

احتَجَّ بِهِ البخاري في جوازِ غيبَة أهلِ الفسادِ وأهلِ الرِّيبِ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

يبين الرسول ﷺ في هذا الحديث بطريقة عملية أن ذكر مساوئ بعض الناس لغرض شرعي لا تعد غيبة وأنه قد يكون من الضروري مدارة بعض الناس اتقاء شرهم وسداً لباب الفتن مع التحذير من الفحش، والتفحش، وقد استخدم لبيان هذه المعاني عدة أساليب بلاغية منها: بداية الحديث بأسلوب الأمر في قوله: (ائذنوا له. ..) اتقاءً لشر هذا المستأذن بالدخول، وقوله: (بئس أخو العشيرة) أسلوب إنشائي غير طلبي قصد به الذم، وقد فصل جملة (بئس أخو العشيرة) عن جملة (ائذنوا له) لكمال الانقطاع بين الجملتين لأن الأولى إنشائية طلبية لفظاً، ومعنى، والثانية غير طلبية ؛ لأن نعم وبئس من أساليب الإنشاء غير الطلبي، وقوله: (أخو العشيرة) والعشير المعاشر الذي أمره معك واحد والعشيرة الجماعة والقبيلة والعشيرة الأدنى إلى الرجل من أهله وهم ولد أبيه وجده أي إخوته وبنيهم وأعمامه وبنيهم، وإضافة الأخ للعشيرة يفيد علما لرسول ﷺ به وبما يتعلق بأخلاقه، ومن الجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين المداراة والمداهنة وهو أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدين أو الدنيا أو هما معاً وهي مباحة وربما استحب، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معهم حسن عشرة فيزول بهذا التقرير الإشكال[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٩١/٧٣).

(٢) ينظر: فتح الباري / جـ١٦ / صـ٣٣١.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم غيبة الكافر والفاسق والمنافق وأمثالهم: اتفق الفقهاء على جواز غيبة الكافر، والفاسق، والمنافق وأهل والبدع وذوي الولايات الباطلة، ومن يجاهر بمعصيته وأن ذلك مستثنى من الغيبة المحرمة[1].

٢-حكم ذكر عيوب الخاطب: اتفق الفقهاء على جواز ذكر الخاطب بما فيه من العيوب التي يكرهها إذا كان ذلك للنصيحة ولا يكون حينئذ غيبة محرمة[2]. واستدلوا على ذلك بحديث الباب رقم ١٥٣٥، ويقول ﷺ "المستشار مؤتمن" وقوله ﷺ "الدين النصيحة".

٣-حكم التعريض لخِطْبة المعتدة البائن: اتفق الفقهاء على القول بجواز التعريض لخِطْبة المعتدة البائن[3]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾[4].

٤-حكم الخِطْبة على خِطْبة الغير إذا لم يحصل للأول إجابة: تجوز الخِطْبة على خِطْبة الغير إذا لم يحصل للأول إجابة[5].

٥-حكم النفقة على الزوجة من زوجها، ونفقة الأولاد الصغار على أبيهم: اتفق

---

(١) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢، بريقة محمودية ١٨٧/٣-١٨٨، الفواكه الدواني ٢٧٠/٢-٢٨٠، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٣/٢-٢٤، مطالب أولي النهى ٤٠٢/٢، شرح صحيح مسلم ١٤٢/٢٦-١٤٣، فتح الباري ٥٤٨/١٠، ٥٦٩، سبل السلام ٣٣٣/٤-٣٣٤.

(٢) مجمع الأنهر ٥٥٢/٢، حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢٢٠/٢، مغني المحتاج ٢٢٢/٤، مطالب أولي النهى ١١/٥، شرح صحيح مسلم١٠٧/١٠، شرح صحيح مسلم ١٤٢/١٦.

(٣) حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢١٩/٢، مغني المحتاج ٢١٩/٤، كشاف القناع ١٨/٥، أحكام القرآن للجصاص ٥٧٥/١-٥٧٦، شرح صحيح مسلم ١٠٧/١٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٣٥.

(٥) حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٢٢٠/٢، مغني المحتاج ٢٢٢/٤-٢٢٣، مطالب أولي النهى ١١/٥، شرح صحيح مسلم ١٠٧/١٠.

الفقهاء على وجوب نفقة الزوجة على زوجها، ونفقة الأولاد الصغار على أبيهم[(١)]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾[(٢)] والأمر بالإسكان أمر بالإنفاق لأنها لا تصل إلى النفقة إلا بالخروج والاكتساب[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[(٤)] أوجب أجر رضاع الولد على أبيه[(٥)].

٦-مقدار النفقة: ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والمالكية، والشافعي في القديم، والحنابلة إلى أن النفقة مقدرة بالكفاية[(٦)]. واستدلوا على ذلك بحديث الباب رقم ١٥٣٧، وبقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[(٧)] حيث أمر الله تعالى بالنفقة مطلقًا عن التقدير، فمن قدر فقد خالف النص، ولأن الله تعالى أوجبها باسم الرزق، ورزق الإنسان كفايته في العرف والعادة كرزق القاضي والمضارب[(٨)].

وذهب الشافعي في الجديد إلى أن نفقة الزوجة مقدرة الأمداد، ونفقة القريب مقدرة بالكفاية[(٩)]. واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾[(١٠)].

ويناقش هذا: بأنه لا حجة له في الآية لأن فيها أمر الذي عنده السعة بالإنفاق على قدر السعة مطلقًا عن التقدير بالوزن فكان التقدير به تقييدًا لمطلق الآية، فلا يجوز إلا

---

(١) بدائع الصنائع ١٥/٤، ٣٠، حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٥٠٨/٢، ٥٢٢، مغني المحتاج ١٥١/٥، ١٨٣، المغني ١٥٦/٨، ١٦٨، ١٦٩، شرح صحيح مسلم ٧/١٢، فتح الباري ٦١٣/٩.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٦.

(٣) بدائع الصنائع ١٥/٤.

(٤) سورة الطلاق، آية: ٦.

(٥) المغني ١٦٩/٨.

(٦) بدائع الصنائع ٢٣/٤، حاشية الدسوقي ٢٠٩/٢، مغني المحتاج ١٥٢/٥، ١٨٦، المغني ١٥٦/٨.

(٧) سورة البقرة، آية: ٢٣٣.

(٨) بدائع الصنائع ٢٣/٤.

(٩) مغني المحتاج ١٥٢/٥، ١٨٦، شرح صحيح مسلم ٧/١٢.

(١٠) سورة الطلاق، آية: ٧.

بدليل[١].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء القائل بأن النفقة تقدر بالكفاية.

٦-هل تقدر النفقة باعتبار حال الزوجين أم باعتبار حال أحدهما: ذهب الحنابلة، والحنفية، وبعض الشافعية إلى أن النفقة تقدر باعتبار سعة الزوج وحال الزوجة أي باعتبار حالهما معًا[٢]. واستدلوا على ذلك بأن في اعتبار حالهما في تقدير النفقة نظرًا من الجانبين، فكان أولى من اعتبار حال أحدهما[٣].

وذهب الحنفية في الصحيح، والشافعية إلى أن النفقة تقدر باعتبار حال الزوج في يساره، وإعساره[٤]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[٥] وهذا نص في الباب[٦].

والراجح هو رأي المالكية والحنابلة، لأن في هذا الرأي رعاية لكلا الجانبين فيكون أولى[٧].

٧-حكم القضاء على الغائب: ذهب جمهور الفقهاء المالكية، والشافعية، والحنابلة، وابن شبرمة والأوزاعي، والليث، وسوار، وأبو عبيد، وإسحاق، وابن المنذر إلى القول بجواز القضاء على الغائب في حقوق الآدميين إذا صح الحق على الغائب[٨]. واستدلوا بحديث الباب رقم ١٥٣٥ حيث قضى النبي ﷺ لامرأة أبي سفيان بالنفقة ولم يكن زوجها حاضرًا، ولأن الحاضر له بينة مسموعة عادلة فجاز الحكم بها[٩].

---

(١) بدائع الصنائع ٣٤/٤.

(٢) حاشية الصاوي على الشرح الصغير ٧٣٢/٢، المغني ١٥٦/٨، بدائع الصنائع ٢٤/٤.

(٣) بدائع الصنائع ٢٤/٤.

(٤) بدائع الصنائع ٢٤/٤، المغني ١٥٢/٥.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٦) بدائع الصنائع ٢٤/٤.

(٧) المغني ١٥٦/٨.

(٨) حاشية الصاوي ٢٣١/٤، مغني المحتاج ٢٠٨/٦، المغني ١٣٨/١٠، شرح صحيح مسلم ٨/١٢، فتح الباري ٦١٥/٩.

(٩) المغني ١٣٨/١٠.

وذهب الحنفية، وشريح، وابن أبي ليلى، والثوري، والقاسم، والشعبي إلى القول بعدم جواز القضاء على الغائب[١]. واستدلوا على ذلك بما روي عن النبي ﷺ أنه قال لعلي: ((إِذَا تَقَاضَىٰ إِلَيْكَ رَجُلَانِ فَلَا تَقْضِ لِلأَوَّلِ حَتَّى تَسْمَعَ كَلَامَ الآخَرِ فإنك لا تَدْرِي بما تَقْضِي)).

ويناقش هذا: بأنا نقول بالحديث، وذلك إذا تقاضى إليه رجلان وهذا يقتضي أن يكونا حاضرين، ويفارق الحاضر الغائب فإن البينة لا تسمع على حاضر إلا بحضرته والغائب بخلافه[٢].

٨-اعتماد العرف في الأمور التي ليس فيها تحديد شرعي[٣].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستئذان عند الدخول.

ثانيًا: من آداب الداعية: بيان حقائق بعض الناس بوصفهمبما يوجب الحذر منهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: إذن النبي ﷺ للرجل السيئ بالدخول عليه.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحث على الاستئذان عند الدخول:

لقد أدبنا الله بالآداب الاجتماعية الإسلامية ذات الذوق الرفيع، ومنها أدب الاستئذان، وقد وردت الإشارة إليه في الحديث في فعل ذلك الرجل، "فعن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال إئذنوا له"، فالاستئذان من الآداب الشرعية التي أدب الله بها عباده المؤمنين، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده[٤]، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

(١) بدائع الصنائع ٨/٧، المغني ١٠/١٣٨.

(٢) المغني ١٠/١٣٨.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢/٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٦/٣٦.

﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[١]، إن هذه الآية ذكرت أدبًا من الآداب الاجتماعية وأساسًا من أسس الآداب والمدنية الإنسانية، فنادى المؤمنين بأكمل الأوصاف وأحب الألقاب إليهم فقال: "يا أيها الذين آمنوا" أى: يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان اعلموا أنه يدعوكم إلى الفضيلة والآداب، ويرشدكم إلى أنكم لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم، أي ليس لكم فيها حق السكنى والمنفعة "وإن كانت ملكًا لكم، لا تدخلوا حتى تستأنسوا وتستأذنوا، ولاشك أن الإذن يذهب الوحشة، ولذا سمي الإذن أنسًا، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[٢].

والاستئذان يكون بقرع الباب، أو النداء لمن في البيت، أو التسبيح والتحميد أو صريح الاستئذان وغير ذلك.

ومنع الدخول قبل الاستئذان عام في الرجال والنساء، مع المحارم وغير المحارم، إذ كل إنسان له حالات لا يحب أن يطلع عليها أحد، ولو كان والدًا أو ولدًا، ولقد قال رجل للنبي ﷺ: أأستأذن يارسول الله على أمي؟ قالَ: «نعم»، قالَ: ليس لها خادمٌ غيري، «أأستأذن عليها؟» قالَ: «أتحبُّ أن تَراها عريانةً» قالَ الرجل: لاَ. قال: «فاستأذن عليها».

حتى تستأنسوا، وتسلموا على أهلها أي على من فيها، وظاهر الآية أن الاستئذان يحصل ثم السلام، وبعضهم يرى العكس، والبعض يرى أنه إذا رأى أحدًا في الدار سلم أولاً ثم استأذن: فإن لم ير استأذن أولاً.

---

(١) سورة النور، آية: ٢٧-٢٩.

(٢) سورة النور، آية: ٢٨.

"ذلكم خير لكم" وأفضل، فإنه أغض للبصر، وأحفظ للسر، وأدعى إلى احترام البيوت والحرمات، ولا تظنوا أن في الاستئذان مذلة، بل هو خير لكم وأزكى، "لعلكم تذكرون" ذلك فتعملوا بمقتضاه.

ولا مانع من جعل حجرات الموظفين كالبيوت يحسن الاستئذان عند دخولها فلربما كان الموظف في شغل شاغل، أو عنده شخص في مصلحة لا يحب أن يطلع عليها أحد، وهذا بلا شك أحفظ للوقت، وأدعى إلى العمل والجد.

فإن لم تجدوا فيها أحدًا من ساكنيها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وهذا تعبير دقيق يشير إلى معنى أدق، فربما كان في البيت صاحبه، ولم يَرُدّ عليك ولم يأذن لك فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحدًا في البيت.

"وإن قيل لكم ارجعوا"، ولا تدخلوا، فارجعوا وامتثلوا أمر صاحب البيت فهذا حقه وهو حر فيه، والرجوع أزكى وأطهر، والله بما تعملون عليم ومحيط.

وقد يكون في البيت ما يدعو إلى الدخول بلا إذن، كحريق أو حادث أو استغاثة مثلاً وهنا تدخل بلا إذن. ولا حرج عليك.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ كالحوانيت ومحال البيع والشراء، وقد روى أن أبا بكر ﷺ لما نزلت آية الاستئذان قال: يا رسول الله فكيف يعمل تجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلمون؟ وليس فيها سكان؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية.

والمعنى أن البيوت العامة كالمقاهي والبيوت التجارية ما دامت مفتوحة فلا استئذان في دخولها.

وهل بيت الإنسان الخاص، الذي فيه أهل بيته يستأذن أم يكفي السلام فقط والإشعار بالحضور بأي شيء؟ الظاهر أن هذا يكفي.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فإن إباحة الدخول في الأماكن العامة

لغرض، أو في البيوت الخاصة مثلاً، قد يتخذه بعض الناس لغرض آخر سيئ، فجاء قوله تعالى: والله يعلم ما تبدون وما تكتمون، ليذكرهم بأن الله يعلم، وأنتم لا تعلمون وهو يعلم السر وأخفى.

ومن الآداب أنك عند زيارتك لإنسان، ووجدت الباب مفتوحًا، أن تقف بحيث لا تطلع على شيء في البيت، فقد روي «أن رجلاً اطلعَ من جُحرٍ في دارِ النبيِّ ﷺ -والنبيُّ ﷺ يَحُكُّ رأسَهُ بالمدرَى- فقال: لو علمتُ أنك تَنظرُ لطعَنتُ بها في عينك، إنَّمَا جُعلَ الإذنُ من قِبل الأبصار»[١][٢].

ولقد كان ﷺ يعلم أصحابه الاستئذان، روى أبو داود في سننه بسنده عن ربعى قال: حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت، فقال ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل؟، فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟، فأذن له النبي ﷺ فدخل"[٣]. وبذلك بين الإسلام أحكام التزاور، وآداب الاستئذان، وتحديد ما يحصل المقصود منه كيلا يكون الناس مختلفين في كيفيته، على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد[٤].

ثانيًا- من آداب الداعية: بيان حقائق بعض الناس بوصفهم بما يوجب الحذر منهم:

إن البيان والتبيين من الآداب الملازمة للداعية، ولقد أمر الله تعالى الأنبياء وأتباعهم أن يوضحوا الحق للناس، وبيان الحقائق، قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٥]،[٦]. ومن ذلك بيان حقائق الناس تحذيرًا منهم، كما جاء في الحديث عن

(١) أخرجه البخاري ٥٩٢٤ واللفظ له، ومسلم ٢١٥٦، بلفظ "من أجل البصر".

(٢) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مج٢/ج٢٢/ ٦٠-٦٢.

(٣) أخرجه أبي داود ٥١٧٧، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٨١٨).

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مج٨/ج١٨/١٩٦.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٦) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٢٦.

عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال ائذنوا له، بئس أخو العشيرة"، وفي رواية البخاري: "ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام، قلت يا رسول الله: قُلْتُ الذي قُلْتَ ثم أَلَنْتَ له الكلام، قال: أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه، اتقاء فحشه"[1]، قال ابن حجر: قال العلماء: تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعًا حيث يتعين طريقًا إلى الوصول إليه بها، كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر والاستفادة والمحاكمة والتحذير من الشر وغير ذلك[2]، قال النووي في شرح الحديث "أراد النبي ﷺ أن يبين حاله ليعرفه الناس ولا يغتر به من لم يعرف حاله"[3].

ومثل ذلك لا يدخل في إطار الغيبة، بل إنه من الصور المباحة وقد ذكر العلماء ستة أسباب لإباحة الغيبة، وقد ذكرها الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين، فقال:

اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي، لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا. قال تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾[4].

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو زوجي أو فلان بكذا فهل له ذلك، وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم ونحو ذلك؟ فهذا جائز

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٥٤.

(٢) فتح الباري ٤٨٦/١٠.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٥٤٧.

(٤) سورة النساء، آية: ١٤٨.

للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه؛ منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة. ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه أو معاملته أو غير ذلك أو مجاورته، ويجب على المشاوَر أن لا يخفي حاله بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة. ومنها إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يُغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ويلبِّس الشيطان عليه ذلك ويخيل إليه أنه نصيحة فليُتَفطن لذلك. ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس وأخذ المكس وجباية الأموال ظلمًا وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى. فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه. ودلائلها من الأحاديث الصحيحة المشهورة[1]».

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: إذن النبي ﷺ للرجل السيئ بالدخول عليه:

إن من أسباب انتشار الدعوة وإقبال الناس عليها انتهاج الداعية تأليف القلوب وقد

---

(١) رياض الصالحين، الإمام النووي، ٥٢٥-٥٢٧.

اهتم الإسلام بذلك لدرجة أن خصص سهمًا من الزكاة وجعل تأليف القلوب مصرفًا له، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ ﴾[1].

ومن تأليف القلوب إلانة القول وحسن المعاشرة، ومن ذلك ما جاء في الحديث من إذن الرسول ﷺ لذلك الرجل مع ما فيه من سوء، "فعن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: "ائذنوا له". قال النووي: قال القاضي: "وإنما ألان له القول تألفًا له ولأمثاله على الإسلام. أ.هـ، وفي هذا الحديث مداراة من يتقي فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه، والنبي ﷺ لم يمدحه ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام[2]، وذلك من أهداف الإسلام، فإنما جاء الإسلام ليجمع القلب، ويضم الصف إلى الصف، مستهدفًا إقامة كيان موحد منفيًا عوامل الفرقة والضعف، وأسباب الفشل والهزيمة، ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالة الإسلام العظمى[3].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٤٧.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٨١.

الحديث رقم (١٥٣٤)

١٥٣٤- وعنها، قالت: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَا أظُنُّ فُلانًا وفُلانًا يَعْرِفانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا)). رواه البخاري[١].

قَالَ: قَالَ اللَّيْثُ بن سعدٍ (أحَدُ رُواة هَذَا الحديثِ)[٢]: هذانِ الرجلانِ كانا من المنافِقِينَ.

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: سبق ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

قد يكون من الضروري بيان حال بعض الناس بذكر عيوبهم، واغتيابهم كالمنافقين، ومن يترتب على ستر حالهم ضرر للناس، وهذا الحديث يبين بطريقة عملية أمثال هؤلاء، ويبين حالهم للناس حتى يتقي الناس شرورهم، وقوله: (مَا أظُنُّ فُلاناً وفُلاناً يَعْرِفانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا) أسلوب نفي يشير إلى جهلهم بأمور الدين، والظن هنا بمعنى الاعتقاد، وقوله (فلانا فلانا) كناية عن الرجلين، ونفي العرفان يشير إلى جهلهما أو نفاقهما، ونسبة الدين لضمير المتكلم العائد على الرسول ﷺ (ديننا) يشير إلى أنه لم يعتبر الإسلام دينا لهما فلم يقل من دينهم، و قَالَ اللَّيْثُ بن سعدٍ أحَدُ رُواة هَذَا الحديثِ: هذانِ الرجلانِ كانا من المنافِقِينَ.

المضامين الدعوية

أولاً: من واجبات الداعية: بيان حقائق المنافقين وأهل الباطل للحذر منهم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ترخيص الإسلام في غيبة المنافقين، والمخادعين للحذر منهم.

أولاً- من واجبات الداعية: بيان حقائق المنافقين وأهل الباطل للحذر منهم:

لقد جاء في الحديث بيان رسول الله ﷺ عن حقائق بعض المنافقين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا

---

(١) برقم (٦٠٦٧).

(٢) هذه الزيادة من المؤلف.

شيئًا"، قال ابن حجر، مثل هذا الذي وقع في الحديث ليس من الظن المنهي عنه، لأنه في مقام التحذير من مثل ما كان حاله كحال الرجلين، والنهى إنما هو عن الظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وقد قال ابن عمر: إنا كنا إذا فقدنا الرجل في عشاء الآخرة أسأنا به الظن، ومعناه أنه لا يغيب إلا لأمر سيء إما في بدنه وإما في دينه[١]، وإنما كان من آداب الداعية بيان حقائق المنافقين لأجل أن يحذر الناس فسادهم فلا يغتروا بهم، فكم من إنسان طليق اللسان فصيح البيان إذا رأيته يعجبك جسمه وإن يقل تسمع لقوله، ولكنه لا خير فيه، فالواجب بيان حاله[٢]، فمن أشر الناس على الإسلام والمسلمين، المنافقون فهم ينتحلون نِحَلاً شتى، ويدعون أنهم مسلمون، ويسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، ويَدَّعون كذلك أنهم ما فعلوا، ويحرصون بشتى المعاذير[٣].

ولقد اهتم القرآن بشأن المنافقين وبيان حقائقهم وإظهار خطاياهم ليَحْذَرْهم المؤمنون، وأنزل الله سورة كاملة باسمهم وهي سورة المنافقون، وفي أول سورة البقرة تحدث القرآن عن المؤمنين في ثلاث آيات، والكفار في آيتين، أما المنافقون فقد استغرق الحديث عنهم ثلاث عشرة آية، وذلك لبيان مدى خطورتهم.

"إن من يتتبع تاريخ الإصلاح في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويجد أن المنافقين هم أضر عليها من أعدائها الكافرين، ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم، وأكثر من ذكر فضائحهم ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، فهم عدو الأمة اللدود وداؤها العضال، وهم طريق نكبتها، وسبب استبعاد العدو لها وشقائها في هذه الحياة[٤].

إن المنافقين دائمًا في كل أمة لا يُؤمن جانبهم، والنفاق لا تنكر مضاره ولا يستهان

---

(١) فتح الباري ٥٠١/١٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦١٠/٢.

(٣) دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي، وسبل علاجها، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٨٨.

(٤) انظر: دعوة الرسل إلى الله تعالى، الشيخ محمد أحمد العدوي، ٤٧٠.

بها، فالنفاق والمنافقون سوس ينخر في عظام الأمم، وثغر تؤتى من جانبها.

إن مضار النفاق على صاحبه كثيرة منها:

أ- المنافق لا يقبل الله منه عملاً صالحًا.

ب- المنافق مريض القلب يفرح إذا أصاب المسلمين ضر، ويحزن إذا انتصروا، ويتربص بهم الدوائر.

ج- المنافقون بخلاء، ولكن ينفقون أموالهم رئاء الناس.

د- المنافق ضال باعتقاده وعلمه وعمله.

هـ- المنافقون والمراءون يتعذبون بأموالهم في الدنيا والآخرة.

و- الشدائد والمحن سرعان ما تظهر المنافق على حقيقته.

ز- المنافقون يلتمسون أدنى الأعذار للقعود عن الجهاد.

ح- المنافقون في كل مكان وزمان إخوة للكافرين والمشركين والملحدين يشدون أزر بعضهم.

ط- النفاق والرياء يوردان أصحابهما المهالك في الدنيا، وغضب الله وأليم عقابه في الآخرة.

ي- وهو محبط للأعمال مهما كثرت[1].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: ترخيص الإسلام في غيبة المنافقين، والمخادعين للحذر منهم:

جاء في الحديث ما يدل على ذلك، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شيئًا"، وقد ذكر العلماء ستة أسباب شرعية لجواز الغيبة، منها تحذير المسلمين من الشر وغير ذلك، قال النووي: اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب: منها: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه منها: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلمًا، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب،

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم ١١/٥٦٣٠.

إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه[1]، فأظهر تلك الأسباب وأولاها بالبيان النفاق، وذلك أن حركة النفاق أخطر حركة على الإسلام فهو جاسوسية تعايش المسلمين في المساجد وفي الحروب وفي الأسواق وفي دور العلم وفي المنازل[2]، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقون، وذكرهم في سورة النور، وغيرها من السور تعريفًا لأحوالهم لتجتنب، ويجتنب من تلبس بها أيضًا[3]، من تلك النصوص قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾[4]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[5].

إن النفاق هو داء الجماعات في السلم وفي الحرب، فالمنافقون في الحرب يخذلون، ويبثون روح التردد، والتشكيك في الدعوة، والدعوة إلى الأثرة، والجهاد إيثار، وإلى الحرص، والجهاد فداء، وإلى مُتَع الدنيا، والجهاد رهبانية إيجابية، يدفع إلى الحياة العاملة المكافحة.

أما في السلم، فإنهم يشككون في تصرفات الأبرار المخلصين، ليوهموا الناس، أن كل الناس مثلهم، ليس فيهم أخيار منزهون، وأبرار متقون.

فهم يلمزون كل عمل صالح، ويوهنونه، ويثيرون الريب، وإن اتقاهم بعدم السماع

---

(١) انظر: رياض الصالحين، النووي، ص٥٢٥-٥٢٧، الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي، ضبط: أحمد الشامي، ص٢٨٣-٢٨٤، وانظر ص وما بعدها من هذا المجلد.

(٢) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني، د. رءوف شلبي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ص ٣٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٧٣/١.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٨-١٠.

(٥) سورة النساء، آية: ١٤٢.

لهم، فهم أثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبي ﷺ، ويقول سبحانه في ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[1].

وقد بين الله تعالى للأمة كلها مصارف الصدقات، حتى لا يماري منافق وليطمئن كل مؤمن، وقد وزعها سبحانه توزيعًا فيه التكافل الاجتماعي الكامل.

والمنافقون يؤذون النبي ﷺ، ويؤذون كل داعية للخير، لأنهم والخير نقيضان، إذا كشف أمرهم لا يقولون: كشف الله تعالى سرهم، بل يقولون: إن النبي ﷺ، يسمع أخبارهم، ويتعرف أسرارهم، وأن له من يسعى عليهم، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

والمنافق دائمًا كثير الحلف بالله لضعفه النفسي، إذ النفاق منشؤه ضعف النفس لا مجرد إرادة النفع، فهو يحلف لستر موقفه، ولأنه مهين يريد رضا من ينافق معهم، ويخشى أن ينفضح سره، ويعرف أمره.

وإنهم مع كفرهم، وعدم إذعانهم للحق لفرط ضعفهم؛ يخشون أن تنزل سورة تكشف حالهم.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[3].

ومع هذا الهلع من أن يكشف سترهم يحادُّون الله ورسوله، ويستهزئون بآيات الله تعالى، ويتخذونها في مجامعهم هزؤا وسخرية.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦١.

(٣) سورة التوبة، آية: ٦٤.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

والمنافقون أشرار قد استمكن الشر في نفوسهم، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل، والضوء يكشفها، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم، يوقعهم في رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر أختها، حتى يستمرئوا الشر، ويكون دينهم، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل إليه خير، ولا ينضح منه ومن اللسان الا الشر، ولذلك قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم، وأنه عقاب الذين من قبلهم، وكانوا أشد قوة، واستمتعوا بالشر، ونالوا من الدنيا، وخاضوا في أهل الإيمان مثل الذين خاضوا.

ويضرب الله تعالى الأمثال من قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، والمؤتفكة، فإن هؤلاء كفروا برسلهم، وكان النفاق والمنافقون من ورائهم، والنفاق غذاء الجحود، إذ يدفع الجاهلين إلى الكفر والعناد.

وفي مقابل ما توعد الله به المنافقين كان وعد الله تعالى للمؤمنين.

وإذا كان النفاق يفعل في الجماعات ذلك الفعل، فإن جهاده يكون في مرتبة جهاد الكفر، بل يكون قبل جهاد الكفر، وذلك لأن الكفر لا يستغلظ سوقه إلا بالنفاق، والمنافقون هم الذين يفسدون العقول فيصورون الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا، ولهذا أمر الله تعالى نبيه الكريم، وأمته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3].

ويبين سبحانه وتعالى ما يفعله المنافقون في الجماعات الإسلامية، ووجوب جهادهم،

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٣) سورة التوبة، آية: ٧٣

وذلك الجهاد يكون بألا يسمع لقولهم،ولو كانوا يحلفون، فذلك دأبهم يقولون وينكرون ما يقولون، ويحلفون أنهم ما قالوا، ومن جهادهم ألا يخوضوا في خوضهم، ومن جهادهم ألا يمكنهم من الجماعات الإسلامية.

وقد ذكر سبحانه أمارات النفاق أو بعضَها، وأولُها الكذب، وثانيها نقض العهد، والشح على الخير، ويقول:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1].

أي إنهم في نفاق مستمر، نافقوا عندما أعطوا العهد، ولما اختلفوا زاد نفاقهم بسبب أنهم يكذبون، ويكذبون على الله سبحانه وتعالى، وهو يعلم سرهم وما يتجاوبون به بينهم، وإن المرء إذا سار في الشر أوغل فيه، وكلما سار زاد فسادًا.

وإنهم لا يكتفون بأن يشحوا على الخير، بل يتجاوزون ذلك إلى أن يلمزوا في القول موهنين شأن الذين يتصدقون الصدقات المفروضة، ويتطوعون بأكثر مما فرض، وهكذا يكون أهل الخير فريسة، أهل النفاق يصغرون أعمالهم، ويهجنون ما يكون منهم، ويستضحكون من أعمالهم، ولكن: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2][3].

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ٨٢.

(٣) خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، ٢/١٤٣٨-١٤٤١.

الحديث رقم (١٥٣٥)

١٥٣٥- وعن فاطمة بنتِ قيسٍ رضي الله عنها، قالت: أتيت النبيَّ ﷺ، فقلتُ: إنَّ أَبَا الجَهْم وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **((أمَّا مُعَاوِيَةُ، فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ، وأمَّا أبُو الجَهْمِ، فَلاَ يَضَعُ العَصَا**[1] **عَنْ عَاتِقِهِ))** متفق عَلَيْهِ[2].

وفي رواية لمسلم[3]: **((وَأمَّا أبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ لِلنِّساءِ))** وَهُوَ تفسير لرواية: **((لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ))** وقيل: معناه: كثيرُ الأسفارِ.

ترجمة الراوي:

فاطمة بنت قيس: هي فاطمة بنت قيس بن خالد بن وهب القرشية الفهرية، أخت الضحاك بن قيس الصحابي وكان أميرًا لمعاوية، وكانت فاطمة أكبر منه بعشر سنين.

أسلمت بمكة، وهاجرت، فكانت من المهاجرات الأول[4] وكانت ذات جمال وعقل وكمال ونُبْل. كانت متزوجة من أبي عمر بن حفص المخزومي فطلقها، فجعلت أمرها إلى النبي ﷺ فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم الفهري. ثم جاءت تخبره أن معاوية وأبا الجهم خطباها، فقال لها كما هو في الحديث المذكور، ثم أمرها أن تنكح أسامة بن زيد فقال لها: ((انكحي أسامة بن زيد))[5]. ولكونها حسيبة نسيبة كرهت وكره أهلها ذلك. فقال لها رسول الله ﷺ ناصحًا: ((طاعة الله وطاعة رسوله خير لك))[6] فأطاعت، وقالت لأهلها: لا أنكح إلا الذي دعاني إليه رسول الله ﷺ[7].

---

(١) لفظ مسلم: (عصاه).

(٢) أخرجه مسلم (٣٦/١٤٨٠) ولفظه بتقديم معاوية على أبي جهم. وهو من أفراد مسلم ولم يخرجه البخاري كما في الجمع للحميدي (٢٨٠/٤، رقم ٣٥٣٥).

(٣) (٤٧/١٤٨٠) ولفظه: (وأما أبو جهم فرجل ضرّاب للنساء).

(٤) صحيح مسلم (١١٩-٢٩٤٢).

(٥) أخرجه مسلم (٣٦-١٤٨٠).

(٦) أخرجه (٤٧-١٤٨٠).

(٧) أخرجه أحمد ٤٣٢/٦ رقم ٢٧٧٣٣، وقال محققوه: حديث صحيح ١٢٦/٤٥.

فنكحته فقالت: فجعل الله فيه خيرًا واغتبطت به[١]. وقالت: فشرفني الله بأبي زيد وكرَّمني الله بأبي زيد[٢] [كنية أسامة] وفي طلاقها ونكاحها بعدُ سنن كثيرة مستعملة كما قال ابن عبدالبر، وهي التي انفردت برواية قصة الجسّاسة المطولة[٣] [وهي التي تتجسس الأخبار للدجال].

وقد اجتمع أهل الشورى في بيتها لما قتل عمر بن الخطاب، يختارون خليفة للمسلمين.

توفيت في خلافة معاوية بن أبي سفيان[٤].

غريب الألفاظ:

الصعلوك: الفقير[٥].

فلا يضع العصا عن عاتقه: العاتق: هو ما بين العنق والمنكب والمراد هنا: كثير الأسفار أو كثير الضرب للنساء وهذا أصح[٦].

الشرح الأدبي

من الأمور التي تبيح للإنسان غيبة إنسان المُشَاوَرَةُ في مُصاهَرَةِ إنْسانٍ أو مُشاركتِهِ، أَوْ إيداعِهِ، أَوْ مُعامَلَتِهِ، أَوْ غيرِ ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِهِ، ويجبُ عَلَى المُشَاوِرِ أنْ لا يُخْفِيَ حَالَهُ، بَلْ يَذْكُرُ المَسَاوِئَ الَّتي فِيهِ بِنِيَّةِ النَّصِيحَةِ، وهو ما يوضحه هذا الحديث توضيحا عمليا خلال فعل الرسول ﷺ، في رده على سؤال فاطمة بنت قيس رضي الله عنها – (إنَّ أَبَا الجَهْمِ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي؟) استفهام غرضه الاسترشاد، والمشاورة فرد عليها بقوله (أمَّا مُعَاوِيَةُ،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦-١٤٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩-١٤٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (١١٩-٢٩٤٢).

(٤) الطبقات (٢٧٣/٨) والاستيعاب ٩٢٩، وأسد الغابة (٢٢٤/٧)، والإصابة ١٧٤٦، والسير (٣١٩/٢)، وتهذيب الكمال (٥٦٣/٨)، والتهذيب (٦٨٥/٤).

(٥) اللسان في (ص ع ل ك).

(٦) انظر: شرح مسلم ٩٣٧.

فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ) وأما تفصيلية لبيان حال كل منهما بما فيه والصعلوك الفقير، وقوله بعده (لا مال له) توكيد معنوي أو بيان لقوله صعلوك ولذلك فصلت عنها ولم تعطف عليها بالواو لأن العطف يقتضي المغايرة، وهما كالشيء الواحد لكمال الاتصال بين الجملتين، وقوله (وأمَّا أَبُو الجَهْمِ، فَلاَ يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ) كناية عن ضربه للنساء، ويؤكده رواية مسلم (وَأمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ لِلنِّساءِ) وضراب صيغة مبالغة من الضرب وهو ما تشق معه الحياة، وَهُوَ تفسير لرواية :(لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ) وقيل كناية عن كثرة أسفاره كما تقول لا يضع رحله.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية سؤال أهل العلم والفضل واستشارتهم في بعض الأمور.

ثانيًا: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح وعدم المجاملة في الحق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية سؤال أهل العلم والفضل واستشارتهم في بعض الأمور:

إن المسلم ينبغي عليه السؤال والاستيضاح عما يشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات وأمور المعاملات وطرق الخير وأبواب البر، وما يلحق بها من الأمور حتى يكون على بصيرة من أمره، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إلى رسول الله ﷺ في كل ما يعنُّ لهم [2]، حتى في اختيار الأزواج، كما جاء في الحديث: "عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ قلت: إن أبا الجهم ومعاوية خطباني؛ فقال رسول الله ﷺ: أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا على عاتقه"، وفي ذلك دليل على أهمية الاستشارة خاصة في القضايا المصيرية كالزواج وغيره، قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[3]، ووصف الله المؤمنين

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص١٧، ١٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

بالشورى وانتهاجهم لها في حياتهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١]، أي: أنهم لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم وصدق تآخيهم في إيمانهم وتحابهم في الله تعالى[٢].

والشورى إنما تكون في كل أمر لم يرد فيه نص، قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وأما ما ورد فيه نص فلا رأي فيه، قال تعالى آمرًا نبيه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٣]. وامتدح المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٤].

إن الحق سبحانه يعلم أن القرار المصيري تتحمل تبعته الأمم، وأحيانًا لا يتحمل أولوا الأمر من آثار القرارات شيئًا، ولذلك أوجب الإسلام مشورة أهل الحل والعقد، في كل أمر يتعلق به مستقبل الأمة، تبصرة للحاكم، وحدًا من غلوائه وسلطانه، وحتى لا يتحول إلى مستبد يقول ما قاله غيره ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٥].

وقد وضع الإسلام آدابًا لذلك، فلا يجوز إبداء الرأي فيما يجهل الإنسان، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٦]. ولا إبداء الرأي بهدف التضليل أو الغش، ولا فيما ورد فيه نص بالحل والحرمة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٧] مع وجوب النصح لأولي الأمر، وفي

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٢) محاسن التأويل، الإمام القاسمي، مج٨/١٤/٢١٧.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٤) سورة الشورى، آية: ٣٨.

(٥) سورة القصص، آية: ٣٨.

(٦) سورة الإسراء آية: ٣٦.

(٧) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

الحديث عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: ((الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم))(١)(٢).

ولقد كان رسول الله ﷺ في حياته وإدارته للأمور وشئون الحياة مثالاً حيًا للشورى وحياته ﷺ مليئة بالنماذج العملية والتطبيقية لمبدأ الشورى، من ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه: « أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ شَاوَرَ، حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ. قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا. قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّىٰ نَزَلُوا بَدْرًا، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ، وَفِيهِمْ غُلاَمٌ أَسْوَدُ لِبَنِي الْحَجَّاجِ، فَأَخَذُوهُ. فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْحَابِهِ؟ فَيَقُولُ: مَا لِي عِلْمٌ بِأَبِي سُفْيَانَ. وَلٰكِنْ هٰذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، فَإِذَا قَالَ ذٰلِكَ، ضَرَبُوهُ. فَقَالَ: نَعَمْ، أَنَا أُخْبِرُكُمْ، هٰذَا أَبُو سُفْيَانَ. فَإِذَا تَرَكُوهُ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: مَا لِي بِأَبِي سُفْيَانَ عِلْمٌ. وَلٰكِنْ هذَا أَبُو جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ فِي النَّاسِ، فَإِذَا قَالَ هٰذَا أَيْضًا ضَرَبُوهُ، وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَىٰ ذٰلِكَ انْصَرَفَ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ، وَتَتْرُكُوهُ إِذَا كَذَبَكُمْ». قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «هٰذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ» قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ، هٰهُنَا وَهٰهُنَا. قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ، عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ»(٣).

كذلك سار على نهجه ﷺ الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من سلفنا الصالح، فعن ميمون بن مهران قال: «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم ٥٥.

(٢) انظر: المدخل إلى دراسة النظم والثقافة الإسلامية، د. بكر زكي عوض، ص١٥٠، ١٥١.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٧٩.

وعلماءهم واستشارهم »[١].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «الرجال ثلاثة: رجل يَرِدُ عليه الأمور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدًا ولا يطيع مرشدًا»[٢].

وقال علي رضي الله عنه نعم المؤازرة المشاروة، وبئس الاستعداد الاستبداد[٣].

قال عمر بن عبدالعزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحًا بركة، لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم[٤].

إن في رجوع فاطمة بنت قيس لرسول الله ﷺ لاستشارته في اختيارها للزواج يعطينا الدلالة على أنه لا ينبغي أن يرجع بالأمر والشورى إلا لأهل الفضل، والخبرة ومن توافرت فيهم شروط الاستشارة والنصح، قال الإمام الماوردي:

وقد اشترطوا لأهلية المستشار شروطًا خمسة:

أ- عقل كامل مع تجربة سالفة، قال أبو الأسود الدؤلى:

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ... وما كلّ مؤتٍ نصحه بلبيب

ولكن إذا ما استجمعا عند واحدًا ... فحقٌ له من طاعة بنصيب[٥]

ب- أن يكون ذا دين وتقى، فقد ورد في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما، من أراد أمرًا فشاور فيه امرأً مسلمًا وفّقه الله لأرشد أموره.

ج- أن يكون ناصحًا ودودًا، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى.

د- أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وغم شاغل، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر.

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ج١٣/٣٥٤.

(٢) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٦٠.

(٣) المرجع السابق ٢٦١.

(٤) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٦٠.

(٥) السحر الحلال، قافية الألف ٢٥/١.

هـ- ألا يكون له في الأمر المستشار فيه غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاد، والرأى إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد"[١].

واستشارة أهل العلم والخبرة من دلائل الفطنة، وقد أمر الله رسوله بالشورى لتقتدي به أمته، قال القرطبي، قال الحسن البصري والضحاك ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده، ولله در القائل:

شَاوِر صديقَكَ في الخفَي المُشْكل ... واقبَل نصيحَةَ ناصِح مُتَفضِّلِ

فاللهُ قد أَوْصَى بذاكَ نَبِّيهُ ... في قوله: شاوِرْهُمْ وتَوكّلِ[٢]

ولقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يعمدون إلى أهل العلم والدراية والفقه والفطنة والقدرة على استنباط الأحكام، وإنهاء القضايا وحل المعضلات، ومن أمثلة ذلك ما كان يفعله من إدناء القراء والعلماء منه ومشاورتهم، ومن أدلة ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدِمَ عيينة بن حصنِ بن حذَيفةَ بن بدر فنزلَ على ابن أخيه الحرِّ بن قيس بن حصن. وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمرُ، وكان القراء أصحابَ مجلس عمرَ ومشاورَته كهولاً كانوا أو شُبانًا. فقال عيينة لابن أخيهِ: يا ابنَ أخي هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأمير فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباسٍ فاستأذنَ الحر لعيينة، فلما دخل قال: يا ابنَ الخطاب، والله ما تعطينا الجزْل، وما تحكمُ بيننا بالعدل. فغضبَ عمرُ حتى همَّ بأن يقع به، فقال الْحرُّ: يا أَميرَ المؤمنين، إنَّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٣] وإنَّ هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزَها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عندَ كتاب الله»[٤].

(١) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، مج٢/٤/١٥٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٤) أخرجه البخاري، ٤٦٤٢.

ثانيًا- من واجبات الداعية: البيان والإيضاح وعدم المجاملة في الحق:

إن من أهم واجبات الداعية البيان وتوضيح الحقائق للناس ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[١]، دونما مجاملة أو خشية من أحد، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٢]، ففي هذه الآية يمدح تعالى: "الذين يبلغون رسالات الله" أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، "ويخشونه" أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، "وكفى بالله حسيبا" أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا. وسيد الناس في هذا المقام – بل وفي كل مقام-محمد رسول الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فقد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٣]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدى المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم[٤].

والحديث يضرب لنا أنموذجًا تطبيقيًا ومثلاً حيًا لما ينبغي أن يكون عليه الداعية" فعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت إن أبا جهم ومعاوية بن أبي سفيان خطباني، فقال رسول الله ﷺ أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه"، قال النووي: وفيه دليل على جواز ذكر الإنسان بما فيه عند المشاورة، وطلب النصيحة، ولا يكون هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٤٢٧/٦.

الواجبة[1]، وقال ابن عثيمين: (ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا جاءك يستشيرك في شخص فذكرت عيوبه فلا بأس، لأن هذا من باب النصيحة، وليس من باب الفضيحة، وفرق بين من يغتاب الناس ليظهر مساوئهم ويكشف عوراتهم، وبين إنسان يتكلم بالنصيحة)[2]، لذا ينبغي ألا يستشار إلا من عرف بالأمانة والإخلاص والعلم[3]، والقوة في الحق.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٩٣٧.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦١١/٢.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٢٤٤٠/٦.

الحديث رقم (١٥٣٦)

١٥٣٦- وعن زيد بن أرقم ﷺ قَالَ: خرجنا مَعَ رسُولِ الله ﷺ في سَفَرٍ أصَابَ النَّاسَ فيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عبدُ اللهِ بن أُبَيّ لأصحابه: لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا[1]، وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ بذلِكَ، فَأرْسَلَ إلَى عبدِ الله بن أُبَيّ[2]، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ: مَا فَعلَ، فقالوا[3]: كَذَبَ زيدٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَوَقَعَ في نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّى أنْزلَ اللهُ تَعَالَى تَصْدِيقِي: ﴿إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ﴾ ثُمَّ دعاهُمُ النبيّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ. متفق عَلَيْهِ[4].

ترجمة الراوي:

زيد بن أرقم: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٤٦).

غريب الألفاظ:

حتى ينفضوا: حتى يتفرقوا[5].

فاجتهد يمينه: أي: بذل ما وسعه في الحلف[6].

فلووا رؤوسهم: أمالوا رؤوسهم من جانب إلى جانب وهو مثل لترك المكارم أو الرَّوَغان عن المعروف وإيلاء الجميل[7].

الشرح الأدبي

الشدائد تبين معادن الناس، وتميز منافقهم من مخلصهم، وهذا الحديث يحكي

---

(١) عندهما زيادة: (من حوله).

(٢) عندهما زيادة: (فسأله).

(٣) لفظ مسلم: (قال).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٠٣)، ومسلم (٢٧٧٢/١) واللفظ له.

(٥) القاموس المحيط في (ف ض ض).

(٦) الوسيط في (ج هـ د).

(٧) النهاية في (ل و ى).

موقفا من مواقف الشدة الكثيرة التي مرت بالمؤمنين، ومحّصتهم، وخلّصتهم مما اختلط بهم من زخم المنافقين، وقول الراوي (خرجنا مَعَ رسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ أصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ) التعبير بالخروج يفيد مفارقة الموطن الذي هو مظنة الأمن، وكفاية الحاجة، واتصال الفعل بضمير الجماعة يشير إلى أنهم كثيرون، ويؤكده لفظ الناس، والتعبير بالإصابة يدل على التحقق بدلالة الفعل، وبصياغته في الماضي كما أن التعبير بالإصابة يشير إلى شدة الأثر، والتعبير بالشدة يقرر صعوبة هذا الأثر، وقول المنافق عبد الله بن أبي (لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رسولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) فيه نهي عن التعاون في وقت الشدة رغبة في تفريق الناس عن رسول الله، وقد بيَّن الغاية بقوله (حتى ينفضوا) والطباق بين الأعز، والأزل يبين المفارقة في القلب المنكوس الذي يظهر عكس ما يبطن، والأعين السقيمة التي رأت العز ذلا، ورأت الذل عزا، ،وقول زيد بن أرقم (فَأخْبَرْتُهُ بذلِكَ) يشير إلى أنه لم ينهه عن الغيبة في هذا الموطن بدليل قوله (فَأرْسَلَ إِلَى عبدِ الله بن أُبَيٍّ) ولكن المنافق كذاب معتاد (فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ: مَا فَعلَ) وهذا حال المنافقين في كل زمان يخدعون الناس، ويلبسون عليهم أمرهم وقوله (فقالوا: كَذَبَ زيدٌ رَسُولَ الله ﷺ) اتصال واو الجماعة بفعل القول يشير إلى أن تكذيبه غلب علب اعتقاد الناس، وأن خداعه تمكن منهم وكون الكذب على رسول الله ﷺ يزيد الأمر شدة عليه مما أحزن زيد (فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ) والتعبير بالوقوع يوحي بقوة الأثر وامتلأ القلب بالحزن من اعتقادهم كذبه حتى جاءه الفرج من عند الله في سورة تفضح كيد المنافقين وتؤكد صدقه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم -على مصاحبة النبي ﷺ- في السفر وتحملهم للشدائد.

ثانيًا: من أصناف المدعوين: المنافقون.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: موقف المنافقين من الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وتحريضهم على عدم الإنفاق.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: تكذيب المنافقين للمؤمنين وتبرئة الله تعالى للمؤمنين وكشف حقيقة المنافقين.

خامسًا: من مهام الداعية: التبين والتحقق.

أولاً- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم -على مصاحبة النبي ﷺ- في السفر وتحملهم للشدائد:

ورد في الحديث ما يدل على ذلك، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، في سفر أصاب الناس فيه شدة" يدفعهم إلى ذلك حبهم لنصرة الإسلام وحبهم لرسول الله ﷺ، وسيرة الصحابة رضي الله عنهم، حافلة بالأدلة والشواهد على مدى تحمل الصحابة الشدائد مع رسول الله ﷺ من ذلك ما روى عن قيس قال: سمعت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: "إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزوا مع النبي ﷺ، ومالنا طعام إلا ورق الشجر حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة"[1]، وذلك من دلائل محبة رسول الله ﷺ، وقد ذكر الله السفر والجهاد مقرونًا بحبه سبحانه وحب رسوله ﷺ دليل على أنه أظهر العلامات على ذلك الحب، لأنه هو المحك الذي يتجلى فيه صدق هذا الحب وإيثاره على غيره من المحاب التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]،[3].

ثانيًا- من أصناف المدعوين: المنافقون:

أشير إلى ذلك الصنف في حديث: "لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا

---

(١) أخرجه البخاري ٣٧٢٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٤.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٠/٢٤٢.

من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ..."، والمنافقون لهم من الخطورة ما لا يخفى على أحد، فهذا الصنف من البشر لهم نفسيات معقدة ومتعفنة، يتولد منها أدواء وعلل خطيرة وكثيرة، تحتاج إلى وقفات وعلاج، فهم ينتحلون نحلا شتى، ويدعون أنهم مسلمون ويسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، ويدعون كذلك أنهم ما فعلوا ويعتذرون بشتى المعاذير[1]. لذا حرص القرآن على إظهار مساويهم وكشف خباياهم وما يكنونه من شر وضرر وما تنطوي عليه قلوبهم من مرض، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[2]، وهم مخادعون مراءون متكاسلون عن العبادة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

إن النفاق هو داء الجماعات في السلم وفي الحرب، فالمنافقون في الحرب يخذلون، ويبثون روح التردد، والتشكيك في الدعوة، والدعوة إلى الأثرة، والجهاد إيثار، وإلى الحرص، والجهاد فداء، وإلى متع الدنيا، والجهاد رهبانية إيجابية، يدفع إلى الحياة العاملة المكافحة.

أما في السلم، فإنهم يشككون في تصرفات الأبرار المخلصين، ليوهموا الناس، أن كل الناس مثلهم، ليس فيهم أخيار منزهون، وأبرار متقون.

فهم يلمزون كل عمل صالح، ويوهنونه، ويثيرون الريب، وإن اتقاءهم بعدم السماع لهم فهم أثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبيﷺ، ويقول سبحانه في ذلك: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) انظر: دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، ص ٨٨-٩٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠.

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٢.

رَٰغِبُونَ ﴾[١].

إن المنافقين أشرار قد استمكن الشر في نفوسهم، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل، والضوء يكشفها، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم، يوقعهم في رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر أختها، حتى يستمرئوا الشر، ويكون دينهم، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل إليه خير، ولا ينضح منه ومن اللسان إلا الشر، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢][٣].

وغير ذلك من الصفات المنكرة، لذا كانت عناية القرآن والسنة بكشفهم[٤]، وإظهار خلالهم للمسلمين حتى يأخذوا الحيطة والحذر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: موقف المنافقين من الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وتحريضهم على عدم الإنفاق:

قال عبدالرحمن الميداني: إن المنافقين صنيعة اليهود ليجعلوهم جيشًا داخليًا معاديا للإسلام والمسلمين، ويغزوهم بعوامل النفاق ليخذلوا عن الرسول ﷺ وقت الأزمات[٦]، والحديث يسجل موقفًا من مواقف هؤلاء اللئام، "فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبدالله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَّن الأعزُ منها

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٣) خاتم النبيين، الشيخ محمد أبو زهرة، ٢/١٤٣٨، ١٤٣٩.

(٤) انظر: فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٦٦-٧٠.

(٥) سورة النساء، آية: ٧١.

(٦) انظر: مكايد يهودية عبر التاريخ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ص ٩٣-٩٤.

الأذل"، وقد سجل القرآن تلك المواقف ليجعلها المسلمون نصب أعينهم، يعرفون بها من والاهم ممن عاداهم، ومحبيهم من مبغضهم، قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾[1]، وذلك لإبعادهم عن تلقي الهدى النبوي، وعن أن يتقوى بهم المسلمون، ولتفرقهم بغية إضعاف قوى المسلمين، وبين الله سبحانه أن المنافقين لا يدركون دقائق المدركات وخفاياها[2]، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[3]، ألا ما أجدر بالمسلمين أن يأخذوا حذرهم ويحتاطون من أولئك الذين يسعون بكل شر لأذية المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، متظاهرين مدعين حرصهم على مصلحة الإسلام والمسلمين[4].

وإن من يتتبع تاريخ الإصلاح في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويجد أن المنافقين هم أضر عليها من أعدائها الكافرين.

ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم، وأكثر من ذكر فضائحهم ليحذرنا من التخلق بخلقهم، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم، فالنفاق والمنافقون هم عدو الأمة اللدود، وداؤها العضال، وهم طريق نكبتها وسبب استعباد العدو لها وشقائها في هذه الحياة[5].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: تكذيب المنافقين للمؤمنين وتبرئة الله تعالى للمؤمنين وكشف حقيقة المنافقين:

لقد عنى القرآن بكشف حقائق المنافقين وأخلاقهم التي ينتهجونها مع المسلمين والتي منها أنهم يتهمون المؤمنين بالسفه، والأخلاق الذميمة كالكذب وغيره[6]، قال

---

(١) سورة المنافقون، آية: ٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، سماحة الإمام الطاهر بن عاشور، مج١١/ج٢٨/ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) سورة المنافقون، آية: ٧.

(٤) دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها، عبدالرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي، ص ٨٨.

(٥) دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي، ٤٧٠.

(٦) انظر: فقه الدعوة: د. بسام العموش، ص ٦٦-٧٠.

تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[١]، والحديث يسجل موقفًا عمليًا لذلك، قال زيد بن أرقم: "فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبدالله بن أبي، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كَذَبَ زيدٌ رسولَ الله ﷺ، فوقع في نفسي مما قالوه شدة، حتى أنزل الله تعالى على نبيه تصديقي: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾[٢]، ثم دعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلوَّوْا رءوسهم"، قال النووي: وفي ذلك منقبة لزيد بن أرقم رضي الله عنه وفيه أنه لمن سمع أمرًا يتعلق بالإمام أو نحوه من كبار ولاة الأمور، ويخاف ضرره على المسلمين، أن يبلغه إياه ليتحرز منه[٣].

خامسًا- من مهام الداعية: التبين والتحقق:

إن من أهم صفات المسلمين عامة والدعاة منهم خاصة التبين والتحقق، ولقد أعطانا النبي ﷺ في ذلك الحديث، الأنموذج التطبيقي والمثل الحى لذلك، وذلك من إرساله إلى عبدالله بن أبى وسؤاله عما بلغه به عنه زيد بن أرقم: "فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبدالله بن أبى فاجتهد يمينه ما فعل"، وذلك امتثال لأمر الله بالتثبت قبل إصدار الأحكام واتخاذ القرارات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَن تُصِيبُوا قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[٤]، وسبب نزول الآية: ما روي عن الحارث بن ضرار الخزاعي، قال: « قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلى رسول الله ﷺ رسولاً، لإبان[٥] كذا وكذا ليأتيك ما

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٣.

(٢) سورة المنافقون، آية: ١.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٢٣.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٥) أي مطلع أو وقت كذا.

جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله، فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتًا يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث، ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَقَ فَرَجَع، فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسولَ الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي؟ فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث وفصل من المدينة، لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، ولمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلاّ حين احتبس عليَّ رسولُ رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1]»[2].

لتعرفوا الحق من الباطل، وتقفوا على حقائق الأمور قبل الوقوع في الأخطار[3]، والرسول ﷺ وما صدر منه في الحديث، من تثبت وإرساله إلى عبدالله بن أبى، يدلنا على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة في سياسة الأمور، وتربية الناس، والتغلب على مشاكلهم[4]، وللداعي في ذلك السنن والعبرة والاتعاظ.

---

(١) سورة الحجرات، الآيات: ٦-٨.

(٢) أخرجه أحمد، ١٨٤٥٩، وقال محققو المسند حديث حسن (مسند الإمام أحمد، ٤٠٥/٣٠).

(٣) التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، مج٣/ج٢٦/٥٨.

(٤) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٣٠٧.

الحديث رقم (١٥٣٧)

١٥٣٧- وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قالت: قالت هِنْدُ امْرَأَةُ أَبِي سفْيَانَ للنَّبيِّ ﷺ : إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وولَدِي إلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ؟ قَالَ: ((خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

الشرح الأدبي

الحديث يتناول حالة اجتماعية بين هند امرأة أبي سفيان وبين زوجها تحكيها للرسول ﷺ بغرض بيان الحكم الشرعي، وقد تضمن حديثها غيبة لزوجها في أثناء خطابها للرسول ﷺ ،ولم ينكر عليها صنيعها فهل تباح الغيبة في هذا الموطن ؟، وما سره ؟ هذا ما يعرضه هذا الحديث، وقولها (إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ) وهو حكم مجمل ببخل زوجها تفصله بما بعده، وقد أكدت الكلام بأكثر من مؤكد حملا للمخاطب على الاقتناع بصدقها ووصفه بالشح وهو أشد البخل، وصياغته على فعيل وهي للمبالغة يؤكد شدة البخل والذي فسرته في أسلوب النفي في قولها (وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وولَدِي) وقولها (إلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ ؟) هو موضع الاستفتاء وسبب الغيبة بوصفه بالشح، والذي يكشف سببا من الأسباب التي تبيح الغيبة لأن النبي ﷺ أقرها بالسكوت عنه، وأباح لها أن تأخذ من مال زوجها بالمعروف في قوله (خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ) وقوله بالمعروف تكميل بلاغي وضع حدا للأخذ حتى لا يتخذ الحكم على إطلاقه وتستغله بعض النساء في سلب مال الزوج.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: التنفير من الشح.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤) واللفظ له، ومسلم (٧/١٧١٤).

ثالثًا: من آداب المدعو: الرجوع إلى أهل العلم والفضل.

رابعًا: من أهداف الدعوة: ضمان حق الكفاية للفرد.

أولاً- من موضوعات الدعوة: التنفير من الشح:

إن الشح من ذميم الصفات التي نهى عنها الشرع، وتترفع عنها الفطر السوية، وكما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي"، والشح: حالة نفسية تقتضي منع الإنسان ما في يده أو في يد غيره[1]، بل وقد يصل بحال صاحبه إلى التطلع إلى ما حرم الله حفاظًا على ما يملك، قال ابن رجب الحنبلي: قال طائفة من العلماء: الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنعها من حقوقها، وحقيقته شره النفس إلى ما حرم الله ومنع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحل الله له[2]. وبيَّن الله تبارك وتعالى أن السلامة من الشح علامة الفلاح[3]، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4]، وحذر النبي ﷺ من الشح في أحاديث بلغت حدًا في الكثرة، منها ما روى عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم[5]". فالشح من أسباب الهلاك فهو سبب من أسباب الظلم والبغي والعدوان وسفك الدماء كما أنه يجرئ على المعاصي وفعل السيئات، إضافة إلى ما يورثه من قطيعة الرحم وانفصام عرى المحبة وغير ذلك من الآفات والمضار"[6].

---

(١) الكليات، الإمام الكفوي، ٢٤٢.

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، دراسة وتحقيق أبى مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ٦٩/١.

(٣) انظر: صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب، الإمام ابن القيم، ص ٥٠.

(٤) سورة الحشر، آية: ٩.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٨.

(٦) انظر: موسوعة: نضرة النعيم ٤٦٩٤/١٠.

والشح من أشر الأمور إذا وجدت في إنسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»[١]. وهو من الصفات التي لا تتفق مع الإيمان فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدا وَلاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدا»[٢]. والشح المذموم هو الذي يتعدى صاحبه الحلال إلى ما منع منه وهو مناف للإيمان، وقد قيل إنه رأس المعاصي كلها، أما من اقتصر على ما أبيح له فهو مؤمن[٣].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: فضل النفقة على الزوجة والأولاد:

إن من حقوق الزوجة والأولاد على الزوج والأب الفطرية التي صبغها الإسلام بصبغة دينية الإنفاق، قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾[٥]، وجعل النبي ﷺ الأولوية في الإنفاق على من يعوله الإنسان فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((قال الله عز وجل «يَا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى))[٦].

إن الإسلام ليعتبر الإنفاق على الزوجة والأهل من الصدقات التي يحصد ثوابها إن

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٥١١ واللفظ له، وأحمد ٢/٣٠٢، ٣٢٠، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح ١٦٤/١٥، رقم ٧٩٩٧، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣٠٦/٣) إسناده جيد، وصححه الشيخ الألباني (صحيح سنن أبي داود ٢١٩٢).

(٢) أخرجه النسائي ٢٩٠٠، واللفظ له، وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح (٢١٨/١٣) رقم ٧٤٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢٩١٢).

(٣) شرح حديث "ماذئبان جائعان"، ابن رجب الحنبلي، ص٣١.

(٤) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٥) سورة الطلاق، آية: ٧.

(٦) أخرجه البخاري ٢٥٦٦، ومسلم ١٠٣٠.

احتسب ذلك، فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً»(١).

قال القرطبي: وقوله: إذا أنفق نفقه على أهله أي على زوجته وولده، ومعنى يحتسبها أي يقصد بها ثواب الله تعالى(٢).

وقال النووي: ومعناه إذا أراد بها وجه الله تعالى، فلا يدخل فيه من أنفقها ذاهلاً ولكن يدخل المحتسب وطريقه في الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على الزوجة، وأطفال أولاده، والمملوك، وغيرهم ممن تجب نفقته على حسب أحوالهم، فينفق بنية أداء ما أمر به وقد أمر بالإحسان إليهم(٣).

إن نفقة الإنسان على أهله وأولاده قيام بما كلف من أعباء الرعاية نحوهم وإتيان بما هو مسئول عنه يوم القيامة، روي عن يونس عن الزهري قال: أخبرنا سالم بن عبدالله، عن ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«كلُّكم راعٍ، وَكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ: الإمامُ راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أهلهِ وَهوَ مَسؤولٌ عن رعيَّتهِ، وَالمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوجِها وَمَسؤولةٌ عن رَعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدهِ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ . قال: وَحَسِبتُ أَنْ قد قال: وَالرجلُ راعٍ في مالِ أَبيهِ وَمَسؤولٌ عن رعيَّتهِ، وَكلُّكم راعٍ وَمَسؤولٌ عن رَعيَّتهِ»(٤).

فقوله: "الرجل راع في أهله وقوله ﷺ "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته(٥).

---

(١) أخرجه البخاري ١٤٢٩، ومسلم ١٠٠٢.
(٢) المفهم ٣/٤٣.
(٣) شرح صحيح مسلم ٦٣٩، ٦٤٠.
(٤) أخرجه البخاري ٨٩٣، ومسلم ١٨٢٩.
(٥) شرح صحيح مسلم، النووي، ١١٨٥.

ومن هؤلاء المسئولين الرجلُ ورعايته لأهل بيته وأسرته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، فقد عنى الإسلام بالأسرة عناية خاصة، وجعل منها أساس المجتمع، وحتى يتحقق هدف الإسلام في بناء الأسرة على أساس متين، فقد وزع المسؤولية والأعمال توزيعًا جميلاً، ينتظم به شأن البيت من جهة، كما ينتظم به العمل خارجه من جهة أخرى، مع تحديد الواجبات والمسؤوليات على كل من الرجل والمرأة.

فالرجل راع على أهل بيته، فمن أوجب واجباته أن يسعى ويكد ينهض بالكسب، وما يحتاج إليه البيت من مال ونفقة[1]؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[2]. أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها، ومؤدبها إذا اعوجت ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾، أي لأن الرجال أفضل من النساء، ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيمًا عليها كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[3] الآية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني أمراء عليهن، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله[4].

إن القيام بحقوق الزوجة والأولاد والإنفاق عليهم، له ثماره اليانعة، والنتائج العظيمة، التي ترجع للأهل والأولاد، وللوالد والمجتمع بأسره[5].

---

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. لقمان الأعظمي، ص٣٠٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ج٢/٢٠٥.

(٥) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح بن محمد بن فالح.

ثالثًا- من آداب المدعو: الرجوع إلى أهل العلم والفضل:

إن من آداب المدعو أن يسأل ويستوضح عما خفى أو أشكل عليه من أمور العقيدة والعبادات وأمور المعاملات وغيرها، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، فالأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم، يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعنُّ لهم في شئون الدين، بل في الكثير من شئون الدنيا[٢]، ومن ذلك السؤال عن الإنفاق على الأهل والأولاد، وماذا يحق لهم لو بخل وشح عليهم عائلهم، كما نرى في الحديث في سؤال هند لرسول الله ﷺ: "قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه، وهو لا يعلم؟ قال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"، أى من غير سرف ولا تقتير[٣].

رابعًا- من أهداف الدعوة: ضمان حق الكفاية للفرد:

ذلك ما قرره النبي ﷺ في قوله لهند زوجة أبي سفيان "خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"، قال النووي: في هذا الحديث فوائد منها: وجوب نفقة الزوجة، ومنها وجوب نفقة الأولاد الفقراء الصغار، ومنها أن النفقة مقدرة بالكفاية[٤]، فإن من حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج، وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان[٥]، وذلك يقدر بقدر كفايتهم من القوت والملبس والمسكن وسائر الحاجات الضرورية التي لا يستغنى عنها الإنسان ليعيش، وتلك الكفاية ورعاية الأهل والأولاد،

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) انظر: أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٧-١٨.

(٣) دليل الفالحين، ابن علان، ١٥٩٢.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ١١٠٢.

(٥) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٨.

تقي المجتمع من أن يتعرض للهزات التي تؤثر في كيانه، وتقيه شر التمرد عليه[1].

والنفقة على الأهل والعيال من أوجب النفقات على الإنسان، قال ابن علان: قال القرطبي: النفقة تعم الواجبات والمندوبات[2]، ويستحق كل من سبق في استحقاق دعاء الملك "اللهم أعط منفقًا خلفا"[3].

وضمان حق الفرد في الإسلام لا يقتصر على الزوجة والأولاد، وإنما هو حق كفله الإسلام لجميع أفراد المجتمع وأمر المجتمع بجميع شرائحه وفئاته أن يعملوا بهذا المبدأ على أرض الواقع ولا يقفوا عند مجرد اللافتات والشعارات.

إن من حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

والواجب أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه، عن طريق العمل المشروع، في زراعة أو تجارة أو صناعة، أو احتراف بحرفة نافعة للناس. سواء عمل الإنسان لنفسه أم لغيره بأجر يكافئ جهده.

فإذا لم يكن للإنسان دخل يكفيه، كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه، لأنه جزء منهم، وهم جزء منه، وقد قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[4].

وإن لم يكن له أقارب موسرون، يستطيعون حمله، وجبت كفايته من الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فهي من الأمة وإليها.

ومن الجميل هنا: أن الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للإنسان الفقير، بل لتحقيق تمام الكفاية له، ولمن يعول من أهل وأقربين، فالحد الأدنى المطلوب للفقير في

---

(١) انظر: إسلامنا، السيد سابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ص٢٢٤.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٤٢، ومسلم ١٠١٠.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٧٥.

المجتمع الإسلامي، ليس هو حد الكفاف، ولا حد الكفاية، بل تمام الكفاية.

ولقد ذكر الفقهاء: أن كتب العلم من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية.

بل اعتبروا الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية.

والمطلوب: تمام الكفاية له ولأسرته لمدة سنة كاملة.

بل ذهب الإمام الشافعي - وهو قول في بعض المذاهب الأخرى- إلى وجوب كفاية العمر للفقير، بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرة أخرى. وقد صح عن عمر قوله: "إذا أعطيتم فَأَغْنُوا"، وقوله: "والله لأكررن عليهم الصدقة ولو راح على أحدهم مئة من الإبل". وهذا المقدار - مئة من الإبل- يساوي عشرين نصابًا من أنصبة الزكاة في الإبل.

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال، بل هي الحق الدوري الثابت الذي وصل به الإسلام إلى أعلى درجات الإلزام، فاعتبر إيتاءها من أركان الإسلام الخمسة، وقرنها بالصلاة -عمود الدين- في عشرات المواضع من القرآن والحديث، وفرض أداءها طوعًا وبطيب نفس، وإلا أخذت كرهًا، ولو بقوة السلاح، حتى لا يضيع حق الفقير في تمام كفايته وكفاية أهله. ولا يجهل أحد حروب الخليفة الأول أبي بكر الصديق من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء.

ومع هذا إذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمام الكفاية للفقراء والمساكين، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم، وإن لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، ألزمهم السلطان بذلك باسم الشرع الذي أوجب التكافل بين المسلمين، واعتبرهم كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، وليس بمؤمن من بات شبعانًا وجاره إلى جنبه جائع.

على أن دائرة هذا التكافل ليست مغلقة على المسلمين وحدهم، بل تشمل معهم من يعيش في ظل دولة الإسلام من أهل الذمة.

وقد رأينا عمر الفاروق يأمر خازن بيت المال أن يفرض ليهودي - رآه يسأل الناس- من بيت مال المسلمين ما يكفيه، وجعل ذلك قاعدة له ولأمثاله من أهل الكتاب،

وكتب بذلك عمر بن عبدالعزيز إلى بعض ولاته لينفذه.

كما أن عمر - وهو في طريقه إلى الشام - وجد جماعة مجذومين من النصارى، فأمر بإجراء القوت عليهم من الصدقات.

ثم إن موارد الدولة كلها يجب أن تكون في خدمة هذا الحق -حق الكفاية التامة - إذا لم تكف الزكوات وغيرها. وذلك بحكم مسئولية الدولة عن رعاياها[1].

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٨٨-٩٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير، ومن الشواهد على ذلك في باب ما يباح من الغيبة، قول عائشة رضي الله عنها: «ائذنوا له، بئسَ أخو العشيرة؟»، وقوله ﷺ: «مَا أَظُنُّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا». وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر ... إذا جاءك المنافقون ....».

فهذه تربية بالتحذير من أهل السوء وذوي الأخلاق الرذيلة مع مداراتهم، حيث بيّن الرسول ﷺ في هذين الموقفين ما ينبغي أن يحذره المؤمن في مجال التعامل مع من لا خلاق لهم.

إن التحذير أسلوب تربوي توجيهي لتجنب المعاصي والبعد عن اقتراف ما نهى الله تعالى عنه، كما أن للتحذير أهمية في بيان العقوبة المترتبة على عمل فعل أو تركه والنصيحة وغيرها، والرسول ﷺ لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه من خلاله الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية، حيث اعتمد التحذير كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين، فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين[1].

ثانيًا: التربية على استشارة أهل الفضل والعلم:

من أهداف التربية الإسلامية، الحث على استشارة أهل الفضل والعلم، والشواهد على ذلك في باب ما يباح من الغيبة، ما روي عن فاطمة بنت قيس، قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت: «أَنَّ أَبَا جَهْمٍ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي، فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فضراب للنساء» فهذا توجيه نبوي أراد النبي ﷺ من خلاله غرس قيمة استشارة أهل الفضل والعلم، ومن ثمرات الاستشارة في هذا الموطن أنها جاءت

---

(١) انظر: أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٠.

وقاية من الوقوع في ضرر الزواج ممن لا يناسب هذه المرأة من خلال بيان أسباب ذلك.

إن من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمرًا، ولا يمضي عزمًا إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه ﷺ مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1].

إن المشورة باب رحمة، ومفتاح بركة، لا يضل معها رأي، ولا يعقد معهما حزم: وقال ﷺ: «إسْتَرْشِدُوا العاقِلَ تَرْشُدُوا وَلا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا»[2].

قال الشاعر:

وأجب أخاك إذا استشارك ناصحًا وعلى أخيك نصيحة لا تردد[3]

ثالثًا: التربية على الصدق في النصيحة والتوجيه:

تهدف التربية الإسلامية إلى تربية النفوس على الصدق في القول والفعل والتوجيه، وقد عمل النبي ﷺ على ترسيخ تلك القيمة العظيمة في النفوس، وقد أراد النبي ﷺ أن يوضح أهمية الصدق في النصيحة وأنها لا تعد من الغيبة، إذا كانت لبيان واقع صحيح، أو تحذير من أمر خطير أو غير ذلك من الأسباب التي تباح فيها الغيبة، فعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ فقلت: «إنَّ أَبَا جَهْمٍ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي، فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لاَ مَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ»، فهذا توجيه نبوي رائع ضرب لنا المثل فيه في الصدق في التوجيه، لأنه إرشاد إلى مصلحة، والرسول ﷺ، علمنا في هذا الهدي وربانا على أنه يجوز ذكر الغائب بما فيه من العيوب التي يكرهها، إذا كان للنصيحة، ولا يكون حينئذ غيبة محرمة لأن من استشير لزمه القول بالحق، وأداء النصيحة، وليس ذلك في باب الغيبة لأنه لم يقصد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) مسند الشهاب لمحمد بن جعفر أبو عبدالله، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، تحقيق: محمد عيد الحمد السلفي.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص٩٣.

بذلك لمزه ولاشفاء غيظه منه، فيجب على المسلم والمربي إذا سُئل عن شيء أن يبوح به ولا يكتمه[١].

رابعًا: التربية بالحوار:

من الأساليب التربوية التي حفلت بها التربية الإسلامية التربية بالحوار والرسول ﷺ كان حريصًا على تعليم الصحابة بطريق الحوار، من خلال ما يقومون بطرحه من أسئلة، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح...»، فالرسول ﷺ بين لهند زوج أبي سفيان كيفية تعاملها في الجانب المالي مع زوجها أبي سفيان، حيث وضح ﷺ المقدار الذي ينبغي لها أخذه من مال زوجها، وهو على قدر كفايتها وأولادها، وهذا درس تربوي نبوي في معالجة مثل هذه المشكلات الاجتماعية والأسرية المتعلقة بمسألة الإنفاق والزوجة والأولاد، ليقتدى المعلمون والمربون بهذا الأسلوب في المشكلات الأسرية المتعلقة بهذا الجانب، ويحسن بالقائمين على أمور التوجيه والتربية الذين تعرض لهم مثل هذه المشكلات أن يفيدوا من العلاج النبوي بطريقة تربوية مناسبة تساعد على حل المشكلات حيث قال النبي ﷺ: لهند - زوج أبي سفيان:«خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، كما أن هذا الحوار اتسم بالتدرج حيث بدأ بالمناقشة حول الشح وحول الكفاءة في النفقة والرسول ﷺ أنس من هند رغبة في الحق فتابع السؤال معها، وبين لها الحقائق، وهذا مما امتاز به الحوار النبوي الصريح، والشاهد في الهدي النبوي التربوي أن هند ذكرت زوجها بما لا يعجبه، لكن كان على وجه الاستفتاء وسماع أحد المتخاصمين في حال غياب الآخر، حتى ولو كان هذا الوصف قبيحًا، من هنا نقول: إن أسلوب الحوار الذي دار في هذا الهدي أسلوب ناجح لما فيه من الاستجواب والإقناع[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، ٤٢٠/١. أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ص٢٤٧.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص١٨٧. أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص١٦٨.

٢٥٧- باب تحريم النميمة

وهي نقل الكلام بَيْنَ الناس عَلَى جهة الإفساد

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[ن: ١١] وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الحديث رقم (١٥٣٨)

١٥٣٨- وعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**)).متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

حذيفة بن اليمان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٠٢).

غريب الألفاظ:

نمام: النميمة: نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم[٢].

الشرح الأدبي

الحديث قصير في غاية الإيجاز مع قمة الوفاء بالمعنى في لافتة قصيرة تعجل بالحكم، الذي يقضي بحرمة الجنة على النمام عن طريق (لا) النافية الداخلة على المضارع المستمر بدلالة النفي ن والنمام صيغة مبالغة تدل على كثرة إتيان الفعل الذي صيره فقيرا في الآخرة من الحسنات غنيا بالسيئات التي ألقيت عليه من الذين اغتابهم، فما له إلا النار، وعبارة الرسول ﷺ بهذا الإيجاز تحقق أبعاداً نفسية متعددة منها، المحافظة على نشاط النفس؛ لأن الكلام الموجز غير المخل المؤدي للغرض والموصل للمعنى بأقصر عبارة أدعى للمحافظة على نشاط نفس المتلقي في متابعته وإبعاد السأم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥/١٦٧) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٥٠).

(٢) النهاية في (ن م م)، وشرح صحيح مسلم ١٦٠.

والملل عنها؛ ولذلك نجد البلاغيين يؤكدون على هذا البعد النفسي للإيجاز يقول أبو هلال العسكري: (للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سبباً للملال. ..)[1] ومن مميزات هذه العبارة الموجزة التوسع في الدلالة الإيحائية: وهو من الأبعاد النفسية التي تفيدها ظاهرة الإيجاز، ويتثمل في فتح باب التخيل والاحتمال على مصراعيه أمام المتلقي ليفيد منه بحسب خبرته ويتخيل من الصور والمعاني بحسب ما يمكن أن يخيل عقله مما ينسجم مع حاله، فيخيل إليه أن تلك النميمة ستكون سدا بينه، وبين الجنة، وقد يكون هذا النمام له عمل صالح كأن يكون مصليا ومزكيا وغيره، مع النميمة التي تقف به خارج باب الجنة في حسرة ليس له منها خلاص.

فقه الحديث

تشير الأحاديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم النميمة: أجمعت الأمة على أن النميمة محرمة، وأنها من أعظم الذنوب عند الله[2].

٢-الأحاديث تدل على عظيم ذنب النمام[3].

٣-حكم الاستتار والاستنزاه من البول: الحديث يفيد تحريم ملامسة البول وعدم التحرز منه بالاتفاق. وقد اختلف في إزالة النجاسة هل هي فرض أو لا؟ فقال مالك: إزالتها ليست بفرض وقال الشافعي: إزالتها فرض ما عدا ما يعفى عنه. وهو الراجح كما اختلفوا في عدم الاستتار هل هو من الكبائر أو من الصغائر على قولين: قيل من الكبائر، وقيل من الصغائر، والراجح أنه من الكبائر عند الله، وإن لم يكن بكبير

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى، تحقيق: د. مفيد قميحة، ص٨٠.

(٢) جمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ٥٥٢/٢، الفواكه الدواني ٢٨٠/٢، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٣٤/٢-٣٥، مطالب أولي النهى ٢٠٤/٢-٢٠٥، سبل السلام ٣٤٢/٤.

(٣) سبل السلام ٣٤٢/٤-٣٤٣.

في مشقة الاحتراز منه"[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفى والترهيب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن النميمة وخطر الوقوع فيها.

أولاً- من أساليب الدعوة: النفي والترهيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا يدخل الجنة نمام". حيث نفى دخول النمام الجنة. وهو أسلوب نفى مقرون بالترهيب من النميمة، حيث بين رسول الله ﷺ أن النميمة تكون سببًا في عدم دخول الجنة، وهذا الأسلوب من الأساليب المؤثرة في المدعو، لأن الأخبار بعدم دخول النمام الجنة فيه ترهيب كبير يؤدي إلى زجر النفوس عن ذلك، "وأسلوب الترهيب يقصد به كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"[2].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن النميمة وخطر الوقوع فيها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يدخل الجنة نمام"، قال النووي: قال العلماء: النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم"[3].

وقال الغزالي: ما ملخصه: ينبغي لمن حملت إليه نميمة أن لا يصدق من نمّ إليه، ولا يظن بمن نم عنه ما نقل ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له، وأن ينهاه ويقبح له فعله، وأن يبغضه إن لم ينزجر، وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فينم هو على النمام فيصير نمامًا"[4].

وقد استفاض النقل من الكتاب والسنة في التحذير من النميمة، ورتب على ذلك وعيدًا شديدًا. والنهي عنها معلوم لدى عامة المسلمين، ومع ذلك تجد أن كثيرًا من

---

(١) سبل السلام ١/١٧١-١٧٢.

(٢) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٦٠.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٠/٤٨٨، نقلًا عن الإحياء للغزالي، ٣/١٦٢٧.

الناس لا يتورع عن إطلاق لسانه في أعراض الناس ولحومهم ولكن هو تزيين الشيطان لهم، ليفرق جمعهم ويوغر صدور بعضهم على بعض، فالشريعة جاءت بجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وإحسان الظن بالناس، وقول الحق وطيبه ... والشيطان يسعى إلى تفريق الكلمة، وتنفير القلوب بعضها من بعض، وسوء الظن بالناس وقول الباطل وخبيثه. فعن جابر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[1].

قال النووي: ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن نحوها[2].

والنميمة إحدى بذور الشحناء والخصومات التي بين الناس، والشيطان أخبرنا عنه مولانا أنه عدو لنا، والعدو لا يريد لنا الخير -لاشك في ذلك- وأمرنا أن نعاديه ونحاربه ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

والنميمة من أسلحة إبليس وحزبه، في التفريق بين الناس، وشحن قلوب بعضهم على بعض، وهما من الأدواء التي تهلك الفرد وتفرق الجماعة، فتجعل الفرد من الناس على خطر من أن يناله ما أعده للنمام، وهي تنشئ القطيعة بين الأهل والأقارب وبين الناس[4].

قال الطيبي حكى: أن حكيمًا زاره أحد وأخبره عن غيره بخبر، فقال أبطلت زيارتي، ثم أتيتني بثلاث جنايات: بغضت إلى أخي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة[5].

فالنميمة من أخطر المفاسد بين الناس، وفي المجتمع، وذلك لأنها تؤدي إلى الجفاء والأحقاد والتقاطع بين الناس، فينبغي على المسلم حتى ينال رضا الله ويدخل جنته أن

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٦٤٨.

(٣) سورة فاطر، آية: ٦.

(٤) انظر: كتاب الآداب، فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص١١٩، ١٢٠.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠٢/٩.

يبعد عن النميمة.

قال الشاعر:

تنح عن النميمة واجتنبها ... فإن النم يحبط كل أجرٌ

يثير أخو النميمة كل شر ... ويكشف للخلائق كل سِرٌ

ويقتل نفسه وسواه ظلما ... وليس النم من أفعال حُرٌ[1]

وقال القرطبي: وفيه دليل: على أن النميمة من الكبائر، وإنما كانت كذلك لما يترتب عليها من المفاسد والشرور[2].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم، ٥٦٧١/١١ نقلاً عن موارد الظمآن للشيخ عبدالعزيز السلمان، ٣٨٥/٣.

(٢) المفهم ٣٥٥/١.

الحديث رقم (١٥٣٩)

١٥٣٩- وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بقبْرَيْنِ فقَالَ: ((**إنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبيرٍ! بَلَى (إنَّهُ كَبيرٌ)**[1]**: أمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ، وأمَّا الآخَرُ فكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**)). متفق عَلَيْهِ[2]. وهذا لفظ إحدى روايات البخاري.

قَالَ العلماءُ معنى: ((وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبيرٍ)) أيْ: كَبيرٍ فِي زَعْمِهِمَا. وقِيلَ: كَبيرٌ تَرْكُهُ عَلَيْهِمَا.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

لا يستتر من بوله: لا يتجنبه ويتحرز منه[3].

الشرح الأدبي

قول الراوي (أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بقبْرَيْنِ) يشير إلى مكان له خصوصية لاسيما عند الموعظة، و لفظ القبر من الألفاظ الموحية بطبيعتها بمعانٍ تتقبض لها النفوس لأنه يوحي بالوحشة، والظلمة، وغائب الأهوال، وقول الرسول ﷺ (إنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ) يقرر أنهما في العذاب، وهو خبر يمهد به لما بعده وهو بيان سبب العذاب تحذيرا من التلبث بمثله، وقوله (وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبيرٍ! بلى إنه كبير) إثبات بعد نفي من عبقريته ﷺ في لفت انتباه المخاطب، وزيادة ترقبه مع تقرير معنى جديد، قِيلَ الْمَعْنَى لَيْسَ بِكَبِيرٍ فِي الصُّورَة ؛ لِأَنَّ تَعَاطِي ذَلِكَ يَدُلّ عَلَى الدَّنَاءَة وَالْحَقَارَة، وَهُوَ كَبِير فِي الذَّنْب، وَقِيلَ: لَيْسَ بِكَبِيرٍ فِي إِعْتِقَادهمَا أَوْ فِي إِعْتِقَاد الْمُخَاطَبِينَ، وَهُوَ عِنْد اللَّه كَبِير كَقَوْلِهِ تَعَالَى: " وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْد اللَّه عَظِيم " وَقِيلَ: لَيْسَ بِكَبِيرٍ فِي مَشَقَّة الِاحْتِرَاز أَيْ

---

(١) هذه الزيادة ليست عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٦٠٥٥): (إنه لكبير).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٨) واللفظ له، ومسلم (٢٩٢/١١١)، والسياق للمنذري في ترغيبه (٤١٥١).

(٣) شرح صحيح مسلم ٢٩١.

كَانَ لا يَشُقّ عَلَيْهِمَا الِاحْتِرَاز مِنْ ذَلِكَ، وَقِيلَ لَيْسَ بِكَبِيرٍ بِمُجَرَّدِهِ، وَإِنَّمَا صَارَ كَبِيرًا بِالْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهِ، وَيُرْشِد إِلَى ذَلِكَ السِّيَاق فَإِنَّهُ وَصَفَ كُلًّا مِنْهُمَا بِمَا يَدُلّ عَلَى تَجَدُّد ذَلِكَ عَنْهُ وَاسْتِمْرَاره عَلَيْهِ لِلْإِتْيَانِ بِفِعْلِ الْمُضَارِعَة بَعْد كَانَ [1] وقوله (أمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وأمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَستَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ) تفصيل بعد إجمال حيث ذكر مثنى في الكلام مجملا ثم تبعه بتفصيله يقرر خطر المشي بالنميمة، والتعبير بالمشي بها كناية عن ملازمتها وتحريها، وخطر عدم الاستتار الذي صوره المضارع الدال على الاستمرار، والتجدد، وهو تحذير، وترهيب من التلبث بهذين الذنبين اليسيرين في تجنبهما، وفي نظر الناس، العظيمين في عاقبتهما، وعقابهما.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: عذاب القبر.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطر النميمة بين الناس وعدم التنزه عن البول.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

رابعًا: من آداب المدعو: عدم الاستهانة بالذنوب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: عذاب القبر:

يظهر ذلك في قول ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ، مر بقبرين فقال: "إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير ...".

والإيمان بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذاب القبر لمن كان مستحقًا له من أهل المعصية والفجور من أصول الإيمان التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة[2].

ودليل عذاب القبر من القرآن قول الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

(١) ينظر حاشية السندي على سنن النسائي حديث ٣١

(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٢٢١

ٱلْعَذَابِ﴾[١]، قال القرطبي: (الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ وهو حجة في تثبيت عذاب القبر)[٢].

وقال ابن كثير: (وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور)[٣].

ودليل عذاب القبر من السنة حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر"[٤].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: خطر النميمة بين الناس وعدم التنزه عن البول:

يظهر ذلك في قول رسول الله ﷺ : «إِنَّهُما لَيُعَذَّبانِ وَما يُعَذَّبانِ في كَبِيرٍ، بَلى إِنَّهُ كَبِيرٌ: أَمَّا أَحدُهُما، فكان يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ، وأما الآخَرُ، فكان لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ».

قال النووي: قوله ﷺ : «وما يعذبان في كبير بل إنه كبير» فثبت بهاتين الزيادتين الصحيحتين أنه كبير، فيجب تأويل قوله ﷺ وما يعذبان في كبير. وقد ذكر العلماء فيه تأويلين: أحدهما أنه ليس بكبير في زعمهما. والثاني أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض تأويلاً ثالثًا أي ليس بأكبر الكبائر، قلت: فعلى هذا يكون المراد بهذا الزجر والتحذير لغيرهما أي لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا في أكبر الكبائر الموبقات، فإنه يكون في غيرها. وسبب كونهما كبيرين: أن عدم التنزه من البول يلزم منه بطلان الصلاة، فتركه كبيرة بلا شك والمشي بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح، لاسيما مع قوله ﷺ : "كان يمشي" بلفظ كان للحالة المستمرة غالبًا والله أعلم»[٥].

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٥-٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، مج٨/١٥/٣١٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٤٦/٧.

(٤) أخرجه مسلم ٢٨٦٨.

(٥) شرح صحيح مسلم ٢٩٠.

وقال محمد عبدالعزيز الخولي: ينبئنا الرسول ﷺ أن من الذنوب ما يعده الإنسان صغيرًا، لا يبالي أن يقترفه، ولا يأبى ارتكابه ويظنه هين الشأن. وهو سيء المغبة مؤلم العاقبة وأن من ذلك عدم الاستتار وقت قضاء الحاجة، فتبدو للناس عورته كالحيوان البهيم. مع أن الله كرمه على سائر الخلق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]. ويفقد حياءه وتضيع كرامته ويصبح حقيرًا شأنه شأن الدواب. أَوْ ألاّ يحترز من البول فتصيبه النجاسة، وتتناثر على جسمه وملابسه فتلوثها وتجعله مستقذرًا في أعين الناس وتفسد صلاته وعبادته، ومن ذلك أيضًا. السعي بالنميمة ونقل الكلام بين الأصدقاء والخلان بقصد الإضرار بهم وإفساد صداقتهم ومودتهم، وكشف ما يكره كشفه من أمورهم سواء أكان ذلك بالقول أم بالكتابة، وسواء أكان المنقول من الأعمال أم من الأقوال ولذا كان خطبها جسيمًا وعاقبتها سيئة.

ولقد قال الرسول ﷺ: «لا يدخل الجنةُ نمّام»[2].

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله تعالى، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبَرَاء العنت»[3].

وقال الحسن: من نم إليك نم عليك.

ومعنى هذا، أن النمام ينبغي أن يبغض، ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين الناس، وهذا من آفات اللسان التي يجب على المسلم أن يحذر منها ويأخذ نفسه ولسانه على الحق، ومحبة الناس والعمل لخيرهم والبعد عما يضرهم ويسيء إليهم[4].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٠.

(٢) أخرجه مسلم ١٠٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٤٥٩/٦ رقم ٢٧٥٩٩، وقال محققو المسند: حسن بشواهده ٥٧٥/٤٥.

(٤) انظر: الأدب النبوي ٢٥٢، ٢٥٣.

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك من عموم الحديث، حيث رهّب ﷺ من المشى بالنميمة بين الناس وعدم الاستبراء من البول وجعلهما سببًا لعذاب القبر.

وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة المؤثرة، ذلك لأن النفس البشرية بقدر ميلها لأساليب الترغيب لحرصها على ما ينفعها، فإنها بحاجة إلى الترهيب لردعها عن غيها وانحرافها عن الطريق المستقيم؛ لأن الترهيب فيه تخويف يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده الله جل وعلا من شديد العقاب وأليم العذاب، لمن طغى وبغى وعاند وعصى. فإذا ما أحسن الداعية في عرض ما لديه من قول وإيراد ما عنده من استشهادات قرآنية وحديثية فإنه بلا شك سيؤثر في المتلقين أكبر التأثير وأعظمه، لأن الإنسان لا يتحمل تلك الزواجر مجرد سماع فكيف إذا كانت حقيقة، وكفى بالموت واعظًا، وهو من أعظم الزواجر والمرهبات والمنذرات والمخوفات، فإنه يأتي بلا استئذان. فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واستعد له بحب الله وحب رسوله، وطاعتهما حق الطاعة[1].

رابعًا- من آداب المدعو: عدم الاستهانة بالذنوب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وما يعذبان في كبير" قال ابن علان، قال العلماء معنى: "وما يعذبان في كبير أى: كبير في زعمهما"، أى: أنهما لاستخفافهما بأمور الديانة يريان ذلك غير كبير، "وقيل: كبير تركه عليهما"، وقد جاء أن المنافق يرى ذنبه كالذباب وقع على أنفه فدفعه فاندفع، وأن المؤمن يراه كالجبل يخشى أن يقع عليه أولا يريان بتركه مشقة لخفة ذلك عندهما وهو عند الله كبير، أى: باعتبار ما عند الله وباعتبار إثمه وتبعته[2]، فينبغي على المدعو عدم الاستهانة بالذنوب.

فمحقرات الذنوب تجر الإنسان إلى التمادي وإلى الهلاك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنّ العَبْدَ إذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً

---

(١) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. حمدان الهجاري، ٥١٥.

(٢) دليل الفالحين ١٥٩٣.

نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فإذا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُه وَإنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ وهُوَ الرَّانُ الذَّي ذَكَرَ الله ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]»[2].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه))[3].

إن البناء الشاهق، يبني لبنة لبنة، والمسافة الطويلة، تقطع مرحلة مرحلة، والشجرة الضخمة، تبرز رويدًا رويدًا، والرجل الفارع كان نطفة نمت قليلاً قليلاً، وهذه سنة من سنن الحياة، وقانون من الله، نبهنا رسول الله ﷺ إليه، وحذرنا من تجاهله، في تكوين شخصيتنا، وأسلوبنا في الحياة، فإن ملكة الخير تتكون رويداً رويدًا، وفعلاً فعلاً، فالكريم يتعود على إنفاق القليل، ثم يتدرج منه إلى الكثير، والعابد يتدرج في الخضوع، إلى أن يحظى بالقرب، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، والشجاع يدرب في موقعة بعد موقعة، ومعركة إثر معركة، حتى يشار إليه بالبنان، وترهبه الأعداء، فأعمال الخير يُعلِّمُها الإنسان ويعتادها ويتدرب عليها حتى تصير له سجية، وتصبح له عادة، وهذا قد يكون واضحًا في الحياة يعلمه الناس ويدريه المربون، وقد تعدى هذا إلى تعليم الحيوان وتعويده وتدريبه على أشياء ليست من طبعه، ولا من طبيعته، وما ذلك إلا بالتدريب والتدرج والصبر، وإذا كان هذا في الخير، فهو كذلك في الشر، وإذا كان هذا واضحًا في البر، فهو ظاهر في الإثم، كما بينه لنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف فإن الشرير لا يولد شريرًا. والمجرم لا يخرج من بطن أمه مجرمًا، يقول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[4]، ((وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ))[5]. وإنما يتحول هذا الإنسان رويدًا رويدًا، وشيئًا

---

(١) سورة المطففين، آية: ١٤.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٣٣٤، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٦٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٠٣/١ رقم ٣٨١٨، وقال محققو المسند حسن لغيره ٣٦٨/٦.

(٤) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٥) أخرجه البخاري ١٣٥٩، ومسلم ٢٦٥٨.

فشيئًا، حتى يصير عاتيًا في إجرامه، مدمرًا في انحرافه، فمثلاً يبتدئ السارق بشيء قليل، ونذر يسير، ثم يتدرج من ذلك إلى الاحتراف، وقطع الطريق، وتهديد الممتلكات، والسفاح يبتدئ بغلظ القلب، وقتامة النفس، وإيذاء الخلق، ثم بجريمة واحدة، ثم يهون عليه الأمر ويسعد به، ويعده من مفاخره وكمال رجولته، وشارب الخمر ومدمن السكر، يعافه حتى الكأس الأولى والرشفة الأولى والزجاجة المتقدمة، ثم بعد ذلك، يشرب البرميل حتى الثمالة، وقد يستهين الإنسان بالإثم القليل ويهون في عينه، ولكنه في الحقيقة أول الطريق إلى الهاوية، ونقطة الانحدار الأولى إلى الجحيم، ومن هنا نعلم تحذير رسول الله ﷺ وقوله الذي لا ينطقه عن الهوى، «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، أرأيت هذا القانون الذي أعطاه لنا رسول الله ﷺ، في يسر وبدون عسر ليحفظ المسلم من كل سوء، ويحميه من كل انحراف، وقد وضح لنا رسول الله ﷺ ذلك، وضرب لنا مثلاً لهذه المحقرات من الذنوب، كيف تهلك الإنسان وتمحقه، وهو يستهين بها، مثلها رسول الله ﷺ بأعواد من الحطب، تجمع من هنا وهناك، حتى تصير كومة تشعل حريقًا، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إِيَّاكُمْ ومُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتى يؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ))[1].

ولا نقول إن هناك من لا يخطئ أو يقترف الدنايا، "فكل ابن آدم خطاء"، ولكن نقول إن هناك فرقًا بين من يخطئ ويتوب، ويقلع، ويحاسب نفسه، ويرجع إلى فطرته، ومن يخطئ ويتمادى، ويزين له فعله ويعاود إثمه، في غير ما تفكير، أو رجوع، أو ندم، أو توبة، فهذا هو من يحق عليه القول، ويعرض نفسه للهلكة والضياع. نسأل الله السلامة والتوفيق والسلام[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٣٣١، رقم ٢٢٨٠٨، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين ٣٧/٤٦٧.

(٢) سلوك المسلم، د. توفيق الواعي، ص١١٥، ١١٦.

الحديث رقم (١٥٤٠)

١٥٤٠- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: ((ألاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هي النَّمِيمَةُ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

العَضْه: وروي (العِضة) وهي: الكذب والبهتان، وعلى الرواية الأولى: العَضْهُ مصدر يقال: عضه عضها، أي: رماه بالعَضْه[2].

القالة بين الناس: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي للبعض عن البعض[3].

الشرح الأدبي

إذا نظرنا إلى أسلوب الرسول ﷺ نظرة تحليلية من بدايته نجد أنه صدر كلامه بالأداة (ألا) وهي من الحروف الهوامل، ولها مواضع منها: أن تأتي حرف استفتاح يبتدئ بها الكلام، كقول أبي العتاهية:

ألا من لمهموم الفؤاد حزينه ... إذا ابتز منه العزم ضعف يقينه
وإذ هو لا يدري لعل كتابه ... سيعطاه منشوراً بغير يمينه[4]

وفائدتها المعنوية. توكيد مضمون الجملة وكأنها مركبة من همزة الإنكار وحرف النفي، والإنكار نفي. ونفي النفي إثبات، وركب الحرفان لإفادة الإثبات والتحقيق فصارا بمعنى (أن) إلا أنهما لا يعملان.

---

(١) برقم (٢٦٠٦/١٠٢).

(٢) رياض الصالحين ٥٢٩.

(٣) النهاية في (ق و ل).

(٤) ديوان أبي العتاهية ط/ دار صادر.

وقد تدخل (ألا) على النداء، وقد تأتي للتحضيض، والعرض ومن مواضعها – أن تأتي للعرض فتختص بالدخول على الفعل، ولا شك في كونها إذن مركبة من همزة الإنكار، وحرف النفي، والفرق بين (ألا) التي للعرض و (ألا) الاستفتاحية أن الأخيرة تدخل على الجملتين الاسمية والفعلية في حين تختص (ألا) التي للعرض بالدخول على الجملة الفعلية على الصحيح ومن مواضعها أن تكون تمنيا، وتتصب بعدها النكرة بلا تنوين كقولك: (ألا ماء بارداً)[1] وألا في قول الرسول ﷺ: (ألا أنبئكم) جاءت للعرض بدليل دخولها على الجملة الفعلية. واكتسب الأسلوب تشويقه من بقية السياق حيث تلى (ألا) بالفعل (أنبئكم) الذي يدعم التشويق بصيغته، كما يصعده بمتعلقاته، واستعمال هذه الأداة – في الأغلب مع هذا الفعل وأمثاله – كـ (أخبركم، أعلمكم، وأدلكم) تمهيد لشيء. خطير. ثم يبدأ في رفع درجة التشويق عن طريق اللفظ الغريب (ما العَضْهُ) الذي يصعِّد الترقب، وغرابة اللفظ تشير إلى غرابة العمل عن أخلاق المجتمع الفاضل، ولما توفر له القدر المطلوب من الترقب، والاستشراف لمعرفة المضمون قرر المعنى الذي يريده (هي النَّمِيمَةُ ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) حتى يكف كل واحد منهم لسانه، ويحذر هذا الخطر إذا أن خطر الغيبة أمر معروف عندهم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال.

ثانيًا: من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم ويفسد ذات بينهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبهتان وأثر ذلك على المجتمع.

أولاً– من أساليب الدعوة: السؤال:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ألا أنبئكم ما العِضَه؟ هي النميمة، القالة بين الناس".

قال ابن عثيمين: (هذا من أساليب التعليم الجيدة، وهي أن يلقي المعلم السؤال على المخاطبين للتنبيه، حتى يستثير أفهامهم ويعطوا الكلام انتباهًا "ألا أنبئك ما العضة"

---

(١) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام ١٩/١ وما بعدها.

والنبأ والخبر في اللغة العربية معناها واحد، والعِضَهُ، من القطع والتمزيق ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[(١)] يعني قطعًا وأجزاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، فما هي الأداة المفرقة للأمة الممزقة لهم، قال: هي النميمة أن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض، من أجل الإفساد بينهم، وهي من كبائر الذنوب.

وفي هذا: دليل على حسن تعليم النبي ﷺ، حيث يأتي بالأساليب التي يكون فيها انتباه المخاطب، ولا سيما إذا رأى الإنسان من المخاطب غفلة، فإنه ينبغي أن يأتي بالأسلوب الذي ينبهه؛ لأن المقصود من الخطاب هو الفهم والاستيعاب والحفظ، فيأتي الإنسان بالأساليب المفيدة في ذلك[(٢)].

ثانيًا- من واجبات الداعية: تحذير المدعوين مما يضرهم ويفسد ذات بينهم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "ألا أنبئكم ما العِضَهُ؟ هي النميمة؛ القَالَةُ بين الناس" فقد حذر النبي ﷺ من النميمة وذلك لما توقعه بين الناس من العداوة والبغضاء فهي تضر بهم وتفسد ذات بينهم.

وعلى الداعية أن يحث المدعوين بلزوم ما حثهم عليه دينهم من المحبة والائتلاف وينهاهم عن التفرق والاختلاف، وأن عليهم عمل جميع الأسباب المقربة للقلوب والبعد عن العداوات والضغائن التي لا تكسب إلا شرًا، وأن يحذروا سماسرة الأعداء الذين يُلْقون بين المسلمين بذور العداوة والشقاق، ويدّعُون أنهم مسلمون، وإنما هو غل ونفاق. والداعية هو الذي يسعى في جمع كلمة المسلمين واتفاقهم، ويحذر غاية التحذير من تدابرهم وافتراقهم[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦١٤، ١٦١٥.

(٣) انظر: الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، السعدي، ص ٥٩، ٦٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الحذر من الكذب والبهتان وأثر ذلك على المجتمع:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة؛ القالة بين الناس" قال النووي: (... ورُوي "العِضة" بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العدة، وهي الكذب والبهتان...)[1].

وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن طاعة الذي يمشي بين الناس بالكذب والنميمة فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[2] فنهى تعالى عن طاعة الهماز الطعّانِ، العيّابِ المغتابِ، الذي يمشى بين الناس بالوشاية، وبالإفساد، لأنه باعث الفتن وزارع الإحن، ومقطع الصلات، ومفرق الجماعات، يجعل الصديقَيْن عدوَّيْن، والأخوَيْن أجنبيين، والزوْجَيْن متنافرين، والولد حربًا لأبيه، والأب ضدًا لبنيه، فهو غراب بين، ونذير شر، وحمال حطب، ومشعل لهب، فكانت طاعته حرامًا. ونهيه لزامًا، وقد أمرنا الله تعالى بالتثبت في خبره والتحري عن صدقه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[3]، بل إن كنت مؤمنًا كريمًا فلا تشغل نفسك بحديث الأنمّاء، ولا تضيع من وقتك في تسمع أخبار السفهاء. وظن الخير بإخوانك وأقربائك واتهم النمام الجهول؛ بل قبح له عمله، وبغض إليه نمّه، وقل له: لا تفسد بيني وبين إخواني، ولا تُبَغّض إلي أعواني، وخير لك أن تذكر ما يزيد الصلة متانة. وعرى الإخاء وثاقة، وإن من ينقل عن غيرك إليك أحاديث السوء، ينقل عنك إلى غيرك. فلا تجعله موضعًا لثقتك، واجعل وشايته دبر أذنك.

واعلم أن نقل الأنباء قد تكون فيه مصلحة شرعية، ومنفعة عمومية. كمن ينقل إلى شخص مكيدة يدبرها له الخصوم من قتل أو سرقة؛ وكمن يعرّف الأئمة والملوك سيرة الحكام الظالمين، والموظفين الخائنين، فهذا لا حرج فيه بل ذلك واجب، حقنًا

(١) رياض الصالحين، النووي، ص ٥٢٩.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) سورة الحجرات، آية:٦.

للدماء، والأموال، ونصحًا للرعية والولاة. والدين النصيحة.

وقد بين الرسول ﷺ أن الجنة لا يدخلها قتات، لأنها دار المتقين، وهذا من المجرمين، ما لم يكن له من الحسنات ما يمحو أثر السيئات، أو الغرض من العبارة التحذير من القت، والتنبيه إلى خطر النم؛ أو المراد: لا يدخلها أول الأمر. حتى يطهّر بالنار من خبث الوزر؛ ثم يدخلها طاهرًا طيبًا[1].

(١) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٣٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالحرمان:

من أساليب التربية الإسلامية "العقوبة" والتي منها الحرمان، وقد استعمل الرسول هذا الأسلوب في التربية ومن الشواهد على ذلك قوله: «لا يدخل الجنة نمام»، فهذا أسلوب نبوي ظهر فيه أن من يفعل ذلك يحرم من الجنة، وفي هذا الهدي النبوي فائدة كبيرة في التربية تساعد على ضبط النفس وعدم تجاوز الحدود حتى يكون ذلك رادعًا لمن يحاول أو يباشر هذا، تلك السلوكيات التي تكون سببًا في إفساد العلاقات بين الناس، ويجدر بالقائمين على أمور التربية أن يفيدوا من هذا الأسلوب التربوي، ولكن بالطريقة المناسبة والقدر المناسب، لأن المبالغة في استعمال الحرمان كأسلوب للتقويم، قد تؤدي إلى نتائج عكسية، ولأن التمادي فيه قد يؤدي إلى الانحراف السلوكي من أجل الإشباع مما جُرم منه كما انه لا يعمد لهذا الأسلوب إلا الذي أعيته الأساليب والوسائل التربوية الأخرى، كما أن التربية لا تتبع أسلوب الحرمان على الإطلاق، ولكن لأجل إحداث التغيير الإيجابي في السلوك، فإذا تحقق الهدف، فإن الحرمان يتحول إلى عطاء وجزاء وترغيب وتحفيز في تحيل الثواب.

ثانيًا: التوجيه غير المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية: التوجيه غير المباشر، وهذا الأسلوب من الأساليب المهمة في حياتنا، وذلك لأن الحياة لا تخلوا من المواقف والأحداث التي قد يحتاج المربي فيها إلى التوجيه غير المباشر لمناسبته، والرسول ﷺ في هذا الباب استخدم هذا الأسلوب التربوي ليدلل على أهميته في حقل التربية، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ».

إن النبي ﷺ استخدم هذا الحدث في بيان التوجيهات التربوية التي تعالج مواطن الخلل السلوكي في مثل هذه الأمور التي قد لا ينتبه إليها أو إلى أحدها كثير من الناس، مثل: النميمة التي استشرت في كثير من الأوساط الاجتماعية، أو عدم التنزه

عن البول، ومن ثم فقد أراد النبي ﷺ ألا يفوت هذا الحدث - مرور بقبرين - فقال: إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، ثم بيّن ﷺ أسباب ذلك العذاب وفي هذا توجيه غير مباشر، وهو توجيه قوي يأخذ بتلابيب النفس لأبعادها عن هذا السلوك المشين غير المحمود العاقبة، والذي يؤدي إلى نوع من الفزع النفسي أن يواجه الإنسان هذه النهاية الأليمة في الحياة البرزخية، ومن ثم فإن المسلم يربأ بنفسه أن يأتي مثل هذه السلوكيات الخاطئة، وبالتالي يراجع نفسه ويصحح سلوكه، ويسعى إلى التحلي بالأخلاق الحميدة والأنماط السلوكية الإيجابية.

ثالثا: التربية بالتشويق:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالتشويق لما فيها من نزوع النفس إليه وشوقه إليه، والرسول ﷺ أراد التشويق إلى معرفة الآثار السيئة لتلك القيمة السلبية المتمثلة في النميمة، فقال في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضة...» فهذا نموذج تربوي استعمل فيه النبي ﷺ أسلوب التشويق باعتباره أسلوب من أساليب التربية النبوية لما فيه من جذب الانتباه إلى ما سيخبر به النبي ﷺ أصحابه، فالرسول ﷺ أخبر أصحابه عن النميمة، وأراد بذلك تشويقهم إلى معرفتها لأنه أراد أن يثير في نفوسهم أخبارها ومعرفتها مما سيكون له الأثر في عدم القيام بها لما فيها من ضرر شديد، وأراد النبي ﷺ أيضًا بيان أنه يجوز تبين أمر الفاحش والنمام ليحذره الناس، والرسول ﷺ أراد أن يبين أيضًا أن من ضروب الكذب التي تدل على أن صاحبها ذو نفسية مريضة لا هم له إلا رؤية الناس متعادين متخاصمين، وأن أكبر سلاح يحارب به النمام هو عدم الاستماع له، وهذا ما يأمرنا به الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[1]. فالمشاء هو الذي تربى على المشي بنقل الكلام بين الناس، وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ في حديثه "بالعِضَةُ" والرسول ﷺ: قال في حديث آخر بين فيه أنه أن صاحب النميمة لا يدخل الجنة، حيث قال: «لا يدخل

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

الجنة نمام»، فهذا منهج نبوي نتعلم منه أيضًا أن الله قد أعد العذاب الشديد الذي يناله صاحب هذه العادة المتمثل في دخول النار، والذي تربى على هذا الخلق الذميم فإنه يصحبه "النفاق، والخداع، والكذب"، ومن هنا حذرت التربية الإسلامية النبوية من النميمة[1].

رابعًا- التربية بإثارة الاهتمام بخطر ما يستصغر:

من أهداف التربية الإسلامية إثارة الاهتمام بخطر ما يستصغر من الذنوب، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب تحريم النميمة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ...»، فهذا التوجيه النبوي التربوي يكشف لنا عن سلوكيات خطيرة يحتقرها بعض الناس ولا يلقى لها هما أو بالاً وفي نفس الوقت سببٌ في هلاكه، لأنه استصغر المعاصي والذنوب، والرسول ﷺ أثار الاهتمام بخطر ما يستصغر من الذنوب ولو أخذ الناس بهذا الاهتمام لجنب الأمة كثيرًا من الألم والمآسي، وأيضًا هذا التوجيه تنبه له الصحابة فكان له أثر كبير في اجتناب كثير من الصحابة الكرام، هذه الفتن التي تبدأ في دول الأمم صغيرة ثم بعد ذلك تصير كبيرة، من أجل هذا اهتم الله بالتنبيه إلى عظم الصغائر فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[2]. فهذا توجيه من الله بعدم استصغار الذنوب واعتبارها هينة وصغيرة واللامبالاة بشأنها، فحرى بالمرء أن لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه[3].

۞ ۞ ۞

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٢٢١، وروح الدين الإسلامي. عفيف عبدالفتاح طبارة، ص٢٣٣.

(٢) سورة النور، الآية: ١٥.

(٣) أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٦.

٢٥٨- باب النهي عن نقل الحديث وكلام الناس

إلى ولاة الأمور إذا لمْ تَدْعُ إليْهِ حاجة كخوف مفسدة ونحوه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾[المائدة: ٢]. وفي الباب الأحاديث السابقة في الباب قبله.

الحديث رقم (١٥٤١)

١٥٤١- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**لا يُبَلِّغنِي أحَدٌ مِنْ أصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فإنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إِلَيْكُمْ وأنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**)). رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

الشرح الأدبي

يحرص الإسلام على نقاء الصدور وسلامة النية، وطهر الباطن، ونبل الغاية، وحسن التوكل على الله، وكثير من آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ، دعت إلى سلامة الصدر أو ما يؤدي إلى سلامة الصدر وهذا الحديث صورة عملية من صور تنقية الصدور، ومنع غائلتها وكف أسبابها فصدَّر الحديث بالنهي العام في قوله (لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً) وهو نهي عن التبليغ أي التوصيل، والإخبار، والإعلام، والتعميم يفهم من النكرة (أحد) التي وقعت في سياق النفي، كما أن تنكير (شيئا) يفيد التقليل فيعم إخباره بالصغيرة أو بالكبيرة، ثم علل لهذا النهي بما يحقق الإقناع

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠) واللفظ له، والترمذي (٣٨٩٦). قال الترمذي: هذا حديثٌ غريب من هذا الوجه، وقد زيد في هذا الإسناد رجلٌ. ثمّ ساقه بالزيادة برقم (٣٨٩٧).

قلتُ: هذا الراوي الذي زيد في الإسناد الثاني، هو السّدي، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، والحديث بإسناديه ضعيف، فيه: زيد بن زائد أو: زائدة تفرد بالرواية عنه الوليد بن أبي هشام.

العقلي ببيان العلة بعد الإقناع القلبي بالإيمان بالله وطاعة رسوله ﷺ في قوله (فإنّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إلَيْكُمْ وأنا سَليمُ الصَّدْرِ) وسلامة الصدر كناية عن خلو القلب مما يبغضه، والتعبير بالكناية يصور هذا الخبر المنقول بالسوء عن أصحابه كالمرض الذي يصيب الصدر، ويحدث له به الألم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أسالب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حث النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على عدم إبلاغه شيئًا مما قاله أصحابه.

ثالثًا: من صفات الداعية: سلامة الصدر.

رابعًا: من أهداف الدعوة: النهي عن كل ما يؤدي إلى الضغائن.

أولاً- من أسالب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئًا..." وهو نفي بمعنى النهي، أي لا يوصلني[1]. حيث نهى رسول الله ﷺ أصحابه عن تبليغه عن أحد شيئًا مما يكرهه أو يعود إليه بضرر[2].

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في النهي عما يخالف الدين أو الأخلاق أو عن الأشياء التي فيها ضرر.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: حث النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على عدم إبلاغه شيئًا مما قاله أصحابه:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر".

قال ابن عثيمين: (وهذا من حكمة الرسول ﷺ، أنه لا أحد ينقل إليه كلام

---

(١) تحفة الأحوذي ٢٦٤٧/٢.

(٢) انظر: دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٥٩٤.

الناس، لكي لا يقع في قلبه شيء على هذا المتكلم، فيجب أن يخرج إليهم وهو سليم الصدر، ولهذا كثيرًا ما يكون الإنسان محبًا لشخص يقدره ويرى أنه رجل كريم ورجل سليم، ثم إذا نقل إليه شيء عن هذا الرجل كرهه ونفر منه وصار يبغضه)[1].

من أجل ذلك حث رسول الله ﷺ أصحابَه على عدم إبلاغه شيئًا مما قاله أصحابه مما يكره.

ثالثًا- من صفات الداعية: سلامةُ الصدر:

يستنبط هذا من عموم الحديث حيث نهى رسول الله ﷺ أصحابَه عن تبليغه شيئًا عن أحد، وذلك من أجل سلامة صدره.

وكان من دعائه ﷺ: ((وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي))[2] أي: غشه وغله وحقده[3].

وهذه منقبة وخلة عظيمة الشأن، قليل هم الذين يتحلون بها؛ لأنه عسير على النفس أن تتجرد من حظوظها، وتتنازل عن حقوقها لغيرها، هذا مع ما يقع من كثير من الناس من التعدي والظلم، فإذا قابل الناس وجهلهم وتعديهم بسلامة صدر، ولم يقابل إساءتهم باساءة، ولم يحقد عليهم، نال مرتبة عالية من الأخلاق الرفيعة والسجايا النبيلة[4].

فينبغي على الداعية أن يتحلى بسلامة الصدر.

لأن الداعية الحق شخصية متميزة، فهو كالمنارة الهادية من بُعْدٍ لمن ضل أو حار، وهو كالظل الوارف لمن لفحه حر الشمس والمسير في الهجير، وبالتالي فهو نقطة تجمُّع بالنسبة للمدعوين، ولذا فإنه يحتاج إلى أن يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق[5].

ولا مناص للداعية من مخالطة الناس، ولا مندوحة حينئذ من احتمال خطئهم،

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢/١٦١٦.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٥١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٨١٦).

(٣) تحفة الأحوذي ٢/٢٥٠٤.

(٤) كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، ص ٢٣٣.

(٥) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ص ١٠٠.

والصبر على أذاهم ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾[1].

وليس الاحتمال النفسي أدنى من الاحتمال البدني بل هو في الحقيقة أعظم وأثره أكبر، (وهو الصبر على مشتهيات النفس فإن كان صبرًا عن شهوة البطن سمي عفة، وإن كان الصبر في قتال سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ سمي حلمًا، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش سمي زهدًا، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة[2]، وكل ذلك مما تدعو طبيعة الدعوة أن يتحلى به الداعية.

والناس مشاربهم شتى، وسلوكياتهم متباينة، واحتياجاتهم كثيرة، واستفزازاتهم مثيرة، وهذا لابد أن يقابله الداعية بالاحتمال، لأن الاحتمال -كما قيل- قبر المعايب، وقد يكون الداعية لديه القدر الكافي من العلم، وعنده الموهبة الجيدة في التخطيط، ولكنه لا يملك القلب الرحيب الذي يشد إليه الأتباع، ولا النفس الصافية التي تقرب إليها الأرواح فينفض عنه الناس)[3]. لذا تتضح أهمية تحلي الداعية بصفة سلامة الصدر وسعته.

رابعًا- من أهداف الدعوة: النهي عن كل ما يؤدي إلى الضغائن:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث نهى رسول الله ﷺ عن تبليغه عن أحد ما يجعله يكرهه أو يتضايق منه.

ويكون المخبِر سببًا في هذه الكراهية وهذا الضيق وإثارة الأحقاد والضغائن، ومن أهداف الدعوة أن تكون الشخصية الإسلامية فاتحة للخير مغلاقة للشر، فيجب أن يفيض من تلك الشخصية الإسلامية الخير تجاه العمل الإسلامي، فتبدأ بالحركة والدعوة وفتح أبواب الخير للناس، وغلق أبواب الشر، فإن الإسلام لا يقتصر على أن يجعل الإنسان صالحًا راشدًا في ذات نفسه، بل يجعله فوق ذلك مفتاحًا للخير مغلاقًا

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٧.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ٢٨٥ ، ٢٨٦.

(٣) مقومات الداعية الناجح، د. علي عمر بادحدح، ص ١٠١ ، ١٠٢.

للشر[١]. كما ورد في الحديث النبوي: ((إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ. وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ. فَطُوبى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ. وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ))[٢].

فينبغي على المدعو أن يحرص على عدم النميمة والوقيعة بين الناس أو تبليغ ما يكون سببًا في العداوة حتى يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر.

فالنميمة وهي ذلك الكلام الذي من شأنه أن يثير الفتنة بين الناس، ويجعل نار العداوة قائمة بينهم، مما يجعل قلوبهم تملئ غضبًا وسخطًا تجاه بعضهم البعض، فهي من الأمراض الخطيرة والمستقبحة في هذه الحياة، وهي منتشرة بين الناس وشررها قد أصاب الجميع. فنرى مثلاً رجلاً ينقل كلمة قالها مرؤوس، فيبلغها إلى رئيسه مما يحصل بذلك ضرر على المرؤوس من فصلٍ عن عمله وما إلى ذلك، أو كلمة تتسبب في انفصال الزوجين، أو التفريق بين الأقارب وهكذا. وهذه العادة تأباها النفس الكريمة، وتخلو منها الشخصية الإسلامية، لأنها من أسوأ الخلال الذميمة، تدل على أن صاحبها يحمل نفسًا سقيمة وذو طبيعة لئيمة، يهوى إفشاء الأسرار والضرر بالآخرين، لأنه ربما أدت تلك النميمة التي مشى بها إلى سفك الدماء، وهي بسبب ذلك محرمة[٣].

---

(١) انظر: الأهداف الرئيسة للدعاة إلى الله، إصدار لجنة البحوث في مكتبة دار الدعوة، الكويت، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٧، وحسنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٤)..

(٣) الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر بن عبدالله التركي، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في باب النهي عن نقل الحديث قوله ﷺ: «لا يُبْلِغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فإِنِّي أُحِبُّ أنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ». نهى النبي ﷺ أصحابه أن يقوم أحدهم بإبلاغ النبي ﷺ شيئًا عن أحد أصحابه لأنه لا يريد أن يتأثر بأي شيء مما يبلغه ليؤكد على أهمية الحفاظ على الصفاء والمودة من كل ما يكدرها بسبب نقل الكلام.. لذا ينبغي للمسلم العلم بأن السلامة لا يعدلها شيء. وعلى هذا فإذا استوت المصلحة وعدمها، في أي كلام، كان تركه أفضل، وهذا مظهر من مظاهر المسؤولية الشخصية في الإسلام فينبغي على المسلم أن لا ينطق إلا بالخير والإصلاح[1].

قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَصْمُتْ»[2].

"وينبغي عند إجراء عملية التوجيه المباشر في التربية مراعاة التدرج في النصح والإرشاد ثم إشعار محل التوجيه بالاهتمام، ثم مراعاة أن تكون النفس هادئة، أثناء هذا التوجيه"[3].

ثانيًا: من أهداف التربية الإسلامية: الحفاظ على سلامة الصدور:

من أهداف التربية الإسلامية: الحفاظ على سلامة الصدور من الكره والضغائن التي يمكن أن تكمن فيها بسبب ما يصلها من أخبار ومعلومات تفكر صفوها وتفسد ودها نحو الآخرين، بسبب نقل الكلام، لأن الإنسان يتأثر بما يسمع، خاصة إذا كان ذلك متعلقًا به وبرأي الآخرين فيه، ولا شك أن الهوى والحقد والحسد له دور كبير في مثل هذه الأمور، وكم من الود والحب قد فسد بسبب نقل الكلام، وليس ذلك فحسب

---

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف العبد، ص٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري، ٦١٣٦، ص١٠٦٩، ومسلم، ٤٨، ص٥١.

(٣) أصول التربية، د. أمين أبولاوي، ص١٥٤، أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات، ص٨٣.

فكم من عداوات نشأت بسبب هذا الأمر، ولذا فإن النبي ﷺ أراد أن يربي أصحابه رضي الله عنهم على الالتزام بهذا الأدب الإسلامي الجم الذي يصون العلاقات من الانهيار، والذي يحفظ وينمي روح المودة والمحبة بين المسلمين، وقد جعل النبي ﷺ من نفسه نموذجًا لمن يتأثر بمثل هذا الأمر من نقل الكلام، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو القدوة -إلا أنه بشر- يتأثر، فإن غيره من عامة المسلمين يتأثرون بشدة من هذا الفعل، ولذا عمل النبي ﷺ على وقاية المجتمع والأمة الإسلامية من الآثار الخطيرة لتلك الآفات الاجتماعية القاتلة التي تفسد الود وتقطع العلاقات بين الناس.

ولذا نهى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم، عن الوقوع في هذا الفعل من نقل الكلام، وأراد أن يربيهم على حفظ الأسرار كأسلوب في التنشئة لأنه يمثل صلاح الفرد المسلم في حالة ومستقبله وسلامة الأسرة وانطلاقها - لأن المسلم الذي يتعلم ويتعود كتم الأسرار ينشأ قوى الإرادة حيال اللسان فتنشأ عن ذلك الثقة الاجتماعية بين الناس بحفظ الأسرار، ولذلك ربى النبي ﷺ صحابته على ذلك فهذا هو عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما يضرب لنا المثل في كتم الأسرار - قال: «أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ، هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ»[1]. وكان من خير الصحابة أيضًا أنس خادم النبي ﷺ، فقد تأخر أنس في يوم على أمه فقالت ما أبطأك قلت بعثني رسول الله ﷺ في حاجة، قالت: ما هي؟ قلت إنها بسرّ، فقالت المؤمنة الواعية الزكية وهي بذلك تعطي درسًا للأمهات في تعليم الطفل حفظ الأسرار، قالت له: لا تخبرن سر رسول الله ﷺ أحدًا فهذه تربية اجتماعية من أنس وأمه للأمة الإسلامية لكي تربي على حفظ الأسرار وكتمها[2].

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٤٢٩، ص١٠٦٩.

(٢) المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص٢٦٨، أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٦١، التربية الإسلامية، د. محمد جاد، ٧٩.

٢٥٩- باب ذمِّ ذِي الوَجْهَيْن

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ وكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحيطًا﴾[النساء: ١٠٨].

الحديث رقم (١٥٤٢)

١٥٤٢- وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسول اللّه ﷺ: **((تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ: خِيَارُهُم فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسْلاَمِ إذَا فَقُهُوا، وتَجِدُونَ خِيَارَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأنِ أَشَدَّهُمْ كَرَاهِيَةً لَهُ، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَينِ، الَّذِي يَأتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ))**. متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

معادنَ: أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيسًا وتارة يكون خسيسًا، وكذلك الناس[٢].

فقُهوا: فهموا وعلموا [٣].

الشرح الأدبي

تشبيه الرسول ﷺ لاختلاف طباع الناس بمعادن الأرض له عدة دلالات:

١ - اختلاف طباع الناس، وصفاتهم الخُلقية، والنفسية يفهم هذا من تفاوت المعادن.

٢- الإشارة إلى تفاوت الناس في تقبلهم للإصلاح، فمنهم السهل، ومنهم من يحتاج إلى صبر، ومنهم من لا يقبل كما هو حال معادن الأرض (المشبه به) فمنها ما يسهل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٣، ٣٤٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢٦/١٩٩). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٤٧).

(٢) فتح الباري ٦١٢/٦.

(٣) النهاية في (ف ق هـ).

استخراجه ومنها ما يصعب استخراجه، ومنها ما يسهل تشكيله، ومنها ما يصعب تشكيله.

٣ – الإشارة إلى تفاوت الناس في كرم الأصل، وخسته يفهم ذلك من تفاوت المعادن في نفاستها فمنها الغالي كالذهب، والفضة، ومنها الرخيص كالحديد، والقصدير[1].

الإشارة إلى تفاوت الناس في قوة التحمل، والصبر على الأذى يفهم ذلك من تفاوت المعادن في صلابتها فالحديد يخالف النحاس كما يخالف الرصاص.

٤ - الإشارة إلى أن معرفة أصول الناس تحتاج إلى بحث في أحوالهم، وتدقيق في منابتهم حتى لا ينخدع الإنسان بالظاهر ويحكم خلاله على صفات الشخص، لأن كريم الخلال قد يعتريه في الظاهر ما يخفي كرم أصله من فقر أو خمول ذكر في الناس أو غيره كما يمكن لخسيس الأصل أن يعتريه في الظاهر ما يوهم بكرم الأصل وهو على غير ذلك يفهم ذلك من حال المعادن في الأرض التي لا يعرف خصائصها إلا بعد استخراجها من باطنها والكشف عنها قال بن حجر: وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية وأما قوله إذا فقهوا ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين)[2]، وقوله (تجدون خير الناس في هذا الشأن) كناية عن الخلافة أو الإمارة، وقوله (أشدهم) أفعل تفضيل أي فاق الجميع كراهية لهذا الشأن ؛ وقد صار خير جميع الناس بكراهته لذلك مع مساواته لهم في سائر الفضائل أو يراد من الناس الخلفاء أو الأمراء أو معناه من خيرهم، وقوله (وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا

---

(١) ينظر أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه النبوي د. ناصر راضي الزهري إبراهيم، بحث منشور في كلية الآداب جامعة سوهاج، العدد السادس والعشرين لسنة ٢٠٠٦م .

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٦/٥٢٩.

الوَجْهَينِ، الَّذِي يَأتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَـؤُلاءِ بِوَجْهٍ) هو المنافق وهو الذي يمشي بين الطائفتين بوجهين يأتي لإحداهما بوجه ويأتي للأخرى بخلاف ذلك وفيه إشارة بلاغية إلى قوله الله تعالى (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء (النساء ١٤٣) قال المفسرون مذبذبين يعني المنافقين متحيرين بين الإيمان والكفر فلا هم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا ولاهم مع الكفار ظاهرا وباطنا بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى هؤلاء[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بمعادن الناس وخيرها.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التفقه في دين الله.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في المناصب وأمور الدنيا.

رابعًا: من آداب الداعية: بيان الحقائق للمدعوين وتحذيرهم من النميمة والإفساد بين الناس.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: إخبار النبي ﷺ بمعادن الناس وخيرها:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام...".

قال ابن حجر: (قوله "تجدون الناس معادن" أي أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيسًا وتارة يكون خسيسًا، وكذلك الناس.

وقوله "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام" وجه التشبيه صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفًا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية،

---

(١) ينظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، حديث: (٣٩٤٣).

والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك من كان متصفًا بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها. متوقيًا لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغيرها)[١].

قال النووي: (والمعادن: الأصول وإذا كانت الأصول شريفة كانت الفروع كذلك غالبًا والفضيلة في الإسلام التقوى ولكن إذا انضم إليها شرف النسب ازدادت فضلاً)[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية وفضل التفقه في دين الله:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا...".

قال ابن حجر: (وأما قوله إذا فقهوا ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين، وعلى هذا فتنقسم الناس أربعة أقسام مع ما يقابلها: الأول شريف في الجاهلية أسلم وتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه. الثاني: شريف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية لم يسلم وتفقه، الثالث: شريف في الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية أسلم ثم تفقه. الرابع: شريف في الجاهلية لم يسلم وتفقه ويقابله مشروف في الجاهلية أسلم ولم يتفقه فأرفع الأقسام من شرف في الجاهلية ثم أسلم وتفقه، ويليه من كان مشروفًا ثم أسلم وتفقه، ويليه من كان شريفًا في الجاهلية ثم أسلم ولم يتفقه، ويليه من كان مشروفًا ثم أسلم ولم يتفقه وأما من لم يسلم فلا اعتبار به سواء كان شريفًا أو مشروفًا سواء تفقه أو لم يتفقه)[٣].

فالتفقه في الدين له أهمية كبرى وفضل عظيم في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين))[٤] قال النووي: (فيه فضيلة العلم والتفقه في الدين والحث عليه وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى)[٥].

---

(١) فتح الباري ٦١٢/٦.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٥٢٠.

(٣) فتح الباري ٦١٣/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

(٥) شرح مسلم، للنووي، ص ٦٥٦.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: فضل الزهد في المناصب وأمور الدنيا:

يظهر هذا في قوله ﷺ: "وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهية له".

قال القرطبي: (وقوله ﷺ: "وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له" هكذا الرواية: "من خير الناس" وهي لبيان جنس الخيرية؛ كأنه قال: تجدون أكره الناس في هذا الأمر من خيارهم... ويعني بالأمر: الولايات، وإنما يكون من يكرهها من خير الناس، إذا كانت كراهتُه لها لعلة تعظيم حقوقها، وصعوبة العدل فيها، ولخوفه من مطالبة الله تعالى بالقيام بذلك كله، ولذلك قال فيها: ((نعمت المرضعة وبئست الفاطمة))[١]، وكفى بذلك قوله ﷺ: ((مَا مِنْ أَمِيْرِ عشرةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يومَ القيامةِ مَغْلُولاً، لا يَفُكُّه إلا العَدْلُ، أو يوبقه الجَوْرُ))[٢])[٣].

وقال ابن حجر: (قوله "ويجدون خير الناس في هذا الشأن" أي: الولاية والإمرة، وقوله "أشدهم له كراهية" أي أن الدخول في عهدة الإمرة مكروهة من جهة تحمل المشقة فيه، وإنما تشتد الكراهة له ممن يتصف بالعقل والدين، لما فيه من صعوبةالعمل بالعدل وحمل الناس على رفع الظلم، ولما يترتب عليه من مطالبة الله تعالى للقائم به من حقوقه وحقوق عباده، ولا يخفى خيرية من خاف مقام ربه)[٤].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الولاية، فعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((يا عبد الرحمن، لا تَسألِ الإمارة؛ فإنكَ إن أُعطيتَها عن مسألة وكِلتَ إليها، وإن أعطيتَها عن غير مسألة أُعِنتَ عليها))[٥] فهذا الحديث يشير إلى وجوب التباعد عن طلب الرياسات ولو كان الطالب قادرًا على تحمل أعبائها، لأنها لا تخلو من عناء ومشقات[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٧١٤٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤٣١/٢ رقم ٩٥٧٣، وقال محققو المسند: إسناده قوي ٣٥٢/١٥.

(٣) المفهم ٤٧٨/٦.

(٤) فتح الباري ٦١٣/٦.

(٥) أخرجه البخاري ٧١٤٦، ومسلم ١٦٥٢.

(٦) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٩٩.

رابعًا- من آداب الداعية: بيان الحقائق للمدعوين وتحذيرهم من النميمة والإفساد بين الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه".

قال ابن عثيمين: (وذا الوجهين هو الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه، كما يفعل المنافقون ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[1] وهذا يوجد في كثير من الناس والعياذ بالله، وهو شعبة من النفاق، وتجده يأتي إليك يتملق ويثني عليك وربما يغلو في ذلك الثناء، ولكنه إذا كان من أولئك عقرك وذمك وشتمك، وذكر فيك ما ليس فيك فهذا والعياذ بالله كما قال النبي ﷺ "تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وهذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ وصف فاعله بأنه شر الناس"[2]، فينبغي على الداعية أن يبين للمدعوين حقيقة النميمة وخطورتها على المجتمع لما فيها من إفساد بين الناس.

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

يستنبط هذا من عموم الحديث؛ حيث رغّب ﷺ في التفقه في الدين، وبين أنه سبب في التفاضل بين الناس، فقال "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا" ورغب في الزهد في المناصب وأمور الدنيا فقال: "وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهية له".

ورهّب من النميمة والإفساد بين الناس فقال: "وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه".

ويقصد بالترغيب: كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه. ويقصد بالترهيب: كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة به أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦١٧.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

الحديث رقم (١٥٤٣)

١٥٤٣- وعن محمد بن زيدٍ: أنَّ ناسًا قالوا لِجَدِّهِ عبدِ اللهِ بن عمر رضي الله عنهما: إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاَطِينِنَا[1] فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلاَفِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

سلاطيننا: جمع سلطان. ملوكنا وحُكّامنا[3].

الشرح الأدبي

الحديث يقوم على الحوار بين عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبين بعض الناس يقرر خطر الكذب، وأنه مخالفة الظاهر للباطن وهو شعبة من النفاق الذي والذي جاء فيه الوعيد الشديد ثم إنه يوم القيامة يستلزم العذاب الأليم وقوله (إنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاَطِينِنَا) يشير ضمير الجماعة الذي تصدر الحديث إلى أنه فعل أكثر من واحد لأنهم أطراف الحديث الذي تحدثوا فيه بخلاف ما حدثوا السلاطين، والتعبير بالسلاطين يشير إلى أنه كان بعد الخلافة الراشدة، وقولهم (فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلاَفِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ) بيان لموضع الخطأ، والذي جسده الجار، والمجرور (بخلاف) الذي يصور التناقض النفسي بين ما يظهر، وما يبطن، وهو ما ينطوي على لون من الخداع، وعدم المناصحة لله تعالى، ولذلك جاء رد ابن عمر رضي الله عنهما (كنا نعد) بصيغة الجمع التي تؤكد الخبر وتوثقه لأنه فعل جماعة، وتنكير (نفاقا) للتحقير، و(عهد رسول الله ﷺ) يشير إلى الجيل المعلم لكل الأجيال، وهو جيل الصحابة.

---

(١) لفظ البخاري: (سلطاننا).

(٢) برقم (٧١٧٨).

(٣) الوسيط في (س ل ط ن).

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الصدق في كافة الأحوال.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطورة النفاق.

أولاً- من آداب المدعو: سؤال أهل العلم والفضل:

يظهر ذلك في قول محمد بن زيد: أن ناسًا قالوا لجده عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: "إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ماتنتكلم إذا خرجنا من عندهم".

وسؤال المدعو لأهل العلم والفضل حتى يعلم ويتثبت عن حكم فعله لكي يستفيد من علم أهل العلم والفضل.

وقد أمر الله تعالى بالرجوع إلى أهل العلم عند عدم العلم فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وعن ابن مليكة: أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ))[2] فعلى المدعو الرجوع إلى أهل العلم والفضل في السؤال عما يجهل أو أشكل عليه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية الصدق في كافة الأحوال:

يستنبط ذلك من قول ابن عمر رضي الله عنهما "كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ"، فإن الاستمساك بالصدق في كل شأن وتحريه في كل قضية، والمصير إليه في كل حكم، دعامة ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه. وكذلك فإن بناء المجتمع كان قائمًا على محاربة الظنون، ونبذ الإشاعات واطراح الريب، فإن الحقائق الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب وأن تعتمد في إقرار العلاقات المختلفة[3].

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٣، ومسلم ٢٨٧٦.

(٣) انظر: خلق المسلم، الغزالي، ص ٣٥.

قال رسول الله ﷺ: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الكَذِبَ رِيبَةٌ))[١].

والصدق يصل بالإنسان إلى أعلى الدرجات ولذلك يقول ﷺ: ((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا))[٢].

والصدق من الأخلاق الأساسية التي يتفرع عنها غيرها، قال الحارث المحاسبي: (واعلم أن الصدق والإخلاص: أصل كل حال، فمن الصدق يتشعب الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا والأنس. وعن الإخلاص يتشعب اليقين، والخوف. والمحبة والإجلال، والحياء، والتعظيم... فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام)[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: خطورة النفاق:

يظهر ذلك في قول ابن عمر رضي الله عنهما: "كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ" لمن سأله عن الكلام عند السلاطين بخلاف الكلام بعد الخروج من عندهم.

وذلك لأن من الناس من يظهر لجليسه الموافقة والمودة ويلقاه بالبشر والترحاب، فإذا ما توارى عنه سلقه بلسان حاد، وشتمه وأقذع في سبه وهذه الصفة من أحطّ الصفات وأخسها، وصاحبها من شر الناس، وأوضعهم[٤].

قال النبي ﷺ ((تجدونَ شرَّ الناسِ يومَ القيامةِ ذا الوَجهينِ، الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ))[٥].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويُطريه في المدحة

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥١٨، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٥).

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٣) رسالة المسترشدين ص ١٧٠ نقلًا عن هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص ٤٣٥.

(٤) انظر: سوء الخلق، الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٢٤.

(٥) أخرجه البخاري ٣٤٩٣، ومسلم ٢٥٢٦.

فقال: ((لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ، ظَهْرَ الرَّجُلِ))[١].

فإذا كان المدح للتملق وإسناد الأعمال إلى غير أربابها فإنه مجلبة الطغيان وباعث النفاق والذلة، ومحي المهانة والحقارة، وموجب المقت والسحت والكذب؛ لأن المادح يضطر إلى الإفراط، وقوله غير الحق، وإلى إظهار ما لا يضمر للممدوح واعتقاده أنه كما يقول مادحه، وقد يكون فاسقًا أو ظالمًا وهذا غير جائز[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٦٠، ومسلم ٣٠٠١.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٢٥٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على التعلم والتفقه في الدين:

من أهداف التربية الإسلامية التربية على التعلم والتفقه في الدين، لأنه مما ينبغي أن يتربى عليه الشاب المسلم الاهتمام بالتعلم ومعرفة الفقه والرسول ﷺ أراد في هذا الباب إبراز فعل التفقه في الدين وأهميته، ففي حديث الباب قال ﷺ: «تَجِدونَ النَاسَ مَعادِنَ: خِيارُهم في الجاهليةِ خِيارُهم في الإِسلامِ إِذا فَقِهوا»، فهذه تربية صريحة من النبي ﷺ بتعلم الأحكام للرعية، وإن أعلى مرتبة من مراتب الشرف بين الناس مرتبة من شرف بالتفقه في الدين كما أن النبي ﷺ، يربي في نفوس الصحابة معرفة المسائل الفقهية وأدلتها، ولذلك ربى عمر بن الخطاب على ذلك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»، فهذه دعوة أيضًا إلى الفقه والنبي ﷺ عندما دعا إلى العلم والفقه في هذا الحديث لم يقيده بسن؛ كبار أو صغار بل أطلق العلم، ولذلك تعلم الصحابة وفقهوا أمور دينهم وهم كبار، وكذلك ربي الإمام أحمد بن حنبل طلابه على حب العلم وقال لهم: "حاجة الناس إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب فالطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس"، لذلك ينبغي على المربي أن يرغب في طلب العلم والفقه الشرعي، كما يرغب في اهميته كما يعلي من الهمم في طلب العلم، كما فعل النبي ﷺ وقال «إذا فقهوا»، لذلك يعد طلب الفقه من أفضل الأعمال بل هو في الجهاد في سبيل الله، ويكفي شرفًا كل من سلك مسلك الفقه والعلم أنه إرث الأنبياء، وليس هناك إرث أفضل منه.

ومن باب التربية على فضل العلم والتفقه في الدين لا بد أن يعلم المسلم أن من تربى على حب العلم فهو من القائمين على أمر الله، حتى تقوم الساعة، ومن في ذلك مساوية وهو يقول: من يرد به خيرًا يفقه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولا تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله[1].

---

(١) أخرجه البخاري، ١٥.

فهذه تربية صريحة على أن أهل العلم قائمون على أمر الله، وليعلم الذي سلك ذلك ويرى نفسه على العلم والتفقه في الدين أنه طريقه إلى الجنة، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ»[١]، وليعلم الذي طلب التفقه في الدين أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة والدنيا، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٢].

ولكن أنْوِه إلى كل المربين والمرتبين على الفقه في الدين أن هناك أخطاء قد تحدث أثناء فترة التعلم والتفقه، وهي الحسد بين المتربين قد يقع لأنه ما من فقه إلا وقد وقع بين تلاميذه حسد لبعضهم البعض لأن الحسد في صفات اليهود قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣]. ومن عواقب الحسد الإفتاء بغير علم لأنه يريد أن ينتصر، والكبر، والتعصب لمذهب معين، وسوء الظن فيبتغي على أى طالب علم أن يعرف موضوعه ويعرف مصطلحاته، وأسلوبه وأن يحرص على الكتب المهمة، ويعرف الأدلة، وذلك لكي لا يقع في حرج مع نفسه أو الناس، ولنا وقفة تربوية هامة وهي أن من تربى على الفقه بطريقة صحيحة فإنه يكون نافعًا في مجتمعة مع الناس غير مثقل عليهم[٤].

ثانيًا: التربية بالوصف أو بالتقييم الذاتي:

إن مما تميزت به التربية الإسلامية التربية بالوصف ذو التقييم الذاتي، وهي أن تكسب الإنسان علمًا تفصيليًا بصفات الخير والشر والمعاني السامية والأعمال التي ترضى الله والأعمال التي لا ترضي الله، من هنا يحدث عنده ميزان حاضر يزن به نفسه

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٦٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٤) التربية على منهج أهل السنة، أحمد فريد، ١٠٤. التربية الإسلامية، إبراهيم الشافعي، ص٣٧، كتاب العلم، العثيمين، ص١٩، ٢٠.

ليحصل لديه تقويم ذاتي صحيح للوضع الذي هو فيه وهذه وسيلة تربوية من وسائل الرسول ﷺ التي لها علاقة بالمراقبة والمحاسبة: وظهرت هذه الوسيلة في أحاديث الباب التي تدل على ذم ذي الوجهين وعدم التشبه به: فقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ ...، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ». وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم ...»، فهذه نماذج تربوية أراد النبي ﷺ بيان ذم ذي الوجهين (المنافق) لأن النفاق مرض خبيث خطير، إذا ألم بأحد أفسد عليه آخرته وأحبط عمله لأنه صفة أخلاقية تتجمع حولها النفوس الضعيفة والعقول الشاذة من الناس، ولذلك حذر منه النبي ﷺ، لأنه أيضًا خطر اجتماعي كبير لأنه العدو الحقيقي الكامن داخل المعسكر المختبئ في الصف بل هو أخطر من العدو الخارجي الصريح، وتطرد لخطورة هذا المرض وحرصًا على نقاء قلوب المؤمنين وطهارة منه وضع الرسول ﷺ مواصفات للمنافقين أو لمن فيه خصلة من النفاق حتى يكون ميزانًا حاضرًا لكل من خشي على نفسه من هذا المرض الخطير، قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر»[1]. ولذلك استخف المنافق أن يكون من شرار الناس كما قال ﷺ في أحاديث الباب «إن شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[2].

من خلال هذه النماذج التربوية رأينا التركيز على الصفات التي اتصف بها الأشرار في أخلاقهم، وأشد ما حذر منه النبي ﷺ النفاق للرؤساء والأمراء وولاة الأمر، فإن الدنو منهم ومخالطتهم في شيء ينبغي أن يكون بحساب، وذلك لكي لا تتحدى وتفتن بالنفاق، ولقد ضرب لنا سفيان الثوري أروع الأمثلة التربوية في عدم الدنو من الأمراء والانغماس في كرمهم قال ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم، فيميل قلبي إليهم، من هنا اهتمت التربية الإسلامية على أن يكون سلوك الإنسان الظاهر المعير

---

(١) أخرجه مسلم، ١/٢٧٨.

(٢) أخرجه البخاري، ٨٩١٩.

كالباطن المخفي لأن السلوك قد يتعرض لدوافع النفاق فالمسلم مطالب بأن يربي نفسه على تزكية النفس وتهذيبها وتطهيرها من نزعات الشر والإثم وإزالة حظ الشيطان منها وتنمية فطرة الخير فيها[1].



---

(١) أساليب الدعوة والتربية، العاني، ص٤٣٤، والوجيزة في أخلاق الإسلام، عبدالرحمن الميداني، ص٤٣.

٢٦٠- باب تحريم الكذب

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦]. وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الحديث رقم (١٥٤٤)

١٥٤٤- وعن ابن مسعود ﷺ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((**إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وإنَّ البرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا**[1]. **وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ**[2] **كَذَّابًا**)) متفقٌ عَلَيْهِ[3].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

البرُّ: الخير[4].

الفُجُور: الانبعاثُ في المعاصي والحرام[5].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ في هذا الحديث يثمن غالياً قيمة الصدق ويبين أثره في هداية العبد الصادق إلى الجنة، ويحذر من الكذب ويبين سوء عاقبة الكذاب قصداً إلى تقويمه، ولتحقيق هذه المعاني وتقريرها في أذهان المخاطبين استخدم عدة أساليب بلاغية تتسم بالإقناع العقلي والإمتاع النفسي منها:

---

(١) لفظ البخاري: (حتى يكون صديقًا).

(٢) قوله: (عند الله) لا يوجدُ عند مسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧/١٠٣)، وتقدم برقم (٥٤).

(٤) النهاية في (ب ر ر).

(٥) النهاية في فجر.

البداية بأسلوب الإغراء في قوله (عليكم بالصدق. ..) فقوله (عليكم) اسم فعل أمر بمعنى (الزموا) ترغيباً في التخلق بهذا الخلق الحسن الذي هو من أخلاق المؤمنين والبد بأسلوب الإغراء يجذب المخاطب ويملك عليه حواسه تشوقاً لما وراءه، وتطلعاً إلى سببه وانشغالاً بمضمون الجملة بعده، وهذا من شأنه أن يوفر للخبر درجة من الانتباه والاهتمام لمتابعة الخبر مما يمهد لتقريره في أنفس المخاطبين، أضف إلى ذلك تعليله ﷺ لسبب الإغراء وكشفه عن سره مما يزيد المخاطب استشرافاً وتعلقاً بالمخاطب حتى يتم حديثه، ثم أسلوب التوكيد في قوله: (فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة) المرتبط بما قبله بفاء التعليل خطاباً للعقول مع العلم بأن المقام لخالي الذهن وأن الصحابة لم يبد منهم إنكار أو شك أو حتى تردد في صدق الرسول ﷺ ولكنه نزلهم منزلة المترددين الشاكين، وأكد الكلام بـ (إن) مع اسمية الجملة لما رأى من تهاون الناس بتحري الصدق والغفلة عن فضله والجهل بعظيم أثره لذلك أكد الخبر بأكثر من مؤكد عناية به واهتماماً بشأنه ورغبة في نقل هذا الاهتمام بنفس الدرجة من المتكلم إلى المخاطب، وكذا في قوله: (وإن البر يهدي إلى الجنة. ..) فقد أكد الجملة بـ (إن) مع اسمية الجملة ليعلي من قيمة البر ويؤكد أنه الطريق الموصل للجنة ويشير إلى أهميته والتي تعود بدورها على أهمية الصدق لأنه المؤدي إليه، وبين قوله (الصدق، والبر، والجنة) تناسب في اللفظ لأنها ألفاظ يتصل بعضها ببعض وكل منها طريق إلى ما بعده. وبينهم تناسب في المعاني لاقتران بعضهم ببعض في الخيال، قوله: (الصدق يهدي إلى البر) والهداية هي الدلالة الموصلة إلى البغية ونسبة الهداية للصدق استعارة حيث شبه الصدق بإنسان يهدي وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الهداية على سبيل الاستعارة المكنية ونسبة الهداية للصدق استعارة تخييلية فكأن الصدق إذا امتلك القلب لا يعيش فيه وحده، وإنما يبحث له عن رفيق هو نعم الرفيق وهو البر، وقوله: (والبر يهدي إلى الجنة...) كذلك فيه استعارة مكنية، وقوله: (فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة) وصل بين الجملتين لاتفاقهما في الخبرية، واتحادهما في المسند مع اختلافهما في المعنى فبينهما ارتباط من جهة، واختلاف من جهة، ولذلك وصل بينهما، وهو ما يسمى بالتوسط بين

الكمالين، وكذلك جملة: (فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار). وقوله: (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق) عبر بفعل دال على الاستمرارية بدلالته ودال على التجدد والاستمرارية بصيغته المضارعية ما يضيفه الثاني من معنى البحث والتدقيق وصولاً إلى الصدق مما يؤكد إصرار هذا العبد وتمسكه بمبدئه في انتهاج الصدق وصبره على ما يمكن أن يلاقيه في سبيله وهذا مفهوم من لفظ (ما يزال) (ويتحرى)، وقوله: (حتى يكتب عند الله صديقاً) التعبير بالكتابة يفيد تأكيد الوجوب أي: يحكم له، والمراد: الإظهار للمخلوقين إما للملأ الأعلى، وإما أن يلقى ذلك في قلوب الناس، وألسنتهم، وإلا فحكم الله أزلي، والغرض، أنه يستحق وصف الصديقين وثوابهم.[1] وتقييد الفعل (يكتب) بالظرف (عند) وإضافته (لله) فيه تربية للمهابة وتعظيم للفعل وترغيب في الصدق وإشادة بالصادق. وقوله (وإياكم والكذب) بمعنى احذروا واجتنبوا وهو تأكيد للأمر بلزوم الصدق وقوله: (فإن الكذب يهدي إلى الفجور. ..) الفاء للتعليل لسبب التحذير من الكذب وهو كونه طريقاً موصلاً للفجور الذي هو الانبعاث في المعاصي وهو اسم جامع للشرور[2] ولعل تأكيد الجملة بأكثر من مؤكد يرجع إلى تساهل الناس في الكذب وجهلهم بخطره وما يمكن أن يبلغ بصاحبه، وقوله: (وإن الفجور يهدي إلى النار) يؤكد خطر الكذب ويبين عاقبته ترهيباً من التلبس به ويجعل الفجور قنطرة بين الكذب والنار توصل إليها، وبين قوله (الكذب والفجور والنار) تناسب في الألفاظ فكلها أسماء يؤدي بعضها إلى بعض وتقترن في الذهن، وقوله: (وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) أكد الجملة بثلاثة مؤكدات هي (إن) واسمية الجملة ولام التوكيد لتساهل الناس في أمر الكذب وأنه الطريق الموصل إلى سجل الأشقياء حيث يكتب العبد كذاباً، فنزل المخاطبين غير المنكرين منزلة المنكرين وأكد الجملة بعدة مؤكدات دفعاً لتساهل الناس ولما بدا عليهم من علامات هذا التساهل جهلاً بعاقبة الكذب

---

(١) عمدة القاري ٢٤١/١٥.

(٢) عمدة القاري ٢٤٠/١٥.

ومصير الكذاب. واستخدامه للفعل المفيد للاستمرارية (ما يزال) بصيغته ودلالته مع الفعل (يكذب) وإتباعه بفعل يدل على الاستمرارية والتجدد بصيغة (يتحرى) ويدل على البحث والتنقيب بمعناه يؤكد إصرار الكاذب واتخاذه الكذب عادة بل وبحثه عنه وكأنه صار متعته يُجِدُّ في طلبه، والأفعال المضارعة (ما يزال، يكذب، يتحرى) تصوِّر الكذاب في حركة دائمة دائبة بين الناس يخدعهم بكذبه ويشعل بينهم الفتن بأذاه. وما أروع المقابلة في هذا الحديث بين الخلق الحسن والتدرج معه إلى حسن عاقبته وبين الخلق الذميم والتدرج معه حتى يرى المخاطب سيء عاقبته فقد قابل بين قوله: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة) وبين قوله: (وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار) فقد قابل ﷺ بين لفظ (عليكم) بمعنى التزموا إغراءً وبين لفظ (وإياكم) بمعنى اجتنبوا تحذيراً وترهيباً وبين لفظ (الصدق) وبين (الكذب) وبين لفظ (البر) ولفظ (الفجور) وبين لفظ (الجنة) ولفظ (النار)، وأيضاً قابل بين نموذجين أحدهما التزم الخلق الأول (الصدق) وتحراه والآخر التزم الخلق الثاني (الكذب) وتحراه وقابل بين عاقبتهما، وذلك في قوله: (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً) وقابله بالنموذج السيئ: (وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) وقد قابل بين لفظ (يصدق ويكذب) وبين (الصدق والكذب) وبين (صديق وكذاب).والمقابلة بين الخلق الحسن (الصدق والتزامه وعاقبته) وبين الخلق السيئ (الكذب التزامه وعاقبته) ثم المقابلة بين النموذج الحسن (الصادق المتحري للصدق وحسن عاقبته وبين النموذج السيئ (الكاذب المتحري للكذب وسوء عاقبته) يؤكد ويوضح ويشير إلى عدة دلالات: منها:

التأكيد على فضيلة الصدق وحسن عاقبته بوضعها إزاء رذيلة الكذب وعاقبتها لأن شرية الشر تؤكد وتظهر وتبني خيرية الخير بالمفهوم، فضلاً عن اقترانهما في الذهن، ومن الثابت في النفوس أن حسن الحسن يظهر قبح القبيح كما أن قبح القبيح يظهر حسن الحسن.

وضع النتيجتين المتقابلتين إزاء بعضهما (الجنة – والنار) يجعل المخاطب يفكر ألف

مرة قبل أن يكذب كذبة يستبدل بها الجنة بالنار كما يثمن غالياً فضيلة الصدق إذ جعل عاقبتها الجنة ويقرر خطر الكذب كرذيلة عاقبتها النار.

وضع البر بين الصدق وبين الجنة رسم وتحديد لطريق الصادق تترك طريقه واضحة المعالم عبوراً على قنطرة البر وهو جماع الخير ويبين العلاقة بين حسن الخلق ونتيجته ترغيباً في الصدق. كما أن وضع الفجور بين الكذب والنار إشارة إلى أن الفجور قنطرة يعبر منها جواد جامح في مضمار الكذب وطريق الغواية حتى يهوي به في النار.

وضع الصورتين المتقابلتين بإزاء بعضهما يحقق الإقناع العقلي الناشئ عن تمام العلم مع وضوح العاقبة لكلا السبيلين مع تحقيق الإمتاع النفسي الذي يحدثه التناظر بينهما.

وضع النموذج الحسن وتحريكه بالأفعال المضارعة (يصدق – يتحرى الصدق – يكتب) وهو يبحث ويفتش عن الصدق حتى يدرك غايته عند الله (صديقاً) بإزاء النموذج السيئ وتحريكه بالأفعال المضارعة (يكذب، ويتحرى الكذب – يكتب) وتصويره يبحث عن الكذب ويفتش عنه: يعطي المخاطبين صورة حية متحركة لكل صادق في حسن فعله وسلامة عاقبته وتستدعي في نفس كل مخاطب صورة صادق كان يعرفه فيتمثله ويثبت في وجدانه ويتقرر حسن الصدق في نفسه فيتخلق به. ويعطي المخاطبين – أيضاً صورة حية متحركة لنموذج سيء يبحث عن الكذب ويفتش عنه ويطلق لسانه الآثم حتى يدركه قدره القاصم ويسلمه لهمه الجاسم عند أبواب الجحيم.

أيضاً – وضع كلا الطريقين إزاء الآخر يترك لكل عاقل حرية الاختيار بعد تمام العلم واتضاح معالم الطريق وظهور العاقبة حتى إذا سار في أحدهما كان حقيقاً بما اختار من جنة أو نار. وبين المقابلتين تلميح بليغ وهو أن يشار إلى قصة أو غيره من غير ذكره وقول الرسول ﷺ (وإن البر يهدي إلى الجنة.. وإن الفجور يهدي إلى النار) يلمح إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ❁ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1] وهذا التلميح بالآيتين الكريمتين يؤكد قول الرسول ﷺ ويؤيده بقول الله تعالى.، والنص على ذكر

---

(١) سورة الانفطار:١٣ : ١٤.

المسند إليه (البر) و(الفجور) مع إمكان الاستغناء عنه لتقدم ذكره بغرض زيادة الإيضاح والتقرير وجعله ملء الأسماع والأفهام حتى يكون أتم وضوحاً[١].

المضامين الدعوية[٢]

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري ٢٧٠.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٥٤).

الحديث رقم (١٥٤٥)

١٥٤٥- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: ((**أرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**)). متفق عَلَيْهِ[1].

وَقَدْ سبق بيانه مَعَ حديث أَبي هريرة بنحوه في ((باب الوفاءِ بالعهدِ))[2].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

المنافق: الذي يظهر الإيمان ويخفى الكفر[3].

خصلة: شعبة وصفة[4].

فجر: مالَ عن الصِّدق وأعمال الخير[5].

المضامين الدعوية[6]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨/١٠٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٦).

(٢) برقم (٦٩٠) كما أنه سيأتي برقم ١٥٨٦.

(٣) النهاية في (ن ف ق).

(٤) النهاية واللسان في (خ ص ل).

(٥) النهاية في (ف ج ر).

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٩٠).

الحديث رقم (١٥٤٦)

١٥٤٦- وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ، كُلِّفَ أنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ[١]، صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فِيهَا (الرُّوحَ)[٢] وَلَيْسَ بنافِخٍ)). رواه البخاري[٣].

(تَحَلَّم): أيْ قَالَ إنَّه حلم في نومه ورأى كذا وكذا، وَهُوَ كاذب. و(الآنك) بالمدّ وضم النون وتخفيف الكاف: وَهُوَ الرَّصَاصُ المذاب[٤].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

تحلم: أي: قال إنه حلم في نومه ورأى كذا وكذا؛ وهو كاذب[٥].

يعقد بين شعيرتين: أي: عذب حتى يفعل ذلك، فيجمع بين ما لم يمكن أن يعقد كما عقد بين ما سرده، واختلق من الرؤيا، ولم يكن يقدر أن يعقد بينهما[٦].

الآنك: الرصاص المذاب[٧].

الشرح الأدبي

إن من أخلاق المسلم ومقومات شخصيته: الصدق في القول والعمل، والالتزام بما أمره به ربه، والكف عما نهاه عنه، عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(١) عند البخاري زيادة: (أو يفرون منه) وليست عند المنذري.

(٢) قوله: (الروح) ليس عند البخاري في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (٥٩٦٣)، وكذا عند المنذري.

(٣) برقم (٧٠٤٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٢٨).

(٤) الترغيب للمنذري (٤٣١/٣).

(٥) رياض الصالحين ٥٣١.

(٦) شرح الطيبي ٢٧٧/٨.

(٧) رياض الصالحين ٥٣١.

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1].

وهذا الحديث، الذي يجسد بعض السلبيات التي يجب أن ينأى عنها كل مسلم، يتكون من ثلاث جمل لغوية صيغت كلها في شق واحد، ونظام لغوي متآلف حيث جاءت كلها في صيغة الشرط والجواب، وهذه الصيغة مناسبة للمقام، وملائمة لمقتضى الحال، لأن الجزاء من جنس العمل، فالجملة الأولى: "من تحلم بحلم، لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل"، والمراد: أنه يكذب ويدعي أنه رأى رؤيا وهو لم ير، وقُدِّم هذا الصنف؛ لأن الكذب في المنام كذب على الله عز وجل، وفعل الشرط "تحلم بحلم" يفيد التكلف، وذلك لزيادة التاء والتضعيف، ولم يقل من حلم بحلم، ووصف الحلم بقوله: لم يره، لإفادة تعمد الكذب، وللإشعار بمضاعفة العذاب؛ وجواب الشرط في هذه الجملة كناية عن العذاب، وليطول عذابه في النار، لأن عقده بين الشعيرتين غير ممكن، وقوله: "ولن يفعل"، يوحي بتحقق العذاب، ومكوث هذا الكاذب في النار بمقدار عجزه عن العقد بين الشعيرتين.

وأما الجملة الثانية: فهي كذلك في صيغة الشرط والجواب، والشرط هو قوله: "استمع إلى حديث قوم"، وحالهم أنهم له كارهون، والجواب هو الجزاء الذي يستحقه ذلك الذي يسترق السمع، ويهتك أسرار الناس، ويذيع ما يحرصون على كتمانه، والعقاب: هو أنه يُصَبُّ في أذنيه الآنُك: وهو الرصاص المذاب، لأن السمع استقبل كلامًا عن طريق التلصص، فعقابه أن يتحول الكلام في أذنيه يوم القيامة إلى رصاص مصهور وهو كالحميم الآني.

والجملة الثالثة شرطية كذلك، وهي تجسد العقوبة التي يستحقها كل من ينازع الخالق في قدرته، لأنه كما - قال العلماء - بصورته أدخل في الوجود صورة ليست بحقيقية، فالصورة الحقيقية هي التي فيها الروح، وقوله: "كُلف" جواب الشرط والتكليف مسؤولية واجبة التنفيذ والمصوِّر لا يقدر على نفخ الروح في الصورة لأن الروح

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

من أمر الله تعالى، ولذلك يستمر عذابه في النار، وقوله: "ليس بنافخ" يوحي بمزيد من العجز، ويوحي بمزيد من العذاب الذي يلحق بذلك المصوِّر.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ لمن يفتري الكذب ويدعي أمورًا زورًا وبهتانًا.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: الترهيب من التجسس على الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد للمصورين.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: تحذير النبي ﷺ لمن يفتري الكذب ويدعي أمورًا زورًا وبهتانًا:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ومن تحلم بحلم لم يره، كُلف أن يعقد شعيرتين ولن يفعل...".

قال ابن حجر: (وأما الكذب على المنام فقال الطبري: إنما اشتد فيه الوعيد من أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه إذ قد تكون شهادة في قتل أو حد أو أخذ مال، لأن الكذب في المنام كذب على الله أن أراه ما لم يره، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[1]، وإنما كان الكذب في المنام كذبًا على الله لحديث ((إذا اقتربَ الزمان لم تكد رُؤيا المؤمن تَكذبُ، ورُؤيا المؤمن جزءٌ من ستةٍ وأَربعينَ جزءًا منَ النبوَّة، وماكان من النبوَّة فإنه لا يكذب))[2] وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبل الله تعالى. وقوله "كلف أن يعقد بين شعيرتين" كناية عن التعذيب)[3].

---

(١) سورة هود، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٧٠١٧، والفتح ٤٢٢/١٢.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤٤٧/١٢.

ثانيًا- من أهداف الدعوة: الترهيب من التجسس على الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صُب في أذنيه الآنك يوم القيامة" قال ابن أبي جمرة: (وقوله ﷺ "ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون" هل هذا الاستماع على العموم على أي وجه كان أو على الخصوص؟ الظاهر أنه على الخصوص، لأنه لو كان على العموم لكان الأكثر منه من تكليف ما لا يطاق ومولانا سبحانه قد من علينا ولم يكلفنا هذا الأمر في العلم بكراهية للسامع لو كنا نطلب بالعلم بحقيقة ذلك كان أيضًا بعضه من تكليف ما لا يطاق، وإنما كلفنا في العلم بذلك بحسب قرائن الحال التي تدل على كراهيتهم بسمعنا إلى حديثهم فالاستماع على وجه خاص وليس على عمومه، وذلك مثل قوم يتحدثون في منزلهم، فإن استمعت إلى حديثهم فقد دخلت تحت هذا الحد؛ لأنهم بقرينة حالهم وهو كونهم في منزلهم وقد أغلقوا دونك بابهم، فدل ذلك على أنهم إنما أرادوا أن ينفردوا بحديثهم، دونك ودون غيرك ممن خلف بابهم، وكذلك إذا تسارر شخص مع آخر ومع جماعة دونك فقد كرهوا أن يسمعوك حديثهم؛ فإن استمعت إليهم دخلت تحت هذا الحد ولذلك نهى ﷺ "أن يتناجى اثنان دون واحد" لما كان الواحد ممنوعًا أن يسمع إلى حديثهما منعًا أيضًا أن يتناجيا دونه فيقع عنده منهما توهم ويظن بهما فمنعا من ذلك بقوله ﷺ ((لا يتناجى اثنان دون واحد))[1] وأما إن كانوا يتحدثون أمامك جهرًا وإن كان في قلوبهم كراهية منك أن تسمع كلامهم فهذا لا يلزمك منه شيء ولا أنت مطلوب بأن تعلم كراهيتم لاستماعك حديثهم)[2].

فينبغي على المسلم اجتناب التجسس واستماع أحاديث الآخرين؛ فإن الأصل في المسلم الطهارة والعفة والبراءة والسلامة من كل شيء مشين. ولذا كان الأصل في الإسلام النهي عن التجسس بجميع صوره، وأشكاله، سواء كان تجسس الفرد على الفرد، أو الدولة على الفرد، أو الفرد على الدولة، أوالدولة على الدولة، لأن التجسس

(١) أخرجه البخاري ٦٢٩٠، ومسلم ٢١٨٤.

(٢) بهجة النفوس ٤/٢٥١، ٢٥٢.

فيه انتهاك لحرمة المسلم وكشف ستره وقد يسبب الحقد والبغض بين أفراد المجتمع المسلم، وهذا ما يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً. لذا فإن الإسلام حرم التجسس إلا في حالات مخصوصة.

ومن أدلة تحريم التجسس: يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ففي هذه الآية: الخطاب العام للمؤمنين بنهيهم عن أمور كثيرة منها: التجسس: والتجسس لفظ عام يشمل جميع أنواع التجسس دون استثناء.

ومن الأحاديث ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث. ولاتحَسَّسوا ولا تجسَّسوا، ولا تحاسَدوا ولا تَباغَضوا))[2] فلفظ الحديث عام يشمل النهي عن جميع أنواع التجسس.

ولا شك أن التجسس من أسوأ الاعتداءات على المسلم، فهو يتضمن عدم احترام حقوق المسلمين وانتهاكًا لأعراضهم[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الوعيد الشديد للمصورين:

يظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "ومن صَوّرَ صورةً عُذّب وكُلّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ".

قال ابن حجر: (هو أمر تعجيز ويستفاد منه صفة تعذيب المصور، وهو أن يكلف نفخ الروح في الصورة التي صورها وهو لا يقدر على ذلك فيستمر تعذيبه)[4].

قال ابن أبي جمرة: (وقوله صلى الله عليه وسلم "من صور صورة" هل هو على العموم في كل

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٦٤.

(٣) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، د. عبدالعزيز بن أحمد المسعود، ٢٣٨/٢، ٢٣٩.

(٤) فتح الباري ٣٩٨/١٠.

صورة من الصور أو على الخصوص؟ اللفظ محتمل وقرينة الحال التي بعد تقتضي الخصوص وهي قوله ﷺ "كلف أن ينفخ فيها" فإنه لا ينفع في صورة من الصور إلا صورة لها روح فتخصص بهذه القرينة أنها كل صورة لها روح من أي أنواع المخلوقات كانت، وقد جاء معنى هذا، أظنه عن عبدالله بن عباس، حين سأله شخص كان يفعل هذا فقال له "صور ما شئت مما ليس له روح مثل الشجر والفواكه وشبههما" أو كما قال ﷺ)[1].

وقال ﷺ: ((أشد الناس عذابًا عند الله المصورون))[2]، قال النووي: (قوله: "إن أشد الناس عذابًا" هذا محمول على من صور الأصنام لتعبد، فله أشد عذاب، لأنه كافر. وقيل: هذا فيمن قصد المضاهاة بخلق الله واعتقد ذلك وهو أيضًا كافر، وعذابه أشد. ومن لم يقصدهما فهو فاسق لا يكفر كسائر المعاصي. وأما الشجر ونحوه مما لا روح فيه فلا يحرم صنعته ولا التكسب به)[3]. وهذا مذهب العلماء إلا مجاهد فإنه جعل الشجرة المثمرة من المكروه[4].

قال الطيبي: (قال الخطابي: المصور هو الذي يصور أشكال الحيوان فيحكيها بتخطيط لها وتشكيل، فأما النقّاش الذي يَنْقُش أشكال الشجر ويعمل التداوير والخواتيم ونحوها، فإني أرجو أن لا يدخل في هذا الوعيد، وإن كان جملة هذا الباب مكروهًا وداخلاً فيما يلهي، ويشغل بما لا يعنى. وإنما عظمت العقوبة في الصورة؛ لأنها تعبد من دون الله فالنظر إليها يفتن، وبعض النفوس نحوها تنزع)[5].

رابعًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من تحلم بحلم لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب في أذنيه الآنك يوم القيامة،

---

(١) بهجة النفوس ١٥٢/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩٥٠، ومسلم ٢١٠٧.

(٣) شرح صحيح مسلم، ص ١٣٣٢، ١٣٣٣.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢٧٦/٨.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢٧٦/٨.

ومن صور صورة، عذب وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ".

فقد اشتمل الحديث على الترهيب من الكذب على الرؤيا، والترهيب من الاستماع لحديث من لا يريد استماعه. والترهيب: من التصوير.

وبيّن ﷺ أن هذه الأعمال يعذب بها فاعلها يوم القيامة: ووجه المناسبة بينهم. قال ابن أبي جمرة: (ومناسبة الوعيد المذكور للكاذب في منامه وللمصور أن الرؤيا خلق من خلق الله، وهي صورة معنوية، فأدخل بكذبه صورة لم تقع كما أدخل المصور إلى الوجود صورة ليست بحقيقة، لأن الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح، فكلف صاحب الصورة اللطيفة أمرًا لطيفًا وهو الاتصال المعبر عنه بالعقد بين الشعيرتين، وكلف صاحب الصورة الكثيفة أمرًا شديدًا، وهو أن يُتم ما خلقه بزعمه بنفخ الروح، ووقع وعيد كل منهما، بأنه يعذب حتى يفعل ما كلف به، وهو ليس بفاعل فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام، قال: والحكمة في هذا الوعيد الشديد أن الأول كذب على جنس النبوة، وأن الثاني نازع الخالق في قدرته، وقال في مستمع حديث من يكره استماعه: يدخل في من دخل منزله، وأغلق بابه، وتحدث مع غيره، فإن قرينة حاله تدل على أنه لا يريد للأجنبي أن يستمع حديثه، فمن يستمع إليه يدخل في هذا الوعيد، وهو كمن ينظر إليه من خلل الباب، فقد ورد الوعيد فيه، ولأنهم قالوا لو فقؤوا عينه لكانت هدرًا)[1].

وأسلوب الترهيب يقصد به كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله[2].

---

(١) بهجة النفوس ٢٥١/٤، وهذا ملخص فتح الباري، ابن حجر، ٤٤٧/١٢.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

الحديث رقم (١٥٤٧)

١٥٤٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ : ((أَفْرَى الفِرَى أنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا)). رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

غريب الألفاظ:

أفرى الفِرى: أي: أعظم الكذبات، والفرى جمع فرية[2]، ومعناه: أن يقول: رأيت فيما لم يَرَه[3].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: شناعة الافتراء والكذب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عن كلامه.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: شناعة الافتراء والكذب:

جاء ذلك في صريح قوله ﷺ : "أفرى الفرى أن يُرِيَ الرجل عينيه مالم تريا" قال ابن حجر: "أى أعظم الكذبات والفرى، قال ابن بطال: والفرية: الكذبة العظيمة التي يتعجب منها ، أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا ، أى أخبر عنهما بالرؤيا وهو كاذب، قال الإمام الطبري: وأما الكذب في المنام فإنما اشتد فيه الوعيد مع أن الكذب في اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه، إذ قد تكون شهادة في قتل أوحد أو أخذ مال، لأن الكذب في المنام كذب على الله أنه أراه ما لم يره، والكذب على الله أشد من

---

(١) برقم (٧٠٤٣).

(٢) فتح الباري ١٢/٤٤٩.

(٣) رياض الصالحين.

الكذب على المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1]، وإنما كان الكذب في المنام كذبًا على الله لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءً من النبوة" [2]. وما كان من أجزاء النبوة فهو من قِبَل الله تعالى[3]، وكذلك يندرج تحت شناعة الكذب في اليقظة، قال ابن علان في قوله صلى الله عليه وسلم: "أن يُرِيَ الرجلُ عينيه ما لم تريا"، ظاهره شمول اليقظة والنوم، ومقتضى إيراد المصنف ثم تفسيره شموله له"[4].

فالكذب على الله من أشد الكبائر، قال الإمام ابن حجر الهيتمي "وأفحش الكذب ما كان كذبًا على الله عز وجل أو رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد صرح العلماء بعدٍّ هذين النوعين (الكذب على الله والكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم) من الكبائر، وذهب بعضهم إلى أن الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم كفر، قال ابن حجر: ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام أو تحريم حلال كفر محض، وإنما الكلام في الكذب عليهما فيما سوى ذلك"[5].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: مسئولية الإنسان عن كلامه:

لقد قرر الإسلام مسئولية الإنسان عن كل ما يتلفظ به لسانه، وذلك بيانًا لعظم مسئولية الكلمة وخطورتها، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[6]، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: "ما يلفظ من قول..."، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت"، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأُقِرّ منه ما كان فيه من خير

---

(١) سورة هود، آية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري ٦٩٨٣، ومسلم ٢٢٦٣.

(٣) فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ج١٢/٤٤٧.

(٤) دليل الفالحين، ص ١٥٩٩.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١/١٢٤.

(٦) سورة ق، آية: ١٨.

أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[(١)]،[(٢)]، لذا ينبغي على المسلم أن يحفظ لسانه من الآفات، كالكلام فيما لا يعني، والكذب والغيبة وغير ذلك[(٣)]، فربما كلمة أهوت بصاحبها في أسفل سافلين، وأوردته موارد التهلكة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم"[(٤)]، ومن ذلك الكذب في الرؤى كما جاء في الحديث "أفْرَى الفِرَى أن يُرِي الرجلُ عينَيْه ما لم تَرَيَا"، ولله در القائل:

احفَظْ لِسَانَكَ أيُّها الإنْسَانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إنَّهُ ثُعْبَانُ

كم في المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... كانَتْ تَهَابُ لقاءَهُ الشُّجْعَانُ[(٥)]

عجيب حقًا أمر هذا اللسان، تراه مع صغر حجمه فَيْصلا تعرف به ذات البشر، ويستبين منه عمق الرجال ودرجاتهم من الفنون والثقافة، ومكانتهم العقلية والفكرية، وتجاربهم في الحياة العامة، وحنكتهم وذكاؤهم... إلخ.

وكثيرًا ما أوقع اللسان أمة في الهلاك.. وكثيرًا ما قاد جيشًا إلى الهاوية، وكثيرًا ما أودى بحياة جمع من البشر... لسوء حركته... وتعذر إلجامه.

وعجيب حقًا أمر هؤلاء الذين يصابون بنكبات من جراء ألسنتهم، ولم يقدروا على إلجامه وإلزامه، فالإنسان مخلوق وهب العقل المحكم والأعضاء الفاعلة.. والمفروض أن هذه النكبات حافزة على إلزامه أن يلزم نفسه وهواه.. فيتحكم في كلماته.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٣٩٩/٧.

(٣) التربية على منهج أهل السنة والجماعة، أحمد فريد، ١٩٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، و مسلم ٢٩٨٨ مختصراً.

(٥) كتاب الأذكار، الإمام النووي، ٢٩٨، والأبيان للإمام الشافعي، البحر: الكامل التام، المستظرف ١٨٦/١.

وعجيب أن يصعد بشر بين البشر ويأخذ مكانه عندهم بلسانه فقط. فليس كل المشاهير وأصحاب الجاه والمكانة يمتلكون ثروة علمية أو مادية. ولكنك ترى بعضهم يمتلكون معرفة بآفات اللسان. فيزدادون حرصًا عليه. فيلزمونه أن يتحرك دون فائدة. فيظهر عليهم الكمال والاتزان البشري. فيصلون إلى مكانة بين البشر. فسبحان الله.

وللسان مكانة بين الأعضاء، فكما هو نقمة على صاحبه إن أساء استعماله. فهو نعمة كبرى ومنة عظمى[1].

قال أبو حامد الغزالي: اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرف عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان، وأهمله مرخي العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان، أو يذم، غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه. وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان[2].

---

(١) أمراض النفوس، إبراهيم محمد الجمل، ص٢٥، ٢٦.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/١٠٤.

ألا فيعلم الإنسان ويستحضر دائمًا أن ما ينطق ويتلفظ به مسجل عليه محاسب به، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

ثالثًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

ورد أسلوب الترهيب في الحديث واضحًا بينًا، حيث رهب النبي ﷺ من الكذب خاصة في الرؤى ببيان أن ذلك من أعظم الكذب وأشده، فقال ﷺ "أفْرَى الفرى أن يُرِي الرجلُ عينيه ما لم تَرَيا"، وأسلوب الترهيب من أجدى الأساليب الدعوية نفعًا وأشدها تأثيرًا في قلوب المدعوين، لما فيه من تخويف المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والأصل في الترهيب أن يكون بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام، كما بينه القرآن، وجاءت به السنة النبوية المطهرة[2]، وينتج عن أسلوب الترهيب رهبة تخالج شعور الإنسان وتدفع صاحبها إلى البعد عن كل ما يؤدي إلى غضب الله وعذابه، من أعمال في هذه الحياة الدنيا[3]، وآيات القرآن حافلة بأسلوب الترهيب ومن ذلك ما ورد في الترهيب من الكذب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

آذان ألفت سماع المنكر، وأبصار استمرأت رؤية الباطل، وألسن استساغت اللغو والغيبة، وقلوب أقفرت من الخشية، وأجدبت من الخوف فاسودت وأظلمت، وقست وتحجرت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، لم تعد تهزها الموعظة، أو تنفعها الذكرى، أو تفيدها العبرة، أو يحدوها الوعد، أو يرهبها الوعيد، إلا من رحم ربك.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ص ٤٣٧.

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم ج٦/٢١٧٠.

(٤) سورة هود، آية: ١٨.

ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(١).

والآن لنرى كيف ترجمت تلك المعاني، وطبقت هاتيك القيم، ولمع ذلك الإحساس في سماء صفوة من الناس، عمرت بالخوف قلوبهم، وتبددت من الإشفاق نفوسهم، وطاشت خشية الهول عقولهم، قلوب وجلة، وأكباد محترقة، وأعين باكية، ودموع مسبلة، احترقت وجناتهم، وشحبت ألوانهم، ونحلت أجسامهم، وكادت تزهق لشدة الخوف أرواحهم. أضناهم السهر، وأفزعهم الخبر. خشوع وخضوع، نحيب ودموع، صلاة وصيام، وجهاد وقيام، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، ويصبحون شعثًا غبرًا صفرًا:

تتجافى عن الفراش من الخوف ... إذا الجاهلون باتوا نياما
بأنين وعبرة ونحيب ... ويبيتون سجدًا وقياما

ومع كل ذلك كانوا كأن النار لم تخلق إلا لهم، فأشفقوا من يوم الوقوف على الله، وخافوا من هول المقام بين يديه، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(٢)(٣).

إن الرهبة إذا غرست في قلب المسلم فإنه يحال بينه وبين معاصي الله تبارك وتعالى ولقد مدح الله عباده المؤمنين وفي مقدمتهم أنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(٤).

اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك في الدنيا فأمنته يوم القيامة.

وما كثرت الذنوب وأظلمت القلوب إلا لقلة الخوف من علام الغيوب.

تحيط بنا العبر، وتكثر الحوادث، وتعظم الكوارث، وتفتن الأمم، وتحل النقم، والأنفس لاهية، والأفكار ساهية، وحبال التقوى واهية.

قلوب تحجرت، وأحاسيس تبلدت، وجوارح عطلت، لا قلب يخشع ولا نفس تشبع،

---

(١) سورة الأعلى، الآيات: ٩-١٣.

(٢) سورة الإنسان، آية: ١٠.

(٣) انظر: كتاب الله أهل الثناء والمجد، د/ناصر بن مسفر الزهراني، ص٦٤٧، ٦٤٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

ولا عين تدمع، ولا فؤاد يرجف، ولا لسان ينكر. إلا من رحم الله.

أتخمت البيوت بالمعاصي، وملأت العقول بالشبهات، وأترعت النفوس بالشهوات، تسمع المعصية وقل من ينكرها، ويشاهد المنكر وكأنه المعروف، ويؤكل الحرام وكأنه الحلال، يجالس صاحب المعصية، ويؤاكل ويشارب مرتكب الكبيرة دون حرج في النفس من فعله أو إنكار في القلب لسلوكه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، آية: ٧٨، ٧٩.

الحديث رقم (١٥٤٨)

١٥٤٨- وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ ﷺ قالَ: كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: ((هَلْ رَأى أحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيا؟))[1] فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شاءَ اللهُ أنْ يَقُصَّ، وإنَّهُ قالَ لنا[2] ذات غَدَاةٍ: ((إنَّهُ أتانِي اللَّيْلَةَ آتِيانِ[3]، وإنَّهُما قالا لِي: انْطَلِقْ، وإنِّي انْطَلَقتُ مَعَهُمَا، وإنَّا أتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإذَا آخَرُ قائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وإذَا هُوَ يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجرُ ها هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيأخُذُهُ، فَلا يَرْجِعُ إلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأسُهُ كَما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأولَى!)).

قَالَ: ((قُلْتُ لهما: سُبْحانَ اللهِ ! مَا هَذان؟ قَالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإذَا هُوَ يَأتِي أحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرَهُ إلَى قفاهُ، وعَيْنَهُ إلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلَى الجانبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الجانبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجانبُ كما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي المرَّةِ الأُولَى)).

قَالَ: ((قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هذان؟ قالا لي: انْطَلِق انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ)) فَأَحْسِبُ أنَّهُ[4] قَالَ: ((فإذا فِيهِ لَغَطٌ، وأصْواتٌ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فإذا فِيهِ رِجَالٌ وَنِساءٌ عُرَاةٌ، وَإذَا هُمْ يَأتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أسْفَلَ مِنْهُمْ، فإذا أتاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا.

قُلْتُ[5]: مَا هَؤلاءِ؟ قَالا لِي: انْطَلِق انْطَلِقْ.

---

(١) هذا الذي أخرجه مسلم (٢٢٧٥/٢٣) في هذا الحديث، ولم يزد، وأخرجه البخاري بطوله، مقطعًا في مواضع عدّة.

(٢) (لنا) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية. وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٣) عند البخاري زيادة: (وإنهما ابتعثاني).

(٤) عند البخاري زيادة: (كان).

(٥) عند البخاري زيادة: (لهما)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ)) حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: ((أَحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سابحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كثيرةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَينطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَغَرَ لَهُ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا.

قُلْتُ لهما: مَا هذان؟ قالاَ لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المرْآةِ، أَوْ[1] كَأَكْرَهِ مَا أنتَ رَاءٍ رجُلاً مَرْآىً، فإذا هُوَ[2] عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا. قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قالاَ لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانطلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكَادُ أَرَى رَأسَهُ طُولاً فِي السَّماءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلدانٍ رَأيْتُهُمْ قَطُّ.

قُلْتُ[3]: مَا هَذَا؟ وَمَا هؤلاءِ؟ قالا لي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ[4] عَظيمةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْهَا، وَلاَ أحْسَنَ! قالا لي: ارْقَ فِيهَا، فارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا، فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاها، فَتَلَقَّانَا[5] رِجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أنت راءٍ! وَشَطْرٌ مِنْهُمْ[6] كَأقْبَحِ مَا أنتَ راءٍ! قالا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، وَإِذَا هُوَ[7] نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأنَّ مَاءَهُ المَحْضُ فِي البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أحْسَنِ صُورَةٍ)).

---

(١) (أو) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٢) (هو) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه.

(٣) عند البخاري زيادة: (لهما)، وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه، وتبع عليه المنذري والمؤلف.

(٤) لفظ البخاري: (روضة) في الموضعين، بدل: (دوحة) والمثبت من الجمع للحميدي، وتبع عليه المنذري والمؤلف، وهو لفظ أحمد في المسند (٢٠٠٩٤).

(٥) عند البخاري زيادة: (فيها). وهي لا توجد عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٦) (منهم) لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٧) (هو) لا توجد عند البخاري، وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المؤلف.

قَالَ: ((قالا لِي: هذهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وهذاك مَنْزِلُكَ، فسَمَا بَصَري صُعُدًا، فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ البَيضاءِ، قالا لي: هذاكَ مَنْزِلُكَ؟ قلتُ لهما: بارك اللهُ فيكُما، فذَراني فأدخُلَه. قالا لي[1]: أمَّا الآنَ فلاَ، وأنتَ دَاخِلُهُ، قُلْتُ لَهُمَا: فَإنِّي[2] رَأيتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا؟ فما هَذَا الَّذِي رأيتُ؟.

قالا لي: أمَا إنَّا سَنُخْبِرُكَ:

أَمَّا الرَّجُلُ الأوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأسُهُ بالحَجَرِ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فَيَرفُضُه، ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكتُوبَةِ.

وأمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرُهُ إلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إلَى قَفَاهُ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ.

وأمَّا الرِّجَالُ والنِّسَاءُ العُراةُ الَّذِينَ هُمْ[3] في مثْلِ بناءِ التَّنُّورِ، فَإنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّواني.

وأما الرجلُ الذي أتيتَ عَليهِ يَسْبَحُ في النهرِ، ويلقم الحجارةَ، فإنَّهُ آكلُ الربا.

وأمَّا الرَّجُلُ الكَريهُ المرآةِ، الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فإنَّهُ مالكٌ خازِنُ جَهَنَّمَ.

وأمَّا الرَّجُلُ الطَّويلُ الَّذِي في الرَّوْضَةِ، فإنَّهُ إبراهيم ﷺ.

وأمَّا الولدان الَّذِينَ حَوْلَهُ، فكلُّ مَوْلُودٍ ماتَ عَلَى الفِطْرَةِ)).

(وفي رواية البَرْقانِيِّ: ((وُلِدَ عَلَى الفِطْرَةِ))) [4].

فَقَالَ بعض المُسلمينَ: يَا رسولَ الله، وأولادُ المُشركينَ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((وأولادُ المشركينَ.

وأما القومُ الذينَ كانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبيحٌ، فإنَّهُمْ قَومٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تَجاوَزَ الله عنهم)). رواه البخاري[5].

---

(١) (لي) لا توجد عند البخاري.

(٢) عند البخاري زيادة: (قد)، وهي لا توجد الحميدي، تبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٣) (هم) لا توجد عند البخاري. وهي عند الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري والمؤلف.

(٤) هذه الزيادة نقلها المؤلف عن الحميدي في جمعه (١/ ٣٨٠، رقم ٦٠٩). ولم يوردها المنذري في ترغيبه.

(٥) برقم (٧٠٤٧). الجمع للحميدي (١/٣٧٧- ٣٨٠، رقم ٦٠٩). أورده المنذري في ترغيبه (٨٢٥).

وفي روايةٍ لَهُ[1]: ((رَأيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ اتيَانِي[2] فاخْرَجَانِي إِلَى ارْضٍ مُقَدَّسَةٍ)) ثُمَّ ذَكَرَهُ وقال: ((فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ، اعْلاهُ ضَيِّقٌ وَاسْفَلُهُ واسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فإذا ارْتَفَعَتْ[3] ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا[4] انْ يَخْرُجُوا، وَإِذَا خَمَدَتْ! رَجَعُوا فِيهَا، وفيها رِجالٌ ونساءٌ عراةٌ)).

وفيها: ((حَتَّى اتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ)) (ولم يشكَّ) [5] ((فِيهِ رَجُلٌ قائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ وعلى شطِّ النَّهرِ رجلٌ، وبينَ يديهِ حِجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النَّهرِ، فَإِذَا ارَادَ انْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ[6] يَرْمِي في فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كما كَانَ)).

وفيها: ((فَصَعِدَا بي[7] الشَّجَرَةَ، فَادْخَلاَنِي دَارًا لَمْ ارَ قَطُّ احْسَنَ مِنْهَا، فيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ[8])).

وفيها: ((الَّذِي رَايْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بالكِذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ (مَا رَأيْتَ) [9] إِلَى يَومِ القِيَامَةِ)).

وَفِيهَا: ((الَّذِي رَايْتَهُ يُشْدَخُ رَاسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ

---

(١) برقم (١٣٨٦) من رواية جرير بن حازم.

(٢) عند البخاري زيادة: (وأخذا بيدي)، وهي لا توجد عند الحميدي، فتبعه عليه المؤلف.

(٣) لفظ البخاري: (اقترب)، وفي لفظ: (اقترت). والمثبت لفظ الحميدي في جمعه. وتبعه عليه المنذري في ترغيبه (٣٥٢٦)، والمؤلف.

(٤) لفظ البخاري: (حتى كاد أن يخرجوا)، وفي لفظ: (كادوا يخرجون). والمثبت لفظ الحميدي في جمعه، وتبعه عليه المنذري في ترغيبه، والمؤلف.

(٥) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري، وإنما هي من الحميدي كما في جمعه، ويريد بقوله هذا: أن في الرواية التي تقدمت: (حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم) وفي رواية جرير بن حازم، قال: (على نهر من دم) ولم يقل: (حسبت) ولأجل ذلك علّق الحميدي بقوله هذا: إن جرير بن حازم رواه بهذا اللفظ بلا شكٍّ.

(٦) (جعل) لا توجد عند البخاري، ولا عند الحميدي في جمعه.

(٧) عند البخاري زيادة: (في)، وهذا لفظ الحميدي في جمعه.

(٨) وزاد: (ونساء وصبيان)، وهذه الزيادة لم يوردها الحميدي في جمعه اختصارًا، وتبعه عليه المؤلف.

(٩) هذه الزيادة لا توجد عند البخاري في هذه الرواية، وهو تفسير من النووي.

فِيهِ بالنَّهارِ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[١].

والدَّارُ الأولَى الَّتي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤمِنِينَ، وأمَّا هذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَداء، وأنا جِبْرِيلُ، وهذا مِيكائيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأسِي، فإذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أدْخُلُ مَنْزِلي، قالا: إنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَهُ أتَيْتَ مَنْزِلَكَ)). رواه البخاريُّ.

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٥٨).

غريب الألفاظ:

غَدَاة: ما بين الفجر وطلوع الشمس أي: صباحَ يوم[٢].

فَيَثْلغ رأسَه: يشدخه ويشقه[٣].

يتدهده: يتدحرج[٤].

الكَلُّوبُ: حديد مُعْوَجَّةُ الرأس[٥].

يشرشر: يُقَطِّعُ[٦].

شدقه: جانب فمه[٧].

التَّنُّور: الذي يخبز فيه[٨].

اللغط: صوت وضجة لا يفهم معناها[٩].

---

(١) هذه القطعة رواها البخاري أيضًا برقم (٦٠٩٦).

(٢) الوسيط في (غ د و).

(٣) رياض الصالحين ٥٢٤.

(٤) رياض الصالحين ٥٢٤.

(٥) النهاية في (ك ل ب).

(٦) رياض الصالحين ٥٢٥.

(٧) انظر: فتح الباري ١٢/٤٦١.

(٨) النهاية في (ت ن ر).

(٩) النهاية في (ل غ ط).

ضَوْضَوا: أصاحوا[١].

فيَفْغَر له: يفتح[٢].

فيلقمه حجرًا: يرميه إياه[٣].

المرآة: المنظر[٤].

يحشها: يوقدها[٥].

روضةٍ معتمة: وافية النبات طويلته[٦].

نَور: زهر[٧].

دوحة: شجرة كبيرة[٨].

ارْقَ: اصعد[٩].

بلبن ذهب ولبن فضة: اللبن جمع لبَنَه، وأصلها ما يبنى به من طين[١٠].

نهر معترض: أي: يجري عرضًا[١١].

المحض: اللَّبَنُ[١٢].

فسما بصري: ارتفع[١٣].

---

(١) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٢) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٣) فتح الباري ١٢/٤٦٢.

(٤) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٥) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٦) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٧) فتح الباري ١٢/٤٦٣.

(٨) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٩) الوسيط في (ر ق ى).

(١٠) فتح الباري ١٢/٤٦٥، ٤٦٦.

(١١) فتح الباري ١٢/ ٤٦٤.

(١٢) رياض الصالحين ٥٣٥.

(١٣) رياض الصالحين ٥٣٥.

صُعُدًا: مرتفعًا[١].

الربابة: السحابة[٢].

الآفاق: جمع أفق، وهو الناحية[٣].

الفطرة: الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه[٤].

نقب: خرق[٥].

خمدت: سكن لهبها ولم يطفأ جمرها[٦].

يشدخ رأسه: شجه وجرحه[٧].

الشرح الأدبي

إن البيان النبوي تتعدد طرائقه، وتتنوع أساليبه التي يصل من خلالها إلى إقناع العقول، وإمتاع النفوس، وتهذيب الطباع، وتصفية القلوب.

والرمز هو وسيلة من وسائل الإقناع، والتأثير في هذا الحديث المطوّل الذي يسرد وقائع رؤيا صادقة من رؤى النبي ﷺ، ورؤى الأنبياء حق، وهي كفلق الصبح.

والتصوير الرمزي في هذا الحديث واضح لا غموض فيه، ولكن الصور غريبة مؤثرة تنزع إلى تصوير أدواء المجتمع وأمراض النفوس، وتوضح كذلك المصير المضيء الذي يؤول إليه الصالحون، بعد تفصيل مشاهد المصير المظلم الذي ينتهي إليه الفاسدون.

وفي صدر الحديث يتكرر التوكيد بإن "خمس مرات" للتنبيه على أهمية هذه الرؤيا النبوية حيث ترد هذه العبارات: إنه قال: إنه أتاني الليلة، وإنهما قالا،

---

(١) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٢) رياض الصالحين ٥٣٥.

(٣) الوسيط في (أ ف ق).

(٤) الوسيط في (ف ط ر).

(٥) الوسيط في (ن ق ب).

(٦) الوسيط في (خ م د).

(٧) الوسيط في (ش د خ).

وإني انطلقت، وإنا أتينا.

ومشاهدة هذه الرؤيا الرمزية تتضمن ثمانية رموز تضيء كثيرًا من جوانب الحياة المظلمة، وتكشف أحوال الفاسدين، وتتوعد بالعذاب طوائف المارقين، والتشويق يعد عنصرًا من عناصر التأثير في هذا الحديث لأن المصطفى ﷺ قدّم الصور الرامزة الغريبة أولاً. وعقب كل مشهد يتساءل ما هذان، ما هذان، ولكن تفسير الرموز جاء بعد سرد المشاهد كلها.. ثم قال رسول الله ﷺ مؤكدًا قوله: "فإني رأيت منذ الليلة عجبًا.. فما هذا الذي رأيت؟".

وتفسير المشاهد والرموز فيه إصلاح للنفوس، وإضاءة لكل دروب الخير والإصلاح في دنيا الناس.

ولنتأمل منظر ذلك الرجل المضطجع، الذي يَهْوي رجلٌ آخر بالصخرة عليه فيثلغ رأسه أي يشقها ثم تعود الرأس مرة أخرى صحيحة، ويعاود الرجل عمله عدة مرات، إنه لعذاب شديد، وتصوير رهيب لمن يهجر القرآن وينام عن الصلاة المكتوبة، ورفضُ القرآن بعد حفظه كبيرة عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه!! ولنتأمل مصير الكذاب وعقابه في الآخرة، ، إنه يصور في صورة الرجل الذي يعذب بشق شدقه ومنخره، وعينه إلى قفاه من الجانب الأيمن، ثم من الجانب الأيسر، ثم يعود صحيحًا.. ويتكرر التعذيب مرات ومرات.. ولأن الكاذب يدّعي ما لا تقع عليه حواسه، ويخدع الناس.. فإن هذا هو مصيره وجزاؤه.

وما أبشع هذه الصورة التي يتجسد فيها مصير الزناة والزواني، فهم في قلب اللهيب ومسجونون في بناء مثل التنور يصيحون ويستغيثون، وهم عراة من رجال ونساء، ولا مغيث لهم لأنهم في دنياهم غرقوا في نهر المعاصي، وفي الآخرة مصيرهم الغرق في لهيب جهنم، وآكل الربا: ما أقبح مصيره، وما أبشع عذابه، إنه يسبح في نهر من الدم.. لأنه باستحلاله الربا امتص دماء الناس وأعمارهم وأرزاقهم، وهو لا يشبع في دنياه من الربا، وكذلك في الآخرة تتحول أموال الربا إلى حجارة تثقل بطنه، وهي حجارة من الدم واللهيب!!

وفي ختام سرد هذه المشاهد الكريهة تأتي صورة مالك خازن النار وهو على هيئة تناسب أهل جهنم، فالنار عنده يوقدها ويسعى حولها حتى تظل موقدة، وعلى هؤلاء العصاة مؤصدة، في عمدٍ ممددة. وتتوالى بعد ذلك المشاهد الإيجابية الترغيبية: صورة إبراهيم الخليل عليه السلام، وصورة أولاد المسلمين وأولاد المشركين، الذين ماتوا على الفطرة وقد ولدوا عليها، وصورة الذين تاب الله تعالى عليهم وسبحوا في نهر الطاعة والتوبة.

وما أروع ختام الحديث حيث "جنة عدن".. منزل رسول الله ﷺ قصر مثل السحابة البيضاء مستقر خاتم الأنبياء.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: الحوار.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: رؤية النبي ﷺ لبعض مشاهد القيامة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإعراض عن القرآن الكريم، والنوم عن الصلاة المكتوبة.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الزنا.

سادسًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الربا.

سابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير والترهيب من الكذب والإشاعات.

ثامنًا: من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة لنبي الله إبراهيم عليه السلام.

تاسعًا: من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة للرسول ﷺ.

عاشرًا: من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب.

حادي عشر: من أهداف الدعوة الإسلامية: الحفاظ على الضرورات الخمس.

أولاً- من أساليب الدعوة: السؤال:

ورد أسلوب السؤال في الحديث، "وذلك قول سمرة بن جندب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم رؤيا" وأسلوب السؤال من

الأساليب الدعوية ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما لها من أثر في إيجاد الاستعداد الفكري والنفسي لدى المدعوين، لمعرفة الإجابة على الأسئلة المطروحة، وهذا الاستعداد أمر مهم جدًا لتلقف المعرفة واختزانها في الذاكرة، ثم لتطبيق إرشاداتها في السلوك، لذا ينبغي على الداعية وحامل الرسالة أن يستثمر هذا الاستعداد[1] إلى أقصى حد ممكن، وقد حفلت آيات القرآن في كثير من المواطن بذكر السؤال والجواب، مثل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾[2]. وقوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[3].

ثانيًا- من أساليب الدعوة: الحوار:

ورد أسلوب الحوار في الحديث فيما قصه النبي ﷺ من الرؤيا التي رآها وما دار بينه وبين الرجلين الذين أتياه في منامه" وإنهما قالا: انطلق وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع... الحديث" والحوار من الأساليب النافعة في الدعوة، والذي يعود على الدعوة بالمكاسب العظيمة، فالحوار يعني الانفتاح الواعي على الآخرين، والحوار ظاهرة اجتماعية، إذ هو من أفعال المشاركة والتواصل مع الآخرين[4]، والقرآن الكريم يكثر فيه الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب، فهو إذ يناقش ويحاور يثير النظر إلى الأدلة، ويعرض لها، ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة في تضاعيف الكلام، دون أى نص على هذه النتائج، بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل"[5].

ومن ذلك ما سجله القرآن من حوار دار بين الرسول ﷺ وبين قومه، قال تعالى:

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٢/٥٨-٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

(٣) سورة التين، آية: ٨.

(٤) فصول في التفكير الموضوعي، د. عبدالكريم بكار، ص ٢٧٦.

(٥) منهج تربوي فريد في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، بدون تاريخ، ص٣٧-٣٨.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١]،[٢].

إن الحوار يعد العنصر الأساسي للعلاقات الاجتماعية الإنسانية. ومذ خلق الله تعالى آدم فإن كلا العلاقات البشرية، النافعة منها وغير النافعة، ابتدأت بمرحلة الحوار. وبالتالي فإن الحضارات الإنسانية المترتبة على هذه العلاقات، إنما هي نتائج طبيعية للحوار الإنساني المعبر عن التفاعل الفكري المتبادل لبني آدم عليه السلام.

ولا شك أن أرقى أنواع الحوار هو حوار الدعوة إلى الله تعالى، ذلك هو حوار الرسل وأتباعهم، لفطرة الإنسان، ليجلو عنها ما ران وغبر: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[٣].

ومن جنس هذا الحوار: حوار الدعاة بينهم، للقيام بأمر الدعوة إلى الله تعالى[٤].

إن الحوار ينبغي أن يقوم على التناصح وطلب الخير لا على تعميق الخلاف وترسيخه.

قال ابن تيمية محدثًا عن منهجه في الحوار وعن مدى سعة صدره: هذا وأنا في سعةِ صدرٍ لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فِيَّ بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله بميزان العدل، وأجعله مؤتمًا بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس، حاكمًا فيما اختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٨-١٠.

(٢) الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، خالد محمد المغامسي، ٧٠.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٤) مقدمة مجلة الحكمة، العدد الثامن، شوال ١٤١٦هـ، ص١١.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾(٢).

وذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾(٤)، أ.هـ (٥).

إن الحوار ليس كحَلَبة مصارعة، وإنما هو مقدمة للتفاعل المعرفي بين المتحاورين، والهدف منه الوصول إلى الحقائق، وتمييزها عما يضارها وتنقيتها من الشوائب التي تكدر صفوها أو تعميها على أعين الناس.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: رؤية النبي ﷺ لبعض مشاهد القيامة:

جاء في الحديث: التصريح باطلاع الله عز وجل لرسوله ﷺ في رؤياه على بعض مشاهد القيامة: "وإنا أَتينا على رجل مَضْطجع. وإذا آخرُ قائم عليهِ بصخرةٍ، وإذا هو يَهوي بالصخرةِ لِرَأسهِ فيَثْلغ رأسَهُ فيتدَهدَه الحجر....الحديث". وذلك أن معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ما اطلع عليه من الغيوب الماضية والمستقبلة، وإخباره عنها، ومن المعلوم المقرر أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه إلى نفسه الكريمة في غير ما آية في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة الحديد، آية: ٢٥.

(٣) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٢٠.

(٥) مجموع الفتاوى ٣/٢٤٥.

ٱللَّهُ ﴾[١]. وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة أخرى تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضى من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريقة الوحى إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[٢]، وقد اشتهر النبي ﷺ وانتشر أمره باطلاع الله له على المغيبات، فروى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: " قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا. مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ. إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ. حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ"[٣]،[٤]. قال القاضي عياض: وهذه المعجزة من جملة معجزاته ﷺ المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر[٥].

رابعًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الإعراض عن القرآن الكريم، والنوم عن الصلاة المكتوبة:

جاء الترهيب في الحديث من نسيان القرآن الكريم، والتهاون في الصلاة المكتوبة باطلاع الله لنبيه ﷺ على عذاب من هذا فعله، واطلاع النبي ﷺ للأمة على هذا "وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ بها رأسه، فيتدهده الحجر ههنا، فيتبع الحجر يأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى..، فإنه الرجلُ يأخذُ القرآن فيرفضهُ وينامُ عن الصلاة المكتوبة"، قال ابن حجر: "قال ابن هبيرة: رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه فلما رفض

---

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٣) أخرجه البخاري ٦٦٠٤، ومسلم ٢٨٩١.

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٥٤٢/١، ٥٤٤.

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ٣٢٩/١.

أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس[١]. ومن أهم ما دعا إليه القرآن الصلاة، فعذب عليهما لهذا العذاب المذكور، وقد رهب القرآن من الإعراض عنه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[٢]، وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[٣].

قال ابن القيم: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا دخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[٤]. وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[٥].

كما رهب من ترك الصلاة والتهاون فيها، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[٦]، وقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟

---

(١) فتح الباري ١٢/٤٦٤.

(٢) سورة طه، الآيات: ٢٤-٢٦.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٣٠.

(٥) بدائع التفسير ٣/٢٩٢، ٢٩٣.

(٦) سورة الماعون، الآيتان: ٤-٥.

ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[1].

قال القاسمي: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة" وقرئ (الصلوات) بالجمع أي المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد "واتبعوا الشهوات" أي فأتوا بما ينافي البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال، من الانهماك في المعاصي التي هي بريد الكفر "فسوف يلقون غيا" أي شرًا. قال الزمخشري: كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد. قال المرقشي:

فمن يلق خيرًا يحمد الناس أمره — من يغو لا يعدم على الغي لائما

أي من يفعل خيرًا، يحمد الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله. وقيل: أراد الشاعر بالخير المال، وبالغي الفقر. أي ومن يفتقر. ومنه القائل:

والناسُ مَن يَلْقَ خيرًا قائلون لهما — َشْتَهي ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

أي: الثكل، ويجوز أن يكون المعنى جزاء غي. كقوله تعالى "يلق أثامًا" أي شرًا وعقابًا. فأطلق عليه كما أطلق الغي على مجازاته المسببة عنه، مجازًا. أو (غيًا) ضلالاً عن طريق الجنة. فهو بمعناه المشهور[2].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الزنا:

ورد ذلك في بيان عقوبته وعذابه "فانطلقنا فأتينا على مثل التنُّور، قال: وأَحسِبُ أَنه كان يقول: فإِذا فيه لَغَطٌ وأَصواتٌ. قال: فاطلعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عراةٌ، وإِذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإِذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا..." وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني، قال ابن حجر: مناسبة العرى لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى[3]، وقد حذر

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٩.

(٢) محاسن التأويل مج٧/١١/١٣٧.

(٣) فتح الباري ١٢/٤٦٦.

الله منه فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[١]. قال القرطبي: قال العلماء قوله تعالى: "ولا تقربوا الزنى" أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه: لا تدنوا من الزنا[٢] وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك والقتل، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾[٣]، وقد أجمع أهل الملل على تحريمه، فلم يحل في ملة قط، ولذا كان حده أشد الحدود، لأنه جناية على الأعراض والأنساب[٤].

لقد حرم الإسلام الزنا تحريمًا قطعيًا لا هوادة فيه قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[٦].

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه سلمة بن قيس: «ألا إنما هن أربع: أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا»[٧].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ (قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ. وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»[٨].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن مج٥/١٠/٢٥٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٤) الموسوعة الفقهية ٢٤/٢٠.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٢.

(٦) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨٨٩٠، وقال محققو المسند إسناده صحيح، وصححه الألباني انظر: (صحيح الجامع، ٢٦٤٠)، (سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١٧٥٩).

(٨) أخرجه مسلم ١٠٧.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أيُّ الذَّنب أعظمُ؟ قال: أن تجعلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تقتلُ وَلدَك من أجل أن يَطعمَ معك. قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزاني حَليلةَ جارك»[1].

إذن فليخسأ دعاة العهر والدعارة إلى غير رجعة، فهذا هو ديننا الحنيف، وهذه هي القوانين الإلهية تجيء لدحض هذه الشُبه والافتراءات التي تنبجس من قلوب تقطر حقدًا وحسدًا وغيظًا على الإسلام وأهله، وهذه هي وصايا من لا ينطق عن الهوى، ينزهنا عن هذه البراثن المقيتة، فيا أدعياء الضلالة، إن الواقع خير شاهد على بطلان دعاويكم التحررية من كل شرف وفضيلة، فضلاً عن كتاب ربنا جل جلاله وعن سنة نبينا ﷺ فموتوا كمدًا مثلما ماتت مهاتراتكم كلما بزغ الحق ولاح.

إن الزنا لا يعدو أن يكون لذة من لذائذ الحياة الآثمة عند هؤلاء النفر ضعاف الإيمان، وساقطي الرجولة والشهامة.

فإن الزاني عندما ينزع عن لقيطته، ويهجر على خجل فراش عشيقته، يعاني ويلات هذه الفعلة القبيحة، فتصبح معشوقته أبغض الناس إلى قلبه، وينظر إلى نفسه نظرة ازدراء واحتقار، بل سفه وجنون! ويرى أنه أحقر خلق الله، وود لو قرض ما أوداه إلى هذا المصير بالمقاريض، ويصبح أسير الخوف والهلع من نظرات الناس أن يكونوا كشفوا أمره، وتفارقه فكرة الزواج خوفًا أن يكون ألم بعرضه ما ألم بعرض غيره، فيصبح أسير الوساوس والقلاقل الحياتية والنفسية فتفارقه الراحة، ويخلد في مستنقعه الآسن مرة أخرى.

مع أنه كان المفروض أن يكون هذا الشعور المخيف، والتأنيب الذريع بداية بصيص من الأمل يجلب له الوقوف عند هذا الحد من الانحلال، والتفكير في التوبة، ولكن جزاء السيئة سيئة أخرى مثلها، وهذه إحدى العواقب التي يتكردس بسببها صاحبها في بحار الجحيم.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٨١.

إن الزاني فاقد الرجولة والشهامة، والعزيمة والإرادة، منحط الأخلاق، عديم الحياء، جبان، غالبًا كان أو مغلوبًا، حقير، رئيسًا كان أو مرؤوسًا، محروم من الهيبة والوقار، وضيع الجانب عظيم العار، استحق المقت والسخط والعذاب، نزع من قلبه كل شفقة ورحمة فهو ذئب متلفع برداء الشرف والعرض والفضيلة بقدمه، وتجلبب بالذل والمهانة والخسة، حتى صار كالكلب الضاري المسعور، فإذا ما شبع وثمل وانهد، ذهب مطأطئ الرأس يجر قدميه كالخنزير المهين الدنيء الحقير.

والفرق بينه وبين الشريف الحي العفيف، جهاد ساعة!.

فاللهم احفظنا بحفظك، وثبتنا على طريقك حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا. اللهم آمين[1].

سادسًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الربا:

ورد الترهيب من الربا ببيان عقوبته في الحديث: "فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يَسبَح، وإذا على شَط النهر رجلٌ قد جَمَعَ عندَه حجارة كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحَ، ثمَّ يأتي ذلك الذي قد جمعَ عندهُ الحجارةَ فيفغرَ له فاهُ فيلقمُهُ حجرًا فينطلقُ فيسبَح ثمَّ يرجعُ إليه، كلما رَجَعَ إليه فغَرَ له فاهُ فألقمه حجرًا ... وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يَسبح في النهر ويُلقم الحجرَ فإنه آكِلُ الرِّبا"، قال ابن حجر: "قال ابن هبيرة إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر وإلقامه الحجارة لأن أصل الربا يجرى في الذهب والذهب أحمر، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئا وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه"[2].

فالربا من الموبقات وأشد الذنوب والمعاصي، ذكر الإمام القرطبي في تفسيره ما قاله ابن بكير، قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله، إني رأيت رجلاً سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر؛ فقلت: امرأتي طالق إن كان يدخل جوف

---

(١) كتاب: "والذين هم لفروجهم حافظون" خميس بن السعيد محمد، ٨٩، ٩٠.

(٢) فتح الباري ١٢/٤٦٥.

ابن آدم أشرُّ من الخمر. فقال: ارجعْ حتى أنظر في مسألتك. فأتاه من الغد فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك فأتاه من الغد فقال له: امرأتك طالق؛ إني تصفحت كتاب الله وسنّة نبيه فلم أر شيئًا أشرّ من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب"[1]. قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[2]. وحكمة تحريم الربا أنه يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، ويفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس إضافة إلى آثاره السلبية على اقتصاد البلاد عامة وآحاد الناس خاصة، لأنه يفضي إلى امتناع الناس من الاشتغال بالمكاسب، لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة الربا من تحصيل الدرهم الزائد، خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق[3].

سابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير والترهيب من الكذب والإشاعات:

جاء التحذير من ذلك ببيان عقوبة إلقاء الكلمة، التي ليس لها مطابقة للواقع "فانطلَقْنا فأتينا على رجل مستلْقٍ لِقفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليهِ بكلوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أَحدَ شِقي وَجهِهِ فيُشرشِر شِدْقه إلى قَفاه، ومِنْخَره إلى قَفاه، وعَينَه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يَفرُغ من ذلك الجانب حتى يَصحَّ ذلك الجانب كما كان، ثمَّ يعودُ عليه فيفعل مثلَ ما فعلَ المرَّةَ الأولى ... وأما الرجل الذي أتيت عليه ليشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق"، وشرشرة تلك الأعضاء وشقها إنزال للعقوبة بمحل المعصية[4]. وقد تضافرت النصوص على تحريم الكذب وإشاعته بين الناس والحض على الصدق وتحريه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن مج٢/٣/٣٦٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٧٩.

(٣) الموسوعة الفقهية ٢٢/٥٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٢/٤٦١.

مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[١]، وقال ﷺ: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا"[٢]. وقد حرم الإسلام الكذب ونقل الإشاعات وترويجها بين الناس وبين أن كل ما يصدر عن الإنسان مسجل عليه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٣].

قال ابن كثير: أي ما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٤].

قال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين، يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها.

وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[٥]، يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة ووكِّل بك مَلَكَان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى يخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٦]، ثم يقول: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٢) أخرجه البخاري، رقم ٦٠٩٤.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

(٤) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

(٥) سورة ق، آية: ١٧.

(٦) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه ليكتب قوله: أكلتُ شربتُ ذهبتُ جئتُ رأيتُ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات[3].

ومعلوم أن الكذب ونقل الإشاعة وترويجها في المجتمع من أنواع الفحش والإثم والبغى التي حرمها الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]،[5].

ثامنًا- من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة لنبي الله إبراهيم عليه السلام:

وردت الإشارة إلى رفيع منزلة إبراهيم عليه السلام وعلو مكانته "فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء ... وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم". قال ابن حجر: وإنما اختص إبراهيم لأنه أبو المسلمين، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[6]،

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) سورة الرعد، آية: ٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٩٨/٧، ٣٩٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٣٣.

(٥) الإشاعة وآثارها في المجتمع، دراسة وصفية تحليلية، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، مؤسسة جائزة المدينة المنورة الخيرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ١٦١.

(٦) سورة الحج، آية: ٧٨.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، [٢]، كما أثنى الله على إبراهيم وأمر الله رسوله ﷺ باتباعه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٣]، أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك ياخاتم الرسل وسيد الأنبياء، كما قال في سورة النعام: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٤]، [٥].

إن من يستعرض آيات القرآن التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام يتبين له مدى اهتمام القرآن بأمر إبراهيم عليه السلام، ويمكن القول: إن الصلة بين محمد وإبراهيم عليهما السلام من ناحية وبين دعوتيهما من ناحية ثانية قوية، ويؤكدُ ذلك أمران:

الأمر الأول: رابطة الدم، فإسماعيل من ولد إبراهيم ومن نسله محمد عليهم الصلاة والسلام.

الأمر الثاني: رابطة الدين، فمحمد ﷺ هو دعوة إبراهيم التي توجه بها إلى الله تعالى وهو يبني البيت الحرام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٦] وجاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٨.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١٢/٤٦٦.

(٣) سورة النحل، الآيات: ١٢٠-١٢٣.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٤/٦١١-٦١٢.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٩.

قال: ((قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام))(١) وقد اصطفى الله كلاً منهما بالنبوة والرسالة، وجعلهما من أولي العزم من الرسل، وأمر محمدًا ﷺ بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام، لعظيم الشبه بينهما، وهذا ما يجعلنا نلقي الضوء على بعض أوجه الشبه بين دعوتيهما، ومنها:

أ- مسمى الدعوة:

صرح القرآن بأن إبراهيم عليه السلام قد أتى بالإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٢) وأنه كان حنيفًا مسلمًا، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣). وبمثل ذلك صرح القرآن في حق محمد ﷺ فهو على الدين الإسلامي ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤) لأنه الدين الذي رضيه الله لنا، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾(٥) وأنه على ملة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٦) وأنه أولى الناس بإبراهيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٧).

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥٢/٥ رقم ٢٢٢٦١، وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره ٥٩٦/٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٣٠-١٣٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٦١.

(٥) سورة المائدة، آية: ٣.

(٦) سورة النحل، آية: ١٢٣.

(٧) سورة آل عمران، آية: ٦٨.

ب-اتحاد أصول الشرائع، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[1])[2].

تاسعًا- من موضوعات الدعوة: بيان المكانة العظيمة للرسول ﷺ:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث في قوله: "قال: قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلك. قال: فسمَا بصَري صُعُدًا، فإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ البيضاء. قال: قالا لي هذاكَ منزِلك، قال: قلت لهما: باركَ الله فيكما. ذَراني فأدخُله، قالا: أما الآن فلا، وأَنتَ داخِله" أى قصر عاليًا مثل الربابة أى السحابة البيضاء، ويقال لكل سحابة منفردة دون السحاب ولو لم تكن بيضاء، وقال الخطابي: الربابة السحابة التي ركب بعضها على بعض[3]، ووصف القصر بالربابة، زيادة في الإظهار، وتسمية الجنة عدن يعني المدينة من عدن بالمكان إذا أقام به[4]. وذلك من الخصائص التي اختص بها رسول الله ﷺ ولم يعطها غيره، مما يدل على منزلته وعظيم قدره عند ربه تبارك وتعالى، إلى غير ذلك من الخصائص كالوسيلة والفضيلة والحوض، والكوثر، واللواء وغير ذلك[5]، ومن ذلك الوسيلة والفضيلة وهى أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا عبد واحد من عباد الله وهو رسولنا ﷺ [6]، وقال ابن كثير: الوسيلة علم على أعلى منزلة في الجنة، وهى منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش[7].

---

(١) سورة الشورى، آية: ١٣.

(٢) انظر: دعوة الرسل، د. بكر زكي عوض، ٣٥٢-٣٥٥.

(٣) فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ٤٦٤/١٢.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦٠٤.

(٥) موسوعة نضرة النعيم، ٤٦٩/١.

(٦) خصائص النبي ﷺ، المحب المكي، تعليق محمد السيد عفيفي، مكتبة المجد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ٣٩٠/٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ٥٥/٢.

عاشرًا- من أساليب الدعوة: الترغيب والترهيب:

ورد أسلوب الترغيب والترهيب في الحديث ظاهرًا واضحًا، حيث جاء الترغيب في العمل الصالح في بيان جزاء الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، والترهيب من رفض القرآن والتكاسل عن أداء الصلاة المكتوبة والكذب والزنا والربا وغير ذلك، ببيان عاقبة هذه الأعمال السوء، وأسلوب الترغيب والترهيب من أساليب الدعوة ذات القيمة التأثيرية العظيمة، لما في الترغيب من تشويق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وفي الترهيب تخويف المدعو وتحذيره من عدم الاستجابة أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، والملاحظ أن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوآن بما يرغب الناس في قبول الدعوة والترهيب من رفضها[1]، فإن ما جاء به الشرع الحنيف كله بعد الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ﷺ لا يعدو أن يكون ترغيبًا في الخيرات وترهيبًا من المعاصي والموبقات، وثمرة ذلك حث المؤمن على الرغبة فيما عند الله تعالى، والرهبة من عقابه[2]، وذكر القرآن حال المؤمنين بين الرغبة والرهبة، وأنهما جناحا الإيمان ودفع المؤمن إلى الترقي والعلاء، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[3].

"تتجافى جنوبهم عن المضاجع" أي: ترتفع وتتنحى عن الفرش ومواضع النوم، وهم المتهجدون بالليل "يدعون ربهم" أي: داعين له "خوفًا" من عذابه "وطمعًا" في رحمته "ومما رزقناهم" أي: من المال "ينفقون" أي: في وجوه البر والحسنات[4].

حادي عشر- من أهداف الدعوة الإسلامية: الحفاظ على الضرورات الخمس:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة حفظ الكليات الخمس وهى حفظ النفس والدين

---

(١) انظر: أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٢) موسوعة نضرة النعيم ٢١٢٧/٦.

(٣) سورة السجدة، آية: ١٦.

(٤) انظر: محاسن التأويل، الإمام القاسمي، مج٢١٥/١٣/٨.

والنسب والعقل والمال[١]، يقول الإمام الشاطبي : "وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الآخرة، فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين[٢]، ولذا جاء الحديث: "الترهيب من الكثير من المخالفات الشرعية التي تمس أصول تلك الضرورات، في مجال حفظ الدين جاء الترهيب من رفض القرآن والتكاسل عن الصلاة والتحذير من الكذب وإشاعته بين الناس، وفي مجال حفظ النسب جاء الترهيب من الزنا، وفي مجال حفظ المال جاء الترهيب من التعامل بالربا"، كما هو واضح في ثنايا الحديث "إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما قالا: انطلق وإني انطلقت معه وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة... الحديث"، والحفاظ على الضرورات الخمس من عناصر القوة في الإسلام، فإن الإسلام يحرص أشد الحرص على المحافظة على دين الناس وحقوقهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، كما يعني أشد العناية بصيانة حرياتهم وكراماتهم، ويتخذ لذلك جميع الوسائل التي تحفظ هذه الحقوق، وتصونها جميعًا[٣]، ولقد أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان مع حرمة الدماء والأموال والدعوة إلى الحفاظ على الضرورات قاطبة، وقد أعلن النبي ﷺ ذلك في حجة الوداع، أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام واليوم الحرام[٤]، "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا"[٥].

---

(١) الموسوعة الفقهية ٢٤/٢٠.

(٢) الموافقات، الإمام الشاطبي، ٢/٨-٩.

(٣) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ١٤٧.

(٤) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٧.

(٥) أخرجه البخاري ١٧٣٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً- التربية على غرس قيمة الصدق:

من أهداف التربية الإسلامية غرس قيمة الصدق في النفوس لأن الصدق من أعلىّ القيم الإسلامية شأنًا وأعزها مكانًا لأنه لا تجد فضيلة وخلقًا محمودًا إلا والصدق أساسه فيه، ولقد حرص النبي ﷺ على غرس هذه القيمة وهذه الفضيلة في نفوس الصحابة. ومن الشواهد على ذلك: في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ . وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ ...».

فهذا شاهد تربوي نبوي ساقه النبي ﷺ ليبين عظمة هذه القيمة ولما لا، فلقد لقب ﷺ قبل البعثة بالصادق الأمين فما جرب الناس عليه كذبًا ولا عرفوا عنه خيانة، ولقد وصفه أبو هريرة بالصادق المصدوق، فكان يقول: «... سَمِعْتُ الصَّادِقَ الْمَصْدُوقَ»[1]. والصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة، ولكن درجتهم ثاني درجة بعد النبيين؛ لأن منزلة الصدق من أعظم منازل القوم الذي نشأ منه جميع منازل السالكين وهو يعد من الطريق الأقوم الذي لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين وبه يتميز أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران.

ولقد ذكر الرسول ﷺ أن من علامات الصدق طمأنينة القلب.

ولذا قال ﷺ: «الصدق طمأنينة»[2]، ولقد أعد الله عز وجل لمن نشأ على الصدق وربي عليه جزاء ما بعده جزاء، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾

---

(١) أخرجه البخاري ٧٠٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢٥٨١، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٥).

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾(١)، إلى جانب أن الله ييسر الأمور بالصدق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾(٢).

ونخلص من هذا الهدي النبوي تعلم تحري الصدق حتى يصير سجية لنا، وأن الأخلاق الفاضلة تكتسب بالتخلق والتحري، فإن النفس تتأثر بتعاطي أسباب الخير كالصدق(٣).

"ومن آثار الصدق: ثبات القدم، وقوة القلب، ووضوح البيان، مما يوحي إلى السامع بالاطمئنان ... ومن علامات الكذب الذبذبة واللجلجة، والارتباك، والتناقض، مما يوقع السامع بالشك وعدم الارتياح، والصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة لأنه ثابت لا يتلون، ولأنه واثق لا يتردد"(٤).

ثانيًا: الترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، وهو من الأساليب المؤثرة المستخدمة بقوة في التربية، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في هديه النبوي على أساس أنه من الأسس النفسية للتربية النبوية. وفي الباب شواهد تدل على الترغيب: قوله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر ...».

فهذا ترغيب من النبي ﷺ للصحابة في اقتفاء أثر الصدق والسير على ضربه، والرسول ﷺ رغب فيه لأنه من أعظم الفضائل المحمودة لأن من تربى على هذا الخلق يكون مؤثرًا في مجتمعه بأخلاقه وسلوكه، والرسول بدأ بالصدق ورغب فيه لأن الإنسان مفطور على الحق والصدق فكانت تربيته من هنا أمرًا ميسورًا، وعلى المربين

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٥-١٧.

(٢) سورة الليل، الآيات: ٥-٧.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ٥/٢، ٢٩، المنهج النبوي في تربية الطفل، د. عبدالباسط محمد السيد، ص٢٦٨، موسوعة الأم في تربية الأولاد في الإسلام، د. أحمد متولي.

(٤) هذه أخلاقنا، محمود محمد الخزندار، ص٤٣٥.

أن يستثمروا ذلك استثمارًا حسنًا كما استثمره الرسول ﷺ لأنه يعلم علم اليقين أن المجتمع الإنساني يحتاج إلى سيادة خلق الصدق، وذلك لأن العلاقات الاجتماعية والمعاملات الإنسانية تعتمد عليه، وذلك لأن الكلمة إن لم تكن معبرة تعبيرًا صادقًا عما في النفس فإننا لم نجد وسيلة أخرى كافية لهذا التعبير، ولولا ترغيب الرسول ﷺ في هذا الخلق لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس[1]، كما أنه ﷺ استخدم أسلوب الترهيب لعلمه بأنه أسلوب قائم على الإحساس بالألم والشقاء وسوء المصير، ومن شواهد ذلك من أحاديث الباب قوله ﷺ: «وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا».

وقوله ﷺ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» فَيَقُصُّ عَلَيْهِ من شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ... أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ: فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ الْمَكْتُوبَةِ، ... وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ: فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمِرآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا: فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ ...».

فهذه شواهد نبوية تدل على الترهيب من أمور منهي عنها شرعًا، ومن سوء المصير الذي يتبعها شرعًا، ولقد استخدم الرسول أسلوب الترهيب هنا، لأن في الترهيب وعيدًا وتهديدًا بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به أو هو التهديد من الله يقصد به تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكون دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي، والترهيب يساعد على غرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في نفوس الناشئين

---

(١) الوجيزة في الأخلاق، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٢٤، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٣٠.

ليتسنى لنا أن نذهبهم من عذاب الله، وليكون لهذا الترهيب ثمرة عملية سلوكية[1]، وأهم ما تميز به الترهيب أنه يؤثر تأثيرًا واضحًا في النفوس السوية فيحملها على الالتزام والسلوك الإيجابي.

ثالثًا: التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير والشاهد على ذلك في باب تحريم الكذب حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا... إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ...»، وقوله ﷺ: «وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ...».

فهذا أسلوب تحذيري من الكذب، وذلك التحذير من بعض الأفعال الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، وهذه التحذيرات قدمها الرسول ﷺ للوقاية من العذاب.

وترك هذه الرزيلة يجعل الإنسان يستبرئ لدينه وعرضه كما بينه ﷺ إن أثر الكذب في إفساد العلاقات بين الناس واضح وخطير لما يترتب عليه من ظن السوء والريبة والشك فتحصل الفرقة وعدم الوفاق، ودل الحديث أيضًا على أن من نشأ على خلق الكذب فإنه يعتاد السيئ من السلوك في حياته، عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة عن طريق الكذب والرسول ﷺ قرن خلق النفاق بخلق الكذب لأن المنافق يستطيع أن يتظاهر بالإسلام زورًا وكذبًا ليحميه النفاق من نقمة المسلمين[2].

والتحذير أسلوب تربوي توجيهي يحذر من المعاصي واقتراف ما نهى الله تعالى عنه والتحذير له أهمية في بيان العقوبة المترتبة على عمل أو تركه، والرسول لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية اعتمد فيها التحذير كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب ينتظر المنحرفين فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص٢٣٠.

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص٢٢٧.

(٣) أصول التربية الإسلامية، د. الحازمي، ص٢٦٥، أساليب الدعوة والتربية، د. زياد العاني، ص٢٥٨.

٢٦١- باب بيان مَا يجوز من الكذب

اعلَمْ: أنَّ الكَذِبَ وإنْ كَانَ أصْلُهُ مُحَرَّمًا، فَيَجُوزُ في بَعْضِ الأحْوَالِ بِشُرُوطٍ قَدْ أوْضَحْتُهَا في كتاب: ((الأذْكَارِ))[١]، ومُخْتَصَرُ ذَلِكَ: أنَّ الكَلامَ وَسيلَةٌ إلَى المَقَاصِدِ، فَكُلُّ مَقْصُودٍ مَحْمُودٍ يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِغَيْرِ الكَذِبِ يَحْرُمُ الكَذِبُ فِيهِ، وإنْ لَمْ يُمْكِنْ تَحْصِيلُهُ إلاَّ بالكَذِبِ، جازَ الكَذِبُ. ثُمَّ إنْ كَانَ تَحْصِيلُ ذَلِكَ المَقْصُودِ مُبَاحًا كَانَ الكَذِبُ مُبَاحًا، وإنْ كَانَ وَاجِبًا، كَانَ الكَذِبُ وَاجِبًا. فإذا اخْتَفَى مُسْلِمٌ مِنْ ظَالِمٍ يُريدُ قَتْلَهُ، أَوْ أَخذَ مَالِهِ وأخفى ماله وَسُئِلَ إنْسَانٌ عَنْهُ، وَجَبَ الكَذِبُ بإخْفَائِه. وكذا لو كانَ عِندَهُ وديعَةٌ، وأراد ظالمٌ أخذها، وجبَ الكذبُ بإخفائها. وَالأحْوَطُ في هَذَا كُلِّهِ أن يُوَرِّيَ. ومعْنَى التَّوْرِيَةِ: أنْ يَقْصِدَ بِعِبَارَتِهِ مَقْصُودًا صَحيحًا لَيْسَ هُوَ كَاذِبًا بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ، وإنْ كَانَ كَاذِبًا في ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وبالنِّسْبَةِ إلَى مَا يَفْهَمُهُ المُخَاطَبُ، وَلَوْ تَرَكَ التَّوْرِيَةَ وَأطْلَقَ عِبَارَةَ الكَذِبِ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ في هَذَا الحَالِ.

وَاسْتَدَلَ العُلَمَاءُ بِجَوازِ الكَذِبِ في هَذَا الحَالِ بحَدِيثِ: أُمِّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنها سمعتْ رسُولَ الله ﷺ، يقول: ((**لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**)). متفق عَلَيْهِ[٢].

زاد مسلم[٣] في رواية: قالت أُمُّ كُلْثُومٍ: وَلَمْ أسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إلاَّ في ثَلاَثٍ، (تَعْنِي: الحَرْبَ، والإصْلاَحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَديثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحديثَ المَرْأَةِ زَوْجَهَا)[٤].

---

(١) ص٤٢١-٤٢٣ ط مكتبة الصفا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٦٠٥/١٠١).

(٣) بعد حديث رقم (٢٦٠٥/١٠١ بحديث، بدون رقم).

(٤) قال مسلم بعد قوله: (إلا في ثلاث): بمثل ما جعله يونس من قول ابن شهاب. ولم يسق لفظه، وقوله: (تعني: الحرب، والإصلاح) إلخ، هذا الكلام للحميدي في جمعه، وزاد في آخره: أدرجه على ما قبله. وهذا من الأدلة الواضحة على اعتماد الإمام النووي على الجمع للحميدي.

٢٦٢- باب الحثّ عَلَى التثبت فيما يقوله ويحكيه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦] وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

الحديث رقم (١٥٤٩)

١٥٤٩-وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((**كَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

إن الصدق من أهم معالم شخصية المسلم، ومن أهم سمات حركته في الحياة، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[2]، ولفظ الصدق يستعمل في معانٍ - كما قال الإمام الغزالي: (صدق في القول وفي النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق لأنه مبالغة في الصدق.

وحين نتأمل مضمون هذا الحديث وأسلوبه نجده ينعي على هؤلاء الذين لم يلتزموا بفضيلة الصدق مسلكهم، ويوضح قبح فعلهم لأنهم ينقلون الأخبار من غير روية ولا تثبت فيشيعون الفتنة بين الناس، وأسلوب الحديث يتسم بالإيجاز، ولكن هذا الإيجاز

(١) برقم (٥/٥) في المقدمة. قال الدارقطني في التتبع (٨): والصواب مرسلٌ، قاله معاذ، وغُندر، وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤١.

يتضمن الوعيد الشديد، والمصير المهلك، وقول الرسول ﷺ: "كفى بالمرء إثمًا"، فيه من التهديد والوعيد الشديد ما لا تتحمله طاقة بشرية، ومعنى ذلك: كفاه ذلك كذبًا فإنه قد استكثر منه، وقوله: "بالمرء" فيه تأكيد لبشاعة وهول هذا السلوك الشائن، والباء الزائدة في قوله: "بالمرء"، هي أمارة ذلك التوكيد على رفض هذه الصفة الذميمة، وقوله: "كذبًا"، تمييز أو مفعول ثان.. وكلا الاحتمالين له أثره في توجيه المعنى، وتأكيد رفض رسول الله ﷺ للكذب وللكاذبين، وقال بالمرء، ولم يقل: بالمسلم، أو بالمؤمن، لأن المسلم الذي يلتزم بتعاليم دينه ليس من سماته الكذب، بل الكذب من أمارات المنافق.. ومن سمات المشركين والكفار.

والتعبير بالمضارع في قوله: "أن يحدث بكل ما سمع"، يوحي بأن هذا التحدث من غير تثبت ولا دليل هو طبيعة مستقرة، وخلق دائم لذلك الشخص الكذوب.

وقوله: "بكل ما سمع"، يرشد إلى أن هذا الرجل لا ينتقي ما يقول، ولا يمحص أقواله، ولا يوثق أخباره، وحُذف مفعول سمع.. حيث لم يقل: بكل ما سمعه، لإفادة الشيوع والعموم، وللدلالة على تسرع ذلك المتحدث الكاذب، وعدم غربلة الأقوال وتمحيصها.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: خطورة تحدث الإنسان بكل ما يسمع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية التثبت والتبين في الأخبار.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: بيان مسئولية الإنسان عما يتحدث به، والحث على التثبت في الأخبار.

أولاً- من موضوعات الدعوة: خطورة تحدث الإنسان بكل ما يسمع:

لقد حذر الإسلام من التحدث بكل ما سمعه الإنسان، فإن ذلك سبيل إلى الوقوع في الإثم، وإلى ذلك أشار الحديث، فقال ﷺ: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع"،قال القاضي عياض: معناه: أن من حدث بكل ما سمع وفيه الحق والباطل والصدق والكذب نقل عنه هو أيضًا ما حدّث به من ذلك فكان من جملة من يروي

الكذب، وصار كاذبًا لروايته إياه وإن لم يتعمده ولا عرف أنه كذب[١].

قال النووي: "ومعنى الحديث الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كَذَب، لإخباره بما لم يكن"[٢]، وأن الإنسان محاسب على ذلك فما من قول يصدر عن الإنسان إلا وهو محاسب عليه، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٣]، فإن نقل كلمة دون تحرٍّ وتثبت قد يؤدي إلى التخريب وهدم الكيان والبنيان الاجتماعي، وصرف الناس عن عبادة الله تعالى، وعمارة الأرض وعمل ما ينفع الناس إلا الاشتغال فيما لا ينفع[٤]، وقد جاءت آيات القرآن حاضّة على الصدق وقول الحق، واجتناب الباطل والكذب، وإثارة الإشاعات واختلافها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٥].

وهذا أمر بالكون مع أهل الصدق، أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم[٦]، وجاء الأمر على سبيل المبالغة فقال: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وذلك أبلغ في التخلق بالصدق من نحو: اصدقوا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٧][٨].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية التثبت والتبين في الأخبار:

جاء في الحديث ضرورة التثبت في الأخبار وتبين صدقها من عدمه وعدم التحدث بكل ما سمع فإن ذلك لا يخلو من كذب، فقال رسول الله ﷺ : "كفى بالمرء كذبًا

---

(١) إكمال المعلم، ١/١٢٤، ١٢٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤٨.

(٣) سورة ق، آية: ١٨.

(٤) الإشاعة وآثارها في المجتمع، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ١٦٠.

(٥) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، مج٤/٨/٢٨٨.

(٧) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٨) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مج٥/١١/٥٤.

أن يحدث بكل ما سمع" ولقد أمر الإسلام بالتثبت والتروي عند سماع الأقوال واتباع أحسن الأقوال والإعراض عن غيرها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[١]، قال القاضي ابن عطية الأندلسي في تفسيره للآية: "كلام عام في جميع الأقوال"، وإنما القصد الثناء على هؤلاء ببصائر هى لهم قوام في نظرهم، حتى أنهم إذا سمعوا قولاً ميزوه واتبعوا أحسنه"[٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[٤]، قال الشوكاني: في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "المراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر"[٥]، فلا نقبل القول على علاته، بل ننظر فيه أحق هو أم غير حق[٦].

قال ابن عثيمين: ينبغي على الإنسان أن يتثبت فيما ينقل ويتكلم به لاسيما في زمن الأهواء وكثرة القيل والقال والتحدث بما كان أو لم يكن، ثم استدل لذلك بالآيات والأحاديث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٧]. "ولا تقف" يعني لا تتبع ما ليس لك به علم ولا تتكلم إلا بما تعلم، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٨]. يعني إلا عنده "رقيب" أي مراقب يراقب ما تقول، "عتيد" حاضر فلا يغيب

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٨.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب ين عطية الأندلسي، تحقيق، عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ٥٢٥/٤.

(٣) سورة القصص، آية: ٥٥.

(٤) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٥) فتح القدير، الإمام الشوكاني، ٦٠/٥.

(٦) الإشاعة وآثارها في المجتمع، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ١٦٩.

(٧) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٨) سورة ق، آية: ١٨.

عنه، وهذا تحذير من أن يتكلم الإنسان بشيء لا يعلم عنه؛ لأنه بذلك آثم، ثم ذكر في ذلك أحاديث منها: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع" يعني أن الإنسان إذا صار يحدث بكل ما سمع من غير تثبت وتأن، فإنه يكون عرضة للكذب، وهذا هو الواقع ولهذا يجيء إليك بعض الناس يقولون: صار كذا وكذا، ثم إذا بحثت وجدت أنه لم يكن، أو يأتي إليك ويقول: قال فلان كذا وكذا فإذا بحثت وجدته لم يقل، وأعظم شيء أن يكون هذا فيما يتعلق بحكم الله وشريعته، بأن يكذب على الله، فيقول في القرآن برأيه، ويفسر القرآن بغير ما أراد الله، أو يكذب على النبي ﷺ يقول: قال النبي ﷺ كذا. وهو كاذب، أو ينقل حديثًا يرى أنه كذب وهو لم يكذبه، ولكن يقول: قال فلان كذا وكذا عن رسول الله ﷺ وهو يرى أنه كذب؛ فإنه يكون أحد الكاذبين كما بين ذلك النبي ﷺ.

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما يقول ويتثبت فيمن ينقل إليه الخبر، هل هو ثقة؟ أو غير ثقة كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1]. ولاسيما إذا كثرت الأهواء وصار الناس يتخبطون ويكثرون القيل والقال بلا تثبت ولا بينة؛ فإنه يكون التثبت أشد وجوبًا؛ حتى لا يقع الإنسان في المهلكة. والله الموفق[2].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: بيان مسئولية الإنسان عما يتحدث به، والحث على التثبت في الأخبار:

إن غرس المسؤولية في نفوس المدعوين والاستشعار بها من الأهداف الرئيسة للدعوة، وذلك مما يحمله الحديث من معانٍ، فقال ﷺ: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع"، لذا كانت مسئولية الإنسان عن حفظ لسانه، وأن يصونه عن الكذب والغيبة والنميمة، وقول الزور، وغير ذلك مما نهى عنه الشارع الحكيم[3]، قال

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٣٣، ١٦٣٤.

(٣) موسوعة نضرة النعيم ٧/٢٦٣٤.

تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]، لذا كان من الأخلاق الحميدة الصدق والتثبت في الأخبار والحقائق ولا سيما عند نقلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[٢].

قال ابن كثير في تفسير الآية: يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال[٣].

وقد جاء سبب نزولها ما روي عن: أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلى رسول الله ﷺ رسولاً لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث في سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقّت لي وقتًا يرسل إليّ رسوله، ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق فرَجَع، فأتى رسولَ الله ﷺ وقال: يا رسولَ الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد

---

(١) سورة ق، آية: ١٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/٢٠٨.

قتلي؟ فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، ولمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمدًا بالحقِ ما رأيته بتة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعتَ الزكاةَ وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلاّ حين احتبس عليَّ رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عزَّ وجلَّ ورسوله، قال: فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، إلى هذا المكان ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[(١)]»[(٢)].

ومن الآيات الآمرة بالتثبت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[(٣)].

في نزولها روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسولِ الله ﷺ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ، فَقَامُوا وَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوا بِهَا رَسُولَ الله ﷺ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾[(٤)]))[(٥)].

---

(١) سورة الحجرات، الآيات: ٨٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢٧٩/٤ رقم ١٨٤٥٩، وقال محققو المسند، حديث حسن ٤٠٥/٣٠.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٥) أخرجه البخاري ٤٥٩١.

قال السعدي: "وهذا الأدب من الآداب الواجب استعمالها فإن ترك التثبت فيه خطرٌ كبيرٌ ووقوعٌ في الإثم، قد يحصل تلف في النفوس والأموال وغيرهما"[١]. والتثبت فيه من الفوائد ما لا يخفي من حفظ الأرواح وصيانة للدماء وحفظًا لحقوق الأفراد والجماعات ولا يجعلها عرضة للظن، ويقي المجتمع من مخاطر القرارات السريعة، غير المدروسة[٢].

وقد جاءت آيات القرآن آمرة بالتثبت والتبين في جميع المجالات، ففي مجال العبادات قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[٣]. وفي مجال الجهاد في سبيل الله قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾[٤]، إلى غير ذلك، وقد ذكر الله أنه بين لخلقه الحقائق حتى يكونوا على بينة من ربهم ولا يكون لهم حجة على الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٥].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٧٤٤.

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم ٩٠٨/٣.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٧.

(٤) سورة النساء، آية: ٩٤.

(٥) سورة النساء، آية: ١١٥.

الحديث رقم (١٥٥٠)

١٥٥٠- وعن سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ)). رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٥٨).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحرص على التثبت في رواية الأحاديث عن النبي ﷺ.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحث على الأمانة ومراعاة الدقة، والتحري في رواية الأحاديث النبوية.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الحرص على التثبت في رواية الأحاديث عن النبي ﷺ:

إن الإسلام حرم الكذب، وأشد الكذب شناعة، الكذبُ على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين"، قال ابن عثيمين: "وأعظم الكذب وأشنعه أن يكون فيما يتعلق بحكم الله وشريعته، بأن يكذب على الله، فيقول في القرآن برأيه، ويفسر القرآن بغير ما أراد، أو يكذب على النبي ﷺ يقول: قال النبي ﷺ كذا، وهو كاذب، أو ينقل حديثًا يرى أنه كذب وهو لم يكذبه، ولكن يقول: قال فلان كذا وكذا عن رسول الله ﷺ وهو يرى أنه كذب، فإنه يكون أحد الكاذبين، كما بين رسول الله ﷺ"[٢]، فالكذب على رسول الله ﷺ أشد أنواع الكذب، قال ابن حجر الهيتمي: "ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام، أو تحريم حلال كفر محض"[٣].

---

(١) في المقدمة (٩/١) قبل حديث رقم (١) بدون رقم. وكذا من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦٢٤/٢.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، أبو العباس أحمد بن محمد الهيتمي، ضبط أحمد الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ١٢٤/١، ١٢٥.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الكذب على رسول الله ﷺ:

لقد رهبّ النبي ﷺ من الكذب عليه، فقال ﷺ: "من حديث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"، "والكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء"[1]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده في النار"[3].

قال القرطبي: (قوله ﷺ: "من حَدّث عني بحديث يَرَى أنه كذب فهو أحد الكاذبين" قيدناه عن مشايخنا "يرى" مبنيًا للفاعل والمفعول، فيرى بالفتح بمعنى يعلم المتعدية لمفعولين وأن سدت مسدهما، وماضي يرى: رأي مهموزًا، وإنما تركت العرب همز المضارع لكثرة الاستعمال، وقد نطقوا به على الأصل مهموزًا في قولهم:

ألم تر ما لاقيت والدهر أعصر ... ومن يتملل العيش يرأ ويسمع[4]

وربما تركوا همز الماضي في قولهم:

صَاحِ هَلْ رَيْت، أَوْ سَمِعْتَ براعٍ ... رَدَّ في الضَّرْعِ ما قَرَا في الحِلابِ؟[5]

ويحتمل ما في الحديث أن يكون بمعنى الرأي، فيكون ظنًا من قولهم: رأيت كذا: أي ظهر لي، وعليهما يكون المقصود بالذم في الحديث: المتعمد للكذب علمًا، أو ظنًا. وأما يُرى بالضم: فهو مبني لما لم يسم فاعله، ومعناها الظن وإن كان أصلها معدى بالهمزة من "رأى"، إلا أن استعماله في الظن أكثر وأشهر.

و(قوله: "فهو أحد الكاذبين"، رويناه بكسر الباء على الجمع فيكون معناه أنه أحد الكاذبين على رسول الله ﷺ الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى

---

(١) الكبائر، الإمام الذهبي، مؤسسة الريان للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ، ص ١٢٥.
(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٣.
(٣) أخرجه البخاري ١١٠.
(٤) سر صناعة الأعراب ١/٧٧، وجمهرة اللغة ١/٢٣٥.
(٥) لسان العرب ١/٣٢٩، الفائق في غريب الحديث ١/٣٠٧.

ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[1]. لأن الكذب على رسول الله ﷺ كذب على الله تعالى. ورويناه أيضًا بفتح الباء على التثنية، ويكون معناه: أن المحدث والمحدث بما يظنان، أو يعلمان كذبه كاذبان، هذا بما حَدّث، والآخر بما تَحَمّل من الكذب مع علمه، أو ظنه لذلك.

ويفيد الحديث التحذير عن أن يحدث أحد عن رسول الله ﷺ إلا بما تحقق صدقه علمًا أو ظنًا، إلا أن يحدث بذلك على جهة إظهار الكذب؛ فإنه لا يتناوله الحديث.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: ((اتّقُوا الْحَديثَ عَنّي إلاّ مَا عَلِمْتُمْ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[2].

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجِ النَّارَ))[3]. أي: يَدْخُلها، وماضيه: ولج، ومصدره: الولوج، ومنه قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[4]. وصدر هذا الحديث نهي، وعجزه وعيد شديد، وهو عام في كل كاذب على رسول الله ﷺ، ومطلق في أنواع الكذب، ولما كان كذلك هاب قوم من السلف الحديث عن رسوله الله ﷺ كعمر، والزبير بن العوام، وأنس بن مالك، وابن هرمز رضي الله عنهم أجمعين، فإن هؤلاء سمعوا كثيرًا، وحدثوا قليلاً، كما صرح الزبير رضي الله عنه بذلك؛ لما قال له ابنه عبدالله رضي الله عنه: إنّي لا أسمَعُكَ تُحدِّثُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ كما يُحدِّثُ فُلانٌ وفُلانٌ. قال: أما إنّي لم أُفارِقْهُ، ولكن سَمعتهُ يقولُ: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيّ فلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النار))[5].

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٣/١ رقم ٢٦٧٥، وقال محققو المسند: إسناده حسن ٤١٤/٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٠.

(٤) سورة الحج، آية: ٦١.

(٥) أخرجه البخاري ١٠٧.

وقال أنس: إنه يمنعني أن أحدثكم حديثًا كثيرًا أن رسول الله ﷺ قال: ((من كذب عليّ ...))[١]. الحديث. ومنهم من سمع وسكت كعبد الملك بن إياس، وكأن هؤلاء تخوفوا من إكثار الحديث الوقوع في الكذب، والغلط، فقللوا، أو سكتوا، غير أن الجمهور خصصوا عموم هذا الحديث، وقيدوا مطلقه بالأحاديث التي ذكر فيها: متعمدًا، فإنه يفهم منها: أن ذلك الوعيد الشديد إنما يتوجه لمن تعمد الكذب على رسول الله ﷺ، وهذه الطريقة هي المرضية؛ فإنها تجمع بين مختلفات الأحاديث؛ إذ هي تخصيص العموم، وحمل المطلق على المقيد مع اتحاد الموجِب والموجَب، كما قررناه في الأصول. هذا مع أن القاعدة الشرعية القطعية تقتضي: أن المخطئَ والناسي غير آثمين ولا مؤاخذين لاسيما بعد التحرز والحذر[٢].

قال النووي: وكما يحرم تعمد الكذب على رسول الله ﷺ فإنه يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعًا، أو غلب على ظنه وضعه ولم يبين حال روايته ووضعه، فهو داخل في هذا الوعيد مندرج في جملة الكذابين على رسول الله ﷺ، ويدل عليه قوله ﷺ "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين" ولهذا قال العلماء: ينبغي لمن أراد رواية الحديث أو ذكره أن ينظر، فإن كان صحيحًا أو حسنًا، قال: قال رسول الله ﷺ كذا أو فعله أو نحو ذلك من صيغ الجزم، وإن كان ضعيفًا فلا يصل، قال أو فعل أو أمر أو نهى، وشبه ذلك من صيغ الجزم، بل يقول روى عنه كذا أو جاء عنه كذا أو يروى أو يذكر أو يحكي، أو يقال أو بلغنا وما أشبهه"[٣]. ولذلك كان الصحابة والسلف الصالح أبعد ما يكون عن الكذب على رسول الله ﷺ، روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ((إذا حدَّثتُكم عن رسولِ الله ﷺ فلأنْ أخرَّ منَ السماءِ أحبُّ إليَّ من أن أكذبَ عليه، وإذا حدَّثتكم فيما بيني وبينكم فإنَّ الحرب خدْعة))[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٤

(٢) المفهم ١/١١١-١١٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ٣٥.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦١١.

إن الكذب رذيلة محضة، وخصلة ذميمة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب وأقبح الصفات، يقلب الموازين، ويمسخ الحقائق ويشوه وجه الجمال في كل شيء يداخله وينبئ عن تغلغل الفساد في نفس صاحبه، ويجر به إلى الفجور والنفاق.

قال ﷺ: ((... وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ))(١).

وقال: ((أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافِقًا خالصًا، وَمَنْ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنهنَّ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا أؤتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ))(٢).

ومن أشد أنواع الكذبِ وأشنعِه الكذبُ على الله تعالى أو الكذب على رسوله ﷺ لأنه افتراء في الدين، وتلاعب بشرائع الله لعباده، وتجرؤ عظيم على الناس. ولهذا أجمع العلماءُ على تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، وأنه من الكبائر وأن من كذب عليه متعمدًا مستجيزًا لذلك فهو كافر.

قال ﷺ: ((إِنَّ كَذِبا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ أَحَدٍ. فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))(٣).

وقال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ عليَّ مُتعَمِّدًا فليتَبوَّأْ مَقعدهُ منَ النار))(٤).

وهذا المعنى: وهو توعد من كذب على رسول الله ﷺ بالنار. ورد من طرق متواترة صرح بذلك غير واحد. ومن بشاعة هذه الجريمة وشناعتها أن بعض العلماء منهم الإمام أحمد ويحيى بن معين وأبو بكر الحميدي، أفتوا بأن من كذب على رسول الله ﷺ توبته مردودة ومن ثم لا تقبل روايته، إلا أن جماهير العلماء على خلاف قولهم.

بينما نجد أن من كذب على غير رسول الله ﷺ وإن كان ذلك إثمًا وفسقًا إلا أن

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤، ومسلم ٥٨.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩١، ومسلم ٤.

توبته صحيحة بالإجماع[١].

ثالثًا- من أهداف الدعوة: الحث على الأمانة ومراعاة الدقة، والتحري في رواية الأحاديث النبوية:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة، حفظ السنة النبوية وتحري الدقة في رواية الأحاديث النبوية، ولقد عرف الصحابة رضي الله عنهم منزلة السنة النبوية فتمسكوا بها، وتتبعوا آثار الرسول ﷺ، وأبو أن يخالفوها متى ثبتت عندهم، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء فارقهم عليه، واحتاطوا في رواية الحديث عنه ﷺ، خشية الوقوع في الخطأ، وخوفًا من أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب أو التحريف، وهى المصدر التشريعي الأول بعد القرآن الكريم، ولهذا اتبعوا كل سبيل يحفظ على الحديث نوره[٢]، فالإنسان ينبغي أن لا يتكلم إلا فيما أحاط به علمًا خاصة في نقل الرواية عن رسول الله ﷺ، قال مالك: (وينبغي للمرء أن لا يتكلم إلا فيما أحاط به خبرًا)[٣].

لقد كان سلفنا الصالح يبذلون جهدهم في تحري الصدق، والتثبيت فيما ينقلونه عن رسول الله ﷺ وينسبونه إليه، ومن دلائل ذلك ما روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((كنتُ في مجلسٍ من مجالسِ الأنصار، إِذ جاءَ أبو موسى كأنه مَذْعور، فقال: استأذنتُ على عمرَ ثلاثًا فلم يُؤْذَنْ لي فرجَعت، فقال: ما منعَك؟ قلت: استأذنتُ ثلاثًا فلم يُؤْذَنَ لي فرَجَعت، وقال رسولُ الله ﷺ: إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثًا فلم يُؤذَن له فليَرْجع. فقال: والله لتُقيمَنَّ عليه ببيِّنة. أمِنكم أحدٌ سمعَهُ من النبيِّ ﷺ؟ فقال أبيُّ ابن كعب: واللّهِ لا يقومُ معكَ إلا أصغَرُ القوم، فكنتُ أصغرَ القوم، فقمتُ معه فأخبرتُ عمرَ أن النبيَّ ﷺ قال ذلك))[٤].

---

(١) موسوعة نضرة النعيم ٥١٣/١، ٥١٤.

(٢) السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب ٩٢.

(٣) انظر: معالم في طريق طلب العلم، عبدالعزيز بن محمد بن عبدالله السدحان، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٠٩.

(٤) أخرجه البخاري ٦٢٤٥، ومسلم ٢١٥٣.

لقد حذرنا النبي ﷺ من الكذب عليه أو الأخذ ممن لا يتحرون الصدق، وذلك ابتعادًا عن الزلل وأمنا من الفتن.

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ))، وفي رواية أخرى: ((يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ))[1].

---

(١) أخرجه مسلم، ٦، ٧.

الحديث رقم (١٥٥١)

١٥٥١- وعن أسماء رضي الله عنها: أنَّ امْرأةً قالت: يَا رسولَ الله، إنَّ لِي ضَرَّةً فهل عَلَيَّ جُنَاحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذي يُعْطِينِي؟ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: ((**المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**)) متفق عَلَيْهِ[1].

(وَالمُتَشَبِّعُ): هُوَ الَّذي يُظْهِرُ الشَّبَعَ وَلَيْسَ بِشَبْعَان. ومعناهُ هُنَا: أنْ يُظْهِرَ أنَّهُ حَصَلَ لَهُ فَضيلَةٌ وَلَيْسَتْ حَاصِلَةً. (وَلابِسُ ثَوْبَي زُورٍ) أيْ: ذِي زُورٍ، وَهُوَ الَّذِي يُزَوِّرُ عَلَى النَّاسِ، بأنْ يَتَزَيَّى بِزِيِّ أهْلِ الزُّهْدِ أو العِلْمِ أو الثَّرْوَةِ، لِيَغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَلَيْسَ هُوَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ. وَقِيلَ غَيرُ ذَلِكَ واللهُ أعْلَمُ.

ترجمة الراوي:

أسماء بنت أبي بكر: سبقت ترجمتها في الحديث رقم (٣٢٥).

غريب الألفاظ:

ضَرّة: إحدى زوجتي الرجل أو إحدى زوجاته[2].

المتشبع: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك ويتزين بالباطل[3].

كلابس ثَوْبي زور: أي كالرجل يلبس الثياب المشبهة لثياب الزهاد يوهم أنه منهم، ويظهر التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه[4].

الشرح الأدبي

الحديث يقوم على حوار بين امرأة من المسلمين وبين رأس الأمة، ورسولها في حوار يدل على تواضع الرسول ﷺ الجم، وحرصه على صلاح الأمة، كما يدل على أدب المرأة، وصلاحها لأنها لم تقدم على الفعل حتى تستشير الرسول ﷺ فتعمل بتوجيهه

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له (٥٢١٩)، ومسلم (١٢٧/٢١٣٠).

(٢) المعجم الوسيط في (ض ر ر).

(٣) فتح الباري ٢٢٨/٩.

(٤) فتح الباري ٢٢٨/٩.

وسؤالها (إنَّ لِي ضَرَّةً فهل عَلَيَّ جُنَاحٌ إنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي؟) وظاهر السؤال يوحي برغبتها في تجاوز ما لها، ولذلك رد عليها الرسول ﷺ ردا صار قاعدة شرعية تنتفع بها كل الأمة، وترجع إليها، وهي من جوامع كلمه (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) قوله (المتشبع) قيل: المتشبع المتزين بأكثر مما عنده يتكثر بذلك، ويتزين بالباطل كالمرأة تكون لها ضرة فتشبع عندها بما تدعيه من الحظوة عند زوجها بأكثر مما عنده لها تريد بذلك غيظ صاحبتها وإدخال الأذى عليها، وكذلك هذا في الرجل وقال النووي المتكثر بما ليس عنده مذموم مثل من لبس ثوبي زور وقيل هو من يلبس قميصا واحدا ويصل بكميه كمين آخرين فيظهر أن عليه قميصين وقال الزمخشري في (الفائق) المتشبه بالشبعان وليس به واستعير للتحلي بفضيلة لم يرزقها وشبه بلابس ثوبي زور أي ذي زور وهو الذي يزور على الناس بأن يتزيا بزي أهل الصلاح رياء وأضاف الثوبين إليه، لأنهما كانا ملبوسين لأجله وهو المسوغ للإضافة وأراد أن المتحلي كمن لبس ثوبين من الزور وقد ارتدى بأحدهما واتزر بالآخر، وقال الكرماني معناه المظهر للشبع وهو جائع كالمزور الكاذب الملتبس بالباطل وشبه الشبع بلبس الثوب بجامع أنهما يغشيان الشخص تشبيها تحقيقا أو تخييليا كما قرر السكاكي في قوله تعالى: "فأذاقها الله لباس الجوع والخوف" (النحل١١٢) قال وفائدة التشبيه المبالغة إشعارا بأن الإزار والرداء زور من رأسه إلى قدمه أو الإعلام بأن في التشبع حالتين مكروهتين فقدان ما تشبع به وإظهار الباطل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء.

ثانيًا: من آداب المدعو: الحرص على سؤال أهل العلم والفضل عما يشكل عليه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من تظاهر الإنسان بما ليس فيه.

رابعًا: من أهداف الدعوة: حث المدعوين على التزام الصدق في الأقوال والأفعال.

أولاً– من أصناف المدعوين: النساء:

وردت الإشارة إلى هذا الصنف في الحديث: "فعن أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت:

يارسول الله إن لي ضَرّةَ فهل على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ ..." فقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[١]، وهى تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، سواء كانت بنتًا أو زوجة أو أمًا، فهى وإن كانت غير رجل، إلا إنها أم الرجال، وأخت الرجال، وخالة الرجال، وعمة الرجال، إنها مربية الرجال، وما دام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء، فهن نصف المجتمع، وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هى عناية بالدعوة نفسها[٢].

لقد حظيت النساء بدعوة النبي الكريم ﷺ. ولهذا شواهد كثيرة. ومنها ما يلي:

أ- نهي النساء عن احتقار الهدايا فيما بينهن:

روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقول: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا. وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ[٣]»[٤].

والمراد بالحديث كما قال الحافظ ابن حجر: لا تحقرن أن تهدي إلى جارتها شيئًا، ولو أنها تهدي لها ما لا ينتفع به في الغالب[٥].

وقال أيضًا: ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء، أمر بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: "لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت". فيتساوى في ذلك الغني والفقير[٦].

وأما حكمة تخصيصهن بهذا التوجيه النبوي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه،

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ص ٧٣-٧٤.

(٣) "فِرْسِنَ شَاةٍ" بكسر الفاء وسكون الراء وكسر السين ثم النون: حافر الشاة، (انظر فتح الباري، ٤٤٥/١٠).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له ٦٠١٧، ومسلم ١٠٣٠.

(٥) انظر: فتح الباري ٤٤٥/١٠.

(٦) فتح الباري ٤٤٥/١٠.

فقال عنها الحافظ ابن حجر: وخص النهي بالنساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل منها[١].

ب- نهي النساء عن رفع الرؤوس قبل الرجال:

روى الإمام أحمد عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا تَرْفَعْ رَأْسَها حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ رُؤُوسَهُمْ» قالت: وذلك أن أُزرهم كانت قصيرة، مخافة أن تنكشف عوراتهم إذا سجدوا[٢].

وواضح في الحديث أنه ﷺ قام بتوجيه النساء المسلمات بأن يمتنعن من رفع رؤوسهن في الصلاة قبل الرجال.

ج- موعظة النساء يوم العيد:

روى الشيخان عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قام النبي ﷺ يوم الفطر، فصلّى، فبدأ بالصلاة، ثم خطب. فلما فرغ، نزل فأتى النساء فذكّرهنّ. الحديث[٣].

وقد ترجم الإمام البخاري عليه بقوله: [باب موعظة الإمام النساء يوم العيد].

وروى الإمام البخاري نحو هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا، وترجم عليه بقوله: [باب عظة الإمام النساء وتعليمهن].

فخلاصة الكلام كان النبي الكريم ﷺ يقوم بدعوة النساء[٤].

ثانيًا- من آداب المدعو: الحرص على سؤال أهل العلم والفضل عما يشكل عليه:

ذلك واضح في سؤال المرأة للرسول ﷺ: "إن لي ضرة فهل على جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟..."، فإن من القواعد المنهجية الهامة التي ينبغي الحرص عليها سؤال أهل العلم عند استشكال الأمور، وعدم اتضاح الحقائق، وخفاء الأحكام وإرجاع الأمور إلى العلماء الربانيين الموثوق في دينهم وعقيدتهم وصلاحهم[٥]، قال تعالى:

---

(١) المرجع السابق ٤٤٥/١٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢٦٩٤١، وقال محققو المسند حديث صحيح لغيره (انظر: مسند أحمد، ٥١٤/٤٤).

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ٩٧٨، ومسلم ٨٨٥.

(٤) ركائز الدعوة إلى الله تعالى، د. فضل إلهي، ١٥١-١٥٣.

(٥) الإشاعة وآثارها في المجتمع، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي، ص ١٨٦.

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، فإن الأصل في المسلم أن يسأل عما لا يعلم، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم، يسألون رسول الله ﷺ، عن كل ما يعن لهم في شئون الدين، بل في الكثير من شئون الدنيا[٢].

إن في الرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم صلاح العبادة، قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا[٣].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من تظاهر الإنسان بما ليس فيه:

وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث، فقال ﷺ: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور".

قال القرطبي: (وقولها: "هل علي جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟" سألته: هل يجوز لها أن تظهر لضَرّتها: أن زوجها قد مكنها، أو أعطاها من ماله أكثر مما تستحقه، أو أكثر مما أعطى لضرتها، افتخارًا عليها، وإيهامًا لها: أنها عنده أحظى منها، فأجابها ﷺ بما يقتضي المنع من ذلك، فقال: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور". وأصل التشبع: تَفعّل من الشبع، وهو الذي يظهر الشبع وليس بشبعان. وكثيرًا ما تأتي هذه الصيغة بمعنى التعاطي كالتكبر، والتصنع.

ويفهم من هذا الكلام: أن النبي ﷺ نهى المرأة عن أن تتظاهر وتتكاثر بما لم يعطها زوجها؛ لأنه شبه فعلها ذلك بما ينتهى عنه، وهو: أن يلبس الإنسان ثوبي زور. واختلف المتأولون؛ هل الثوبان محمولان على الحقيقة، أو على المجاز؟ على قولين:

فعلى الأول يكون معناه: أنه شبهها بمن أخذ ثوبين لغيره بغير إذنه، فلبسهما مظهرًا

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم، د. حمود بن أحمد الرحيلي، ص ١٧-١٨.

(٣) جامع بيان العلم، لابن عبدالبر، ١/١٣٦.

أن له ثيابًا ليس مثلها للمظهر له. وقيل: بل شبهها بمن يلبس ثياب الزهاد، وليس بزاهد.

وعلى الوجه الثاني: قال الخطابي: إن ذكر الثوبين هنا كناية عن حاله ومذهبه. والعرب تكني بالثوب عن حال لابسه. والمعنى: أنه بمنزلة الكاذب القائل ما لم يكن. وقيل: هو الرجل في الحي تكون له هيئة، فإذا احتيج إليه في شهادة زور شهد بها؛ فلا يرد لأجل هيئته، وحسن ثوبه. فأضيفت شهادة الزور إلى ثوبه؛ إذ كان سببها.

قلت: وأي شيء من هذه الوجوه كان المقصود، فيحصل منه: أن تشبع المرأة على ضرتها بما لم يعطها زوجها محرم؛ لأنه شبه بمحرم، وإنما كان ذلك محرمًا؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه، ورياء، وأذى للضرة من نسبة الزوج إلى أنه آثرها عليها، وهو لم يفعل، وكل ذلك محرم[1].

وجاءت "ثوبي" مثناة للإشارة إلى أن -كذب المتشبع بما لم يعط مثنى، لأنه كذب على نفسه بما لم يأخذ وعلى غيره، بما لم يعط، وكذلك شاهد الزور يظلم نفسه ويظلم المشهود عليه، قال الداودي: في التثنية إشارة إلى أنه كالذي قال الزور مرتين مبالغة في التحذير من ذلك، ويحتمل أن تكون التثنية إشارة إلى أنه حصل بالتشبع حالتان مذمومتان: فقدان ما يتشبع به وإظهار الباطل[2]، قال ابن عثيمين: ويزداد إثم التقول إذا تشبع الإنسان بما لم يعط، كما في حديث المرأة أنها يكون لها ضرة يعني زوجة أخرى مع زوجها، فتقول إن زوجي أعطاني كذا وأعطاني كذا، وهى كاذبة، لكن تريد أن تراغم -تغيظ- ضرتها وتفسدها على زوجها، فهذا كما قال النبي ﷺ "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور" أى كذب[3].

فإن ذلك لون من ألوان الخداع والغش، وذلك من الأعمال التي تؤدي إلى تحطيم دعائم المجتمع المسلم[4].

---

(١) المفهم ٥/٤٥١، ٤٥٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٩/٢٢٨-٢٢٩.

(٣) شح رياض الصالحين ٢/١٦٣٤.

(٤) موسوعة نضرة النعيم ١٠/٤٤٧٦.

رابعًا- من أهداف الدعوة: حث المدعوين على التزام الصدق في الأقوال والأفعال:

إن من أهداف الدعوة الرئيسة الدعوة إلى تجنب الكذب سواء كان على الآخرين أو على النفس والحض على التزام وانتهاج الصدق والحق في الأقوال والأفعال، كما جاء في الحديث "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"، قال النووي : قال العلماء: المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده يتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور"[1]، لقد جاء في الحديث: الحث على عدم مخالفة الباطن الظاهر ما أمكن خاصة إذا ترتب على ذلك فساد، فإن من تظاهر بما ليس فيه كان من المزورين الكذابين، فلا يجوز لإنسان أن يتزين بغير زيه، بأن يتزين بزي أهل الزهد أو العلم أو الثروة ليغتر به الناس وليس هو بتلك الصفة[2].

لذا كان ترهيب الإسلام من الكذب وحضه على الصدق وتحريه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[3]، وفي ذلك أمر من الله للمؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، الذين صدقوا الله في إسلامهم وإيمانهم وأقوالهم وأفعالهم، وذلك لحاجة المجتمع الإنساني إلى خلق الصدق وذلك أن شطرًا كبيرًا من العلاقات الاجتماعية والمعاملات الإنسانية تعتمد على صدق الكلمة، ولولا الثقة بصدق الكلمة لتفككت معظم الروابط الاجتماعية بين الناس[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٣٤١.

(٢) شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ٧٣٠.

(٣) سورة التوبة، آية: ١١٩.

(٤) انظر: الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٢٢٢-٢٢٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الاجتماعية:

من أهداف التربية الإسلامية تحقيق التماسك في المجتمع، لأن الإسلام قد حرص على توثيق الروابط والعلاقات الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، ولقد اهتم النبي ﷺ بهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا، وذلك من خلال الترخيص والاستثناء للكذب في بعض المواطن التي تتحقق فيها المصلحة العامة، وذلك بالضوابط التي ذكرها النبي ﷺ، وليس من خلال الهوى والميول الشخصية.

قال ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا وَيَقُولُ خَيْرًا»، فهذا النموذج التربوي أراد النبي ﷺ تبيين الحقائق لكي لا يختلط الأمر بين الحق والباطل، والرسول ﷺ ما فعل ذلك إلا لتحقيق مصلحة اجتماعية تسود من خلالها الألفة والانسجام والاستقرار من جهة، وتبادل المصلحة من جهة ثانية، لأن الأصل في الكذب عدم الجواز ولكن الرسول ﷺ، أراد مصلحة هي أعظم مما في الكذب من مضرة أو دفعًا لضرر بين فريقين متخاصمين ثم لا يجد وسيلة للإصلاح بينها أنجح من أن يركب مركب الكذب فهو خير له، وإن أراد التوريه فهي أفضل، ثم أخذ هذا النموذج التربوي اتجاه اجتماعي وأسري آخر، وهو «حديث الرجلِ امْرَأَتَهُ، وحديث المرأةِ زَوْجَهَا»، وهذا النوع من الكذب المباح لأن به تشد أواصر الوفاق والمودة بينهما، فهذه حالة يتسامح فيها شيء من الكذب لتوثيق روابط الأسرة ولإضفاء الأضواء الشاعرية على مجالس الأنس والسمر والغزل بين الزوجين، ففي مثل هذه المجالس تحسين المبالغات وإن كانت كاذبة وتزداد معطيات المتعة والأنس والصفاء، وهذا ما يعمل الإسلام على تغذيته بين الزوجين، حتى تقوي الروابط بين الزوجين، ولا يفهم من ذلك الدعوة إلى التصنع والتكلف وعدم الواقعية وغير ذلك مما رفضه الإسلام لتنافيه مع الصدق ولكن الترخيص في الكذب استثناء وليس قاعدة، بهدف الحفاظ على تماسك الأسرة، وإذا كان الكذب محرمًا بصفة عامة إلا أنه يستثنى من ذلك ما رخص فيه النبي ﷺ لمصلحة اجتماعية، حيث توجد ظروف قد يكون فيها الكذب

أجدى من الصدق وأنفع للإنسانية، وهذا ما ذكرناه سلفًا[(١)].

ثانيًا: التربية بالتوجيه:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالتوجيه، وهي من الأساليب القائمة على اغتنام الفرص والأوقات المناسبة للتوجيه: والرسول ﷺ في حديث الباب أراد توجيه الصحابة على عدم التسرع في الحكم، وذلك من خلال قوله ﷺ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، ...».

إن الرسول ﷺ أراد أن يصحح الفهم، ويبين التصور الصحيح لهذا السلوك الذي يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي، لأن الرسول ﷺ أراد أن يربي الصحابة على أن الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب، يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب.

إن هذا الكلام ليس على إطلاقه حتى لا يسوغ للبعض أن يتخذه ذريعة الكذب من وجهة نظره، وبالتالي تتدخل الأهواء والميول الشخصية، وتضيع الأمور كلاً. إن هذه المسألة ترتبط حرفيًا بالضوابط التي وضعها النبي ﷺ وهي المصلحة العامة ولبست المنافع المادية الشخصية، والرسول ﷺ أراد التوجيه الإيجابي الحسن الذي ذكره في حديثي الباب بيان ما يمكن اتباعه عند التعرض للكذب وعند التعرض لوحدة المجتمع لنه يرى النتائج أمامه ويعايشها في نفس اللحظة، وهذا ما يذهب إليه المهتمون بالتربية، والذي ظهر من الحديث[(٢)].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. سعيد القاضي، ص٣٨، الوجيز في الأخلاق الإسلامية، ص٢٤٦، روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص٢٣٢، المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص٤٠٧.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص٢٧٨، التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، ص٢٥٥.

٢٦٣- باب بيان غلظ تحريم شهادة الزُّور

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَاجْتَنِبوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج: ٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[الفرقان: ٧٢].

الحديث رقم (١٥٥٢)

١٥٥٢- وعن أَبي بَكْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**ألاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأكبَرِ الكَبَائِرِ**[١]؟)) قُلْنَا: بَلَى يَا رسولَ اللهِ. قَالَ: ((**الإشْرَاكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**)) وكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: ((**ألا وَقولُ الزُّورِ**)) فما زال يُكَرِّرُهَا حَتَّى قلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبوبكرة الثقفي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٩).

غريب الألفاظ:

الكبائر: جمع كبيرة: الفَعْلَةُ القبيحةُ من الذنوب المنهيُّ عنها شرْعًا، العظيم أثرها؛ كالقتل، والزنا، والفرار من الزحف وغير ذلك[٣].

عقوق الوالدين: عصيانهما وإيذاؤهما[٤].

الزور: الكذب والباطل والتهمة[٥].

الشرح الأدبي[٦]

المضامين الدعوية[٧]

---

(١) عندهما زيادة: (ثلاثًا).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧)، وتقدم برقم (٣٣٧). أورده المنذري في ترغيبه (٣٦١١).

(٣) النهاية في (ك ب ر).

(٤) النهاية في (ع ق ق).

(٥) النهاية في (ز و ر).

(٦) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (٣٣٧).

(٧) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٣٣٧).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتشويق:

من أساليب التربية الإسلامية "التشويق" وهو من الأساليب التي استخدمها رسول الله ﷺ في أحاديثه، والتي منها حديث الباب، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قلنا بلى يا رسول الله، قال: ... »، ففي الحديث يشوق النبي ﷺ أصحابه إلى معرفة تلك الكبائر التي شدَّ النبي ﷺ انتباههم إلى التعرف عليها، حيث جعل النبي ﷺ النفوس تنزع إلى الشيء الذي سيذكره وجعل للصحابة رضي الله عنهم رغبة في معرفة هذا لأنه قال "ألا" ولم يذكر الأشياء مرة واحدة، فجعل من ذلك تطلع إلى معرفة هذا الشيء الذي سيذكره الرسول ﷺ، وبهذا يكون قد حرك القوة الداخلية في الإنسان، والموجِّهة لإرادته والدافعة له حتى ينمو عنده سلوكًا معينًا ألا وهو التشويق لمعرفة ما سيخبر به رسول الله ﷺ فتتربى عنده دوافع ذاتية تدفعه إلى الفضائل وتبعده عن الرذائل حتى يكون عالي الهمة لا يرضى أن يكون مقترفًا للمعاصي أو الكبائر.

والرسول ﷺ في هذا الحديث أراد أن يربي في النفس البشرية، أن تكون عليَّةً لا ترضى بالظلم والفواحش لأنها أكبر من ذلك، لذلك حرص في حديثه على إبراز دافع قوي يدفع عن الشر ويحفز للخير، وذلك من خلال إثارة حواس النفس كما في الحديث، فتظل النفس تتطلع إلى ما سيلقى إليها بشوق ولهفة لمعرفة هذه الكبائر العظام، فيتمنى من الله أن لا يقع فيها، وهذا مما يزيد الرغبة في عمل الخير وتجعله يجد ويحرص على العمل والجد والمثابرة[1].

ثانيًا: التربية بالتَّكْرار والتأكيد:

من أصول التربية الإسلامية التربية بالتَّكْرار والتأكيد لما فيه من إعادة الشيء

---

(١) التربية الذاتية في الكتاب والسنة، هشام علي أحمد، ص٧٤. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، العاني، ص٢٢٤. أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص٢٩٧.

مرارًا، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في تربيته للصحابة، وفي حديث الباب ما يدل على التكرار، فقال ﷺ: ((ألا وقولُ الزُّورِ. قال: فما زال يُكَرِّرُها حتّى قلنا: لَيتَهُ سَكَتَ)). مما يبرز أهمية التكرار وأنه أسلوب مفيد للغاية في عملية التربية، لأن الرسول ﷺ كان يحرص أثناء تربيته للصحابة على تأكيد أشياء لها أهميتها، وفي الحديث يؤكد الرسول ﷺ على خطورة قول الزور وشهادة الزور، وذلك لما يترتب عليها من مفاسد كبيرة تؤثر على الفرد والمجتمع، وتفسد علاقة العبد بربه، ومن فوائد التكرار هنا الحفظ، فإن الرسول ﷺ حرص على أن يحفظ الصحابة رضي الله عنهم هذا التحذير وليجعل كل واحد من الصحابة رضي الله عنهم نصب عينيه هذا التحذير. والرسول ﷺ يعلم أهمية هذه الوسيلة في تثبيت المعنى في القلوب وفي النفوس لتشعر بخطورة هذا الأمر وبشاعته، وظل رسول الله ﷺ يكرر حتى قال الصحابة ليته سكت، فهو فعل ما أمكن استطاعه من التكرار، ليتأكد بما لا يدع مجالاً للشك، إن مثل هذه الأمور يجب اجتنابها والبعد عنها للخطر الكبير والإثم العظيم المترتب عليها[1].

ثالثًا: التربية الشمولية:

من خصائص التربية الإسلامية أنها تربية شمولية متكاملة في كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته ومعاده، ففي حديث الباب ما يدل على ذلك: «... قلنا: بلى يا رسولَ الله. قال: الإشراك بالله، وعُقوق الوالِدَين. وكان متَّكِئًا فجلسَ فقال: ألا وقولُ الزُّور...»، فالرسول ﷺ ذكر أشياء في هذا الحديث تدل على أن التربية النبوية شاملة لجميع جوانب الشخصية من الناحية العقدية، والعبادية، والأسرية، والاجتماعية، فهي لم تقتصر في الحفاظ على جانب واحد فقط بل اهتمت بجميع الجوانب كما ذكرنا، وأثر هذا الاهتمام يتأتى في تنمية الروح وتغذية الجسم وتثقيف العقل وتكوين الأخلاق الحسنة، وغرس الفضيلة في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد على أساس من التقوى والتكافل والتعاون.

---

(١) انظر: التربية في السنة النبوية، أبولبابة حسين، ص٧٠، وآداب المتعلمين، د. أحمد عبدالله الباتلي، ص١٠١. وأساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٣٠٢.

والرسول ﷺ في تأسيسه للتربية الشمولية في أحاديثه وضع قاعدة هامة وعامة، وهي القاعدة الموضوعية لأنه لم يفصل بين "الدين والدنيا" بل شمل شؤون الحياة في الدنيا والآخرة، لأنه التشريع الخالد إلى يوم القيامة وإنساني، لأنه خاطب البشرية جمعًا، وفطريًا لأنه وقف ما بين مطالب الروح والجسد، ومكاني، لأنه صالح لكل زمان ومكان، ومن شموله إنه لم يغفل العلاقات الأسرية [الجيران]، وجميع جوانب الأخلاق، فما ترك الإسلام جانبًا من جوانب الحياة إلا وقد تناولتها الشريعة، وأوضحت لنا فيها الخير من الشر، والطاهر من الخبيث، والصحيح من الفاسد وبهذا الشمول الذي تتسم به الشريعة الإسلامية، فإنها في غاية الكمال، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1][2].



(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أصول التربية الإسلامية، أ.د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٣٥، ٧٥، وأصول التربية الإسلامية، أ. د. خالد الحازمي، ص ٤٦.

٢٦٤- باب تحريم لعن إنسان بعينه أَوْ دابة

الحديث رقم (١٥٥٣)

١٥٥٣- عن أَبي زيدٍ ثابت بن الضَّحَّاك الأنصاريِّ ﷺ، وَهُوَ من أهلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإسْلاَمِ كَاذِبًا (مُتَعَمِّدًا)** [١]، **فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ، عُذِّبَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فيما لا يَمْلِكُهُ، (وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ)** [٢])) متفق عَلَيْهِ[٣].

ترجمة الراوي:

ثابت بن الضحاك: هو ابن خليفة بن ثعلبة الأنصاري. ولد سنة ثلاث من البعثة.

له صُحبة برسول الله ﷺ ورواية عنه.

وكان رديف النبي ﷺ يوم الخندق، ودليله إلى حمراء الأسد، وكان ممن بايع تحت الشجرة في بيعة الرضوان.

وقال البخاري والترمذي كما في الإصابة إنه شهد بدرًا، وقيل إنه لم يشهدها.

وبلغت أحاديثه عن النبي ﷺ ١٤ حديثًا. وتوفي سنة ٥٤هـ[٤].

غريب الألفاظ:

بملة: الملة: الدين[٥].

لعن المؤمن: سبُّه وشَتْمُه[٦].

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عنده برقم (١١٠/١٧٧).

(٢) هذه الزيادة عند مسلم بعد حديث (١١٠/١٧٦، بدون رقم)، والبخاري برقم (٦١٠٥) من حديث أبي قلابة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠/١٧٦). والسياق للحميدي في جمعه (٥١٦/١، رقم ٨٤٢).

(٤) الإصابة (١٥٠)، الأعلام للزركلي (٩٨/٢)، الاستيعاب (١٠٣)، أسد الغابة (٤٤٦/١-٤٤٧)، تهذيب الكمال (٤٠٦/١)، تهذيب التهذيب (٢٦٥/١).

(٥) النهاية في (م ل ل).

(٦) النهاية في (ل ع ن).

الشرح الأدبي

ذكر ما يتعلق بالراوي من رؤية، أو سماع، أو صحبة للنبي ﷺ، أو حضور غزوة أو بيعة كقوله (وَهُوَ من أهلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ) من تعديل الراوي وتزكيته، وهو لون من ألوان توثيق الحديث ؛ لأنهم الثقات العدول الذين لا يبلغهم التجريح، والحديث يهدد في بدايته ويحذر في سياق الشرط من الحلف الكاذب بملة غير الإسلام بنسبته إلى تلك الملة الباطلة التي حلف بها (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلاَمِ كَاذِباً مُتَعَمِّداً، فَهُوَ كَمَا قَالَ) وهو يربط بين الحلف على ملة غير الإسلام بالقيد المذكور وبين الكون على ما قاله أي يصير إلى الملة التي حلف عليها، وهو يتضمن التحذير من الكذب في اليمين، ويتضمن التحذير من الحلف بملة غير الإسلام، والخطأ الثاني الذي يحذر منه الحديث في ثوب الشرط (وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ، عُذِّبَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ) حيث ربط بين قتل النفس بشيء، والعذاب به يوم القيامة، وبذلك يجعل أداة القتل في يد القاتل أداة تعذيبه يوم القيامة، مما يعني أنه ينتقل من هول إلى هول، وتقييدها بيوم القيامة يزيد الأمر هولا، ثم قرر قاعدة شرعية في قوله (وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فيما لا يَمْلِكُهُ) وهو أسلوب نفي لتحمل الإنسان ما لا يطيق من النذر، (وَلَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ) تشبيه للعن المسلم بقتله تعظيما لهذا الذنب يقتضي الحذر منه قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : قَالَ الْإِمَامُ - يَعْنِي الْمَازِرِيَّ - : الظَّاهِرُ مِنْ الْحَدِيثِ تَشْبِيهُهُ فِي الْإِثْمِ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ وَاقِعٌ ؛ لِأَنَّ اللَّعْنَةَ قَطْعٌ عَنْ الرَّحْمَةِ، وَالْمَوْتَ قَطْعٌ عَنْ التَّصَرُّفِ قَالَ الْقَاضِي، وَقِيلَ : لَعْنَتُهُ تَقْتَضِي قَصْدَهُ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْعَهُمْ مَنَافِعَهُ، وَتَكْثِيرَ عَدَدِهِمْ بِهِ كَمَا لَوْ قَتَلَهُ، وَقِيلَ : لَعْنَتُهُ تَقْتَضِي قَطْعَ مَنَافِعِهِ الْأُخْرَوِيَّةِ عَنْهُ، وَبُعْدَهُ مِنْهَا بِإِجَابَةِ لَعْنَتِهِ فَهُوَ كَمَنْ قُتِلَ فِي الدُّنْيَا، وَقُطِعَتْ عَنْهُ مَنَافِعُهُ فِيهَا .

فقه الحديث

في هذا الحديث من الفقه ما يلي:

١-حكم لعن المسلم: لا خلاف بين الفقهاء في تحريم وتغليظ لعن المسلم[1].

---

(١) شرح صحيح مسلم مج١/ج٢/١٠٧ ط دار الكتب العلمية.

٢-حكم لعن الكافر: لا يجوز لعن أعيان الكفار حيًا كان أو ميتًا، إلا من علمنا بالنص أنه مات كافرًا كأبي لهب وأبي جهل وشبههما، ويجوز لعن طائفتهم كقولك لعن الله الكفار، ولعن الله اليهود والنصارى[١].

٣-بيان غلظ تحريم قتل النفس، واليمين الفاجرة التي يقتطع بها مال غيره، والحلف بملة غير الإسلام كقوله هو يهودي أو نصراني إن كان كذا[٢].

٤-لا يصح النذر فيما لا يملك ولا يلزم بهذا النذر شيء[٣].

٥-حكم لعن البهائم: يحرم لعن البهائم[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل أهل بيعة الرضوان.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف على يمين بغير ملة الإسلام.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس البشرية والترهيب من إزهاقها.

رابعًا: من خصائص الدعوة: التيسير على المدعوين ومراعاة أحوالهم.

أولاً- من موضوعات الدعوة: فضل أهل بيعة الرضوان:

وردت الإشارة إلى ذلك في بيان كون راوي الحديث من أهل بيعة الرضوان "فعن أبي زيد ثابت بن الضحاك الأنصاري ﷺ وهو من أهل بيعة الرضوان"، وبيعة الرضوان كانت بالحديبية سنة ست من الهجرة، وسببها أنه أشيع أن قريشًا قتلوا عثمان رضي الله عنه، فبايع الصحابة رسول الله ﷺ على قتالهم والموت في سبيل الله[٥]، وقبل أن تتطور الأمور وتتأزم، عاد عثمان إلى معسكر المسلمين بعد بيعه الرضوان هذه مباشرة، وقد عرفت البيعة بذلك[٦].

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢، وسبل السلام ٣٤١/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢٥/٢.

(٤) شرح منتهى الإرادات ٢٤٧/٣-٢٤٨، وكشاف القناع ٤٩٤/٥، وشرح صحيح مسلم ١٢٥/٢.

(٥) سيرة ابن هشام ٣٠٨/٣.

(٦) موسوعة نضرة النعيم ٢٣٧/١.

لقد خرج النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية من المدينة يريدون الحج ولم يريدوا قتالاً، ولما غاب عثمان رضي الله عنه في مكة، وشاعت القالة بأنه رضي الله تعالى عنه قد قتل، ولم يكن ذلك بعيد الاحتمال، أخذ أهبته للقتال لأن الاعتداء وقع بقتل الرسول، وهو رسول سلام، وهذا أمر منكر وقبيح في ذاته، وفوق ذلك يتضمن في ذاته رفض للسلام واعتداء على من أرسله، إذ الرسول لا يقتل، ولكن يرد إلى مأمنه، سواء رفضوا الرسالة أم قبلوها.

لا بد إذن من الأهبة، وما خرجوا للقتال، فلابد من أخذ البيعة به، لأن القتال برضا الجند، وتلك سنة نبوية في كل حروبه عليه الصلاة والسلام، فإنه يريد جندًا مختارًا يقدم بنفسه برضا واختيار، محتسبًا النية لله تعالى طالبًا ما عند الله.

لذلك أخذ البيعة على من معه، وكان يبايعهم على الموت، وعلى ألا يفروا من الميدان، لأن الرسول ﷺ قرر القتال، وقال: لا نبرح حتى نناجز القوم، لأنهم بقتلهم ذا النورين عثمان يكونون قد رفضوا السلام.

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايع رسول الله ﷺ كل من معه، ولم يتخلف عن البيعة أحد إلا واحد، وما كان ليلتفت إليه.

ولقد رضي الله عن أولئك الذين قبلوا أن يغيروا ملابس الإحرام ويلبسوا ملابس القتال، وقال الله تعالى فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ

بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[١]، وفي هذه الآيات يخبر الله عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة[٢]، زيادة على ذلك وهبهم سبحانه وتعالى من بعد ذلك مغانم كثيرة، وبين سبحانه وتعالى أن أول هذه المغانم أن يكف أيديهم عنكم، فكانت هذه غنيمة عاجلة، وكان هذا فتحًا مبينا.

ولقد قال رسول الله ﷺ لمن بايعه يومئذ "أنتم خير أهل الأرض"[٣]، وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها"[٤]، قال النووي: قال العلماء: "معناه لا يدخلها أحد منهم قطعًا، وإنما قال إن شاء الله للتبرك لا للشك"[٥].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من الحلف على يمين بغير ملة الإسلام:

إن من أراد أن يسلم له الإيمان فليتق الله في الأيمان، وليبتعد عن الأيمان المخالفة لهدى رسول الله ﷺ، ومنها ما جاء الترهيب منها في الحديث، فقال ﷺ "من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كما قال".

قال القرطبي: وقوله: "من حلف على يمين بملة غير الإسلام"، اليمين هنا: يعني به المحلوف عليه، بدليل ذكره المحلوف به، وهو بملة غير الإسلام، ويجوز أن يقال: إن "على" صلة، وينتصب يمين على أنه مصدر ملاق في المعنى لا في اللفظ.

وقوله: "كاذبًا متعمدًا" يحتمل أن يريد به النبي ﷺ: من كان معتقدًا لتعظيم تلك الملة المغايرة لملة الإسلام، وحينئذ يكون كافرًا حقيقةً، فيبقى اللفظ على ظاهره. "وكاذبًا" منصوب على الحال، أي: في حال تعظيم تلك الملة التي حلف بها، فتكون هذه

---

(١) سورة الفتح، الآيات: ١٨-٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، ٣٣٩/٧.

(٣) أخرجه البخاري ٣٦٩٨.

(٤) أخرجه مسلم ٢٤٩٦.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥١١.

الحال من الأحوال اللازمة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[1]. لأن من عظم ملة غير الإسلام كان كاذبًا في تعظيمه دائمًا في كل حال، وكل وقت، لا ينتقل عن ذلك، ولا يصلح أن يقال إنه يعني بكونه كاذبًا في المحلوف عليه؛ لأنه يستوي في ذمه كونه صادقًا أو كاذبًا إذا حلف بملة غير الإسلام؛ لأنه إنما ذمة الشرع من حيث إنه حلف بتلك الملة الباطلة معظمًا لها، على نحو ما تعظم به ملة الإسلام الحق، فلا فرق بين أن يكون صادقًا أو كاذبًا في المحلوف عليه، والله تعالى أعلم.

وأما إن كان الحالف بذلك غير معتقد لذلك فهو آثم، مرتكب كبيرة؛ إذ قد نسبه في قوله لمن يعظم تلك الملة ويعتقدها، فغلظ عليه الوعيد، بأن صيره كواحد منهم مبالغة في الردع والزجر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[2]. وهل تجب عليه كفارة أم لا؟ اختلف العلماء في ذلك، فروي عن ابن المبارك مما ورد مثل هذا: أن ذلك على طريقة التغليظ، ولا كفارة على من حلف بذلك وإن كان آثماً، وعليه الجمهور، وهو الصحيح، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلف باللات فليقل لا إله إلا الله»[3]. ولم يوجب عليه أكثر من ذلك. ولو كانت الكفارة واجبة لبينها النبي ﷺ حينئذ، لأنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وقد ذهب بعض العراقيين إلى وجوب الكفارة عليه.

وقال ابن علان: قوله ﷺ من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كما قال: كأن قال: والله إن فعلت كذا فهو يهودي أو نصراني، فهو كما قال أى إذا أراد التدين بذلك والعزم عليه إن فعل ذلك فيصير كافرًا حالاً، لأن العزم على الكفر كفر، أما إذا أراد المبالغة في منع نفسه من ذلك، وألا يفعله البتة من غير عزم على ذلك المحلوف به البتة، فمعصية يستغفر الله منها[4]، قال ابن عثيمين رحمه الله: وهذا يدل على

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥١.

(٣) أخرجه البخاري ٣١٢، ٣١٣.

(٤) دليل الفالحين ١٦١٣.

أن الحلف بملة غير الإسلام متعمدًا من كبائر الذنوب، فإن كان غير كاذب بأن كان صادقًا فإنه لا يلحقه هذا الوعيد، لكننا نقول إذا كنت حالفًا فاحلف بالله، كما قال الرسول ﷺ "من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليسكت"[1][2].

ثالثًا: من أهداف الدعوة: الحفاظ على النفس البشرية والترهيب من إزهاقها

إن من أهداف الدعوة، الحفاظ على الضرورات الخمس، والتي منها الحفاظ على النفس، سواء كانت نفس الغير أم نفس الإنسان ذاته، ومن ذلك ما جاء في الحديث من ترهيب الإسلام من قتل الإنسان لنفسه، قال ﷺ "ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة"، فلقد حفظ الإسلام حق الحياة، وحماه بالتربية والتوجيه وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية، واعتبر الحياة هبة من الله لايجوز لأحد أن يسلبها غيره[3]، فضلاً عن أنه لا يجوز له أن يسلبها نفسه، كما جاء في الحديث من الترهيب من قتل النفس، ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة " ليكون الجزاء من جنس العمل[4]، وقد تضافرت النصوص على تحريم قتل الإنسان لنفسه، وبيان أن ذلك من أسباب استحقاق النار، فعن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "كان برجل جراح فقتل نفسه، فقال الله: بدرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة[5]، إذ أن المنتحر قاتل للنفس التي حرم الله تعالى قتلها، فكان من أهل النار[6].

ويتحقق قتل الإنسان نفسه، أو ما يسمى الانتحار بوسائل مختلفة، ويتنوع بأنواع متعددة كالقتل.

فإذا كان إزهاق الشخص نفسه بإتيان فعل منهي عنه كاستعمال السيف أو الرمح أو البندقية أو أكل السم أو إلقاء نفسه من شاهق أو في النار ليحترق أو في الماء ليغرق

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٧٩، ومسلم ٣.

(٢) شرح رياض الصالحين ١٦٣٧/٢.

(٣) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٤.

(٤) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٣.

(٥) أخرجه البخاري ١٣٦٤، ومسلم ١١٣.

(٦) موسوعة نضرة النعيم ٥٢٩٩/١١.

وغير ذلك من الوسائل، فهو انتحار بطريق الإيجاب.

وإذا كان الإزهاق بالامتناع عن الواجب، كالامتناع من الأكل والشرب وترك علاج الجرح الموثوق ببرئه بما فيه من خلاف سيأتي، أو عدم الحركة في الماء أو في النار أو عدم التخلص من السبع الذي يمكن النجاة منه، فهو انتحار بطريق السلب.

ويقسم الانتحار بحسب إرادة المنتحر إلى نوعين: الانتحار عمدًا والانتحار خطأ.

فإذا ارتكب الشخص عملاً حصل منه قتل نفسه، وأراد النتيجة الحاصلة من العمل، يعتبر القتل انتحارًا عمدًا. كرمي نفسه بقصد القتل مثلاً.

وإذا أراد صيدًا أو قتل العدو فأصاب نفسه، ومات، يعتبر انتحارًا خطأ.

ويمكن أن يحصل الانتحار بطريق يعتبر شبه العمد عند غير المالكية، كقتل الإنسان نفسه بما لا يقتل غالبًا، كالسوط والعصا.

وقد يكون الانتحار بسبب سلبي وذلك مثل:

الامتناع من المباح: من امتنع من المباح حتى مات كان قاتلاً نفسه، متلفًا لها عند جميع أهل العلم. لأن الأكل للغذاء والشراب لدفع العطش فرض بمقدار ما يدفع الهلاك، فإن ترك الأكل والشرب حتى هلك فقد انتحر، لأن فيه إلقاء النفس في التهلكة المنهي عنه في محكم التنزيل.

وإذا اضطر الإنسان للأكل أو الشرب من المحرم كالميتة والخنزير والخمر، حتى ظن الهلاك جوعًا، لزمه الأكل والشرب، فإذا امتنع حتى مات صار قاتلاً نفسه، بمنزلة من ترك أكل الخبز وشرب الماء في حال الإمكان، لأن تاركه ساع في إهلاك نفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. وكذلك حكم الإكراه على أكل المحرم، فلا يباح للمكره الامتناع من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير في حالة الإكراه، لأن هذه الأشياء مما يباح عند الاضطرار لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[2]. والاستثناء من التحريم إباحة، وقد تحقق الاضطرار بالإكراه، ولو امتنع عنه

(١) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١١٩.

حتى قتل يؤاخذ به ويعد منتحرًا، لأنه بالامتناع عنه صار ملقيًا نفسه في التهلكة.

أما عن الحكم التكليفي للانتحار، فإنه حرام بالاتفاق، ويعتبر من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[١]. وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٢]. وقد قرر الفقهاء أن المنتحر أعظم وزرًا من قاتل غيره، وهو فاسق وباغ على نفسه، حتى قال بعضهم: لا يغسل ولا يصلى عليه كالبغاة، وقيل: لا تقبل توبته تغليظًا عليه.

كما أن ظاهر بعض الأحاديث يدل على خلوده في النار، منها ما روي عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «مَن تَرَدَّى من جبل فقتلَ نفسَه فهو في نار جهنم يتردَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن تحسَّى سمًا فقتَلَ نفسه فسمُّهُ في يده يَتحساهُ في نارِ جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا. ومن قتلَ نفسه بحَديدة فحديدتهُ في يده يَجأُ بها في بطنهِ في نار جهنمَ خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[٣][٤].

رابعًا: من خصائص الدعوة: التيسير على المدعوين ومراعاة أحوالهم

ورد في الحديث صورة من صور تيسير الإسلام على أتباعه في قوله ﷺ "ليس على رجل نذر فيما لا يملكه"[٥]، أي لا يجب عليه الوفاء بنذر شيء لا يملكه، وذلك من مظاهر تيسير الإسلام على أتباعه، فإن المتتبع لما شرعه الله علينا يرى أن مظاهر رفع الحرج فيها واضحة جلية لا غموض فيها ولا خفاء، ذلك لأن الشريعة الإسلامية قد تميزت بعدم العنت والمشقة، ورفع الحرج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٦]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٧]، وذلك مما يدل على أن

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥١.

(٢) سورة النساء، آية: ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري ٥٧٧٨، ومسلم ١٠٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٨١/٦-٢٨٤.

(٥) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٥.

(٧) سورة الحج، آية: ٧٨.

رعاية التيسير والتخفيف مقصودة من الشارع الحكيم[1].

ولقد كانت وصية رسول الله ﷺ دائمًا للأمة ولاة وآحادًا بالتيسير والابتعاد عن التعسير، فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن ومعاذ بن جبل قال لهما: «يَسرا ولا تعسِّرا، وبَشِّرا ولا تنفِّرا، وتَطاوَعا»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وبشروا وَلاَ تُنَفِّرُوا»[3].

---

(١) انظر: مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام، ١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦١٢٤، ومسلم ١٧٣٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦١٢٥.

الحديث رقم (١٥٥٤)

١٥٥٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: ((**لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لَعَّانًا**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

لعانًا: الدعاء بالإبعاد من رحمة الله[2].

الشرح الأدبي

الحديث قصير يتميز بالإيجاز وأسلوبه خبري يبدأ بنفي الانبغاء على الحالة المذكورة وهي نفي اجتماع الصديقية مع صفة اللعن، والتعبير بلفظ (صديق) يوحي بقمة محاسن الخلق التي يتصور العقل معها وجود كل صفة حسنة والتعبير بصيغة المبالغة (لعان) بصيغة التكثير ولم يقل لاعنا واللاعنون لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كثر منه اللعن لا لمرة ونحوها ولأنه يخرج منه أيضا اللعن المباح وهو الذي ورد الشرع به وهو لعنه الله على الظالمين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الواصلة والواشمة وشارب الخمر وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه والمصورين وغيرهم، وفي الحديث الزجر عن اللعن، وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة ؛ لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى فهو من نهاية المقاطعة والتدابر وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه.

---

(١) برقم (٢٥٩٧/٨٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٩٩).

(٢) شرح مسلم ١٥٤٩.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على اجتناب اللعن.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية تحلي المؤمن بالخلق الكريم والبعد عن اللعن.

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على اجتناب اللعن

إن كثرة اللعن والإيذاء تنافي كمال التصديق وثبات الإيمان[١]، ولذلك جاءت النصوص الكثيرة الناهية عن اللعن، ومن ذلك ما جاء في الحديث في قوله ﷺ "لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا"، قال القاضي عياض: (وذلك تعظيم لاثم اللعن وتجنبه، وأنه ليس من أخلاق المؤمنين والصديقين ولا الشهداء والشفعاء يوم القيامة، وأن من تخلق به فليس من هذه الطبقات العزيزة الرفيعة لأن اللعنة -وإن كان أصلها في اللغة الترك والإبعاد- فصار استعمالها في الدعاء والإبعاد من رحمة الله، وليس هذا خلق المؤمنين الذين وصفهم الله بالرحمة بينهم، والتعاون على البر، وأنهم كالجسد الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضًا، وأن المسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومثله قوله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»[٢].

فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة، وهي البعد من رحمة الله، وهي بمثابة المقاطعة والعداوة ومحبة الشر أجمعه له، وهي ضد الشفاعة والشهادة المقتضية للإشفاق والرحمة وهي غاية ما يرده الكافر وغاية أصله وعاقبة أمره، فكيف يجوز لمسلم وقر الإيمان في قلبه أن يحبه لأخيه ويدعو عليه به[٣].

قال النووي رحمه الله: "فيه الزجر عن اللعن، وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة، لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم، والتعاون على

(١) شرح رياض الصالحين د. الحسيني هاشم، ٧٣١.

(٢) اخرجه مسلم ٢٥٩٩.

(٣) إكمال المعلم ٦٨/٨..

البر والتقوى وجعلهم كالبنيان المرصوص، يشد بعضهم بعضًا، وكالجسد الواحد، وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهى الإبعاد من رحمة الله تعالى، فهو من نهاية المقاطعة والتدابر، وهذا غايه ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه"(١)، وجاء التعبير في الحديث بصيغة المبالغة، فقال: "لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا"، قال ابن علان: أى ليس شأنه ووصفه المبالغة بالإكثار منه، فأومأ إلى أنه إذا ندر منه ذلك حينًا فلا ينافي وصفه بالصديقية، لأن غلبة الحال قد تحمل عليه(٢).

وقد جاءت النصوص الجمة التي تحث على اجتناب اللعن، إذ أنه لون من ألوان الفحش التي حاربها الإسلام، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن يَهودَ أتَوُا النبيَّ ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنَكُم الله وغضِبَ الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرِّفق، وإياكِ والعنفَ والفُحش. قالت: أولم تَسمع ما قالوا؟ قال: أَوَلم تسمعي ما قلتُ؟ ردَدتُ عليهم، فيُستجابُ لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ»(٣).

وبين ﷺ أن الفحش إذا اتصف به إنسان كان من أشر الناس، وذكر ابن حجر الهيتمي أن ملازمة الشر والفحش من الكبائر، مستدلاً بقوله ﷺ: « إنَّ شر الناس مَن تركه الناس - أو وَدَعهُ الناس - اتقاءَ فُحشِهِ»(٤). وبما روي عن الإمام أحمد بن حنبل من أن الفحش والتفحش ليس من الإسلام في شيء، وأن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا(٥).

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية تحلي المؤمن بالخلق الكريم والبعد عن اللعن

لقد أولى الإسلام الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الكريمة رعاية كاملة مقطوعة النظير، "فالأخلاق الكريمة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بمراعاة طبيعته

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤٩.

(٢) دليل الفالحين ١٦١٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٣٠ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩٣.

(٤) أخرجه البخاري ٦٠٥٤ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩١.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١٥٢/١، ١٥٣.

وقدراته، وما سخر له في السماوات والأرض، وبما أنزل عليه من كتب، وما أرسل إليه من رسل، وبذا تتحقق كرامة الإنسان ويتهيأ لها للعمل الصالح المحكوم بسياج العقيدة الصحيحة(١). ومن أهم هذه الأخلاق التمسك بأحسنها والبعد عن اللعن والفحش في الأقوال والأفعال، فقال ﷺ: "لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا"، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"(٢)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: "ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه"(٣).

ولله در القائل:

أُحِبُّ مكارِمِ الأخلاق جَهْدِي ... وأَكْــره أن أَعيب وأن أُعابَا

وأَصْفَح عن سِباب النَّاس حِلْمًا ... وشرُّ الناس مَن يَهْوَى السِّبابا(٤)

وعن حُكْم اللعن وملازمته وهو أحد ألوان الفحش، ذكر ابن حجر الهيتمي أن ملازمة الشر والفحش من الكبائر، مستدلاً بما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذَنَ رجلٌ على رسولِ الله ﷺ، فقال: ائذَنوا له، بئسَ أخو العشيرة أو ابن العشيرة. فلما دَخلَ ألانَ له الكلام. قلت يا رسول الله قلتَ الذي قلتَ ثم أَلنتَ له الكلام. قال: أي عائشة، إنَّ شر الناس مَن تركه الناس - أو وَدَعهُ الناس - اتقاءَ فُحشِهِ»(٥). وبما روى عن أحمد بن حنبل من أن الفحش والتفحش ليس من الإسلام في شيء، وأن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا(٦).

ولقد جاءت النصوص الكثيرة في التحذير من اللعن والفحش، ومن ذلك ما روى عن

---

(١) القيم الحضارية في رسالة الإسلام، محمد فتحي عثمان، الدار السعودية، الطبعة الأولى،١٤٠٢هـ،ص٤٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٣٨٣٩، والحديث قال عنه محققو المسند حديث حسن، (مسند الإمام أحمد ٣٩١/٦).

(٣) أخرجه الترمذي ١٩٧٤، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله، (صحيح سنن الترمذي ١٦٠٧).

(٤) موسوعة نضرة النعيم ٥٢٣٥/١١.

(٥) أخرجه البخاري ٦٠٥٤ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩١.

(٦) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١٥٢/١، ١٥٣.

عائشة رضي الله عنها: «أن يهودَ أتَوُا النبيَّ ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنَكُم الله وغضِبَ الله عليكم. قال: مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرِّفق، وإياكِ والعنفَ والفُحش. قالت: أولم تَسمع ما قالوا؟ قال: أَوَلم تسمعي ما قلتُ؟ ردَدتُ عليهم، فيُستجابُ لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ»(١).

وروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّلْم ظُلُماتٌ يَوْمَ القيامَةِ، وإيّاكُمْ والفُحْش، فإنّ الله لا يحبّ التَّفَحُّش، وإيّاكُمْ والشُّحَّ، فإنّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، أَمرَهُمْ بالقطيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بالبُخْلِ فَبَخِلُوا، وأَمَرَهُمْ بالفُجُورِ فَفَجَرُوا ... الحديث»(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَسَمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَسْمًا. فَقُلْتُ: وَاللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ لَغَيْرُ هؤُلاَءِ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ. قَالَ: «إِنَّهُمْ خَيَّرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي. فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ»(٣).

وعن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللّهِ. مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللّهِ، مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ... الحديث»(٤).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»(٥).

إن للفحش واللعن وما شاكلهما من الأخلاق الذميمة مضارها التي لا تنكر، والتي لها آثارها السلبية على الأفراد والمجتمعات، ومن هذه المضار:

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٣٠ واللفظ له، ومسلم ٢٥٩٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٦٤٨٧، وقال محققو المسند إسناده صحيح، انظر: (مسند الإمام أحمد ٢٦/١١).

(٣) أخرجه مسلم ١٠٥٦.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢٢٠، ومسلم ٢٧٦٠ واللفظ له.

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٣٨٣٩، والحديث قال عنه محققو المسند حديث حسن، (مسند الإمام أحمد ٣٩١/٦).

أ- البعد من الله ومن الناس.

ب- إيجاب سخط الله وغضبه.

ج- استحقاق الوعيد في الآخرة.

د- معول هدم في المجتمع.

هـ- دليل على سوء الخاتمة[1].

---

(١) انظر موسوعة نضرة النعيم ١١/٥٢٣٥.

الحديث رقم (١٥٥٥)

١٥٥٥- وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**لاَ يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ، وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ**)). رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٧).

غريب الألفاظ:

اللعانون: اللعن: الدعاء بالإبعاد من رحمة الله[2].

شفعاء: الشفاعة: السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم وتكون في أمور الدنيا والآخرة[3].

شهداء: من الشهادة بمعنى القتل في سبيل الله وقيل من الإشهاد على الأمم يوم القيامة[4].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من المشاهد الواقعية في سيرة المصطفى ﷺ،وهو مشهد يبوح بموقف رسول الله ﷺ من هذه الناقة التي لعنتها صاحبتها.

وفي الحديث السابق توضيح لمثل هذا الموقف، أو تفسير لبعض جوانبه، حيث ضجرت المرأة من علاج الناقة: فلعنتها، فقال رسول الله ﷺ: خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة.

وهذا الحديث يصاغ في سياق حكاية تتضمن حدثًا وبعض الشخصيات، وبعض المواقف، ويبدأ الحديث بداية قصصية في قول الراوي: بينما.. وهي تمهد لأحداث

---

(١) برقم (٢٥٩٨/٨٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠١).

(٢) شرح مسلم ١٥٤٩.

(٣) النهاية ٤٨٤.

(٤) شرح مسلم ١٥٤٩.

ستتوالى بعد ذلك، والجارية من شخصيات هذه القصة.. وهي الشخصية المحورية لأنها هي التي لعنت الناقة، ولم يُحدد اسمها، ولا المكان الذي وقع به هذا الحدث.. لأن العبرة بما يتمخض عنه هذا الموقف من توجيه نبوي حكيم، ولم يُحدد الحديث من هؤلاء القوم أصحاب المتاع، وفي الحديث السابق حدّد المرأة فقال: امرأة من الأنصار.

وقول الراوي: وتضايق بهم الجبل، يوحي بأن ذلك سبب لعن الجارية للناقة، حيث يرشد ذلك التعبير أن الناقة زاحمت موكب النبي ﷺ أو تأخرت عنه، لأن قولها: "حَلْ" فيه زجر للناقة، وحث لها على الإسراع، وصيغة الدعاء في قول الجارية: اللهم ألعنها تدل على ضيق هذه الجارية بالناقة، وقول رسول الله ﷺ: لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة، فيه نهي أن تصاحبهم تلك الناقة في سفرهم لأنها ملعونة، وقيل ليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، وهذا النهي عن المصاحبة في قوله: "لا تصاحبنا"، يتضمن نهي هذه الجارية عن المصاحبة كذلك لأنها أخطأت حين لعنت ناقتها.. لأن رسول الله ﷺ نهى عن لعن إنسان بعينه أو دابته، واللعن هو الطرد من رحمة الله عز وجل.

ويقول الزمخشري في أسس البلاغة: (لعنه أهله، أي طردوه وأبعدوه، وهو لعين طريد، وقد لعن الله إبليس، أي طرده من الجنة وأبعده من جوار الملائكة.

فالحديث في مفهومه ينهى عن اللعن، ويقول رسول اله ﷺ: ((لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ ولا بِغَضَبِهِ ولا بالنَّارِ))[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان تنافي اللعن واعتياد الإنسان عليه مع قبول الشفاعة والشهادة يوم القيامة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: التسامي بالمدعوين عن الأخلاق السيئة.

---

(١) اخرجه أبو داود، ٤٩٠٦، والترمذي، ١٩٧٦، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي، ١٦٠٩).

أولاً: من أساليب الدعوة: الإخبار

جاء أسلوب الإخبار في الحديث عن حال اللعانين يوم القيامة، ونفى الشفاعة والشهادة يومئذ، فقال ﷺ "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة"، وأسلوب الإخبار له الأثر الإيجابي في النفس، وتتعدد الصيغ الخبرية، وكلها تعرض بأسلوب جميل، فمرة تأتي بسياق الأمر ومرة بالنهى وأخرى بالنفي وغير ذلك[1]، ومن صيغ الإخبار، قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[2].

وجاء في الحديث الإخبار عن حال اللعانين يوم القيامة، وأنهم لا تنالهم ولا يستحقون الشفاعة يوم القيامة، ومثل تلك الأمور لا تدرك إلا بالإخبار "فما من ريب في أن معرفة أمور الغيب الحقيقي لا تنال بالعقول، بل يتوقف العلم بها على الوحي الإلهي، ومن ثمَّ كان مدار العلم بها عن طريق الإخبار، فنحن لا نعلم من الغيب الحقيقي إلا ما وصلنا منه إخبارًا من الله علام الغيب بواسطة النقل المعصوم عن رسول الله ﷺ وصفًا أو أثرًا، وأسلوب الإخبار الصحيح هو الذي يعتمد على تقديم الحقائق اليقينية، وعرضها على الناس بصورة تمكنهم من فهمها على وجهها الصحيح[3].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان تنافي اللعن واعتياد الإنسان عليه مع قبول الشفاعة والشهادة يوم القيامة

جاء التصريح بذلك في الحديث في قوله ﷺ "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة " قال الإمام النووي رحمه الله: قوله ﷺ: "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة" فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار، وقوله"ولا شهداء" فيه ثلاثة أقوال، أصحها وأشهرها: لا يكونون

---

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٥.

(٣) وظيفة الإخبار في سورة الأنعام، د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي، ٢٠٩-٢١٥.

شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات، والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا: أي لا تقبل شهادتهم لفسقهم، والثالث: لا يرزقون الشهادة، وهي القتل في سبيل الله"[(١)]، فعلى من يريد السلامة لدينه، ويحظى بالخير يوم القيامة، ولا يفوته شيء منه كالشفاعة والشهادة أن يحفظ لسانه، فكم للسان من زلات وكم فيها من الخطر، والحيطة والحذر تقتضيان من المرء أن يتيقظ وينتبه في حفظ لسانه، وألا يدع نفسه على هواها، فيقع فيما يلجئه إلى الاعتذار، وقد سئل رسول الله ﷺ: "أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده"[(٢)]، "أفلا يطمح المؤمن أن يكون من ذوي الإسلام الأفضل، بأن يجعل سلاطة لسانه على أعداء الله، وحلو كلامه وحسن حديثه للمسلمين"[(٣)].

كما وصف الله جماعة المؤمنين بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[(٥)].

ثالثًا: من أهداف الدعوة: التسامي بالمدعوين عن الأخلاق السيئة

إن من أهداف الدعوة الرئيسة التسامي بالمدعوين عن الأخلاق السيئة، وحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق وأحسنها، وإذا تصفحنا النصوص الشرعية نجد أنها توجه الاهتمام العظيم، والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير، منها ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم"[(٦)]، ويقرر النبي ﷺ أن

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤٩.

(٢) أخرجه البخاري ١١.

(٣) انظر: هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا محمود محمد الخزندار، ٤٢٨-٤٢٩.

(٤) سورة الفتح، آية: ٢٩.

(٥) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٦) أخرجه الترمذي ١١٦٢، والحديث قال عنه الشيخ الألباني رحمه الله حديث حسن صحيح، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٨٤).

أثقل الفضائل في ميزان المؤمن يوم القيامة الخلق الحسن والبعد عن الفحش، فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ: قال: " ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء"[١]، أى يبغض الذي يفعل الفحش ويقول الفحش، ويتكلم ببذئ الكلام، وهو رديئه وقبيحه الذي يتحدث عن العورات والرذائل وما ينبغي من الأشياء والأعمال ستره[٢]، فإن الإنسان إذا حسنت أخلاقه، كثر مصافوه وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب، ولله در القائل:

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد

إذا ما المرء لم يخلق لبيبًا فليس اللب عن قدم الوِلاد[٣]

أما إذا ساءت أخلاق الإنسان كثر معادوه، وجلب لنفسه ولمن حوله الشقاء والتعاسة، فعن أبي حازم رحمه الله قال: السيء الخلق أشقى الناس به، نفسه، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه فرقًا منه، وحتى إن دابته لتحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، وحتى إن قطه ليفر منه[٤].

فينبغي على كل إنسان أن يترفع عن سيء الأخلاق ومذمومها، ومن ابتلى بشيء من ذلك ينبغي أن يعمل جاهدًا على تغيير ما به من مذموم الأخلاق.

وهنا قد يرد سؤال مفاده هل يمكن تغيير الأخلاق أم لا؟

والجواب عن ذلك قد اختلف فيه، فهناك من يرى أن الأخلاق ثابتة في الإنسان لا يمكن أن تتغير؛ لأنها غرائز فُطِر عليها، وطبائع جبل على التحلي بها؛ فلا يمكنه تغييرها، ولا يتصور فكاكه عنها.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٠٠٢، والحديث قال عنه الشيخ الألباني رحمه الله حديث حسن صحيح، (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٥٤).

(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، الشيخ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٥٣، ٥٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، الإمام الماوردي، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٤) مساوئ الأخلاق ومذمومها، الخرائطي، ٢٦، وقال محققه أورده الذهبي في سير أعلام النلاء عن أبي حازم، ٦/٩٩.

وهناك من يرى أن تغيير الأخلاق وارد ممكن، فليس متعذرًا ولا مستحيلاً، خلافًا لمن رأى غير ذلك.

والرأي الثاني هو الصواب المقطوع فيه، ذلك أن الأخلاق على ضربين، فمنها ما هو غريزي فطري جبلي، ومنها ما هو اكتسابي يأتي بالدربة، والممارسة، والرياضة، والمجاهدة.

ولو كانت الأخلاق لا تتغير لبطلت الوصايا، والمواعظ، والتأديبات.

بل كيف ينكر هذا، وتغيير خلق الحيوان البهيم ممكن؟! إذ أن البازي ينقل من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك عن التخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد.

وكل ذلك تغيير في الأخلاق.

فإذا كان هذا هو الشأن مع الحيوان البهيم، فأجدر بالإنسان أن يتغير خلقه، ويتبدل طبعه إلى حد الاعتدال، وذلك إن أخذ برياضة نفسه، وسياستها وحملها على المكارم[1].

وهذا الأمر هو الذي تسنده أدلة الشرع والواقع.

أما أدلة الشرع فكثيرة جدًا، فهي تحث على التحلي بالفضائل، والتخلي من الرذائل.

ولو كان ذلك غير ممكن لما أمر به. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[2]. وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[3]، ففي هاتين الآيتين دليل على أن الأخلاق تتغير، وأن الطباع تتبدل؛ ذلك حسن الخلق من الفلاح، والفلاح ينال بالتزكية.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّما العلمُ بالتعلُّم، وإنما الحِلْمُ بالتحلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ،

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣/٥٥، ٥٦.

(٢) سورة الأعلى، آية: ١٤.

(٣) سورة الشمس، آية: ٩.

ومَنْ يَتَّقِ الشرَّ يُوقَهُ»[١].

ففي هذا الحديث دليل على أن الأخلاق قابلة للتغيير، ذلك أن الحلم من الأخلاق بل هو سيدها، وهو مع ذلك ينال ويكتسب بالتحلم، والمجاهدة، وحمل النفس على ذلك.

لعمرك إن الحلم زين لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلم

أما دلالة الواقع فنرى، ونسمع أن أناسًا يتصفون بالشر، وسوء الخلق.

فإذا ما راض الواحد منهم نفسه، وساسها، وجاهدها، وأخذ بالأسباب المعينة على محاسن الأخلاق - تبدلت طباعه، وحسنت أخلاقه.

وخير دليل على ذلك ما كان من أمر الصحابة رضي الله عنهم قبل البعثة، فلقد كانوا كسائر كثير من العرب ممن يتصفون بالشدة، والقسوة، والغلظة.

فلما دخلوا في الإسلام، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، رقت طباعهم، وحسنت أخلاقهم.

بل إنهم أصبحوا مثالاً يحتذى، ونهجًا يقتفي، في الإيثار، والسماحة، والكرم، والحلم، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

وبعد أن تبين أن الأخلاق قابلة للتغيير نصل إلى بيت القصيد، ألا وهو علاج سوء الخلق، ذلك أن غالبية الناس لا يخفى عليهم سوء الخلق، ولا يجهلون شرره وقبحه، بل يعلمون ذلك ويتمنون الخلاص منه إن كانوا متصفين به.

وإنما الذي يحتاجه أغلب الناس هو كيفية التخلي من سوء الخلق، والتحلي بحسن الخلق[٢].

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخه ١٢٧/٩، وقال الألباني: إسناده حسن أو قريب من الحسن، (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٤٢).

(٢) انظر: سوء الخلق، مظاهره، أسبابه، علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ٧٥-٧٨.

الحديث رقم (١٥٥٦)

١٥٥٦- وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ ، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ، وَلاَ بِغَضَبِهِ، وَلاَ بِالنَّارِ**)) رواه أبو داود والترمذي[١]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

سَمُرة بن جندب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦٢).

غريب الألفاظ:

لا تلاعنوا: لا يلعن بعضكم بعضًا[٢].

الشرح الأدبي

الأحاديث السابق التي دارت حول اللعن ، وقررت أن اللعن ليس من أخلاق الفضلاء أهل السبق في الآخرة من الصديقين ،والشهداء ،والشفعاء ، ونفت اتصافهم بهذه الصفات الأمر الذي يعني أن اللعان لا يكون وجيها عند الله ، وهذا الحديث جاء في صورة النهي العام الذي يشير إلى أهمية تجنب المنهي عنه وخطره الذي استلزم ألا يخص به أحد دون أحد (لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ ، وَلاَ بِغَضَبِهِ ، وَلاَ بِالنَّارِ) وبين تلاعنوا ،ولعنة جناس يؤكد المعنى ويقرر المنهي عنه وإضافة اللعنة إلى الله لأنها أشد خطر لأنها تعني الطرد من رحمة الله ،وليس هناك أشد من ذلك دعاءً على عبد ،والمفردات المنهي عنها تتفق في قسوتها وعظم أثرها فهي (لعنة الله – غضبه – النار) وإضافة اللعنة، والغضب الله مع عدم إضافة النار لأن اللعنة والغضب ترتبط في أثرها وشدتها بكونها من الله ، وعدم إضافة النار لما هو معلوم من أن النار يوم القيامة ناره ، وليشمل النهي نار الدنيا ،ونار الآخرة لأنها شديدة في الدنيا ، وهي أشد في الآخرة .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦) ولفظهما سواء. وقال الحاكم (٤٨/١): صحيح الإسناد. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠٤).

(٢) عون المعبود ٢١١٥.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن التلاعن بلعنة الله وغضبه والنار.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي

ورد هذا الأسلوب في الحديث في قوله ﷺ"لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار"، وذلك نهي عن الدعاء على الآخرين بشيء من ذلك[١]، وأسلوب النهي من الأساليب الدعوية النافعة، لما فيه من بيان الأخطاء والمخالفات الشرعية للمدعو وحمله على الابتعاد عنها، وآيات القرآن وأحاديث السنة حافلة بأسلوب النهي وتحذير المدعوين ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[٢].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن التلاعن بلعنة الله وغضبه والنار

جاء في الحديث التحذير من التلاعن والدعاء على الآخرين فقال ﷺ: "لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار"، قال الإمام شرف الدين العظيم آبادي: قوله: "لا تلاعنوا" بحذف إحدى التائين "بلعنة الله" أي لا يلعن بعضكم بعضًا، فلا يقل أحد لمسلم معين عليك لعنة الله مثلاً "ولا بغضب الله" بأن يقول غضب الله عليك "ولا بالنار" بأن يقول أدخلك الله النار مثلاً" وهذا مختص بمعين، لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم كقوله: لعنة الله على الكافرين، أو بالأخص كقوله: لعنة الله على اليهود، أو على كافر معين مات على الكفر كفرعون وأبي جهل[٣].

وقال ابن عثيمين رحمه الله يعني لا يلعن بعضكم بعضًا بلعنة الله، فيقول لصاحبه: لعنك الله ولا بغضبه فيقول غضب الله عليك، ولا بالنار، فيقول أدخلك الله النار، كل

---

(١) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٤.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٣) عون المعبود ٢١١٥.

هذا حذر منه النبي ﷺ، لأنه قد يقال لمن لا يستحقه[١]. والابتعاد عن تلك الأمور من أعاظم الأخلاق ومن كمال الإيمان وحسن الإسلام، فعن علقمة عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ :"ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"[٢]، وذلك أن الاتصاف بمثل هذه الصفات الشائنة ليست من أخلاق المؤمنين، فضلاً عما فيها من اعتداء على حق الكرامة الذي كفله الإسلام للإنسان، "فلقد حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان، حرم اللعن، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، وأنزل الله في ذلك آيات تتلى في سورة الحجرات، وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة[٣]، إن حماية الأعراض، وصيانة كرامات الناس، والمحافظة على حرماتهم، لها في الإسلام شأن، وأي شأن؟

وهي حقوق فرضها الإسلام، وجعلها دينًا يتعبد به، كما يتعبد بالصلاة، والذكر، والدعاء، ولتبقي سلوكًا عمليًا في واقع الحياة، ومظهرًا من مظاهر المجتمع النظيف، فضلاً عن أنها تحفظ كيانه، وتدعم أركانه، وتقيه من التصدع.

ولقد أوسع الإسلام القول، وأفاض في الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذه الغاية، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾[٤].

وقد تضمنت هاتان الآيتان:

---

(١) شرح رياض الصالحين ١٦٤١/٢.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٧، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح سنن الترمذي ١٦١٠).

(٣) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ٨٧.

(٤) سورة الحجرات، الآيتان: ١١، ١٢.

أ-النهي عن السخرية، وهي احتقار الغير، واستصغاره لغير سبب ظاهر، سواء أكان الاستصغار بالعبارة، أم بالإشارة، أم بأي طريقة مفهمة لمعنى التحقير.

وإنما نهى الله عن ذلك؛ لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه.

فإذا كان المسخور منه بليد الشعور، لا يتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النفي في هذه الحالة لا يتناوله، بل يكون تحقيره ضربًا من المزاح الذي أحله الله.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هوانًا بها كانت على الناس أهوانًا

وفي الآية تعليل النهي بأن المستهزأ به قد يكون أزكى نفسًا، وأحسن عملاً، وأقرب إلى الله بما يقدمه من خير وبر، ولا يعلم بذلك المستهزئ، فيكون قد تعرض للظلم، بتحقير ما يستحق التعظيم.

روى مسلم وأحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «رُبَّ أَشْعَثَ[1] أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»[2].

أي لو أقسم على الله وحلف على وقوع شيء أوقعه الله إكرامًا له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه، وذلك لعظم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس[3].

إن سخرية الرجال من الرجال، والنساء من النساء، إثم كبير، وشر لو لم يكن للإنسان غيره لأوبقه.

ب-النهي عن ذكر العيوب والنقائص: فإن الطعن في الأشخاص يحرج الصدور، ويورث العداوات.

ج-النهي عن أن يدعو أحد غيره بلقب يكرهه: ويطلق عليه لفظًا يسوءه أن يسمعه، بل الواجب أن يدعو أخاه المسلم بأحب الأسماء إليه، فإن إطلاق لفظ قبيح على من

---

(١) أشعث: الأشعث هو الملبد الشعر المغبر غير مدهون ولا مرجل، انظر شرح مسلم، النووي، ١٥٦٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٦٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٦٠.

اتصف بالإسلام غير كريم "بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان".

د-إن مخالفة هذه التعاليم، وعدم مراعاتها، ظلم يسخط الله ويغضبه، لأن ارتكاب أمثال هذه الحماقات يفرق الجماعة، والله يريد للمسلمين أن يتعاونوا على البر، ويتجمعوا على المصلحة، ويعيشوا في ظلال المحبة والمودة.

هـ-النهي عن الظن السيئ: وهو الحكم على الغير بأمر سيء من غير دليل. فالتهمة، والتخون للأهل والأقارب والناس، من غير اعتماد على أدلة صحيحة، إثم من الآثام، وهو أكذب الحديث.

و-النهي عن التجسس وتتبع العورات: لما فيه من اشتغال بما لا يفيد، وضياع للعمر في غير جدوى ولا مصلحة، ولأنه مثير للضغائن والأحقاد.

ز-النهي عن الغيبة والتحذير منها: إن ذكر الغير بالنقص، والتماس عيوبه، فضلاً عن كونه يؤلم الإنسان ويخدش كرامته؛ فإنه كثيرًا ما يثير الفتن، ويقطع الروابط، ويمزق الصلات، وينسى المرء عيوب نفسه، ومن ثم فإن الإسلام اعتبر هذا التنقيص والتحقير، كأكل لحم الأخ الميت، لينفر منه. فكما أن النفس تشمئز من أكل لحم الأخ بعد موته، وتنفر منه، فكذلك يجب النفور والاشمئزاز من الغيبة بقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[1][2].

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب

جاء الترهيب في الحديث من التلاعن، فقال ﷺ: "لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار"، أي "لا يدع أحدكم على أحد بكل منها"، وذلك لعظم شأنها[3]. وأسلوب الترهيب من أجدى الأساليب الدعوية نفعًا، فهو يغوص في النفس الإنسانية، ويخاطب

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) انظر: إسلامنا، الشيخ السيد سابق، ٢٧٧-٢٨٣.

(٣) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٤.

فيها العاطفة والوجدان، ويهيج فيها عنصر الخوف، ومتى وجد الخوف في القلوب والنفوس، قطع فيها دابر الشهوات واللذات[١]، فالترهيب أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية، وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن[٢]، ولقد كثر ورود أسلوب الترهيب في آيات القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [٣]، وقال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ [٤].

والترهيب من أكبر الأسباب في الانتفاع بالعبر والمواعظ القرآنية والنبوية، لأن من طبع النفس النسيان والغفلة، لذلك فإن الترهيب يصبح نوعًا من التذكير بما آلت إليه النفس من ارتكاس ونكوص، ووقوع في الرذائل والآثام[٥]، لذا كان الترهيب من الأساليب الأولى التي بدأت بها الدعوة، فقد بدأ النبي ﷺ دعوته بالإنذار تنفيذًا لأمر ربه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[٦]. ومعنى الإنذار إخبار فيه تخويف[٧].

---

(١) الترهيب في الدعوة، د. رقية بنت نصر الله بن محمد نياز، ٧٣.

(٢) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ٢٣٢/١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٥.

(٥) نحو تربية إسلامية، د. حسن الشرقاوي، ٢٠٨.

(٦) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

(٧) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، ٤٨٧.

الحديث رقم (١٥٥٧)

١٥٥٧- وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الفَاحِشِ، وَلاَ البَذِيِّ**)) رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٧).

غريب الألفاظ:

الطعان: عيابًا للناس[2].

اللعان: من يدعو بالإبعاد من رحمة الله[3].

البذيء: الذي لا حياء له، وهو الفحش في القول[4].

الشرح الأدبي

ورد الحديث في صورة خبرية خالية المؤكدات تقرر نقاء أخلاق المؤمنين من الصفات القبيحة التي تؤذي غيرهم، والمؤمن طهور القلب حسن العمل، والقول وهي حقائق قائمة في أخلاق المؤمنين وقوله (ليس المؤمن بالطعان) أي الوقَّاع في أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة قال في الأساس: ومن المجاز طعن فيه وعليه وهو طعان في أعراض الناس، وإنما سماه طعنا لأن سهام الكلام كسهام النصال حسا وجرح اللسان كجرح اليد وهو تصوير لقوة الأثر الذي يحدثه طعن الناس ويجسِّد خطره (ولا اللعان) أي الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة ربهم إما صريحا كأن يقول لعنة الله على فلان أو كناية كغضبه عليه أو أدخله النار ذكره الطيبي (ولا الفاحش

---

(١) برقم (١٩٧٧) وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وصحّحه ابن حبان (الإحسان ١٩٢)، وقال الحاكم (١٢/١): هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢٨٧٣): إسناده صحيح. وسيكرره المؤلف برقم (١٧٤٤).

(٢) تحفة الأحوذي ١٦٥٠/٢.

(٣) شرح مسلم ١٥٤٩.

(٤) انظر: النهاية ٦٩.

) أي ذي الفحش في كلامه وفعاله (ولا البذي) أي الفاحش في منطقه وإن كان الكلام صدقا فهو نظيف القلب واللسان ،وكل الجوارح.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ذم الطعن واللعن والفحش والبذاءة والنهي عنه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حث المؤمن على التحلي بالصفات الحميدة والتخلي عن الصفات الذميمة.

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الصفات التي تقدح في أخلاق المؤمن.

أولاً: من أساليب الدعوة: النفي

ورد أسلوب النفي في قوله ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، وأسلوب النفي من أبرز الأساليب الدعوية التي لها أكبر الأثر في نفوس المدعوين"[١]، لما فيها من إبراز الحقائق مجردة، ونفي وإبعاد ما يلصق بها أو يعرض عليها دونما أدنى صلة، وقد استخدم القرآن أسلوب النفي في عرض الدعوة في كثير من آياته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[٢]. فهو سبحانه لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السماوات والأرض[٣].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ذم الطعن واللعن والفحش والبذاءة والنهي عنه:

جاءت الإشارة في الحديث بنفي تلك الصفات الشائنة عن المؤمنين، وأنها تناقض كمال الإيمان، فقال ﷺ "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، أى ليس المؤمن الكامل بالعياب للناس ولا اللعان، وليس بفاعل الفحش ولا قائله، ولا

---

(١) انظر: العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٧.

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، ٦/٥٦٠.

البذيء الذي لا حياء له[1].

لقد جاء الحديث ناهيًا عن بذيء القول وساقطه، وعن الفحش في القول واللعن وقول الخنا وغير ذلك من الأقوال الباطلة، والفحش في الكلام يأتي على معان:

فقد يأتي بمعنى السب والشتم وقول الخنا كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «لم يَكنِ النبيُّ ﷺ فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا، وكان يقول: «إِنَّ من خياركم أحسنَكم أخلاقًا»[2].

وقد يأتي بمعنى: التعدي في القول والجواب[3]: كما في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ. فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ «وَعَلَيْكُمْ» قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ[4]. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «يَا عَائِشَةُ لاَ تَكُونِي فَاحِشَةً» فَقَالَتْ: مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فَقَالَ «أَوَ لَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا؟ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»[5].

وبين رسول الله ﷺ أن اللعان لا يكون صديقًا، وهو محروم من الشفاعة والشهادة يوم القيامة، ومن لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا»[6].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»[7].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»[8].

---

(١) انظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، ١٦٥٠/٢.
(٢) أخرجه البخاري ٣٥٥٩.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣٢٥/٦.
(٤) الذام: العيب، انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢١٩/١٢، مادة ذام.
(٥) أخرجه البخاري ٦٠٢٤، ومسلم ٢١٦٥ واللفظ له.
(٦) أخرجه مسلم ٢٥٩٧.
(٧) أخرجه مسلم ٢٥٩٨ واللفظ له، وأحمد ٢٦٩٨١.
(٨) أخرجه الترمذي، ١٩٧٨، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح سنن الترمذي، ١٦١٨).

قال النووي: فيه الزجر عن اللعن وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة، لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا وكالجسد الواحد وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى فهو من نهاية المقاطعة والتدابر، وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «لعن المؤمن كقتله»[1]. لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا، وهذا يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى[2].

إن مما سبق يتضح مدى نهي الإسلام عن الفحش من الكلام والبذيء من القول، وهذا يقتضي على المسلم أن يحفظ لسانه ويعتني به، فيجتنب القول الباطل، وقول الزور، والغيبة، والنميمة، والفاحش من القول، وجماع ذلك أن يصون لسانه عما حرم الله ورسوله ﷺ. وقد يتكلم المرء كلمة تُوبق دنياه وآخرته، وقد يقول كلمة يرفعه الله بها درجات ودرجات. ومصداق ذلك قوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها فيزل بها في النار أبعد ما بين المشرق». وفي رواية مسلم وأحمد «أبعد ما بين المشرق والمغرب»[3].

وكما تكون الكلمة سببًا في السخط، تكون أيضًا سببًا في الرفعة والسعادة، قال ﷺ: « إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفَعُه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط اللّه لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[4]. وفي سؤال معاذ بن جبل رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، عن العمل الذي يدخل الجنة ويباعد من النار، ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام، وبعض أبواب الخير، ثم قال له: « ألاَ

(١) أخرجه البخاري، ٦٠٤٧، ومسلم، ١١٠.

(٢) شرح مسلم، ٥٠٢.

(٣) أخرجه البخاري، ٦٤٧٧ واللفظ له، ومسلم، ٢٩٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٨.

أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمّك يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[١].

بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد ضمن الرسول ﷺ الجنة لمن صان لسانه وفرجه، فقال ﷺ: «من يَضمَنْ لي ما بينَ لَحيَيْهِ وما بين رجليْه أضمَنْ له الجنَّة»[٢]. فعلى المسلم أن يصون لسانه وفرجه عن محارم الله، طلبًا لمرضاته، ورغبة في نيل ثوابه، وهو يسير على من يسره الله عليه[٣].

إن ملازمة الصفات القبيحة من اللعن والفحش وغيرها، من الكبائر، وأشار إلى ذلك الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله فقال: "إن ملازمة الشر والفحش من الكبائر، ومن الأدلة على ذلك وصف رسول الله ﷺ لمن تلك صفته بأنه شر الناس[٤]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رجل رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة " فلما دخل ألان له الكلام، قلت يارسول الله: قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام، قال: أى عائشة، إن شر الناس من تركه الناس - أو ودعه الناس- اتقاء فحشه"[٥]. أما المؤمن الكامل الإيمان فلسان حاله كما قال الشاعر:

أُحِبُّ مكارِم الأخلاق جَهْدي ... وأَكْره أن أَعيب وأن أُعابَا
وأَصْفَح عن سِباب النَّاس حِلْمًا ... وشرُّ الناس مَن يَهْوَى السِّبابا[٦]

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حث المؤمن على التحلي بالصفات الحميدة والتخلي عن الصفات الذميمة

إن أسمى الغايات وأنبل المقاصد، أن يحرص الإنسان على الخير، ويسارع إليه،

(١) أخرجه الترمذي ٢٦١٦، وصححه الألباني رحمه الله (صحيح سنن الترمذي ٢١١٠).
(٢) أخرجه البخاري ٦٤٧٤.
(٣) انظر: كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز الشلهوب، ١١٤-١٣٠.
(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر، الإمام ابن حجر الهيتمي، ١٥٢، ١٥٣.
(٥) أخرجه البخاري ٦٠٥٤، ومسلم ٢٥٩١.
(٦) موسوعة نضرة النعيم ١١/٥٢٣٥.

وبهذا تسمو إنسانيته ويتشبه بالملائكة، ويتخلق بأخلاق الله البار بعباده، الرحيم بخلقه[١]، ومن هنا كان حث الإسلام للمؤمن على التحلي بكريم الأخلاق وحميد الصفات، وأن ينأى ويرتفع عن ذميم الأخلاق وشائن الصفات، وكان وصف النبي ﷺ للمؤمن الكامل الإيمان بقوله "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش، ولا البذيء". قال بعض المشايخ: حسن الأدب مع الله أن لا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضى الله عز وجل فأدب اللسان أن يكون رطبًا بذكر الله تعالى، وبذكر الإخوان بخير والدعاء لهم وبذل النصيحة والوعظ، ولا يكلمهم بما يكرهونه، ولا يغتاب ولا ينم ولا يشتم، ولا يخوض فيما لا يعنيه، وقيل خلق الله اللسان ترجمانًا للقلب، ومفتاحًا للخير والشر، وقيل إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك والزم الصمت، فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل، وجماع ذلك كله أن يعامل الإنسان الخلق بما يحب أن يعامل به[٢].

وبذلك أراد الإسلام أن يسمو بأخلاق أتباعه، ويرتفع بطباعهم ويهذب سلوكهم.

(إن من أجل الغايات التي تريد الرسالة الإسلامية تحقيقها، هي تلك الغاية الإنسانية السامية وهي: أن يكون للإنسان خلق كريم، وسلوك نظيف يليق بكرامة الإنسان، ويتفق مع ما خلق له من خلافة عن الله في الأرض. وهذه هي الغاية التي حاولها الفلاسفة والعلماء والمصلحون – عبر قرون مضت، ولم يبلغوا فيها شأوا، أو يصلوا إلى تحقيق هذا الأمل المنشود.

وعناية الإسلام، وحرصه على تحقيق هذه الغاية الخلقية النبيلة يقصد بها: إيجاد عناصر قوية، وأفراد صالحين؛ كي يستطيعوا أن يسهموا بقلوبهم، وعقولهم في ترقية الحياة، وإعلائها.

وليكونوا أهلاً لجوار الله، ورضوانه فيما وراء هذه الحياة.

---

(١) إسلامنا، الشيخ، السيد سابق، ١٣١.

(٢) انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٥٦-٢٥٧.

إن المثل الأعلى للأفراد: هو الشرف والنزاهة، والاستعلاء على الهوى والشهوة، وعرفان الحق والواجب، والاستمساك بأهداب الفضيلة، والاندماج في جوٍ روحي خالص بعيد عن نقائص المادة وشوائب الروح.

والمثل الأعلى للجماعة: هو التعاون، والإيثار، والتضحية، وإنكار الذات، والمحبة والمودة، والصدق، والإخلاص، والأمانة، والوفاء، والتسامح، وسلامة الصدر.

وتحقيق المثل الأعلى في جانبيه يثمر الحياة الطيبة، ويحقق المجادة، والسيادة والقيادة، والتمكين في الأرض[١].

رابعًا: من مهام الداعية: بيان الصفات التي تقدح في أخلاق المؤمن

إن من أهم صفات العالم وأجلها خشيته من الله وإشفاقه على الناس، ولقد كان سلفنا الصالح منذ عصر الصحابة والتابعين فمن بعدهم، تغلب في علمائهم هذه الصفات، فكانوا مبعث خير ومصابيح هداية وأدله طريق[٢]، لذا كان دأب العلماء في بيان الصفات القادحة في أخلاق العباد، والتي منها ما جاء في الحديث "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء"، فإن مثل هذه الأمور تدل على نقص في الإيمان، وأنها تسلب عن المؤمن حقيقة الإيمان وكمال الإيمان، فلا يكون طعانًا يطعن الناس، بأنسابهم أو بأعراضهم، أو بشكلهم وهيئاتهم أو بآمالهم، ولا باللعان الذي ليس له هم إلا اللعنة، ولا بالفاحش الذي يفحش في كلامه بصراخ أو نحو ذلك، ولا بالبذيء الذي يعتدي على غيره، فالمؤمن مسالم ليس عنده فحش في قوله ولا فعله ولا غير ذلك[٣]، وإنما هو حسن الخلق، ممتثل لمثل قول الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[٤]، ولقوله ﷺ: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[٥].

---

(١) عناصر القوة في الإسلام، الشيخ السيد سابق، ٤٤.

(٢) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي رحمه الله، ١٩٩.

(٣) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦٤١/٢.

(٤) سورة البقرة، آية: ٨٣.

(٥) أخرجه الترمذي ١٩٨٧، والحديث حسنه الشيخ الألباني رحمه الله، (صحيح سنن الترمذي ١٤٨٩).

مبتعدًا كل البعد عن دنيء الأخلاق وخبيث الصفات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[1]. وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الاتصاف بمذموم الأخلاق، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظُّلْم ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ، وإيّاكُمْ والفُحْش، فإنّ الله لا يحبّ التَّفَحُّش، وإيّاكُمْ والشُّحَّ، فإنّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ... الحديث»[2].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٧.

(٢) أخرجه ابو داود، وصححه الشيخ الألباني (صحيح سنن ابي داود ١٤٨٩).

الحديث رقم (١٥٥٨)

١٥٥٨- وعن أَبي الدرداء رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((إنَّ العَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا، صَعدَتِ اللَّعْنَـةُ إِلَى السَّماءِ، فَتُغْلَقُ ابْوابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأرْضِ، فَتُغْلَقُ ابْوابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأخُذُ يَمينًا وَشِمالاً، فَإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فإنْ كَانَ اهْلاً لِذلِكَ، وإلاَّ رَجعَتْ إِلَى قَائِلِهَا)). رواه أَبُو داود[1].

ترجمة الراوي:

أبو الدرداء: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٧٧).

غريب الألفاظ:

دونها: أي عندها[2].

مساغًا: مدخلاً وطريقًا[3].

الشرح الأدبي

الأحاديث السابقة قررت قبح اللعن وأنه ليس من أخلاق الصالحين ولا الشهداء ،ولا الصديقين، والحديث السابق نزَّه أخلاق المؤمن عن هذا القول ، وقد سبق تقرير النهي عن اللعن ،وهذا الحديث ينفِّر من اللعنة عن طريق رصد حركتها في انتقالها من فم اللاعن إلى باب السماء ثم إلى الأرض والحديث خبري يبدأ بالتوكيد تنبيها على أهمية الخبر ،وخطره (إنَّ العَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئاً ، صَعدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ ، فَتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّماءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأرْضِ) وقد تضمن شرطا يربط اللعن بالصعود ، وما عطف عليها إشارة إلى التلازم الدال على المصير المقرر بالشرط وهو انحصارها بين اللاعن، والملعون، وتنكير (شيئا) ليعم القليل والكثير وجملة الأفعال صورت حركة اللعنة خروجا من اللاعن إلى السماء ثم العودة لتلحق بأحد المتلاعنين (لعن – صعدت –

---

(١) برقم (٤٩٠٥). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/٤٦٧): إسناده جيد. أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠٧).

(٢) عون المعبود ٢١١٤.

(٣) عون المعبود ٢١١٥.

تغلق – تهبط – تأخذ – تجد – رجعت) ،وقوله (ثُمَّ تَأْخُذُ يَميناً وَشِمالاً) كناية عن هيئة الحيرة ،وعدم وجود المستقر، وهو تمهيد لعودتها إلى المتسبب في اللعن إذا كان مستحقا للعن،وإلا عادت للاعن، والحديث يقرر أن مصير ومستقر اللعنة محصور بين اللاعن، والملعون، وهو ترهيب لكل منهما. الملعون لأنه تسبب فيها، واللاعن لأنه الفاعل.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: نبذ اللعن والحث على البعد عنه.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الحذر من اللعن.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً: من موضوعات الدعوة: نبذ اللعن والحث على البعد عنه

لقد أمر النبي ﷺ في الحديث بنبذ الأخلاق السيئة والتي منها اللعن، فقال ﷺ "إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها" وذلك لقبحها وشناعتها، ولا يصعد عنها إلا الكلم الطيب والعمل الصالح[1]. ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن،فإن كان أهلاً لذلك وإلا رجعت إلى قائلها". وهذا وعيد شديد على من لعن مَنْ ليس أهلاً للعن، فإن اللعنة تتجول في السماء والأرض واليمين والشمال، ثم ترجع في النهاية إلى قائلها، إذا لم يكن الملعون أهلاً لها[2]، وذلك من دلائل سوء الخلق وهو خلق فاسد متصف بالشر، لا يتفق مع الواجبات الدينية والخلقية، ولا يتفق مع ما شرع الله أمرًا ونهيًا، وهو فعل منكر، وسلوك غير صالح، وهذا ناتج عن مرض القلب[3].

---

(١) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٥.

(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦٤٢/٢.

(٣) النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبدالله عفيفي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٥٨.

ولا خلاف أن اللعن منهي عنه، خاصة المسلم المصون، فلعنه حرام منهي عنه[١].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية الحذر من اللعن

إن اللعن من سيء الأخلاق وأشنعها، الواجب الحذر منها، ومما يوجب الحذر منها أن اللعنة إذا لم تصادف أهلاً رجعت إلى صاحبها، كما جاء في الحديث « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدت اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَإِذَا لَم تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الذي لُعِنَ فَإِنْ كَانَ لِذلِكَ أَهْلاً وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قائِلِهَا»، بل أن الإسلام ليمنع من لعن الحيوان والجماد، فروى عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: "بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة" قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد"[٢].

فالحذر الحذر من اللعن، فإن التلفظ والدعاء به على الغير قد يهوى بالإنسان إلى أسفل الدركات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من رِضوانِ اللهِ لا يُلقي لها بالاً يرفعُه اللهُ بها درجات، وإن العبدَ ليتكلمَ بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[٣]، لذا كان من الواجب على المسلم أن يكون واقفًا عند حدود الله تعالى، عاملاً في مرضاته متجنبًا مساخطه، فما أكثر عثرات اللسان حين يتكلم، وما أكثر مزالقه، ووقوعه في أخطاء في منتهى الخطورة على النفس وعلى المجتمع، ويكفي لمعرفة خطورة اللسان وما ينطق به، والآثار المترتبة على الحديث، قوله ﷺ "من ضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة"[٤]،[٥].

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٧٣/٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ٢٠٠٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٤٧٨، ومسلم ٢٩٨٨.

(٤) أخرجه البخاري ٦٤٧٤.

(٥) الوجيز في الأخلاق والآداب الشرعية، حماد بن عبدالله بن محمد الحماد، ص٨٢.

إن اللعن والتلفظ بقبيح القول وبذيء الكلام إن نمّ فإنما ينم عن سوء خلق وجلافة طبع، وذلك نتاج جهل وظلم وغيرهما من الخلال المذمومة.

قال ابن القيم رحمه الله: ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب، فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً والنقص كمالا، والظلم يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها، والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه، ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة، وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف وإفراطها في القوة.

فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص والشح، وسفساف الأمور، ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب، والحدة والفحش والطيش، ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر: أولاد غية كثيرون، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفا، فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهِر، ظالم عنوف جبار، فإذا قهر صار أذل من امرأة: جبان عن القوي جريء على الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضا، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضا[1].

أما التخلق بالأخلاق الحسنة فهي نتاج الإيمان، وحب الله تبارك وتعالى وخشيته، ويرى ابن تيمية في نظريته الخلقية أن مفهوم الأخلاق يرتبط بالإيمان، وما ينبثق عنه. ومن ثم يقوم هذا المفهوم عنده على عدة عناصر وهي:

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٢١، ٣٢٢.

أ- الإيمان بالله وحده خالقًا ورازقًا بيده المالك.

ب- معرفة الله سبحانه وتعالى معرفة تقوم على أنه وحده سبحانه المستحق للعبادة.

ج- حب الله سبحانه وتعالى حبًا يستولي على مشاعر الإنسان، بحيث لا يكون ثمة محبوب مراد سواه سبحانه.

د- وهذا الحب يستلزم أن تتوحد إرادة الخالق والمخلوق في اتجاه واحد وهو تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، والالتزام بتحقيق هذا الرضا في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة.

هـ- وهذا يستلزم من الإنسان سموًا في أخلاقه، وترفعًا عن الأنانية وعن الأهواء، وعن المآرب في الدنيا.

و- ويأتي العمل بعد ذلك محققًا طريق بلوغ الكمال الإنساني.

والأمر كذلك إذا لم تتحقق هذه الشروط الموضوعية، فإن الناتج عن الإنسان يكون خلقًا سيئًا، لأنه تعبير عن الإيمان بالله وتعبير عن الرؤية الموضوعية للأشياء والحقائق. وعلى هذا يكون الخلق السئ فعلاً إنسانيًا لا ترتبط فيه الأفعال بالطاعة، أي أنه فعل تنفصل فيه الطاعة عن الأخلاق، ويصبح الفعل شكليًا أو مظهريًا. كما أنه فعل لا يدرك الغائية الخلقية، من حيث إنها تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والحياة الآخرة، الأمر الذي يجعل العمل الذي يقوم به الإنسان فاقدًا لقيمته الخلقية ودلالته الإنسانية، كما أن هذا الفعل فاقد للتمحيص والتدقيق اللازمين، كي يكون موافقًا لما أمر الله سبحانه وندب إليه في وقته الملائم والمناسب. وفي هذا الوضع يكون هذا العمل استجابة لاخلقية، وبذا يكون صاحبه متصفًا بسوء الخلق.

فالخلق السيئ خلق فاسد متصف بالشر، لا يتفق مع الواجبات الدينية والخلقية، ولا يتفق مع ما شرع الله أمرًا، ونهيًا، وهو فعل منكر، وسلوك غير صالح، وهذا ناتج عن مرض القلب[1].

---

(١) انظر: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبدالله عفيفي، ٥٨-٦٠.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب

ورد أسلوب الترهيب من لعن الغير ببيان أن الملعون إذا لم يكن للّعنة بأهل رجعت إلى قائلها، فقال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدت اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الذِي لُعِنَ فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلاً وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا». والترهيب من أجدى الأساليب الدعوية نفعًا وتأثيرًا في قلوب المدعوين وهو "أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية وحبها للأمن والسلامة، وإيثارها البعد عن الخوف والخطر، وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحق، خوفًا من العقاب وخوفًا من فقدان السلامة والأمن"[١]. والملاحظ أن القرآن الكريم مملوء بما يرغب الناس في قبول دعوة الإسلام والتحذير من رفضها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٢]، مما يدل دلالة قاطعة على أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى، وعدم إهماله من قبل الداعي المسلم"[٣].

إن الترهيب يورث في قلب المؤمن الخشية من الله، والوجل والرهبة من الله تبارك وتعالى، فذكر الله تعالى أن من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[٥].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبدالحليم محمود، ٢٣٢/١.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٣-١٤.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٥) سورة المؤمنون، الآيتان: ٦٠، ٦١.

تقول عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدّقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ﴿أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾».

الفخر في هذه الدنيا لذي هدف	سام فلا بهرج فيه ولا خلل
الفخر فيها لقوم قدموا عملاً	يرضى به الله ما زاغوا وما عدلوا
ساروا على منهج الإسلام في ثقة	يحدوهم الحب للجنات والوجل

وقد أمر الله بالرهبة والخوف منه فقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾[1]. ووصف المؤمنين بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[2].

قال الحسن البصري: "وهو الخوف الدائم في القلب".

اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك في الدنيا فأمنته يوم القيامة.

وما كثرت الذنوب وأظلمت القلوب، إلا لقلة الخوف من علام الغيوب.

تحيط بنا العبر، وتكثر الحوادث، وتعظم الكوارث، وتفتن الأمم، وتحل النقم، والنفس لاهية، والأفكار ساهية، وحبال التقوى واهية.

قلوب تحجرت، وأحاسيس تبلدت، وجوارح عطلت، لا قلب يخشع ولا نفس تشبع، ولا عين تدمع، ولا فؤاد يرجف، ولا لسان يذكر... إلا من رحم الله.

أتخمت البيوت بالمعاصي، وملئت العقول بالشبهات، وأُترعت النفوس بالشهوات، تُسمع المعصية وقل من ينكرها، ويُشاهد المنكر وكأنه المعروف، ويُؤكل الحرام وكأنه الحلال، يُجالس صاحب المعصية، ويُؤاكل ويشارب مرتكب الكبيرة دون

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

حرج في النفس من فعله أو إنكار في القلب لسلوكه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

آذان ألفت سماع المنكر، وأبصار استمرأت رؤية الباطل، وألسن استساغت اللغو والغيبة، وقلوب أقفرت من الخشية، وأجدبت من الخوف فاسودت وأظلمت، وقست وتحجرت، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، لم تعد تهزها الموعظة، أو تنفعها الذكرى، أو تفيدها العبرة، أو يحدوها الوعد، أو يرهبها الوعيد، إلا من رحم ربك.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[2].

والآن لنرى كيف ترجمت تلك المعاني، وطبقت هاتيك القيم، ولمع ذلك الإحساس في سماء صفوة من الناس، عمرت بالخوف قلوبهم، وتبددت من الإشفاق نفوسهم، وطاشت خشية الهول عقولهم، قلوب وجلة، وأكباد محترقة، وأعين باكية، ودموع مسبلة، احترقت وجناتهم، وشحبت ألوانهم، ونحلت أجسامهم، وكادت تزهق لشدة الخوف أرواحهم، أضناهم السهر، وأفزعهم الخبر. خشوع وخضوع، نحيب ودموع، صلاة وصيام، وجهاد وقيام، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، ويصبحون شعثًا غبرًا صفرًا:

تتجافى عن الفراش من الخوف ... إذا الجاهلون باتوا نياما
بأنين وعبرة ونحيب ... ويبيتون سجدًا وقياما

ومع كل ذلك كانوا كأن النار لم تخلق إلا لهم، فأشفقوا من يوم الوقوف على الله، وخافوا من هول المقام بين يديه، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[3][4].

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ٩-١٣.

(٣) سورة الإنسان، آية: ١٠.

(٤) انظر: كتاب الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر بن مسفر الزهراني، ٦٤٦-٦٤٨.

الحديث رقم (١٥٥٩)

١٥٥٩- وعن عمران بن الحُصَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: بَيْنَمَا رسُولُ اللهِ ﷺ في بَعْضِ أسْفَارِهِ، وَامْرأةٌ مِنَ الأنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رسُولُ اللهِ ﷺ فقالَ: ((**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا ؛ فَإنَّهَا مَلْعُونَةٌ**)).

قَالَ عمْرانُ: فَكَأنِّي أرَاهَا الآنَ تَمْشِي في النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أحَدٌ. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

عمران بن الحُصْين: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٣).

غريب الألفاظ:

فضجرت: ضاقت وتبرمت[2].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ يبين في هذا الحديث بطريقة عملية خطر اللعنة ،وأثرها خلال هذه القصة التي ساقها عمران بن الحصين رضي الله عنه والتعبير بالظرف (بين) المضاف لـ(ما) والذي يوحي بالمفاجأة وقوله (عل ناقة فضجرت فلعنتها) يشير إلى أن اللعن كان لدابة، وليس لإنسان وتتابع الفاءات في الربط يشير إلى سرعة رد الفعل وعدم التريث ،وقول الرسول ﷺ (خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا ؛ فَإنَّهَا مَلْعُونَةٌ) الأمر بالأخذ للإرشاد والنصح، وقوله ،ودعوها أمر للنهي عن استعمالها يشتمل على تحذير أكدته الجملة التعليلية بعده (فَإنَّهَا مَلْعُونَةٌ) والتي تحقق الإقناع العقلي بضرورة تركها خوفا من أن تلحق اللعنة راكبها بعد الإقناع القلبي بضرورة اتباع الرسول ﷺ ، وقول الراوي(فَكَأنِّي أرَاهَا الآنَ تَمْشِي في النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أحَدٌ) هو صدى النهي النبي ﷺ المعلل بتحقق لعنتها ، وهو ما يبين خطر الفعل لاسيما على الإنسان .

---

(١) برقم (٨٠/٢٥٩٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤١٠٩).

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٥٣٤.

المضامين الدعوية(١)

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: المنع والتحذير من لعن الحيوانات.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر.

أولاً: من أصناف المدعوين: النساء

وردت الإشارة إلى هذا الصنف في الحديثين، فعن عمران بن الحصين ﷺ، قال: "بَيْنَمَا رَسُولُ اللّهَ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ. فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا"، وعن أبي برزة قال: "بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالنبي ﷺ وتضايق بهم الحيل فقالت حَلْ اللهم ألعنها فقال النبي ﷺ لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة". والنساء من أصناف المدعوين الذين لا يستهان بهم، فلقد اهتم الإسلام بالنساء واعتبرهن شقائق الرجال، وقد شملهن خطاب التكليف في قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾(٢)، فالمرأة جعلها الإسلام أهلاً للتكاليف الشرعية مثل الرجل، وهي بعد البلوغ مكلفة بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وليس لأحد - زوج أو غيره- منعها من أداء الفرائض، فجملة العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام التي شرعها الله للإنسان يستوي في التكليف بها والجزاء عليها الذكر والأنثى(٣)، يقول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٤).

والمرأة تحظى بدور كبير واحترام عال في شريعة الإسلام، سواء كانت بنتًا أو

---

(١) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث - ١٥٥٩- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٦٠).

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٤.

(٣) إعلام الموقعين، ابن القيم، ٢/٧٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٩٧.

زوجة أو أمًا، فهي وإن كانت غير رجل، إلا أنها أم الرجال وأخت الرجال وخالة الرجال وعمة الرجال، إنها مربية الرجال، ومادام الأمر كذلك فلابد أن يوجه الدعاة جهدًا كافيًا تجاه النساء، فهن نصف المجتمع وهن راعيات الأطفال، وهن المؤثرات على الأزواج والمحارم، وبالتالي فإن العناية بالمرأة هى عناية بالدعوة نفسها[1].

إن المرأة في الإسلام ليست كمًا مهملاً، ولا يعتبرها كسقط المتاع كما ينظر إليها في الديانات والثقافات الأخرى.

إن النساء شقائق الرجال وهما من أصل واحد، وقد كرم الله الجميع بلا استثناء فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2]. فالمرأة كالرجل لها من الحقوق ماله وعليها من الواجبات ما عليه، ويمكن إجمال ما يتعلق بالمرأة من أحكام غالبًا فيما يلي:

أ-المرأة كإنسان لها حق الرعاية في طفولتها من تربية وتعليم وكفالة ونحو ذلك. وإذا رشدت كانت لها ذمتها المالية المستقلة، وصار لها حرية التعبير عن إرادتها، ولذلك لا تزوج بدون إذنها.

ب-والمرأة كأنثى، مطالبة بالمحافظة على مظاهر أنوثتها، فلها أن تتزين بزينة النساء، ويحرم عليها التشبه بالرجال. ومطالبة كذلك بالتستر وعدم الاختلاط بالرجال الأجانب أو الخلوة بهم، ولذلك تقف في الصلاة متأخرة عن صفوف الرجال.

ج- والمرأة كمسلمة، مطالبة بكل التكاليف الشرعية التي فرضها الله على عباده، مع الاختلاف عن الذكر في بعض هيئات العبادة.

د- والمرأة اختصها الله سبحانه وتعالى بالحيض والحمل والولادة، وترتب على ذلك بعض الأحكام الفقهية كالتخفيف عنها في العبادات في هذه الحالات.

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٧٣.

(٢) سورة يس، آية: ٢٠.

هـ- ولضعف المرأة في الخلقة والتكوين، فإنها لا تتولى من الأعمال ما يحتاج إلى بذل الجهد الجسدي والذهني كالإمارة والقضاء، ولم يفرض عليها الجهاد في الجملة، وكانت شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

و- ولأن المرأة أكثر حنانًا وشفقة من الرجل كان حقها في الحضانة مقدمًا على الرجل.

ز- والأصل أن يكون عمل المرأة هو رعاية بيتها وزوجها وأولادها، لذلك كانت نفقتها على زوجها ولو كانت غنية. وكان الرجل قوامًا عليها، يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1][2].

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: المنع والتحذير من لعن الحيوانات

جاء ذلك واضحًا في الحديث "بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت، أي ضجرت المرأة من علاج الناقة، وصعوبتها[3]، فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: خذوا ما عليها، ودعوها، فإنها ملعونة". وفي الرواية الأخرى "لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة".

قال القاضي عياض: وأمر النبي ﷺ في هذه الناقة بما أمر، من أخذ ما عليها وإعرائها من أداتها، لأنها لعنتها صاحبتها، لأمر أطلعه الله عليه فيها من لزوم اللعنة لها، أو لمعاقبة صاحبتها لنهيه قبل عن اللعن، فإن كان هذا وجهه، ففيه العقاب في المال ليزجر غيرها عن ذلك، وأصل اللعن الترك، وقيل البعد، كذا قال أهل اللغة، فلما دعت عليها باللعنة، وكانت غير مكلفة ممن تدركها لعنة العقاب، استعمل فيها معنى اللعنة اللغوية من الترك والإبعاد والخروج عن الملك، معاقبة لقائلها[4].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية، ج٦/٢٤٦، ٢٤٧.

(٣) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٥.

(٤) إكمال المعلم ٦/٦٨.

قال النووي: "إنما قال هذا زجرًا لها ولغيرها، وكان قد سبق نهيها، ونهى غيرها عن اللعن، فعوقبت بإرسال الناقة"[١]، وهذا من باب التعزير: تعزير هذه المرأة أن تلعن دابة لا تستحق اللعن، ولهذا قال: لا تصحبنا دابة ملعونة، لأن هذه المرأة لعنتها، والملعون لا ينبغي أن يستعمل، فلذلك نهى النبي ﷺ عنها وتركها[٢].

وقال الشيخ محمد تقي العثماني: قوله خذوا ما عليها أي انزعوا عن الناقة ما عليها من المتاع وأرسلوها لكي لا تصاحبنا في القافلة، وإنما قال ذلك زجرًا، لأنه كان سبق منه النهي عن اللعن، فعوقبت المرأة اللاعنة بإرسال ناقتها، كأنه ﷺ أدبها بأن الناقة إن كانت ملعونة فلتتركها، ولكن هذا النهي إنما كان عن مصاحبتها في الطريق فقط، ولم تزل على ملكها، فلم يحرم الاستمتاع بها في غير مصاحبته ﷺ، وقوله "ملعونة" أي لعنتها صاحبتها، لا أنها ملعونة من الله تعالى، لأنها غير مكلفة[٣].

لقد وردت في الحديث الدعوة البالغة إلى رحمة الحيوان والرفق به، فمجرد اللعن قد نهى عنه الإسلام، فما بالنا بالإيذاء الحسي للحيوان، لقد نهى عنه الإسلام أشد النهى، فعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنه قال أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسر إلى حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه[٤] فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار، فقال لي يارسول الله، فقال : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه[٥]. وفي ذلك وغيره دعوة إلى حسن التأديب والتوجيه إلى الصبر على

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٥٤٨.

(٢) شرح رياض الصالحين، الشيخ ابن عثيمين، ١٦٤٢/٢.

(٣) تكملة فتح الملهم ٣١٢/١١.

(٤) ذفراه: مثنى ذفرى والذفرى من البعير مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه، عون المعبود، العظيم آبادي، ص ١١٠٤.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٥٤٩، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح سنن أبي داود ٢٥٤٩)

الحيوان وآلات النقل والعمل وإحسان معاملتها[١].

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الأمر

ورد أسلوب الأمر في الحديث في قوله ﷺ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» أي خذوا ما على الناقة من الرحل والحمل واتركوها فإنها مدعو عليها باللعنة[٢].

وأسلوب الأمر من الأساليب الدعوية المفيدة، وهو أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكأ ولا تراجع، وهذا هو مقتضى الإيمان[٣]، وقد ورد أسلوب الأمر في كثير من آيات القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٥].

والأمر إذا كان من الله أو من الرسول ﷺ فتجب طاعته والعمل بمقتضاه، ويطاع سواهما في غير المعصية، لقول النبي ﷺ: «السمعُ والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يُؤمرْ بمعصية»[٦]. فيطاع الأبوان وولي الأمر ونوابه في غير الحرام[٧].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، د. الحسيني هاشم، ص ٧٣٣.

(٢) دليل الفالحين، الإمام ابن علان، ١٦١٥.

(٣) العهد والميثاق في القرآن الكريم، د. ناصر بن سليمان العمر، ٥٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٥) سورة النور، آية: ٣٠.

(٦) أخرجه البخاري ٢٢٢١، ومسلم ١٤٦٩.

(٧) انظر: الموسوعة الفقهية ٢٤٥/٦.

الحديث رقم (١٥٦٠)

١٥٦٠-وعن أَبي بَرْزَةَ نَضْلَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ القَوْمِ. إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَتَضَايَقَ بِهِمُ الجَبَلُ. فَقَالَتْ: حَلْ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((**لاَ تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ**)). رواه مسلم[1].

قَوْله: (**حَلْ**) بفتح الحاء المهملة وَإسكانِ اللاَّم: وَهِيَ كَلِمَةٌ لِزَجْرِ الإبل.

وَاعْلَمْ أنَّ هَذَا الحَدِيثَ قَدْ يُسْتَشْكَلُ مَعْنَاهُ، ولاَ إشْكَالَ فِيهِ، بَلِ المُرَادُ النَّهْيُ أنْ تُصَاحِبَهُمْ تِلْكَ النَّاقَةُ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ بَيْعِهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِهَا فِي غَيْرِ صُحْبَةِ النبيِّ ﷺ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ جَائِزٌ لا مَنْعَ مِنْهُ، إلاَّ مِنْ مُصَاحَبَةِ النَّبيِّ ﷺ بِهَا؛ لأنَّ هذِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلَّهَا كَانَتْ جَائِزَةً فَمُنِعَ بَعْض مِنْهَا، فَبَقِيَ البَاقِي عَلَى مَا كَانَ، واللهُ أَعلم.

ترجمة الراوي:

أبو برزة الأسلمي: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤١٢).

غريب الألفاظ:

جارية: الجارية تطلق على الأمة وإن كانت عجوزًا وعلى الفتية من النساء[2].

متاع القوم: كلمة المتاع تطلق على كل ما ينتفع به من عروض الدنيا، قليلها وكثيرها[3].

حل: بفتح الحاء المهملة وإسكان اللام، وهي كلمة لزجر الإبل[4].

قال النووي: واعلم أن هذا الحديث قد يستشكل معناه ولا إشكال فيه، بل المراد: النهي أن تصاحبهم تلك الناقة، وليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، بل كان ذلك وما سواه من التصرفات جائز لا منع منه، إلا من مصاحبة

---

(١) برقم (٢٥٩٦/٨٢).

(٢) ينظر: الوسيط ١١٩.

(٣) ينظر: النهاية ٨٥٥.

(٤) رياض الصالحين، النووي ٥٣٩.

النبي ﷺ بها، لأن هذه التصرفات كلها كانت جائزة فمنع بعض منها فبقي الباقي على ما كان، والله أعلم[1].

الشرح الأدبي

هذا الحديث من المشاهد الواقعية في سيرة المصطفى ﷺ، وهو مشهد يبوح بموقف رسول الله ﷺ من هذه الناقة التي لعنتها صاحبتها.

وفي الحديث السابق توضيح لمثل هذا الموقف، أو تفسير لبعض جوانبه، حيث ضجرت المرأة من علاج الناقة: فلعنتها، فقال رسول الله ﷺ: خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة.

وهذا الحديث يصاغ في سياق حكاية تتضمن حدثًا وبعض الشخصيات، وبعض المواقف، ويبدأ الحديث بداية قصصية في قول الراوي: بينما.. وهي تمهد لأحداث ستتوالى بعد ذلك، والجارية من شخصيات هذه القصة.. وهي الشخصية المحورية لأنها هي التي لعنت الناقة، ولم يُحدد اسمها، ولا المكان الذي وقع به هذا الحدث.. لأن العبرة بما يتمخض عنه هذا الموقف من توجيه نبوي حكيم، ولم يُحدد الحديث من هؤلاء القوم أصحاب المتاع، وفي الحديث السابق حدّد المرأة فقال: امرأة من الأنصار.

وقول الراوي: وتضايق بهم الجبل، يوحي بأن ذلك سبب لعن الجارية للناقة، حيث يرشد ذلك التعبير أن الناقة زاحمت موكب النبي ﷺ أو تأخرت عنه، لأن قولها: "حَلْ" فيه زجر للناقة، وحث لها على الإسراع، وصيغة الدعاء في قول الجارية: اللهم العنها تدل على ضيق هذه الجارية بالناقة، وقول رسول الله ﷺ: لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة، فيه نهي أن تصاحبهم تلك الناقة في سفرهم لأنها ملعونة، وقيل ليس فيه نهي عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، وهذا النهي عن المصاحبة في قوله: "لا تصاحبنا"، يتضمن نهي هذه الجارية عن المصاحبة كذلك، لأنها أخطأت حين لعنت ناقتها.. لأن رسول الله ﷺ نهى عن لعن إنسان بعينه أو دابته، واللعن هو الطرد من رحمة الله عز وجل.

---

(١) رياض الصالحين، النووي ٥٣٩.

ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: (لعنه أهله، أي طردوه وأبعدوه، وهو لعين طريد، وقد لعن الله إبليس، أي طرده من الجنة وأبعده من جوار الملائكة.

فالحديث في مفهومه ينهى عن اللعن، ويقول رسول اله ﷺ: ((لاَ تَلاَعَنُوا بِلَعْنَةِ الله ولا بِغَضَبِهِ ولا بالنَّارِ))[1].

المضامين الدعوية[2]

(١) أخرجه أبو داود، ٤٩٠٦، والترمذي، ١٩٧٦، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي، ١٦٠٩).

(٢) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية العقدية:

من أصول التربية الإسلامية التي قامت عليها، العقيدةُ الصحيحةُ التي تعد الركيزة الأساسية في حياة المسلم، ومن هنا حرص النبي ﷺ على ترسيخها في النفوس من خلال التزام الإنسان بمقتضيات الإيمان التي تتمثل في عدد من السلوكيات والممارسات الشخصية، ومن جملتها مسألة الحلف على يمين بملة غير الإسلام كذبًا وعمدًا، مما يعد مخالفة خطيرة في جانب العقيدة، مما يحرم على المؤمن إتيان مثل هذه الأمور، ولذا فإن النبي ﷺ رهب من ذلك وبيّن خطورته، لأن المؤمن يجب أن يربي نفسه ويلزمها بما يتفق والعقيدة الصحيحة، فلا يحلف إلا بالله عز وجل لأن الإيمان الصحيح أساس متين لتربية ثابتة مضمونة النتائج، بعكس التربية التي لا تقوم على ترسيخ الإيمان، فإنها تربية عشوائية غير صحيحة[1]. ولذلك يقول ابن القيم: "فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن، ودفعت عنه الكثير من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة، ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء، فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان"[2].

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام"[3].

لذلك كان من أهداف العقيدة الإسلامية ومقاصدها، وغاياتها النبيلة، تحريرُ العقل والفكر من التخبط الفوضوي الناشئ عن خلو القلب من الإيمان الصحيح، لأن ذلك يؤدي إلى الضلال والإضلال.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص١٠٦.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ١٧٥.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٩/٤٠.

ثانيًا: التربية الخلقية:

من مبادئ التربية الإسلامية الاهتمام بالتربية الخلقية باعتبارها الركيزة الأساسية التي يقوم عليها أي نشاط إنساني، ولأهمية هذا الجانب في التربية الإسلامية: اهتمت به السنة النبوية، ففي أحاديث الباب ما يدل على التزام الأخلاق الزكية وترك الأخلاق البذيئة. قال ﷺ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ»، وقال ﷺ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»، وقال: «ولاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا»، وقال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ...»، فهذه نماذج تربوية من الباب تدل على عِظم قيمة الأخلاق ومدى الحاجة إلى التربية عليها، فالرسول نهى عن اللعن من قبل المسلمين بعضهم البعض؛ لأن اللعن معناه الإبعاد من رحمة الله، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمن الذي تربى على الأخلاق لأن من تخلق بهذه الصفة لا يكون فيه صفات خلقية جميلة، من هنا فإن الأخلاق تحظى في الإسلام بمكانة كبيرة ومرموقة فقد أشاد الإسلام بالخلق الحسن، ودعا إلى تربية المسلمين عليه وتنميته في نفوسهم، وقد أثنى الله على النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فهذا هو النبي ﷺ يضرب لنا أروع الأمثلة في الخلق الحسن، وكل أخلاق النبي ﷺ تعتبر قدوة يجب على المسلمين الاحتذاء بها من أجل قيمة هذه الأخلاق في التربية الإسلامية حذر رسول الله ﷺ من اللعن، ولذلك اتفق المربون على أن التربية الأخلاقية تعتبر أصعب جانب في التربية عمومًا، ولعل صعوبة الأمر ترجع إلى أن التربية هنا تعتمد على تربية النفس، وتربية النفس أصعب من تربية الجسم، كما اتفق أهل التربية بعد مشاهدة أحاديث الرسول ﷺ، على أن التربية الخلقية ألزم تربية للحياة الإنسانية فحياة الجماعة ومدى نجاحها وسعادتها واستقرارها مرتبطة بحياتها الأخلاقية، فالمسلم ينبغي أن يربي نفسه على مكارم الأخلاق، ثم نماء المكرمات، بالممارسة والمران، وذلك فضل الله يؤتيه لمن يشاء[2].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) تربية الأولاد والبنات في ضوء الكتاب والسنة، خالد العك، ص١١١. رسائل في التربية والأخلاق، ص١١. تربية الأولاد في الإسلام، علوان، ٢/ ٦٤٠.

ثالثًا: التربية بالحرمان:

من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحرمان لما له من نتائج كبيرة في عملية التربية، ولقد ظهر من الأحاديث النبوية استعمال هذا الأسلوب كثيرًا، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب، ما رواه أبو الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ «لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فهذا النموذج التربوي ظهر منه نمط الحرمان في التربية. حرمان الشفاعة يوم القيامة، حرمان قبول الشهادة يوم القيامة، وسبب حرمانهم الشفاعة والشهادة أنهم لعّانون، والشفاعة والشهادة يلزمها خلق المروءة والأخلاق واللّعانُ فيه شيء من خوارم المروءة في الدين أو الجرأة على عباد الله، لذلك استحق هذا الحرمان.

وهذا الأسلوب الذي ذكره النبي ﷺ في حديث الباب له نتائج تناولتها بعض الإجراءات العقابية المتنوعة مما نتج عنه بعض القواعد العامة في تعديل الأنماط السلوكية غير المرغوب فيها عند المتعلمين، لذلك أبرزت التجارب الحديثة أن أحسن الأنظمة المنشودة هو منهج الشريعة الإسلامية لما فيه من أساليب عقوبية تعين على عملية التربية[1].

رابعًا: التربية بالترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الناجحة أسلوب الترهيب، ولقد استخدمه رسول الله ﷺ في أحاديث الباب: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صُعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأرْضِ ...»، فهذا نموذج تربوي استخدم فيه رسول الله ﷺ أسلوب الترهيب من اللعن وان عاقبته عظيمة، فإن الله لا يقبله.

وهذا يعتبر وعد من الرسول ﷺ قد صاحبه تهديد وتحذير من الأعمال التي تؤدي إلى الوقوع في المعاصي التي تغضب الله تعالى مثل اللعن، والرسول ﷺ استخدم هذا الأسلوب التربوي الجيد لعلمه أنه لا يمكن الاستغناء عنه أثناء عملية التربية فاستخدمه

---

(١) علم النفس التربوي، عبدالمجيد نشواتي، ص٢٩٩. أساليب التربية، عبدالرحمن البابطين، ص٦١. أصول التربية الإسلامية، الحازمي، ص٦٤، ٤٠٤.

في هذا الموقف لأنه يحتاج إلى وعيد وتهديد بالعقوبة. ويجب على أهل التربية أن يتعلموا من رسول الله ﷺ هذا الأسلوب لكونه يساهم في التنشئة الصالحة للمسلم الذي يتصف بالسلوك القويم[1].



---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. عزب، ص٢٦٢. أساليب التربية الإسلامية، البابطين، ص٣١. أصول التربية الإسلامية، د. شحات، ص٨٤.

٢٦٥- باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود: ١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف: ٤٤].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ قَالَ: ((لَعنَ اللّهُ الوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوْصِلَةَ)) [١].

وَأَنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللّهُ آكِلَ الرِّبَا)) [٢].

وأنَّهُ لَعَنَ المُصَوِّرِينَ[٣].

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللّهُ مَنْ غيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ))[٤] أيْ حُدُودَهَا.

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ))[٥].

وأنَّهُ قَالَ: ((لَعَنَ اللّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ))[٦].

وَ((لَعَنَ اللّهُ من ذَبَحَ لِغَيْرِ اللّهِ))[٧].

وَأَنّه قَالَ: ((مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ وَالمَلاَئِكَة والنَّاسِ أجْمَعِينَ))[٨].

وأنَّه قَالَ: ((اللّهُمَّ الْعَنْ رِعْلاً، وَذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ: عَصَوُا اللّهَ وَرَسُولَهُ))[٩].

وهذِهِ ثَلاَثُ قَبَائِلَ مِنَ العَرَبِ.

وأنَّه قَالَ: ((لَعَنَ اللّهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ))[١٠].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٢٢/١١٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٢٣٨) من حديث أبي جُحيفة.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٧٨/٤٣) من حديث علي.

(٥) أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧/٧) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه مسلم ١٩٧٨/٤٣) من حديث علي بلفظ: (والده).

(٧) انظر قبله.

(٨) انظر قبله.

(٩) أخرجه مسلم (٦٧٥/٢٩٤) من حديث أبي هريرة بلفظ: (اللهم العن لحيان، ورعلًا، وذكوان، وعصية، عصت الله ورسوله).

(١٠) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩/١٩) من حديث عائشة.

وأنهُ ((لَعَنَ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّساء والمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّسَاء بالرِّجالِ)) [١].

وَجَميعُ هذهِ الألفاظِ في الصحيح؛ بعضُها في صَحيحَيّ البُخاري ومسلمٍ، وبعضها في أحَدِهِمَا، وإنما قصدت الاختِصَارَ بالإشارةِ إلَيهمَا، وسأذكر معظمها في أبوابها من هَذَا الكتاب، إن شاء الله تَعَالَى.

غريب الألفاظ:

لعن اللهُ: اللَّعنْ: الإبعاد من رحمته سبحانه وتعالى [٢].

الواصلة: التي تصل شَعرها بشعر آخر زُورٍ [٣].

المستوصلة: التي تأمر من يفعل بها ذلك [٤].

الرِّبا: الزيادة على أصل المال (المقترض) من غير عقد تبايع [٥].

المصورون: الذين يصنعون تماثيل مجسَّمة للأحياء [٦].

البَيْضة: الخُوذة [٧].

أحدث حدثًا: فعل أمرًا منكرًا ليس بمعتاد في السنة [٨].

آوى محدثًا: نصر جانيًا أو أجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتَّص منه [٩].

رعل وذكوان وعُصية: قبائل من بني سُليم [١٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث عائشة.

(٢) النهاية في (ل ع ن).

(٣) النهاية في (ز و ر).

(٤) النهاية في (و ص ل).

(٥) النهاية في (ر ب و).

(٦) الوسيط في (ص و ر).

(٧) النهاية في (ب ي ض).

(٨) النهاية في (ح د ث).

(٩) النهاية في (ح د ث).

(١٠) اللسان في (ر ع ل) و (ذ ك و)

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الإيمانية:

إن من أبرز ما تركز عليه التربية الإسلامية: التربية الإيمانية، ولذلك كان من مهام النبي ﷺ ترسيخ هذه التربية في قلوب الصحابة ﭫ، ومن الشواهد على ذلك أحاديث الباب قوله ﷺ: «لعن الله الواصلة والمستوصلة.....»، وقال: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهين من النساء بالرجال».

لقد أراد النبي ﷺ تربية الصحابة على الحذر من إتيان أو فعل مثل هذه الأمور من التغيير في خلقة الله عز وجل لأن التغير في خلقة الله عز وجل مما يتنافى مع مقتضيات الإيمان بالله عز وجل، لذلك كان الأساس الإيماني من أهم الأسس التربوية التي ينبغي أن يركز عليها في عملية التنشئة، ومتطلباتها من معرفة المبادئ والقيم الإسلامية السليمة وما يجب البعد عنه من العادات والتقاليد التي تخالف ما أمر الله به، لأن الإيمان كلما كان قويًا راسخًا في القلب مؤثرًا في عمل الجوارح كانت الأعمال والأفعال ترجمة عملية قويه لهذا الإيمان.

ثانيًا: التربية الاقتصادية:

من أنواع التربية الإسلامية التربية الاقتصادية، ولقد حرص رسول الله على بيان الأسس التربوية الاقتصادية التي يجب التعامل من خلالها، وذلك عن طريق عدد من الأمور، ومنها ما ورد في أحد أحاديث الباب في قوله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِبَا»، «ولعن السارق»، وإن دعاء النبي باللعنة على آكل الربا أو السارق الذي يسرق ما ليس له من ممتلكات الآخرين، يعد تنفيرًا شديدًا من إتيان هذه الأمور أو التعامل من خلالها، وذلك لأن النظام الاقتصادي في الإسلام يقوم على أسس العدالة والمساواة والتراحم والسعيْ في طلب الرزق والحرص على الشخصية المسلمة، ويقوم أيضًا على الحفاظ على الثروة التي بددها الربا والسرقة، والتعامل بهما، فقد محق الربا الثروة الاقتصادية، لأن المال الذي استخدم في الربا لو بقي مصونًا من العبث، لبقيت الشخصية المسلمة كريمة الحياة، من هنا حرم الله الربا، وأحل البيع لأن ظلم البائع للمشتري أو ظلم المشتري

للبائع يزرع الحقد ويزعزع الثقة ويدعو للفرقة.

وقد حرم الله ورسوله الربا والسرقة، لأنها زيادة من غير حق، فهو مال حرام لا يباركه الله، والذي تربى على أن المسلم أخو المسلم، يعينه إذا قدر، ولا يرده ردًّا سيئًا إذا لم يقدر، حتى لا يضطر إلى ما لا يريد، مما لا يغضب الله، أو يذهب بالمروءة من تعامل بالربا والسرقة لا يفعل ذلك، والرسول ﷺ ربى الصحابة على الحفاظ على الثروة وتنميتها بالطرق المشروعة من أجل هذا لعن الله آكل الربا والسارق وحرم التعامل بهما، وحدد قواعد للكسب الطيب والمال الحلال، فحرم الربا والسرقة، وبتحريم الإسلام الربا والسرقة يكون قد حَقَّق الحفاظ على الموازنة بين أبناء المجتمع وتحقيق التكافل الاجتماعي، فلا يستحق القوي الضعيف، بل يأخذ بيده ويعينه، ولا يحقر الغني الفقير بل يعطيه حقوقه من ماله[1].

ثالثًا: التربية العقدية:

من الأسس التي قامت التربية الإسلامية ببيانها: العقيدة الصحيحة، وما تقتضيه تلك العقيدة من إخلاص العبادة لله وصدق التوجه إليه، ومما يتنافى مع تلك العقيدة الذبح لغير الله، ولأجل أن يربي النبي ﷺ الصحابة والأمة من بعدهم على إخلاص العبادة لله، كان يؤكد دائمًا على وجوب التوجه الخالص لله تعالى في كافة الأعمال، ومما يؤكد ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

فهذه تربية عقدية صريحة على توحيد الله تعالى، وأن لا يتوجه إلا لله تعالى بعبادته (من صلاة، وذبح) الذي خلقه فسواه ورزقه وأغناه ومنحه القدرة على التفكير ليعرف ما ينفع وما يضر، ليعلن ويتربى ويربي على العبودية لله عز وجل، وهذه هي تربية

---

(١) التربية الإسلامية، د. محمد جاد، ١/٢٥١. التربية الاجتماعية، أكرم العمري، ص٣٠٢. أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب، ص٢٠٦.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

الأنبياء جميعًا، وهي أن يتجه الناس لعبادة الله ويقروا بعبوديته، وبالتالي صنفت القلوب، وقامت حياتهم على التعاون فعاشوا آمنين مطمئنين.

إن العقيدة أساسٌ للسلوك، على أساس أنها تحكم سلوك وتصرفات الإنسان فلا تجعله يذبح لغير الله، ولا يصلي إلى قبر، وهذا يكون في السر والعلانية، لأن العقيدة تجعل لها في النفوس مهابة تتحكم في تصرفات الإنسان، وتجدر الإشارة هنا إلى أن من تربى على توحيد الله وكانت عقيدته ثابتة لا يُطْغى الجانب المادي على الجانب الروحي فلا يصبح عبدًا لشهواته وشيطانه لأن غاية الشيطان أن يجعله يلحد بربه بسبب العداوة القديمة بينهما منذ قصة أمره بالسجود للإنسان ورفضه وطرده من رغبته وتحرشه بالإنسان منذ هذه الآونة فيجعله يصلي لغير الله، ويذبح لغير الله[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب، ص٨٦. التربية الإسلامية، د. محمد جاد، ص٤٢. أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات، ص٦٦.

٢٦٦- باب تحريم سب المسلم بغير حق

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا ﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٦١)

١٥٦١- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: ((سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

سباب المسلم: سباب بكسر السين وتخفيف الموحدة، وهو أشد من السب، وهو أن يقول الرجل للرجل ما فيه وما ليس فيه، يريد بذلك عيبه وقيل: السباب هنا مثل القتال فيقتضي المفاعلة[2].

فسوق: الفسق في اللغة: الخروج، وفي الشرع الخروج عن طاعة الله ورسوله، وهو في عرف الشرع أشد من العصيان[3].

الشرح الأدبي

السباب من الأخطاء التي تمزق المجتمع وتشعل الفتن بين أفراده وتشحن النفوس وتهدر الأوقات وتقطع الأرحام، والرسول ﷺ حريص على سلامة ذات البين ومقاومة أسباب الشقاق لذلك قوَّم خطأ السب أو اللعن بكل أشكاله سواء كان سباباً للعامة أو للخدم أو للدابة أو للوالدين أو للعصر أو أي شكل من أشكال السباب.وفي هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤/١١٦) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٩٣).

(٢) انظر: فتح الباري ١٣٨/١.

(٣) فتح الباري ١٣٨/١.

الحديث يقوِّم الرسول ﷺ خطأ سباب المسلم وقتاله مبيناً عظم هذا الجرم وأثره على دين المرء، لذلك استخدم عدة أساليب بلاغية منها:

البداية بأسلوب خبري، ومن شأن الأساليب الخبرية أن توحي بثقة المتكلم في حجته في إثبات صدق خبره، وعدم معارضته المتكلم أو تنزيلاً للمخاطبين المترددين أو المنكرين منزلة غير المترددين وغير المنكرين؛ فيأتي بخبره عارياً عن عوامل التوكيد في إشارة واضحة إلى أن الخبر أوضح من أن يحتاج إلى توكيد ، ولا يتأتى لعاقل إنكاره أو التردد فيه.فقوله: (سباب المسلم فسوق) خبر خال من المؤكدات دلالة على تمام وضوحه ولا ينكره منكر لما هو معلوم من تناف بين أخلاق الإسلام والسباب فالسابان خارجان بفعلهما عن أخلاق الإسلام والسباب يحتمل أن يكون على ظاهره من لفظه من التفاعل، ويحتمل أن يكون بمعنى السب، وهو الشتم، وهو نسبة الإنسان إلى عيب ما، وعلى الأول فحكم من بدا به منهما أن الوزر عليه حتى يعتدي الثاني[1]. وقوله: (سباب المسلم فسوق) تشبيه بليغ حذف منه وجه الشبه والأداة مبالغة في تقارب المشبه والمشبه به في الصفة. ووجه الشبه هو مجاوزة الحد في كل.، وقوله: (وقتاله كفر) تشبيه بليغ أيضاً – والمراد منه المبالغة في التحذير، ويقال: أطلق عليه الكفر لشبهه به، لأن قتال المسلم من شأن الكافر، ويقال: المراد به الفكر اللغوي، وهو الستر، لأن حق المسلم على المسلم أن يعينه وينصره ويكف عنه أذاه فلما قاتله كأنه كشف عنه هذا الستر ، وقوله: (سباب المسلم ...) عرَّف المسند إليه بالإضافة لأن التعريف بالإضافة هو أخصر طريق إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع إما لأنه أخصر طرق التعريف عند المتكلم وأخصر ما يحضر عند المخاطب لا أنه أخصر طرق التعريف ،وإضافة السباب للمسلم تعظيم للجرم وتصعيدا له إذ حق المسلم أعظم.، أضف إلى ذلك تعريف المضاف (المسلم) بـ (ال) التي للجنس لإفادة العموم والاستغراق.،والتعريف بالإضافة يأتي لمدلول اللفظ من الخارج وكذا التعريف باللام والنداء.مما يبين أن كون السباب فسوقاً لإضافته وتعلقه

---

(١) فتح البارى ٣٤٤/١٦.

بالمسلم.، وبين (السباب والقتال مناسبة لأن الأول منهما غالباً ما يكون سبباً للثاني أو مقدمة له والثاني غالباً ما يكون كالنتيجة للأول، ولذلك عطف الثاني على الأول بالواو لأن بينهما اتفاقاً في متعلقهما واختلافاً من حيث مخالفة الكفر للفسوق من بعض الوجوه فبينهما توسط بين الكمالين وبين: (الفسوق والكفر) مناسبة لأن الأول مقدمة للثاني ومؤدي إليه والثاني يكون غالباً نتيجة للتمادي في الأول[1].

المضامين الدعوية[2]

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية التخلق بأخلاق الإسلام والبعد عن سباب المسلم.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحرص على مراعاة حقوق الأخوة الإسلامية في التعامل مع المسلم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من سباب المسلم وقتاله أو رميه بالفسق أو الكفر.

أولاً- من موضوعات الدعوة: أهمية التخلق بأخلاق الإسلام والبعد عن سباب المسلم:

يظهر ذلك في حديث ابن مسعود ﵁ قال: "قال رسول الله ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".

وحديث أبي ذر ﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك"[3].

فقد بين رسول الله ﷺ أن المسلم إذا سب أخاه المسلم، صار الساب فاسقًا، ومن قاتله فإنه يكفر، ونهى عن رمي المسلم أخاه المسلم بالفسق أو الكفر، فمن قال لأخيه يا فاسق أو يا كافر وهو ليس كذلك ردت عليه. وفي هذا دليل على أن هذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ توعد هذا القائل أن يكون هو الذي يتصف بهذه الصفة[4].

---

(١) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري، ٢٢٨.

(٢) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٥٦١- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٦٢).

(٣) البخاري برقم ٦٠٤٥.

(٤) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١٦٥٢/٢.

وفي ذلك حث على التخلق بأخلاق الإسلام الكريمة. فإن مكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم إلى الدمار[١].

من أجل ذلك كانت رسالة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الحث على الأخلاق الفاضلة، وجاء القرآن مشددًا على الاستمساك بها، لأنها هي التي تحقق الفوز بالنعيم الأخروي، وأن الفضائل التي أمر بها الإسلام هي الفضائل الإنسانية الحقة، والتي لو عمل بها الناس لحصلوا على أعظم الخير لعالمهم المضطرب.

والرذائل وهي التي نهى عنها الإسلام، هي سبب الخصام والعداوة بين الناس، وهي التي لا يشك في ضررها أي مخلص يبتغي الخير للإنسانية[٢].

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: الحرص على مراعاة حقوق الأخوة الإسلامية في التعامل مع المسلم:

يستنبط هذا من عموم الحديثين[٣]، حيث إن المسلم ينبغي عليه أن يحرص على مراعاة حقوق أخيه المسلم، فلا يؤذيه بقول أو فعل، قال رسول الله ﷺ: ((المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظلمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيهِ كان الله في حاجتهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسلمٍ كُربَةً فرَّجَ الله عنهُ كُربةً من كُرباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سَتَرَ مُسلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامة))[٤].

فإن أذية المسلم بالقول أو الفعل تكون سببًا في دخول النار، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية، عبدالرحمن حبنكة الميداني، ص ٣٣.

(٢) انظر: الأخوة الإسلامية، د. عبد رب النبي علي أبو السعود، ص ٧٠.

(٣) الحديث رقم (١٥٦٠)، (١٥٦١).

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.

بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَـٰذَا، وَقَذَفَ هَـٰذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَـٰذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَـٰذَا، وَضَرَبَ هَـٰذَا. فَيُعْطَىٰ هَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ. أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ. ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))[1].

فينبغي على الداعية أن ينبه المدعوين إلى الحرص على مراعاة حقوق الأخوة الإسلامية في التعامل.

فقد جاءت في سنة رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة للحض على الأخوة وتأكيدها، وإقامتها على مبادئ الدين وغاياته. والمسلمون ارتبطت آمالهم وحياتهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله بالانتساب إليه، وحب الله يقتضي اتباع أوامره سبحانه، وتطبيق أحكامه، واجتناب ما نهى عنه، وحب الرسول ﷺ يقتضي اتباع سنته، والسير على منهاجه[2].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من سباب المسلم وقتاله أو رميه بالفسق أو الكفر:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر".

وقوله ﷺ: "لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك" قال القاضي عياض: (وقوله: "سباب المسلم فسوق": أي خروج عن الطاعة وواجب الشرع، وبه سمي الفاسق فاسقًا لخروجه عن ثقاف[3] الإسلام وانسلاخه عن أعمال البر، يقال: فسقَت الرُطَبةُ إذا خرجت من قشرها.

وقوله: "وقتاله كفر" أي قتاله من أجل إسلامه واستحلال ذلك منه كفر.

وقيل: ذلك من أفعال أهل الكفر، أو يكون كفر طاعة وكفر نعمة، وغمطهما بأن جعلهما الله مسلمين، وألف بين قلوبهما، ثم صار هو بعد يقاتله.

وقيل: كفر بحق المسلم وجحد له بالمعنى؛ لإظهاره إباحة ما أنزل الله من تحريم دمه

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٥٨١.

(٢) انظر: الأخوة الإسلامية، د. عبد رب النبي علي أبو السعود، ص ٣١، ٣٢.

(٣) يقصد بذلك: تعاليم الإسلام، النهاية، والوسيط في (ث ق ف).

وقتاله، وترك ما أمر به من محبته وإكرامه وصلته، فهو كفر بفعله وعمله لا بقوله واعتقاده.

وقد يكون القتال المشارَّةُ والمدافعة، كما قال في الحديث في المار بين يدي المصلي: "فليقاتله".

وكله منهي عنه، وفاعله جاحدٌ حق أخيه المسلم وحق الله فيه[١].

وقد ورد الترهيب من أذية المسلم في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾[٢].

قال ابن علان: (قوله تعالى: "والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا" من جناية أو استحقاق لأذى "فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا" فذكر فيها سائر أنواع الأذى القولية من غيبة ونميمة وسخرية به، والفعلية من ضرب وإهانة وغير ذلك)[٣].

ومن السنة قوله ﷺ ((كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))[٤]، وقال ﷺ: ((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))[٥]، وقال في حجة الوداع: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ))[٦].

قال النووي: (المراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض والتحذير من ذلك)[٧].

فهل بعد هذه النصوص، وما فيها من وعيد وترهيب، يطيب لمسلم أن يطلق لسانه في عرض مسلم، أو يؤذيه بقول أو فعل؟[٨]

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣٢٢/١.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.
(٣) دليل الفالحين، ابن علان، ص ١٦١٨.
(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.
(٥) أخرجه البخاري ١٠، ومسلم ٤٠.
(٦) أخرجه البخاري ١٧٣٩، ومسلم ١٦٧٩.
(٧) شرح صحيح مسلم ١٠٧٥.
(٨) دروس في الحقوق الواجبة على المسلم، د. فالح الصغير، ص ٢٠٩.

الحديث رقم (١٥٦٢)

١٥٦٢- وعن أَبي ذرٍ رضي الله عنه: أنهُ سَمِعَ رسُولَ اللهِ ﷺ يقول: ((**لاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالفِسْقِ أَوِ الكُفْرِ**[1]**، إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**)). رواه البخاري[2].

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٦١).

غريب الألفاظ:

الفِسْقُ: الترك لأمر الله والخروج عن الحق وأصله: فسقت الرطبة عن قشرها [3].

الشرح الأدبي

يدور معنى الحديث حول إدراك الرمي بالفسق أو الكفر لأحد المترامين وقد ورد المعنى في ثوب القصر الذي يحصر الرمي بالفسوق أو الكفر في أحد المتسابين لا يتعداهما لغيرهما ، والتعبير بالرمي يشير إلى شدة الأثر وتنكير لفظ الرجل الأول، والثاني يفيد التعميم للحكم حتى يشمل كل متسابين تلحق السبة بأحدهما، والتعبير بالفسوق يشير إلى مجاوزة الحد في أمر ما ،والكفر ضد الإيمان ،والتعبير بالارتداد يشير إلى العودة إلى المصدر وهو جزاء من جنس العمل ،والتعبير بحرف الجر (على) المضاف إلى الضمير العائد على الرامي يشير إلى إحاطته به ،واستعلائه عليه ، وقوله (إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ) أسلوب شرط محذوف الجواب دل عليه السابق أي إن لم يكن صاحبه كذلك ارتدت عليه .

المضامين الدعوية[4]

---

(١) لفظ البخاري: (بالفسوق، ولا يرميه بالكفر).

(٢) برقم (٦٠٤٥).

(٣) القاموس المحيط في (ف س ق).

(٤) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥٦٣)

١٥٦٣- وعن أَبي هريرة ﵁ : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((المُتَسَابَّانِ[١] مَا قَالاَ فَعَلَى البَادِي (منهُما) [٢] حَتَّى يَعْتَدِي[٣] المَظْلُومُ)). رواه مسلم[٤].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

المتسابان: اللذان يسب كل منهما الآخر[٥].

البادي: البادئ بالسَّبِّ؛ خُففت همزته[٦].

الشرح الأدبي

الحديث في معنى سابقه من جهة المعنى ورد في أسلوب خبري خال من المؤكدات دليل على أن المعنى مما لا يتأتى إنكاره وهو إدراك تبعة السب للساب وليس للمسبوب المظلوم حتى يرد فيتعادلان في الذنب أو يتسبب فيه ، وبداية الحديث بلفظ (المتسابان) على صيغة التفاعل تدل على المشاركة ،وقوله (ما قالا فعلى البادي منهما) والفاء إما لكون ما شرطية أو لأنها موصوله متضمنة للشرط (حتى يعتدى المظلوم) أي بأن يسبه أكثر ، وأفحش منه أما إذا اعتدى كان إثم ما اعتدى عليه والباقي على البادي .

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الترهيب من البدء بالسب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية العدل في الغضب وعدم التجاوز.

---

(١) لفظ مسلم: (المستبّان).

(٢) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم، وهي عند الترمذي (١٩٨١)، وكذا عند المنذري في ترغيبه.

(٣) لفظ مسلم: (ما لم يعتد)، والمثبت لفظ أحمد في المسند (١٠٧٣)، وكذا عند المنذري.

(٤) برقم (٢٥٨٧/٦٨). أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٩٢) والسياق له.

(٥) اللسان في (س ب ب).

(٦) النهاية في (ب د و).

ثالثًا: من آداب المدعو: الصبر والعفو والإعراض عن الجهالة والسباب.

أولاً- من موضوعات الدعوة: الترهيب من البدء بالسب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "المتسابان[١] ما قالا فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم".

قال القرطبي: (ومعنى الكلام: أن المبتدئ بالسبِّ هو المختص بإثم السبِّ؛ لأنه ظالم به، إذ هو مبتدئ من غير سب ولا استحقاق، والثاني منتصر فلا إثم عليه، ولا جُناح، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٢]، لكن السب المنتصر به - وإن كان مباحًا للمنتصر - فعليه إثمٌ من حيث هو سبٌّ، لكنه عائد إلى الجاني الأول؛ لأنه هو الذي أحوج المنتصر إليه وتسبب فيه، فيرجع إثمه عليه، ويسلمُ المنتصر من الإثم؛ لأنَّ الشرعَ قد رفعَ عنه الإثم والمؤاخذة، لكن ما لم يكن من المنتصر عدوان إلى ما لا يجوز له[٣].

قال النووي: (معناه: أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادئ منهما كله إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار)[٤].

وقال الطيبي: (معناه: إثم ما قالاه على البادئ إذا لم يعتد المظلوم)[٥]. فهذا يدل على الترهيب والتحذير من البدء بسب المسلم لأخيه المسلم.

فهذا مسلك مذموم في الشرع والعقل، وهو سبب لحدوث أمور لا تحمد عقباها، فكم حصل بسببه من قتل وطلاق، وفساد لذات البين، ونحو ذلك مما ينتج عن البدء بالسب، لذلك رهّب منه رسول الله ﷺ.

---

(١) المتسابان: وردت في صحيح مسلم بلفظ المستبان، مسلم ٢٥٨٧.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤١.

(٣) المفهم ٦/٥٦٦، ٥٦٧.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ص ١٥٤٦.

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/١٠٠.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية العدل في الغضب وعدم التجاوز:

يستنبط ذلك من قوله ﷺ: "حتى يعتدي المظلوم"، قال القرطبي: (قال: "ما لم يعتد المظلوم" أي ما لم يجاوز ما سُبَّ به إلى غيره؛ إما بزيادة سب آخر أو بتكرار مثل ذلك السَّبِّ، وذلك أن المباح في الانتصار: أن يردَّ مثل ما قال الجاني، أو يقاربه؛ لأنه قصاص، فلو قال له: يا كلب -مثلاً- فالانتصار أن يرد عليه بقوله: بل هو الكلب، فلو كرر هذا اللفظ مرتين أو ثلاثًا لكان متعديًا، بالزائد على الواحدة، فله الأولى، وعليه إثم الثانية، وكذلك لو رد عليه بأفحش من الأولى، فيقول له: خنزير -مثلاً- كان كلُّ واحد منهما مأثومًا؛ لأن كلاً منهما جار على الآخر، وهذا كلُّه مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[1]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[2]، وكلُّ ما ذكرناه من جواز الانتصار: إنما هو فيما إذا لم يكن القول كذبًا، أو بهتانًا، فلا يجوز أن يتكلَّم بذلك لا ابتداءً ولا قصاصًا، وكذلك لو كان قذفًا؛ فلو ردَّه كان كلُّ واحدٍ منهما قاذفًا للآخر، وكذلك لو سب المبتدئ أبا المسبوب، أو جده، لم يجز له أن يردَّ ذلك؛ لأنه سبٌّ لمن لم يجن عليه، فيكونُ الرد عدوانًا لا قصاصًا، قال بعضُ علمائنا: إنما يجوز الانتصار فيما إذا كان السب مما يجوز سب المرء به عند التأديب، كالأحمق، والجاهل، والظالم؛ لأنَّ أحدًا لا ينفكُّ عن بعض هذه الصفات إلا الأنبياء والأولياء، فهذا إذا كافأه بسبه فلا حجر عليه، ولا إثم، وبقي الإثم على الأول بابتدائه وتعرُّضه لذلك.

تنبيه: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[3] أن الانتصار مباح، وعلى ذلك يدلُّ الحديث المذكور، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[4] مدح من الله تعالى للمنتصر، والمباح: لا يُمدح عليه، فاختلف العلماء في ذلك، فقال السُّدِّي: إنما مدح الله من انتصر ممن بغي عليه من غير زيادة على مقدار

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

(٢) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤١.

(٤) سورة الشورى، آية: ٣٩.

ما فعل به، يعني: أنه إنما مُدح من حيث إنه اتقى الله في انتصاره؛ إذا أوقعه على الوجه المشروع، ولم يفعل ما كانت الجاهلية تفعلُ من الزيادة على الجناية. وقال غيره: إنما مدح الله من انتصر من الظالم الباغي المعلن بظلمه الذي يعمُّ ضررُه، فالانتقام منه أفضل، والانتصار عليه أولى[1].

قال النووي: (فيه جواز الانتصار ولا خلاف في جوازه)[2] وتظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة. فعلى المنتصر لنفسه في رد من سبه ألا يتعدى، فإذا تعدى فيكون عليهما، نعم إلا إذا تجاوز غاية الحد، فيكون إثم القولين عليه، قال البغوي: (من أربى الربا من سب سبتين بسبه)[3].

وتمام العدل أن يكون مع الصديق والعدو في الرضا والغضب قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[4]. قال ابن كثير: (لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًا، ولهذا قال: "اعدلوا هو أقرب للتقوى" أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه)[5].

ثالثًا - من آداب المدعو: الصبر والعفو والإعراض عن الجهالة والسباب:

يستنبط هذا من عموم الحديث، فإذا جاز لمن سبه صاحبه أن يسبه بمثل ما سبه، فإن الصبر والعفو أفضل، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[6] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ

---

(١) المفهم ٥٦٧/٦، ٥٦٨.

(٢) شرح صحيح مسلم، ص ١٥٤٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٠٠/٩.

(٤) سورة المائدة، آية: ٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٦٢/٣.

(٦) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٧) سورة الشورى، آية: ٤٠.

أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾[2] وقال ﷺ: ((مَا زاد اللّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا))[3] ونحوه كثير. فعلى المدعو الصبر والعفو والإعراض عن الجهالة.

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[4] وعليه أيضًا الترفع عن السباب، فذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: (شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم)[5].

---

(١) سورة النور، آية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.

(٣) أخرجه مسلم برقم ٢٥٨٨

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٥) انظر: سوء الخلق، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٠٦.

الحديث رقم (١٥٦٤)

١٥٦٤- وعنه، قَالَ: أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ، برَجُلٍ قَدْ شرِبَ قَالَ: ((اضربوهُ)) قَالَ أَبُو هريرةَ: فَمِنَّا الضاربُ بيَدِهِ، والضَّاربُ بنَعْلِهِ، والضَّاربُ بثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أَخْزَاكَ اللّهُ! قَالَ: ((لا تَقُولُوا هَذَا[1]، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ)). رواه البخاريُّ[2].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

المضامين الدعوية[3]

(١) لفظ البخاري: (هكذا).

(٢) برقم (٦٧٧٧)، وتقدم برقم ٢٤٣.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٤٣).

الحديث رقم (١٥٦٥)

١٥٦٥- وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: ((مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بالزِّنَى يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ يَومَ القِيَامَةِ، إلاَّ أنْ يَكُونَ كما قَالَ)). متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨).

غريب الألفاظ:

الحد: العقوبة المقرونة بالذنب[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث هو ختام باب تحريم سبّ المسلم بغير حق، وهو يتضمن جملة خبرية في صدره، ثم جملة استثنائية في عجزه ونهايته، و"مَنْ" تتضمن معنى الشرط لأن الجملة بها مقدمة ولها نتيجة، والمقدمة تتمثل في قول رسول الله ﷺ: "من قذف مملوكه بالزِّنى.." والنتيجة: هي العقاب الذي ينتظر ذلك السابّ القاذف، يقام عليه الحد يوم القيامة، وكلمات الحديث تتسم بدقة الاختيار، وقوة الإيحاء، فقوله: "مملوكه" يوحي بأن القاذف هو السيد مالك هذا المملوك، ويرشد إلى أن هذا المملوك يعجز عن المطالبة بحقه من سيده ومالكه، ولكن هل يضيع حق هذا المملوك؟ لا.. فرسول الله ﷺ يضمن له حقه، حيث أخبر بأن هذا السيد يقام عليه الحد يوم القيامة، إظهارًا لكمال العدل، إذا كان العبد بريئًا، وبناء الفعل للمجهول فيه تقليل من شأن ذلك السيد، فهو في الآخرة مهان لا يستحق تحديد من سيقيم عليه الحد، فهو بإذن الله تعالى ومشيئته، والذين سيقومون بذلك هم ملائكة العذاب، وقوله: "الحد": تنبيه على أن إقامة الحدود واجبة.. ولو نجا إنسان من الحد في الدنيا فإنه سيقام عليه في الآخرة، والتعبير بقوله: "قذف" يؤكد على بشاعة هذا الجرم، وأنه من الكبائر، فكأن القاذف يرمي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (٣٧/١٦٦٠) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٣١٢١).

(٢) النهاية في (ح د د).

المقذوف بحجارة ملتهبة، فالقذف يؤدي إلى اشتعال نار الفتن، وتمزيق الأواصر، وتشويه الأعراض، ومما يؤيد ذلك قول العرب: قذف الحجر بالقذافة، وتقاذفوا بالحجارة، وجعل الله الشهاب قذيفة الشيطان، والاستثناء في ختام الحديث: يقيد الحكم، فالحدّ لا يقام على مالك العبد في الآخرة، إذا كان العبد كما قال مرتكبًا لجريمة الزنى.

وفي ذلك إيحاء بأن التنبيه على من يرتكب جريمة الزنى وكشف أمره، وفضح سلوكه، ليس قذفًا، ولكنه تقرير عن واقع، ولا بد أن يكون موثقًا بالأدلة والشواهد التي تقيم الحجة على مرتكب هذه الجريمة النكراء، ونسأل الله تعالى العصمة من الزلل والنجاة من النار.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم القذف: أجمع الفقهاء على حرمة القذف[١].

٢-الحكم لو قذف السيد عبده: أجمع الفقهاء[٢] على أن الحر إذا قذف عبدًا لم يجب عليه الحد، ودل هذا الحديث على ذلك، لأنه لو وجب على السيد أن يجلد في قذف عبده في الدنيا لذكره كما ذكره في الآخرة[٣].

كما أجمع الفقهاء على أنه إذا قذف العبد غيرُ مالكه أنه لا حد على قاذفه[٤].

٣-ما الحكم لو قذف الحر أم ولد؟ ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والشافعية، والحنابلة، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي إلى أنه لا حد عليه[٥]. واستدلوا على

---

(١) المغني ٧٦/٩.

(٢) إلا ما روي عن داود أنه قال: يجب الحد على قاذف العبد. المغني ٧٦/٩.

(٣) بدائع الصنائع ٤٠/٧، وحاشية الدسوقي والشرح الكير ٢٢٥/٤-٣٢٦، ومواهب الجليل ٢٩٨/٦، ومغني المحتاج ٥٨/٥، والمغني ٧٦/٩، وفتح الباري ٢٢١/١٢، وسبل السلام ٣١/٤.

(٤) سبل السلام ٣١/٤.

(٥) بدائع الصنائع ٤٠/٧، ومغني المحتاج ٥٨/٥، والمغني ٧٦/٩، وبداية المجتهد ٣٦٢/٢، وفتح الباري ٢٢١/١٢، وسبل السلام ٣١/٤.

ذلك بأن من لا يحد قاذفه إذا لم يكن له ولد، لا يحد وإن كان له ولد كالمجنونة[١].

وذهب الإمام مالك وداود إلى أنه يجب عليه الحد بعد موت السيد وهذا قياس قول الشافعي[٢].

والراجح هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على البعد عن ظلم العبيد والخدم والعمال.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: حماية أعراض الناس.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المملوك وبيان عاقبة ذلك يوم القيامة.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المؤمن.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الحث على البعد عن ظلم العبيد والخدم والعمال:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من قذف مملوكه بالزنى يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال".

فقد بيّن رسول الله ﷺ أن السيد إذا قذف عبده بالزنا أو اللواط أو ما أشبه من كلمات القذف. فإذا كان العبد مظلومًا، ولم يفعل شيئًا من ذلك كان ذلك ظلمًا من السيد لعبده. والظلم عقابه من الله شديد، قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: ((لَتُؤَدُّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ

---

(١) المغني ٩/٧٩.

(٢) بداية المجتهد ٢/٣٦٢، وفتح الباري ١٢/٢٢١، والمغني ٩/٧٦، وسبل السلام ٤/٣١.

(٣) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٤) سورة هود، آية: ١٨.

الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[١] فالخدم والمماليك إخوان في الدين أو في الإنسانية، فينبغي معاملتهم معاملة كريمة، والبعد عن ظلمهم، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ فعن المعرور ابن سويد قال: ((رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلامِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))[٢].

فبين الرسول ﷺ أن الخدم والمماليك إخوان في الدين أو في الإنسانية.

وكان الظاهر أن يقول: خولكم إخوانكم، ولكن قدم ما أصله التأخير اهتمامًا بالأخوة، وأنه لا ينبغي أن تنسيها الخدمة، وهل الخدمة إلا إعانة، فكيف تكون سببًا للتحقير والإهانة، إن الأخوة وحدها داعية إلى التبجيل والإكرام، فكيف إذا انضمت إليها الخدمة والمعونة والمساعدة؟ فينبغي على صاحب العمل الذي مكنه الله من هؤلاء الخدم، العناية بهم، والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾[٣] وقد نهى ﷺ عن تكليف الخدم من الأعمال ما يشق عليهم ويهد قوتهم أو يستفرغ جهدهم، بل التكليف بالسهل المستطاع الذي لا يسأمه الخادم. فالحديث إرشاد لأرباب البيوت أن يقفوا من الخدم موقف العدالة، ولا يتناسوا رابطة الأخوة، ولا تبادل المنافع، وفيه النهي عن سباب الخدم والتعرض لآبائهم وأمهاتهم بما يسؤوهم أو يحط من قدرهم[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٤٥، ومسلم ١٦٦١.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٤) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ٧٥، ٧٦.

ثانيًا - من أهداف الدعوة: حماية أعراض الناس:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "من قذف مملوكه بالزنى يقام عليه الحد يوم القيامة". فلقد شمل الإسلام أعراض الناس بأقوى حماية يمكن أن يختص بها حق من حقوق الإنسان. وتبدو حمايته هذه أوضح ما يكون في العقوبات القضائية الشديدة التي يوقعها في حالات الزنا وهتك العرض والقذف، كما تبدو في تحريمه الغيبة والنميمة والتجسس والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وما إلى ذلك من كل ما يمس عرض الإنسان وكرامته، وفي تحقيره لمقترفي هذه الآثام وتوعده إياهم بأشد عذاب يوم القيامة[١].

إن حماية الأعراض، وصيانة كرامات الناس، والمحافظة على حرماتهم، لها في الإسلام شأن، وأي شأن؟

وهي حقوق فرضها الإسلام، وجعلها دينًا يتعبد به، كما يتعبد بالصلاة، والذكر، والدعاء، ولتبقى سلوكًا عمليًا في واقع الحياة، ومظهرًا من مظاهر المجتمع النظيف، فضلاً عن أنها تحفظ كيانه، وتدعم أركانه، وتقيه من التصدع.

ولقد أوسع الإسلام القول، وأفاض في الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذه الغاية، ونشير هنا إلى آيتين: يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

وقد تضمنت هاتان الآيتان:

١-النهي عن السخرية، وهي احتقار الغير، واستصغاره لغير سبب ظاهر، سواء

---

(١) حماية الإسلام للأنفس والأعراض، د. علي عبدالواحد وافي، ص ٥٣.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١١.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٢.

كان الاستصغار بالعبارة، أم بالإشارة، أم بأي طريقة مفهمة لمعنى التحقير.

وإنما نهى الله عن ذلك؛ لما فيه من الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولأنه يجرح شعور المستهان به ويؤذيه.

فإذا كان المسخور منه بليد الشعور، لا يتأثر بما يلحقه من إهانات، فإن النهي في هذه الحالة لا يتناوله، بل يكون تحقيره ضربًا من المزاح الذي أحله الله.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانًا بها كانت على الناس أهونا

وفي الآية تعليل النهي بأن المستهزأ به قد يكون أزكى نفسًا، وأحسن عملاً، وأقرب إلى الله بما يقدمه من خير وبر، ولا يعلم بذلك المستهزىء، فيكون قد تعرض للظلم، بتحقير ما يستحق التعظيم.

روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))[1].

إن سخرية الرجال من الرجال، والنساء من النساء، إثم كبير، وشر لو لم يكن للإنسان غيره لأوبقه.

يقول الرسول ﷺ: ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))[2].

٢-النهي عن ذكر العيوب والنقائص، فإن الطعن في الأشخاص يحرج الصدور، ويؤرث العداوات.

٣-النهي عن أن يدعو أحد غيره بلقب يكرهه: ويطلق عليه لفظًا يسوءه أن يسمعه، بل الواجب أن يدعو أخاه المسلم بأحب الأسماء إليه، فإن إطلاق لفظ قبيح على من اتصف بالإسلام غير كريم "بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان".

٤-إن مخالفة هذه التعاليم، وعدم مراعاتها، ظلم يسخط الله ويغضبه، لأن ارتكاب أمثال هذه الحماقات يفرق الجماعة، والله يريد للمسلمين أن يتعاونوا على البر، ويتجمعوا على المصلحة، ويعيشوا في ظلال المحبة والمودة.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٢٢، ٢٨٥٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

٥- النهي عن الظن السيء، وهو الحكم على الغير بأمر سيء من غير دليل. فالتهمة، والتخون للأهل والأقارب والناس، من غير اعتماد على أدلة صحيحة، إثم من الآثام، وهو أكذب الحديث..

يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري وغيره، عن أبي هريرة ((إيّاكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذَبُ الْحديث))[1].

٦- النهي عن التجسس وتتبع العورات، لما فيه من اشتغال بما لا يفيد، وضياع للعمر في غير جدوى ولا مصلحة، ولأنه مثير للضغائن والأحقاد.

روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي: أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه صعد المنبر، فنادى بصوت رفيع: ((يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَتُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَتَّبِعِ اللّه عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعُ اللّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ))[2])[3].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المملوك وبيان عاقبة ذلك يوم القيامة:

يظهر ذلك من عموم الحديث، قال ابن عثيمين: (المملوك هو العبد الذي يملكه الإنسان، والمملوك كالسلعة يباع ويشترى ويوهب، ويرهن، ويوقف إلا أن أحكام الله عز و جل هو والحر على حد سواء في غير الأمور المالية. والسيد مالك للرقيق لعينه - يعني رقبته - ولمنافعه، فإذا قذف عبده بأن قال للعبد: يا زاني، أو لوطي، أو ما أشبه ذلك من كلمات القذف فإنه لن يحد في الدنيا لأنه سيد، والعبد مملوك لكن يقام الحد عليه في دارٍ عذابُها أشد -والعياذ بالله- وهي الدار الآخرة يقام عليه الحد يوم القيامة، وعلى ذلك فيكون قذف المملوك من كبائر الذنوب، لأنه رتب عليه عقوبة في الآخرة، وكل شيء رتب عليه عقوبة في الآخرة فإنه من كبائر الذنوب)[4].

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٠٣٢ وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦٥٥).

(٣) إسلامنا، السيد سابق، ص ٢٧٧-٢٨١.

(٤) شرح رياض الصالحين ١٦٥٦/٢.

وفي ذلك ترهيب من قذف المملوك لما يترتب عليه من عقاب يوم القيامة.

رابعًا - من موضوعات الدعوة: الترهيب من قذف المؤمن:

يستنبط هذا من عموم الحديث، حيث رهّب رسول الله ﷺ من قذف المملوك وبيَّن أن من قذف عبده ولم يكن كما قال، فإن الله يقيم عليه الحد يوم القيامة. وقذف المؤمن بصفة عامة حرمه الله تعالى، وجعله من أكبر الكبائر، والأصل في تحريمه الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وأما السنة قوله ﷺ: ((اجتنِبوا السَّبعَ الموبقات. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتْلُ النَّفسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ؛ وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيم، والتَّولِّي يوم الزَّحفِ، وقذفُ المُحصناتِ المؤمناتِ الغافِلاتِ))[3].

---

(١) سورة النور، آية: ٤.

(٢) سورة النور، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخلقية:

من أنواع التربية الإسلامية: التربية الخلقية التي ركّز عليها النبي ﷺ وعمل على تعميقها في نفوس أصحابه ﷺ من خلال بيان عدد من الأمور التي يحتاج إليها المسلم في تعاملاته الحياتية مع إخوانه، وما يجب أن يترفع عنه من الألفاظ التي تخالف الشرع، وتتنافى مع القيم الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث باب تحريم سب المسلم بغير حق ما ورد في قوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ. وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، وقال: «المتسَابَّان ما قالا فعلى البادئ ...»، وقال: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِنَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...»، فهذه توجيهات تربوية نبوية ظهر منها أنه لا يليق بالمسلم أن يقذف ويسب أخاه المسلم والرسول ﷺ يرسي قواعد التربية الخلقية، بذلك ويعظم حق المسلم، ولذلك جعل عقوبة سبه الفسق، وهذا تهذيب للخلق وتربية للروح على الأهداف الرئيسة للتربية الإسلامية من أجل بناء الإنسان المتخلق بأخلاق الإسلام، الذي يربأ بنفسه عن السب والشتم، والرسول ما حث على الخلق إلا لعلمه أن حسن الخلق زينة للإنسان، ومن أسباب سعادته، وسوء خلقه، (من سب ولعن وقذف)، كما هو معنا في أحاديث الباب دليل على سوء خلقه وأنه لم يُرَبَّ التربية الإسلامية الحقة التي تدعو إلى الخلق الحسن، والرسول حرص على تربية الأخلاق أيضًا هنا لأنه حريص على ترابط المجتمع كما أن الأخلاق تدعوا إلى تطهير النفس.

إن اهتمام الرسول ﷺ بالتربية الأخلاقية والتنفير من السب، يؤكد على أهمية تخلق المسلم بالخلق الإسلامي والترفع عن كل ما يؤدي إلى النيل من المسلم بأي شكل أو صورة من الصور والتي منها: السب أو الرمي بالفسق أو الكفر، أو وصفه بأي وصف ينتقص منه، إن التربية الخلقية تعمل على تكوين روح الخير في الفرد، وتنمية الوعي بوحدة الحياة الاجتماعية، وأهم ثمار التربية الخلقية أنها تقوم على أساس اعتقادي يربط بين الإيمان والسلوك الخلقي، وعلى أساس علمي لصلة القوانين الأخلاقية بالعلوم

الطبيعية والنفسية والاجتماعية، وعلى أساس إنساني يستند إلى الطبيعة الإنسانية وحرية الإرادة والشعور بالمسئولية الأخلاقية، وهذا ما أخذه أهل التربية من أحاديث الباب[١].

ثانيًا: التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية: التحذير، ولقد استخدم رسول الله ﷺ أسلوب التحذير في توجيهاته التربوية التي ترمى إلى البعد عن إتيان كل ما ينقص المؤمن، من خلال رميه بالتهم أو وصفه بالأوصاف التي لا تليق به، ومن شواهد ذلك من أحاديث الباب قوله ﷺ: «وَلاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالْفِسْقِ أَو الْكُفْرِ إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ.....»، فهذا توجيه تربوي يحذر من خلاله الرسول ﷺ أصحابه من السب بالفسق أو الكفر، وذلك لأن سب المؤمن يؤدي إلى غضب لله تعالى وعذابه، ويؤدي إلى إفساد العلاقات الاجتماعية، وفيه إعانة للشيطان على المسلم، كما يؤدي إلى نوع من العزلة الاجتماعية، ولذا حذر النبي ﷺ من هذه الأمور، وإمعانًا في التوجيه التربوي الذي يحمل المسلم على اجتناب هذا الأمر بين ﷺ أن من قام بالسب يوقع نفسه في دائرة العقوبة المترتبة على ذلك حيث حذر الرسول ﷺ من مغبة ذلك بقوله: « إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ»، وهذا أسلوب توجيه تحذيري.

ولا شك أنه مرتبط بالسلوكيات الخاطئة التي قد يرتكبها المسلم في هذا السب، لأنه بمجرد إجراء هذه الألفاظ التي فيها سب يكون قد افتقد عددًا من قيم الخير وفضائل الأعمال، فهذا الحديث الذي معنا يستفاد منه تربويًا، أنه يعد بمثابة القوة الصادة لانحراف الإنسان عن الغاية الخلقية، إن ما قدمه الرسول ﷺ من تربية للأخلاق يعتبر تحذيرًا وتوجيهًا قدمه على هيئة نصائح وإرشادات لو أخذ بها المسلمون وأهل التربية لجنبت المسلم الكثير من الآلام، وهذا ما أراده النبي ﷺ، مع صحابته في تربيتهم على خلقٍ حميد لأنه عَلِم ﷺ أن عَلِم الأخلاق يأتي في مقدمة الوسائل التي يعني بها المربون لأنه المصباح الكاشف لمسالك الرشد، والتربية الناجمة لا غنى لها عن الأخلاق[٢].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. شحات، ص٦٦. أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٥٩.

(٢) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، ص٣٦٨، فصول من الأخلاق الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة، د. عبدالله يوسف الأزدي.

ثالثًا: التربية بالعقوبة:

من أساليب التربية الإسلامية أسلوب التربية بالعقوبة، وهو أسلوب وضعه الشارع للردع عن ارتكاب ما نهى عنه. والرسول ﷺ استخدم هذا الأسلوب ففي أحاديث الباب ما يدل على ذلك: «أُتيَ النبيُّ ﷺ برجل قد شَرِبَ، قال: اضربوه. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمنّا الضاربُ بيدِهِ والضاربُ ...»، الرسول ﷺ في هذا الحديث أظهر أسلوب العقاب وأعتبره وسيلة من وسائل التأديب والتربية، وهذا في قوله «اضربوه» وهذه الوسيلة لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال لأن بعض البشر لا ينفع معه إلا العقاب والألم الذي يباشر بدنه، وهذا هو العقاب بالضرب والأذى الذي ذكره رسول الله ﷺ إيقاع الألم على جسد المضروب بعصا أو بالنعال، وهذه العقوبة أكدت التربية الإسلامية عليها في بعض الحدود «كشرب الخمر» وحد شرب الخمر له وضع خاص في التربية الإسلامية حيث استخدم الله عز وجل في تحريمه أروع أسلوب تربوي ألا وهو التدرج في التحريم لذلك كان له عناية خاصة في الشرع، لذلك كانت عقوبة شارب الخمر الضرب والإهانة -وقد عنى الفقه الإسلامي بهذا الأمر- لكن وضع أهل التربية قواعد لهذا الضرب:

١- أن لا يكون الضرب للتشفي، لأن ذلك يؤدي بالمؤدب إلى مجاوزة الحد.

٢- أن يكون الضرب غير مبرح.

٣- أن لا تكون أداة الضرب غليظة ولا رقيقة.

٤- أن لا يزيد الحد على الضرب - الضرب الزائد، أو بالسب والشتم كما حدث في الحديث عندما « قالَ بَعْضُ الْقَوْمِ أخْزَاكَ اللهُ» لأنه بهذه الزيادة يعين عليه الشيطان في ارتكاب الحد مرة أخرى، وهذا ما ذكره ﷺ.

٥- أن لا يضرب في أماكن قاتلة، فهذه هي الضوابط التربوية والشرعية التي يجب على المربي اتباعها عند تطبيق هذه العقوبة[1].

۞ ۞ ۞

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٢٠٧. أساليب التربية الإسلامية في تربية الطفل، عبدالرحمن البابطين، ص٢٦٥، أساليب الدعوة والتربية في السنن النبوية، للعاني، ص٤٦٤.

٢٦٧- باب تحريم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية

وَهِيَ التَّحْذِيرُ مِنَ الاقْتِدَاء بِهِ فِي بِدْعَتِهِ، وَفِسْقِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَفِيهِ الآيَةُ والأحاديثُ السَّابِقَةُ فِي البَابِ قَبْلَهُ.

الحديث رقم (١٥٦٦)

١٥٦٦- وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: ((**لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا**)). رواه البخاريُّ[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

أفضوا: وصلوا وانتهى بهم الأمر[2].

الشرح الأدبي

الحديث يبد بأسلوب النهي (لا تسبوا الأموات) واتصال واو الجماعة بالفعل المنهي عنه يفيد عموم النهي لكل المسلمين في كل زمان، ومكان؛ لأن الميت لا يتسبب في إيذاء للحي، وإن كان قد تسبب في إيذاء للحي قبل موته فإنه قد نال جزاءه الذي يستحقه، وسب الأموات يعني شتمهم من السب، وهو القطع، وقيل من السبة، وهي حلقة الدبر كأنها على القول الأول قطع المسبوب عن الخير، والفضل، وعلى الثاني كشف العورة وما ينبغي أن يستر، وقوله (فَإِنَّهُمْ قَدْ أفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا) المعنى قد صاروا إلى جزاء ما قدموا فإن كانوا قد جوزوا بالشر فيكفي ما هم فيه وإن كانوا قد غفر لهم لم يضرهم السب.

---

(١) برقم (١٣٩٣). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٦٨) مع قصة في أوله عند ابن حبان، وعزاه أيضًا إلى البخاري، وقال: دون ذكر القصة.

(٢) المعجم الوسيط في (ف ض و).

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

حكم سب الأموات: دل الحديث على تحريم سب الأموات[1]. قال ابن حجر: (قال ابن بطال: سب الأموات يجري مجرى الغيبة، فإن كان أغلب أحوال المرء الخير -وقد تكون منه الفلتة- فالاغتياب له ممنوع، وإن كان فاسقًا معلنًا فلا غيبة له فكذلك الميت، ويحتمل أن يكون النهي على عمومه فيما بعد الدفن، والمباح ذكر الرجل بما فيه قبل الدفن، ليتعظ بذلك فساق الأحياء، فإذا صار إلى قبره أمسك عنه لإفضائه إلى ما قدم أ هـ.... وأصحّ ما قيل في ذلك إن أموات الكفار والفساق يجوز ذكر مساوئهم للتحذير منهم والتنفير عنهم، وقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءً وأمواتًا)[2].

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن سب الأموات.

ثالثًا: من آداب المدعو: التخلق بأخلاق الإسلام.

أولاً- من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تسبوا الأموات" حيث نهى ﷺ عن سب الأموات.

وأسلوب النهي من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في نهي المدعوين عن ما يخالف أحكام الدين وأخلاق الإسلام، حتى يبين للمدعوين أهمية البعد عما نهى عنه.

ثانيًا- من موضوعات الدعوة: أهمية البعد عن سب الأموات:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا".

قال ابن عثيمين: (إن النبي ﷺ قال: "لا تسبوا الأموات" والأصل في النهي

---

(١) فتح الباري ٣/٣١٧، وسبل السلام ٢/٢٠٥، ونيل الأوطار ٤/١٠٨.

(٢) فتح الباري ٢٥٩.

التحريم، فلا نسب الأموات ثم علل وقال "فإنهم أفضوا إلى ما قدموا")[١].

قال الطيبي: (أي مضوا إلى جزاء ما قدموا من أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والله تعالى هو المجازي، إن شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم، فما لكم وإياهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه؟ هذا يدل على أنه لا يجوز الخوض بلا فائدة، وإن كان للتحذير فلا بأس به)[٢].

قال ابن حجر: (قال ابن بطال: سب الأموات يجرى مجرى الغيبة، فإن كان أغلب أحوال المرء الخير -وقد تكون منه الفلتة- وإن كان فاسقًا معلنًا فلا غيبة له، فكذلك الميت)[٣].

ظاهر الحديث يدل على منع وتحريم سب الأموات مطلقًا، سواء كان الميت مسلمًا أو كافرًا، أوكان مسلمًا فاسقًا أو صالحًا.

ولكن هذا العموم مخصوص -على أصح ما قيل- بأن أموات الكفار والفساق يجوز ذكر مساوئهم للتحذير منهم، والتنفير عنهم، وعن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم، والضابط في ذلك جواز سبهم إذا كان لمصلحة شرعية للمسلمين. وعلل ﷺ النهي عن سبهم بأنهم أفضوا ووصلوا إلى جزاء ما قدّموا وعملوا من خير أو شر، والله هو المجازي، فلا فائدة في سبهم، فيحرم إلا لمصلحة شرعية أو ما خصّه الدليل من عموم هذا النهي.

والعلة الثانية في هذا النهي لئلا يتأذى الأحياء بسبهم، من أولادهم وأقاربهم ومن يلوذ بهم، إذ العلة الأولى في النهي عن سبهم أنهم أفضوا إلى ما قدموا، وهذا يدل على العموم إلا لمصلحة شرعية، فإن كان في سبهم أذية للأحياء فيكون محرمًا من جهتين، وإلا كان محرمًا من جهة واحدة.

قال ﷺ: ((لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ))[٤].

---

(١) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ١٦٥٧/٢.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣٧٠/٣.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ٣٠٤/٣.

(٤) أخرجه الترمذي ١٩٨٢، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٤).

وقوله ﷺ "فتؤذوا الأحياء" لا يدل على جواز سب الأموات عند عدم تأذي الأحياء، كمن لا قرابة له، أو كانوا ولكن لا يبلغهم ذلك، لأن النهي عام إلا لمصلحة شرعية.

فقد أجمع العلماء على جواز جرح المجروحين من الرواة أحياءً وأمواتًا، لابتناء أحكام الشرع على بيان حالهم.

قال الشوكاني: المتحرّي لدينه: في اشتغاله بعيوب نفسه ما يشغله عن نشر مثالب الأموات. وسب من لا يدري كيف حاله عند بارئ البريات. ولا ريب أن تمزيق عرض من قدم وجثا بين يدي من هو بما تكنّه الضمائر أعلم. مع عدم ما يحمل على ذلك من جرح أو نحوه: أحموقة لا تقع لمتيقظ، ولا يصاب بمثلها متدين، ونسأل الله السلامة بالحسنات، وأن يغفر لنا تفلتات اللسان والقلم، وأن يجنبنا سلوك هذه المسالك التي هي في الحقيقة من أعظم المهالك[1].

وينبه هنا إلى أمر عظيم وخطير جدًا، وهو ما يقع من بعض الجاهلين الذين يقعون في أئمة ديننا، ويطعنون فيما سلف من أئمة الإسلام، ويتكلمون في عقيدتهم ويضللونهم ويبدّعونهم، ونصبوا أنفسهم حكامًا على أولئك الجبال العظام من أئمة الإسلام الذين قيل فيهم: تجاوزوا القنطرة.

ومن أنت أيها الجاهل المفضّل بالنسبة إليهم، فارفق بنفسك، واعرف حرمة أئمة وعلماء الإسلام، ورحم الله امرءًا عرف قدره فوقف عنده[2].

فينبغي على المسلم الكف عن سب الأموات، قال رسول الله ﷺ: ((اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وكُفوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ))[3].

فينبغي للأحياء أن يقبلوا على أعمالهم، وأن يعدو أنفسهم ليوم معادهم وألا يتحدثوا

---

(١) نيل الأوطار ٧٤٦.

(٢) انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام، ٢/٥٨٠، ٥٨١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٣٨٤ رقم ١٤٦١ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه أبو داود ٤٩٠٠ والترمذي ١٠١٩ وضعفه الألباني.

عن الموتى إلا بما يعود بالنفع على حياتهم، فسب الموتى وتعديد سيئاتهم شغل لا جدوى منه ولا فائدة فيه، بل ربما كان فيه إيذاء للموتى وإيلام لأرواحهم، وربما أغضب الأحياء الذين لهم صلة قرابة أو صداقة بهم، وقد يكون في تلك الذكريات السيئة مثل سيء لمن كمنت في نفسه دواعي السوء. فيندفع إلى متابعتهم وتقليدهم. أما ذكر محاسن الموتى فلا بأس به، إذا كان بغير جزع ولا نياحة، فهو -زيادة على أنه تكريم لأرواح الموتى- يعقد صلة طيبة بين الأحياء، ويضع قدوة صالحة أمام أنظار العاملين[1].

ثالثًا- من آداب المدعو: التخلق بأخلاق الإسلام:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "لا تسبوا الأموات... الخ" الحديث.

حيث نهى عن سب الأموات، وذلك فيه التخلق بأخلاق الإسلام التي بينها الرسول الكريم في قوله: ((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ))[2] فينبغي على المدعو التخلق بأخلاق الإسلام مع جميع الناس، الأحياء والأموات، فلا يسب أحدًا، ولا يخرج من لسانه إلا كل خير، ذلك لأن الإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك، يعتز فيه الإنسان بكرامته وحريته، ويبني علاقاته مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل والثقة الكاملة، وبذلك يطمئن الإنسان على نفسه وعرضه وماله، ويمارس حياته بروح إيجابية كلها خير وعطاء وتفاعل اجتماعي متفائل، ومن هنا حرم الإسلام كل ما يؤدي إلى سلبية الإنسان وانكماشه وعزلته عن المجتمع، ودعا إلى كل ما يقوي الصلات الاجتماعية، ويوثق عري المحبة والتعاون بين الناس[3]، ودعا إلى التخلق بالأخلاق الكريمة.

---

(١) العبادات في الإسلام، د. محمد عبده، ط٣، مكتبة الفلاح، الكويت، ص ١٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٠).

(٣) التربية الروحية والاجتماعية، د. أكرم ضياء العمري، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالتحذير:

من أساليب التربية الإسلامية التحذير، ولقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب في توجيه الصحابة رضي الله عنهم ومن التوجيهات في باب التحريم: سب الأموات بغير حق قوله ﷺ: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» فهذا توجيه نبوي يرمي إلى التحذير من السب للأموات وأن حرمة الأموات كحرمة الأحياء، وهذا ما بينه النبي ﷺ في تهذيبه لسلوك المؤمن ونهيه عن سب الأموات الذي يعد انتهاكًا لحرمتهم، لأن سب الأموات يجلب غضب الله عز وجل، وعذابه، فهذا الأسلوب التربوي صريح في التحذير من سب الموتى، ولا يخفى على أهل التربية الجوانب التربوية في هذا الحديث من ردع للسلوكيات الخاطئة التي قد توجد عند بعض الأفراد، لأنه يوجد من يفعلها ويجترئ على فعلها بل وتكرارها ولا شك أن في ذلك فقد لقيم الخير والإيمان وفضائل الأعمال فكان لابد من تحذير فيه زجر شديد ووعيد مخيف يوقظ المجتري الجاني فيجعله بين خيارين لا ثالث لهما إما أن يتوب عن هذا السب وينتهي عن سب الأموات، وإما أن ينال غضب الله ومقت الله عز وجل، وليعلم الساب أنه لا فائدة من سبه لأن رسول الله ﷺ قال: «فإنهم أفضوا إلى ما قدموا إليه»[١].

وهذا التحذير الذي قدمه ﷺ يعتبر حماية من أفة اللسان "لأن اللسان خلقه الله تعالى لينتفع به الإنسان ويستعمله فيما ينفعه ولا يضره فإن أحسن استعماله جلب له الخير، فكم من مهلكات جلبها هذا اللسان الذي لم يأخذ بتحذيرات النبي ﷺ في السلوكيات الخاطئة التي تؤدي بالفرد إلى الهلاك، مع أنه لو أخذ بها لجنبته الكثير من المآسي، وبخطورة السب واللسان قال ابن حجر: في حديث المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[٢]، قال إن الحدث عام بالنسبة إلى اللسان دون اليد لأن اللسان يمكنه

---

(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، زياد العاني، ص٣٣٠، مع تصرف.

(٢) أخرجه البخاري، ١٠، ٢٠/١، ٢١، ومسلم، ٦٥-٤١، ٦٥/١.

القول في الماضين (الأموات) والموجودين (الأحياء) فدل التشريع الإسلامي على خطورة الأذى من اللسان فلم يبق إلا تربية اللسان نفسه[١].

ثانيًا: التربية الخلقية:

من أصول التربية الإسلامية التربية الخلقية ولقد ربى رسول الله ﷺ الصحابة على هذه التربية ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب سب الأموات قوله: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا إليه» فهذا توجيه نبوي للصحابة رضي الله عنهم يركز فيه النبي ﷺ على تعميق الأخلاق الحسنة في نفوس أصحابه رضي الله عنهم من خلال بيان عدد من الأمور التي يحتاج إليها المسلم في تعاملاته الحياتية مع إخوانه وما يجب أن يترفع عنه من الألفاظ التي تخالف الشرع وتنافي القيم الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها.

وهذه الطريقة لها فائدة كبيرة في العملية التربوية لأن الأخلاق هي الترجمة الحية لما يستقر في قلب الإنسان وما يحمله من تقوى وإيمان وورع أو ضعف وهي جديرة بأن يتعرف الإنسان على حدودها فلا يقصد عنها ومعرفتها والتعرف على المحرمات السلوكية، فالأخلاق تعتبر وسيلة وقائية علاجية للشخصية المسلمة وتركيز الرسول ﷺ على الجانب الخلقي في تنشئة الصحابة، يعود بدوره إلى التربية البارزة في تكوين روح الخير في الفرد وتنمية الوعي بوحدة الحياة الاجتماعية التي مصدرها الأساسي الأخلاق الحسنة[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) أصول التربية الإسلامية د. خالد الحازمي، ص١٦٤. أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد العاني، ص٢٣٠. فتح الباري، ١/ ٧٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية د. شحاتة، ص٢٦٧. أصول التربية الإسلامية د. خالد الحازمي، ص٢١٠.

٢٦٨- باب النهي عن الإيذاء

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٦٧)

١٥٦٧- وعن عبد الله بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: **((المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ))** متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

الشرح الأدبي

لفظ الإسلام ودلالته ،وتعاليمه تدور حول السلم ،والأمن في الدنيا ،والآخرة للجميع، وقوله (المسلم من سلم) يدل على الحصر لوقوع جزئي الجملة معرفتين ولكن هذا من قبيل قولهم زيد الرجل أي زيد الكامل في الرجولية فيكون التقدير المسلم الكامل من سلم إلى آخره وقال القاضي عياض وغيره المراد الكامل الإسلام والجامع لخصاله ما لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل وهذا من جوامع كلامه ﷺ، وفصيحه، والمراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله أداء حقوق المسلمين والكف عن أعراضهم، ونفي اسم الشيء على معنى نفي الكمال عنه مستفيض في كلامهم، وكذا إثبات اسم الشيء على الشيء على معنى إثبات الكمال مستفيض في كلامهم ،وهذا وارد على سبيل المبالغة تعظيما لترك الإيذاء كما كان ترك الإيذاء هو نفس الإسلام الكامل وهو محصور فيه على سبيل الادعاء وتخصيص اليد بالذكر؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٤) واللفظ له، ومسلم (٤٠/٦٤) الشطر الأول فقط. وقد تقدم برقم ٢١١، أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٠١).

أكثر الأعمال تقوم عليها، وخص اللسان؛ لأنه الجارحة الوحيدة التي تتخطى بالإيذاء حدود الزمان، والمكان كما أنه الجارحة الوحيدة التي تنال الميت، والحي، والقريب منها، والبعيد عنها، وتتناول القوي، والضعيف مع سهولة اقتراف الذنوب بها، وتعلق كثير من الكبائر بها كالشرك القولي، وشهادة الزور، والقذف ،والكذب، وغيرها، وفيه من أنواع البديع تجنيس الاشتقاق وهو أن يرجع اللفظان في الاشتقاق إلى أصل واحد بين قوله (سلم، والمسلمون) وهو يؤكد المعنى ويجذب السمع وييسر الحفظ ،وقوله (والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ) وتفسيره ﷺ الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي . وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف في كل حال من أحواله ؛ فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقدام على المعاصي . والهجرة الخاصة التي هي الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام والسنة، جزء من هذه الهجرة، وليست واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة وفي العبارة جناس بين المهاجر، وهجر يؤكد المعنى، ويقرر المفهوم المستمر ليوم القيامة لمعنى الهجرة.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢١١).

الحديث رقم (١٥٦٨)

١٥٦٨- وعنه، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ((مَنْ أحَبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) رواه مسلم[1].

وَهُوَ بعض حديثٍ طويلٍ سبق في بابِ طاعَةِ وُلاَةِ الأمُورِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

يُزَحْزَحَ: يُنَحَّى ويُبعَّد[2].

منيته: موته[3].

الشرح الأدبي

لا شك أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وأن هذه غاية يسعى إليها جميع المؤمنين، فذكر النبي ﷺ في هذا الحديث لها سببين، ترجع إليهما جميع الشعب والفروع، الإيمان بالله واليوم الآخر، المتضمن للإيمان بالأصول التي ذكرها الله بقوله: { قُولُوا آمَنَّا باللَّهِ }(البقرة: ١٣٦). ومتضمن للعمل للآخرة والاستعداد لها؛ لأن الإيمان الصحيح يقتضي ذلك ويستلزمه، والإحسان إلى الناس، وأن يصل إليهم من القول والفعل والمال والمعاملة ما يحب أن يعاملوه به فهذا هو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح، فكل أمر أشكل عليك مما تعامل به الناس، فانظر، هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا ؟ فإن كنت تحب ذلك، كنت محبا لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت

---

(١) برقم (١٨٤٤/٤٦)، وتقدم برقم (٦٦٨).

(٢) النهاية في (ز ح ز ح).

(٣) اللسان في (م ن ى).

لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة، فقد ضيعت هذا الواجب العظيم[1] والحديث ورد في ثوب الشرط الذي يربط الزحزحة عن النار، ودخول الجنة بالاستمرار على الإيمان، وحسن معاملة الناس حتى الموت ،والتعبير بالزحزحة يوحي بمدى قرب الهلاك الذي نجوا منه، وقوله (فلتأته) أمر قصد به حثهم على الاستمرار، والدوام على الفعل حتى يلقوا ربهم وبين قوله ليأت وبين يوتى جناس يؤكد المعنى، ويشير إلى أن الجزاء من جنس العمل.

المضامين الدعوية[2]

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار / المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر السعدي حديث (٩٠).

(٢) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٦٦٨).

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على حسن المعاملة:

من أنواع التربية الإسلامية التربية على حسن المعاملة التي ركز عليها النبي ﷺ، وعمل على تعميقها في نفوس الصحابة رضي الله عنهم من خلال بيان عدد من الأمور التي يحتاج إليها المسلم في تعاملاته الحياتية مع إخوانه، وما يجب أن يترفع عنه من الألفاظ التي تخالف الشرع وتنافي القيم الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها، ومن الشواهد على ذلك من أحاديث باب الإيذاء -باللسان واليد- ما ورد في قوله عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللّهُ عنه». فهذه توجيهات تربوية نبوية ظهر منها أنه لا يليق بالمسلم " أن يكون فاحش اللسان سليط اليد، والرسول ﷺ حذر من الفحش فقال: «إياكم والفحش»[1].

والرسول كان سليم اللسان وربى أصحابه على التربية على حسن المعاملة وركز عليها فقال في حديث آخر بين فيه أن الإيمان لا يستقم إلا بسلامة اللسان: فقال: «لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حتى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ..»[2]، فهذا يؤكد على أهمية سلامة اللسان والحرص على ذلك والالتزام به، واجتناب الفحش وأول سبيل لسلامة اللسان التربية الصالحة والتنشئة على مكارم الأخلاق، عن طريق سلامة اللسان واليد، لأنه بسلامة اللسان واليد تحسن المعاملة، والحديث يؤكد على أهمية المعاملة الحسنة والترفع على كل ما يؤدي إلى عدم سلامة اللسان واليد، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾[3].

"وسلوك المسلم وتعامله سواء أكان باللسان أو اليد ينبغي ألا يقوم إلا على منهج الله وأن الغاية من سلوكه القولي أو الفعلي اكتساب مرضاة الله، في التزامه بمكارم

---

(١) رواه أحمد ٢/١٦٠، رقم ٦٤٨٧، وقال محققو المسند: إسناده صحيح ١١/٢٦.

(٢) رواه أحمد ٣/١٩٨، رقم ١٣٠٤٨، وقال محققو المسند: ضعيف ٢٠/٣٤٣.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

الأخلاق القولية والفعلية التي أمر بها الإسلام، ورغب بفعلها مرضاة لله واجتنابه مساوئ الأخلاق التي نهى الإسلام عنها أو رغب في تركها مرضاة لله"[١].

ثانيًا: التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، وهو أسلوب تربوي وقائي يقوم على جانب التحذير من المخالفة مما يجعل له أهمية كبيرة في العملية التربوية. ولقد استخدمه ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم فقال ﷺ في حديث الباب: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، فهذا توجيه تربوي هدفه الترغيب في أعمال الجنة والترهيب من أعمال النار.

إن أسلوب الترغيب والترهيب له أهمية في السنة النبوية لأنه يستجيش قلب إنسان نحو الخير، وتوجيهه لذلك، وتخوفه من الانحراف وتحذره من ذلك فيثاب المجيب على إصابته، ويعاقب المخطئ على خطئه.

وحتى يؤتي الترغيب والترهيب دوره التربوي فلابد من مراعاة العوامل الآتية:

١ - قوة الترغيب والترهيب لأنه على قدر قوة هذا السلوك يكون الخوف والرجاء.

٢ - مصدر الترغيب والترهيب، هذا السلوك لو ورد في الله ورسوله سيكون مصدر قوة من الردع، أقوى من المربي أو الوالد.

٣ - مراعاته لحاجات الناس. من أبرز عوامل نجاح الترغيب والترهيب. فلا بد أن يكون الترغيب على قدر مطالب المتربي، والترهيب يكون قويًا فإن كان أقل من مردوده، فلا يكون له تأثير عقلي[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. أمين أبو لاوي، ص٥٩. أصول التربية الإسلامية، د. محمد شحات الخطيب وآخرون، ص٦٦. فصول من الأخلاق الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة، د. عبدالله يوسف الأزدي، ص٧١.

(٢) انظر: التربية الإسلامية، د. عماد عطية، ص١٣٠. أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٢٥.

٢٦٩- باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤]، وقال تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

الحديث رقم (١٥٦٩)

١٥٦٩- وعن أنس رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: **((لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا (وَلاَ تَقَاطَعُوا)** [١]**، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ انْ يَهْجُرَ اخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ))** متفق عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

لا تدابروا: لا يُعط كل واحد منكم أخاه دُبره وقفاه فيُعرض عنه ويهجره [٣].

الشرح الأدبي

الحديث ينهى عن مجموعة من الأخطاء القلبية التي تشتت المجتمع، وتشتت قلب المؤمن عن الاجتماع بربه، والرسول ﷺ يريد من المؤمن أن يكون نقي القلب طاهر النفس مشغولاً بطاعة الله لا بمشاحنة الناس لذلك جاء نهيه ﷺ عن مثل هذه الأخلاق الرديئة حفاظاً على حال الفرد والجماعة، وأولها قوله (ولا تباغضوا) نهيا

---

(١) هذه الزيادة لا توجد عند مسلم في هذه الرواية، وإنما عنده قبل حديث رقم (٢٤/٢٥٥٩، بدون رقم).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٣/٢٥٥٩) واللفظ له. أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٦٤)، وسيكرره المؤلف برقم (١٥٩٣) عن أنس أيضًا وعزاه إلى الصحيحين، وهو بلفظ الترمذي، وعندهما بنحوه، وقد تقدم بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٢٣٥)، وقد شرح هناك، فيحال عليه.

(٣) النهاية في (د ب ر).

يقوِّم خطأ التباغض، وهو تفاعل من البغض، وهو الكراهية التي تقطع الصلات، أيضاً ورد النهي في قوله: (ولا تحاسدوا) تقويماً لمرض نفسي خطير وتحصيناً للمؤمنين من شره؛لأن الحسد تمني زوال نعمة الغير ولا يصدر عن طهارة نفس أو سلامة قلب بل هو قرين نفس خبيثة وإنسان حقود، وقوله:(ولا تدابروا) والتدابر كناية عن صفة القطيعة والإعراض والهجران وأصل التدابر أن يعرض كل شخص عن أخيه بوجهه ويوليه ظهره فاستخدم للمتهاجرين وسمى الإعراض الذي هو لازم التدابر تدابراً كناية عن صفة الإعراض والهجر وفائدة الكناية أنه أثبتت الفعل بدليله وبينته وهي التدابر، وقوله (وكونوا عباد الله إخوانا) تتميم حيث أتبع الرسول ﷺ نواهيه بما يتمم معناها، ويضيف إليها فيما ورد في الجملة بعدها، فأكدت دلالة سابقتها وأفادت ضرورة التآخي بكل من يستوجبه هذا المعنى من اجتناب ما سبق النهي عنه من سيء الأخلاق والتخلق ما يجب وفاءً بحقوق الأخوة، وقوله : (وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ) والتعبير بالفعل المضارع المنفي بـ لا (لا يحل) اطراد للحكم مع اطراد الحياة يفيد التجدد والاستمرار كلما جد هجر جدت حرمة، وهذا أدعى لتدبر الهاجر.، وقوله (لمسلم) قيَّد الحكم بالمسلم تعريضاً بنفي الإسلام عن الهاجرين بنفي الإسلام عن المتصفين بتلك الصفة المحرمة على أهله، وتنكير كلمة (مسلم) لإفادة التعميم لأن استغراق المفرد أعم أنواع الاستغراق، وقد جاء المسند إليه مصدراً مؤولاً من الحرف المصدري والفعل المنصوب به، (أن يهجر) هي هجر، وكان من الممكن أن يكون مكانه المصدر الصريح فيقال: (هجر أخيه)؛ لأن صيغة المضارع باقية مع التأويل بالمصدر دالة في ذاتها على التجدد والحدوث، دالة على استحضار الصورة في الحال، ومعنى هذا أن يتصور المسلم كل فعل من الهجران يتجدد أمراً لا يحل.وقد جاء المفعول بلفظ مشع يضيء حوالك النفس وقت الخصومة ويكشف ظلام القلب ساعة الغضب (أخاه) والمقصود الأخوة في الصفة السابقة، صفة الإسلام التي تفضل في الرحمة والإشفاق أخوة الأصلاب؛ لأنها تجعل المؤمنين أعضاء جسد واحد يسهر ويحم جميعه بواحدٍ منها كما مر في الحديث قريباً.وقوله (فوق ثلاث ليال) اختيار العدد (ثلاث)

رعاية لحال النفس الغاضبة حتى تهدأ وتعود النفس اللوامة التي تراجع صاحبها، ولأن الهاجر غضبان والغضب يعمي العين يصم الأذن فاحتاج لفترة سكون[1] والتعبير بـ (ليال) دون أيام لأن الليالي أدعى لتوفير السكون والهدوء الذي يجعل النفوس تراجع أصحابها بعد سكون الغضب وهي السبيل للتخلص من التعب النفسي والجسدي المانع من سلامة التفكير وتدبر معاني السلوك الديني.، واستخدام الظرف (فوق) يصور الهاجر بعد هذا الحد (ثلاث ليال) متعالياً متكبراً تأخذه العزة بالإثم[2].

المضامين الدعوية[3]

(١) ينظر: الحديث النبوى من الوجهة البلاغية / صـ ٢٣٥.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء د ناصر راضي الزهري٥٠.

(٣) تقدم ذكرها في شرح جزء من الحديث رقم (٢٣٥).

الحديث رقم (١٥٧٠)

١٥٧٠- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((تُفْتَحُ أبْوابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ويَوْمَ الخَمْيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بينهُ وَبَيْنَ أخِيهِ شَحْناءُ فَيُقَالُ: انْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا! أنْظِرُوا هَذَينِ حَتَّى يَصْطَلِحَا[1]!)) رواه مسلم[2].

وفي روايةٍ لَهُ[3]: ((تُعْرَضُ الأعْمالُ في كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ واثْنَيْنِ)) وذَكَرَ نَحْوَهُ.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

شحناء: عداوة[4].

أنظروا: أمهلوا من الإنظار وهو التأخير والإمهال[5].

الشرح الأدبي

الحديث إلى يشير فضل يومي الاثنين، والخميس بما اختصا به من فتح أبواب الجنة، كما يحذر المتشاحنين بحرمانهم من هذا الفضل إن ظلوا على هجرهم، وقوله (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس) حقيقة؛ لأن الجنة مخلوقة الآن وفتح أبوابها ممكن أو هو بمعنى إزالة المانع، ورفع الحجب وبناء الفعل للمفعول للعلم بالفاعل (فيغفر فيهما لكل عبد لا يشرك بالله شيئا) أي ذنوبه الصغائر وتنكير (شيئا) يفيد العموم الذي يؤكد الشمول الذي أشار إليه لفظ (كل) المضاف للنكرة عبد، وقوله:

---

(١) عند مسلم ثلاث مرات.

(٢) برقم (٢٥٦٥/٣٥)، وسيأتي برقم (١٥٩٥) أورده المنذري في ترغيبه (٤٠٧٦).

(٣) برقم (٢٥٦٥/٣٦).

(٤) النهاية في (ش ح ن).

(٥) النهاية (ن ظ ر).

(إلا رجل) فيه إيجاز بالحذف، وتقديره فلا يحرم أحد من الغفران إلا رجل، وقوله: (كانت بينه وبين أخيه شحناء) شحناء أي عداوة والتعبير بالشحن مبالغة في الامتلاء بالبغض لأخيه (فيقال) من قبل الله تعالى للملائكة الموكلين بكتابة من يغفر له (انظروا) أخروا، أو أمهلوا (هذين) أي لا تعطوا منها أنصباء هذين الرجلين المتعاديين (حتى) ترتفع العداوة بينهما و(يصطلحا) ولو بمراسلة عند البعد وتعليق المغفرة على الصلح ترغيب في الصلات، والسعي لإزالة أسباب البغض.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عباده المؤمنين.

ثانيًا: من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى وإخلاص العبودية له سبحانه.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: حث المؤمنين على إصلاح ذات بينهم والبعد عن الشحناء والخصومة.

رابعًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان فضل الله تعالى على عباده المؤمنين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا..".

قال القاضي: قال الباجي: معنى فتحها كثرة الصفح والغفران ورفع المنازل وإعطاء الثواب الجزيل، قال القاضي: ويحتمل أن يكون على ظاهره وأن فتح أبوابها علامة لذلك[1]. وقال القرطبي: (وقد خصَّ الله تعالى هذين اليومين بفتح أبواب الجنة فيهما، وبمغفرة الله تعالى لعباده، وبأنهما تُعرض فيهما الأعمال على الله تعالى، كما جاء في الحديث. وهذه الذنوب التي تُغفر في هذين اليومين هي الصغائر. والله تعالى أعلم. كما جاء في قوله ﷺ: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ.

---

(١) إكمال المعلم ٣٢/٨.

مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتُنِبَ الْكَبَائِرُ))[١]، ومع ذلك فرحمة الله وسعت كل شيء، وفضله يعم كل ميت وحي.

وفتح أبواب الجنة في هذه اليومين محمول على ظاهره، ولا ضرورة تحوج إلى تأويله، ويكون فتحها تأهلاً، وانتظارًا من الخزنة لروح من يموت في ذينك اليومين ممن غفرت ذنوبه، أو يكون فتحها علامة للملائكة على أن الله تعالى غفر في ذينك اليومين للموحدين، والله تعالى أعلم. وهو حجة لأهل السنة على قولهم: إن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا، خلافًا للمبتدعة؛ الذين قالوا: إنهما لم تُخلقا بعد، وستخلقان. وعرض الأعمال المذكورة كما هو - والله تعالى أعلم -[٢]. ففتح أبواب الجنة يومين في الأسبوع يدل على فضل الله تعالى على عباه المؤمنين وصفحه عنهم رحمة منه تعالى.

ثانيًا - من أهداف الدعوة: تعبيد الناس لله تعالى وإخلاص العبودية له سبحانه:

يظهر ذلك في قوله ﷺ "فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا".

فهدف الدعوة إلى الله إفراد الله بالعبادة، وإخلاص العبودية له سبحانه، فلا يشرك معه في عبادته أحد، وهذا حقه تعالى على عباده، وبين هذا الحق رسول الله ﷺ فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ((بينا أنا رَديفُ النبي ﷺ ليس بيني وبينَه إلا آخرَة الرحل فقال: يا معاذُ، قلتُ: لبيكَ يا رسولَ اللّه وسعدَيك. ثم سارَ ساعةً، ثم قال: يا مُعاذ، قلتُ: لبيكَ رسول اللّهِ وسَعدَيكَ، ثم سارَ ساعة، ثم قال: يا معاذَ بن جَبل، قلتُ: لبيكَ رسولَ اللّه وسعدَيك. قال: هل تدري ما حق اللّهِ على عبادِه؟ قلتُ: اللّه ورسوله أعلم. قال: حق اللّهِ على عبادِهِ أن يَعبدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذَ بن جبل، قلت: لبيكَ رسول اللّه وسَعدَيك. قال: هل تدري ما حق العبادِ على اللّه إذا فعلوه؟ قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: حق العباد على اللّه أن لا يعذبَهم))[٣].

فقد بيّن الرسول ﷺ أن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا:

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٢) المفهم ٦/٥٣٩، ٥٤٠.

(٣) أخرجه البخاري ٥٩٦٧، ومسلم ٣٠.

كلمة جامعة لم تترك من الدين صغيرة ولا كبيرة. فعبادته الخضوع له والتذلل. وذلك بطاعته فيما أمر ونهى، فنؤمن برسوله، ونصدق كتابه، ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة، ونهذب نفوسنا ونصح أجسامنا بالصيام، ونحج البيت الحرام ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ونحسن عشرة الناس، ونصدق في معاملتهم، ونخالقهم بخلق حسن، ونقف عند ما شرع الله، لانتعدى حدوده، ونجانب كل ما نهى عنه من الخبائث مما هو اعتداء على النفس أو المال أو العرض أو إضرار بالخلق، وأساس ذلك علم بكتاب الله، وبما احتواه، وهذا بتلاوته وتدبره ودراسته وتفهمه. أما توحيده وعدم الإشراك به فأن نعتقد أنه وحده صاحب الخلق والأمر. وأن من دونه لا يملك ضرًا ولانفعًا إلا ما شاء الله.

فإذا تحقق ذلك من العباد، أي إذا هم عبدوه حق عبادته وأخلصوا له الدين، وأسلموك الوجوه، وعمروا القلوب بتوحيده، وطهروها من دنس الإشراك فكان حقهم على الله ألا يعذبهم[1].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: حث المؤمنين على إصلاح ذات بينهم والبعد عن الشحناء والخصومة:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتى يصطلحا" قال القرطبي: (ومقصود هذا الحديث التحذير من الإصرار على بغض المسلم ومقاطعته، وتحريم استدامة هجرته ومشاحنته، والأمر بمواصلته ومكارمته)[2]. فلا محيد عن وجود بعض الخصام والنزاع بين الإخوان، مما قد ينتج عنه بعض الشحناء والإحن بينهم، والموفق من الناس من جعله الله مصلحًا بين المتهاجرين أو المتخاصمين؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قال: صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))[3].

---

(١) انظر: الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٨٤.

(٢) المفهم ٦/٥٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٠٩، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢٠٣٧).

والشرع المطهر حريص على اجتماع الكلمة، وتوحيد الصفوف، وسلامة القلوب، وينهى عن الاختلاف والتباعد والمفارقة[١]. لذلك حث المؤمنين على إصلاح ذات بينهم، والبعد عن الشحناء والخصومة لما فيها من مضار ومساوئ.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[٢] وقال ﷺ: ((لا يحلُّ لرجلٍ أن يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاث ليال، يلتقيانِ فيُعرِض هذا ويُعرض هذا، وخيرُهما الذي يَبدأُ بالسلام))[٣] ويقول ﷺ: ((لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا، عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ ههُنَا. وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ: بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِم. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))[٤].

وفي الكتاب والسنة من الحث على هذا الأصل نصوص كثيرة تأمر بكل ما يقوي الألفة ويزيد في المحبة، ويدفع العداوة والبغضاء، وما ذاك إلا لما في الاجتماع والاتفاق من الخير الكثير، والثمرات الجليلة والبركة والقوة، ولما في ضده من ضد ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[٥] يعني تخبوا وتذهب روحكم الحقيقة ومعنويتكم النافعة، وقد جمع الله في هذه الآية الأمر بالسعي لتحصيل القوة المعنوية بالإيمان والثبات، والصبر والاجتماع وعدم التنازع والتفرق، أيها المسلمون: عليكم بلزوم ما حثكم عليه دينكم من المحبة والائتلاف، وإياكم والتفرق والاختلاف، عليكم بعمل جميع الأسباب المقربة للقلوب، وإياكم والعداوات والضغائن التي لا تكسب إلا شرًا، احذروا سماسرة الأعداء الذين يلقون بين المسلمين بذور العداوة والشقاق ويدعون أنهم مسلمون، وإنما هو غل ونفاق. المسلم هو الذي يسعى في جمع كلمة المسلمين

---

(١) كتاب الآداب، الشيخ فؤاد عبدالعزيز الشلهوب، ص ٢٤٠.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٧٧، ومسلم ٢٥٦٠.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٤٦.

واتفاقهم، ويحذر غاية التحذير من تدابرهم وافتراقهم، ما طمع الأعداء وتسلطوا إلا بسلاح الفرقة الفتاك، ولا استعمروا أقطاركم وسيطروا على مصالحكم إلا بعد ما انحلت معنويتكم التي هي الحصن الحصين، الواقية من الوقوع في الافتراق[١].

رابعًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث رغّب رسول الله ﷺ في إفراد الله بالعبادة وعدم إشراك أحد في عبادته، وكذلك رغّب في ترك الخصومة والشحناء بين الناس، وبيّن أن ثواب ذلك، فتح أبواب الجنة لهم، وعفو الله عنهم، وصفحه، وإكرامهم بالثواب الجزيل.

وأسلوب الترغيب يقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه. والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة[٢].

---

(١) الرياض الناضرة، السعدي، ص ٥٨-٦٠.

(٢) انظر: مستلزمات الدعوة، علي بن صالح المرشد، ص ١٦٠.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على اجتناب القيم السلبية:

من أهداف التربية الإسلامية اجتناب القيم السلبية التي تؤثر تأثيرًا مباشرًا على الصلات والعلاقات الاجتماعية، ولذا عنيت التربية الإسلامية بالنهي عن كل ما يؤثر على الروابط بين المسلمين، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر. قوله ﷺ: «لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا. وَكُونُوا. عِبَادَ اللّهِ إِخْوَانًا. وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ». فهذه توجيهات نبوية أراد النبي ﷺ تعميقها في نفوس الصحابة من خلال تعاملاتهم الحياتية مع الأخوة والهدف منها اجتناب القيم السلبية، التي يجب أن يترفع عنها الأصحاب لأنها تخالف الشرع والقيم، والإسلام يهدف إلى بناء مجتمع متماسك يعتز فيه الإنسان بعلاقته مع الآخرين على أساس الاحترام المتبادل والثقة الكاملة بين الأفراد، مما يجعله يمارس حياته بروح إيجابية ما يؤدي إلى سلبية الإنسان من حسد وقطيعة ودعا إلى ما يقوي العلاقات الاجتماعية ويوثق عرى المحبة[1].

ثانيًا: التربية بالتوجيه المباشر:

من أساليب التربية الإسلامية التوجيه المباشر، ومن الشواهد على ذلك في أحاديث باب النهي عن التباغض. قوله ﷺ وهو يوجه ويرشد أصحابه في حديث الباب قال: «...وكونوا عباد الله إخوانا....»، فهذا توجيه مباشر للصحابة رضي الله عنهم من الرسول ﷺ يحض فيه على الأخوة والتماسك، لأن تعاليم الإسلام تهدف إلى بناء مجتمع تقدم علاقات أفراده على المحبة والمودة والتآلف والرحمة والبعد عن الشقاق والاختلاف والعداوة والبغضاء التي تأتي من الهجر الطويل، ولقد أرسى النبي ﷺ دعائم الأخوة الحقة عندما أخى بيت المهاجرين والأنصار، فهذا عبدالرحمن بن عوف: أخى النبي ﷺ

---

(١) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم العمري، ص٢٠٤.

بينه وبين سعد بن الربيع من الأنصار، فعرض سعد بن الربيع على عبدالرحمن بن عوف المال وعرض عليه الزواج من إحدى زوجاته فلم يرض، فهذا نموذج من الصحابة امتثلوا فيه لتوجيهاته ﷺ في قوله: «وَكُونُوا. عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» فضربوا أروع الأمثلة في الأخوة الحقة التي نأخذ منها العبرة والمثل، ولقد نهى الله تعالى عن كل ما من شانه أن يؤثر سلبًا أو يضعف الوحدة والتماسك بين المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1]، فالله عز وجل ربّى ووَجَّه في هذه الآية على كل ما يقوي الوحدة والتآلف[2].

ثالثًا: التربية بالترغيب والترهيب:

من أساليب التربية الإسلامية الترغيب والترهيب، ولقد استخدم رسول الله ﷺ هذا الأسلوب في تربيته لأصحابه رضي الله عنهم نظرًا لشدة تأثيره في النفوس، ومن الشواهد التي تدل على الترغيب في أحاديث الباب قوله ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ. فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا.....»، فهذا ترغيب في الجنة من خلال بيان الأيام التي تفتح فيها وتعرض هذه الأيام على الله فيها الأعمال، وهذا الأسلوب مناسب لتشجيع الإنسان وتحريك دوافعه تجاه الخير وتنشيطها لنيل ما أعده الله لعباده المؤمنين، وفائدة الترغيب أنه يكفل استقامة النشء على طريق الإيمان ويدلهم على ما يجب عليهم في هذا السبيل، وهذا مما تميزت به التربية الإسلامية، لأنها هي الأساس والعنصر الذي يقوم عليه الإصلاح في المجتمع.

ومن الأساليب المفيدة في مجال التربية: الترهيب لما له من تأثير مباشر على النفوس على اختلافها، لأن الإنسان السوي لا يرضى أن يعرض نفسه لعقاب الله، أو أن يكون سببًا في عدم الحصول على الثواب والمغفرة من الله تعالى.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) انظر: تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢/١، التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، العمري، ص٢٥٢، فتح الباري، ٢٧٠/٧.

قال ﷺ في حديث الباب: «... فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا. إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ. فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا».

فهذا تصريح بالحرمان المؤقت من الجنة بسبب هذا الخصام والأمر في الحرمان لم يقف على ذلك بل الحرمان من المغفرة لأن الرسول ﷺ قال: «فَيغْفَرُ الله لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا. إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ»، والرسول ذكر الترهيب بعد الترغيب لعلمه أن الإنسان لديه القدرة على التمييز بين ما يضره وبين ما ينفعه، والرسول ذكر فائدة تربوية هنا كبيرة وهي: الاعتدال في استخدام الترغيب والترهيب وأن يوائم المربي بينهما فلا يغلب أحدهما على الآخر[1].

رابعًا: من أهداف التربية الإسلامية: إصلاح ذات البين:

من أهداف التربية الإسلامية إصلاح ذات البين، يستوحي ذلك من النواهي والأوامر الواردة في حديثي الباب: ومن الشواهد على ذلك في أحاديث الباب قوله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ»، وقال: «فَيغْفَرُ الله لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا. إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا».

فهذه توجيهات نبوية أراد النبي ﷺ منها تعميق وغرس فضيلة إصلاح ذات البين، بين الصحابة، لأن سلامة المجتمع من الخصومة والتقاطع تحقق توازنًا نفسيًا لدى الإنسان، وتعوده على حب الخير للمجتمع وتطلق عنان قوة الخير للنفس البشرية إلى أعلى قممها.

ولقد دعا الله عز وجل إلى عدم الخصام والقطعية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]. وقال ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ص٣٩٢، أصول التربية الإسلامية، د. محمد عزب، ص٣٦٢، تربية الأبناء والبنات، خالد العك، ص١٨٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»[١].

فهذه توجيهات من الله ورسوله تحث على كل ما يقوي الوحدة والتآلف بين المؤمنين وينهى عن الشقاق والهجر والفرقة، وهذا لن يحدث إلا بإزالة الشقاق والخصومة بين المسلمين[٢].



(١) سنن أبي داود، ٤٩١٩، ٥/٢١٨، الترمذي في سننه، ٢٥٠٩، ٤/٦٦٣، وقال صحيح.

(٢) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د. أكرم العمري، ص٢٥٢، وتربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٦٢.

٢٧٠- باب تحريم الحسد

وَهُوَ تمني زوالُ النعمة عن صاحبها، سواءٌ كَانَتْ نعمة دينٍ أَوْ دنيا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء: ٥٤] وفِيهِ حديثُ أنسٍ السابق في الباب قبلَهُ(١).

الحديث رقم (١٥٧١)

١٥٧١- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((**إيَّاكُمْ وَالحَسَدَ؛ فَإنَّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**)) أَوْ قَالَ: ((**العُشْبَ**)). رواه أَبُو داود(٢).

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يحذر من الحسد الذي يضيع على الإنسان عمله، ويشعل قلبه، ويصرفه من شكر الله إلى الاعتراض على قضائه وقول الرسول ﷺ (إيَّاكُمْ وَالحَسَدَ) أسلوب تحذير ينبيء بخطر ينطوي عليه هذا الخلق الذميم، ويلزم المؤمن أن يتبرأ منه وأن يقاومه في نفسه برد الأمر لله تعالى في تصريف مقادير العباد، وقوله (فَإنَّ الحَسَدَ يَأكُلُ الحَسَنَاتِ) جملة تعليلية للتحذير تحمل على التسليم المبني على القناعة والتعبير بالفعل (يأكل) على سبيل الاستعارة بتشبيه الحسد بالمفترس الذي يأتي على ما يستطيع تصويرا لخطر الحسد على العمل الصالح، وقوله (كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ) تشبيه آخر مركب على الأول يشبه شدة إهلاك الحسد للحسنات بإهلاك النار للحطب وفيه إشارة إلى تمام الهلاك وسرعة الإبادة، وفي الحديث ترهيب بليغ من هذا الخلق الذميم كما يفهم منه خطر الإنسان الحسود الذي يعيش بين الناس بسيئات دون

---

(١) انظر الحديث (١٥٦٩).

(٢) برقم (٤٩٠٣)، وقال البخاري في التاريخ الكبير (٢٧٢/١): لا يصحُّ.

حسنات عذاب بلا رحمة أعاذنا الله من خلق الحسد، ومن كيد الحاسدين .

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التحذير.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على سلامة القلوب من الحسد.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر الحسد على عمل الإنسان وحسناته.

رابعًا: من آداب الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين.

أولاً - من أساليب الدعوة: التحذير:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات...".

قال العظيم آبادي: (قوله ﷺ: "إياكم والحسد" أي: احذروا الحسد في مال أو جاه دنيوي، فإنه مذموم، بخلاف الغبطة في الأمر الأخروي "فإن الحسد يأكل الحسنات" أي يفني ويذهب طاعات الحاسد "كما تأكل النار الحطب" لأن الحسد يفضي بصاحبه إلى اغتياب المحسود ونحوه، فيذهب حسناته في عرض ذلك المحسود، فيزيد نعمة، على نعمة والحاسد حسرة على حسرة، فهو كما قال تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾[1])[2].

فأسلوب التحذير يستخدمه الداعية في تحذير المدعوين من الأشياء التي يترتب عليها الضرر لهم ولغيرهم.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على سلامة القلوب من الحسد:

هذا واضح من تحذير رسول الله ﷺ من الحسد، وذلك لأن هدف الدعوة إلى الله ألا يحسد الإنسان أخاه المسلم ويتمنى زوال ما لديه من النعم التي أنعم الله بها إليه أو إلى غيره، مالية كانت أو غيرها. فإن هذا ينافي خلق المؤمنين الذين يحبون لغيرهم ما

---

(١) سورة الحج، آية: ١١.

(٢) عون المعبود، ص ٢١١٣.

يحبون لأنفسهم، وقد نهى الله تعالى عن ذلك التمني بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١] وأمرنا بالتعوذ من شر الحاسد في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٢] والحسد مذموم وإن لم يقرن بسعي في سلب النعمة عن الغير[٣].

فإذا خطر للإنسان فعليه أن يجاهده، حتى لا يمكن من نفسه، ويكون سببًا في ضرره وضرر غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٤].

فإن من أعظم نعم الله تبارك وتعالى، أن يعيش الإنسان سليم القلب مبرأ عن الحسد.

وبذلك يحيا الإنسان ناصع الصفحة، راضيًا عن الله وعن الحياة وعن العباد، ومستريح النفس من نزعات الحقد ومن نزوات الحسد.

فإن فساد القلب بالضغائن والحسد، داء خطير، ومرض عضال، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من هذا القلب المريض.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا

---

(١) سورة النساء، آية: ٣٢.

(٢) سورة الفلق.

(٣) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٣٦.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.

(٥) سورة الحشر، آية: ٩.

تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وعن عبدالله بن عمرو قيل: ((يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلا بَغْيَ، وَلا غِلَّ، وَلا حَسَدَ))[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: ((لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا. وَكُونُوا. عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ))[٣].

إن سلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس، وإن عجز عن سوقه إليهم بيده، فإن ذلك من مكارم الأخلاق.

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يضمر للناس حسدًا ولا غلاً، لأن صدره قد امتلأ حبًا وسلامة للآخرين.

ثم إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرًا، وأكرم عاطفة من الذين امتلأت قلوبهم حقدًا وحسدًا على غيرهم.

فإن الحسد حمل ثقيل يتعب حامله، ويحمله الجاهل في صدره فيُشقي به نفسه ويفسد به فكره، ويشغل به باله، ويقض به مضجعه، ويكثر به همه وغمه.

إن الإنسان الحاسد، يشبه من يحمل على ظهره شوكًا ملتهبًا حارًا، يكوي نفسه ويشقي حاله ويدمي ظهره.

لذلك أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المنكر، وأن يسلكوا نهجًا أرقى وأهدأ.

إن لصاحب الصدر السليم من الحسد منزلة عالية في الدنيا والآخرة، وهذا ما رغب فيه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أنس بن مالك قال: ((كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف

---

(١) سورة الحشر، آية: ١٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٢١٦، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري ٦٠٦٤.

لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ: مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكدت أن أحقر عمله، قلت يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فاقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق))[1].

كما أن الإسلام حرم الحسد، وأمر الله رسوله ﷺ أن يستعيذ من شرور الحاسدين، لأن الحسد جمرة تتقد في الصدور، فتؤذي صاحبها وتؤذي الناس به.

والحسد من الرذائل الخلقية ذات النتائج النفسية والاجتماعية السيئة جدًا على الأفراد وعلى الجماعات، وهو داء فتاك إذا أصاب النفس الإنسانية أضناها وأشقاها، وجعلها مصدر أذى للآخرين، لذلك حث الإسلام على سلامة القلوب من الحسد[2].

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: خطر الحسد على عمل الإنسان وحسناته:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب".

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٦٦/٣ رقم ١٢٦٩٧ وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين ١٢٤/٢٠ - ١٢٥.

(٢) انظر: أخلاق المسلم وآدابه، د. بدر عبدالرزاق الماص، ص ١٠٥-١٠٧.

فالحسد خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو مضر بالبدن والدين، ومن أعظم الأسباب الموجبة للفرقة والاختلاف[1].

قال بعض السلف: (الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء) يعني حسد إبليس آدم عليه السلام[2].

والحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود -والعياذ بالله- كما قال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[4].

فالحسد اعتراض على قضاء الله وقدره. ولذا حذر النبي ﷺ منه وبين أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب، أو قال الحطب[5].

والحسد من الرذائل الخلقية أيضًا، وهو من أقبح الخصال التي تصيب الإنسان وتنكد له عيشه، فإن الحسود الذي يتمنى الشقاء والنحس لغيره، يُشقي نفسه أيضًا بهذا الحسد، فهو بدلاً من أن يستمد السرور مما أوتي من خير، نراه يستمد العذاب من الخير الذي أوتيه سواه.

وعصرنا الحاضر يقوم فيه الحسد بدور خطير ذي أهمية بالغة، فالفقير يحسد الغني، والنساء يحسدن الرجال، والقبيحات يحسدن الجميلات، وهكذا مما يجعل بعض الأمة يكره بعضها الآخر ويتمنون لهم الشقاء، فالحاسد خلقه اللؤم، ولذته الوشاية بين الناس والوقيعة والدس بينهم، فلا ينفك يدس للرجل الناجح حتى يشوّه سمعته لأجل أن يحل محله، أو يجعل منه إنسانًا فاشلاً مثله، فالحسود إنسان فقد الثقة

---

(١) انظر: سوء الخلق مظاهره - أسبابه - علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ٣٤، ٣٥.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص ٢٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٠٩.

(٤) سورة النساء، آية: ٥٤.

(٥) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين، ٢/١٦٦٥.

بنفسه واستشعر العجز عن تحقيق غاياته، لذلك نهى عنه الإسلام[1].

رابعًا - من آداب الداعية: الحرص على مصلحة المدعوين:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات..." فتحذير النبي ﷺ المسلمين من الحسد، وبيان أنه يأكل الحسنات، يدل على حرصه على مصلحتهم، وحرصه على بعدهم عما يضرهم.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية، لأن النصيحة ثمرة الإيمان، والإيمان يقتضي حب الخير للناس، والسعي بالقول والعمل قدر الاستطاعة، وبالتالي تتم الدعوة.

فحرص الداعية على خير المدعوين من شأنه أن يؤلف القلوب، ويجمع شتاتها ويجعلها تتفتح للخير إذا أراد الله لها الهداية[2].

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ص ٢٣٨.

(٢) انظر: النصيحة، الباز محمد عبدالفتاح الدميري، ص ٢٢١، ٢٢٢.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على عدم الحسد:

"إن الحسد من أقبح الخصال التي يجدر بالقائمين على التربية والتوجيه تنقية نفس المتربي منها، والعمل على عدم تكوينها بين جنباته وفكره، والحسد هو ظاهرة اجتماعية خطيرة تؤدي حتمًا إلى أسوأ النتائج وأخطر الآثار"[١].

"فالحسود الذي يتمنى الشقاء والنحس لغيره يُشقي نفسه أيضًا بهذا الحسد، فهو بدلاً من أن يستمد السرور مما أوتي من خير نراه يستمد العذاب من الخير الذي أوتيه سواه.

وقد انتشر الحسد في هذا العصر بصورة بغيضة، فالفقير يحسد الغني، والنساء يحسدون الرجال، والقبيحات يحسدن الجميلات، وهكذا مما يجعل بعض الأمة يكره بعضها الآخر ويتمنون لهم الشقاء، فالحاسد خلقه اللؤم، ولذته الوشاية بين الناس والوقيعة والدس بينهم، فلا ينفك يدس للرجل الناجح حتى يشوه سمعته لأجل أن يحل محله، أو يجعل منه إنسانًا فاشلاً مثله، فالحسود إنسان فقد الثقة بنفسه واستشعر العجز عن تحقيق غاياته"[٢]، لذلك نهى النبي ﷺ -كما ورد في حديث الباب- عن الحسد وذلك في قوله: «إياكم والحسد...إلخ».

والحاسد من الناحية التربوية يستحق الرثاء والشفقة مما يلاقيه من ألم، فحرى بالقائمين على التربية والتوجيه أن يبينوا مخاطر الحسد وآفاته الخطيرة المتعلقة بالحاسد نفسه، حيث يؤدي الحسد إلى تلاشي الحسنات فضلاً عن العيشة الضنك التي يعيشها الحاسد بسبب حالة الغليان الداخلي والحسرة والمرارة التي يجدها في نفسه بسبب حسده[٣].

وإذا نظرنا إلى علاج الحسد من بذور تكوينه في صورة النشء المسلم نقول: إنه قد لا تكون ظاهرة الحسد واضحة لأول وهلة بالنسبة للأهل، فيظنون أن أولادهم لا يتوقع

(١) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٤٢/١.

(٢) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٨.

(٣) انظر: روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٨، ٢٣٩.

منهم الحسد، ولا يشعرون به، ولا يقعون فيه... لذا وجب على كل من يقوم بمسؤولية التربية أن يعالج الحسد بالحكمة والتربية القويمة حتى لا يؤدي إلى مشاكل صعبة، ونتائج وخيمة، ومضاعفات نفسية أليمة.

والإسلام قد عالج ظاهرة الحسد بمبادئ تربوية حكيمة لو أخذ المربون بأسبابها اليوم لنشأ الأولاد على التوادد، والإيثار، والمحبة، والصفاء.. ولأضمروا كل تعاون، وخير، وتعاطف... بالنسبة للآخرين.

وكان من أبرزها:

١ - إشعار الطفل بالمحبة:

وهذا ما كان عليه الصلاة والسلام يفعله، ويأمر أصحابه به، ويحضهم عليه، ويراقب تنفيذه هنا وهناك، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: تقبلونَ الصبيانَ فما نُقبلهم، فقال النبيُّ ﷺ: أوَ أملك لك أن نَزعَ اللّهُ من قلبكَ الرحمة»[1].

٢ - تحقيق العدل بين الأولاد:

فمن المعروف بداهة أن المربين حين يسوون بين الأولاد في المعاملة، ويحققون العدل بينهم في العطاء تتلاشى ظاهرة الحسد في نفوسهم، وتزول آفات الضغائن والأحقاد من قلوبهم، بل يعيش الأبناء مع إخوتهم ومربيهم في تفاهم تام، ومحبة متبادلة، بل ترفرف على البيت أجنحة المودة، والإخلاص، والصفاء.....، فلا عجب أن نرى المعلم الأول، والمربي الأكبر صلوات الله وسلامه عليه، وهو يخص الآباء والمربين جميعًا على تحقيق مبدأ العدل بين الإخوة، بل كان ﷺ يستنكر كل الإنكار على الذين لا يحققون عدلاً ولا رحمة بين أولادهم، ولا يسوّون بينهم في القسمة والعطاء!!.

فعن النعمان بن البشير، أن أباه انطلق به إلى رسول الله ﷺ يحمله فقال يا رسول الله إني أشهدك أنى قد نحلت النعمان كذا وكذا فقال أكل ولدك نحلت قال لا قال

(١) أخرجه البخاري، ٥٩٩٨.

فأشهد غيري ثم قال أليس يسرك أن يكونوا في البر سواء قال بلى قال "فلا إذًا"[(١)(٢)].

وكان من أهم سُبل علاج الحسد في نفس الإنسان، "الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره، وأخذ النفس باللوم وقهرها بالندم حتى يحب الخير لغيره، كما يحبه لنفسه، ومما يساعد على إزالة هذا المرض: ذكر الله الدائم والخشية من لقائه وحسابه، وهذا يجعل الإنسان يحرص على إنجاء نفسه من عقاب الله، فالاتصال الدائم بالله يملأ القلب بالنور، ويشرح الصدر بالخير ويخرج الإنسان من ظلمة الحسد إلى نور حب الخير لإخوانه المسلمين"[(٣)].

ثانيًا: التربية بالترهيب:

"إن من الملاحظ أن طائفة من الناس لا يصلحهم الإقناع الفكري المجرد، ولا تكفي لإصلاحهم وسيلة الترغيب، وإن أنجح علاجات الإصلاح بالنسبة إليهم إنما هي وسيلة الترهيب، فهم يتأثرون بالمخاوف أكثر من تأثرهم بالمرغبات، وذلك لأنهم قد يكونون ممن يؤثرون اللذات العاجلة مهما كانت ضئيلة على الخيرات الآجلة مهما كانت جليلة، ومن أجل ذلك يضعف لديهم أثر الترغيبات بالثواب الجزيل على فعل الخيرات وترك الشر، لكنهم إذا ملئت المخاوف المحققة في نفوسهم تيقظوا وحذروا واستقاموا"[(٤)].

والرسول ﷺ الذي لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية اعتمد فيها الترهيب كأسلوب تربوي لتصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة، من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين والمقصرين[(٥)].

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه البخاري، في الأدب المفرد، ٩٢، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد، ٦٩).

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٣٤٤/١-٣٤٦.

(٣) انظر: السلوك الاجتماعي في الإسلام، الشيخ/حسن أيوب، ص٩١، نقلًا عن الشخصية ومنهج الإسلام في بنائها ورعايتها، د. ناصر عبدالله ناصر التركي، ٥٣٣.

(٤) انظر: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، الشيخ/عبدالرحمن حبنكة، ٢٥٥، ٢٥٦.

(٥) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥١.

٢٧١- باب النَّهي عن التجسُّس والتَّسَمُّع لكلام من يكره استماعه

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[الحجرات: ١٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٧٢)

١٥٧٢ - وعن أَبي هريرة ﵁: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: ((**إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، ولا تحسَّسوا وَلاَ تَجَسَّسُواوَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً**))[١].

((**كَمَا أمَرَكُمْ**))[٢].

((**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهُنَا التَّقْوَى هاهُنَا**[٣])) وَيُشيرُ إِلَى صَدْرِهِ[٤] ((**بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرْضُهُ، وَمَالُهُ**))[٥].

((**إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى أجْسَادِكُمْ، وَلاَ إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**))[٦].

((**واعْمَالِكُمْ**))[٧].

وَفِي رِوَايَةٍ: ((**لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً**))[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣/٢٨) واللفظ له، كلاهما من حديث مالك..

(٢) هذه الزيادة عند مسلم بعد حديث (٢٥٦٣/٣٠، بدون رقم).

(٣) عند مسلم مرّة واحدة.

(٤) عند مسلم زيادة: (ثلاث مرّات).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٢) من حديث أبي سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كريز.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٣) وزاد في آخره: (وأشار بأصبعه إلى صدره).

(٧) هذه الزيادة عند مسلم برقم (٢٥٦٤/٣٤).

(٨) أخرجها مسلم (٢٥٦٣/٣٠) من حديث الأعمش، عن أبي صالح.

وفي رواية: ((لاَ تَقَاطَعُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَاناً))[١].

وَفِي رِوَاية: ((وَلاَ تَهَاجَرُوا[٢] وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ))[٣]. رواه مسلم[٤] بكلّ هذِهِ الروايات، وروى البخاريُّ أكْثَرَهَا[٥].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

ولا تحسَّسوا: التحسس الاستماع لحديث القوم[٦].

ولا تجسسوا: التجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، وقيل: البحث عن العورات، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه، وقيل التجسس والتحسس بمعنى واحد تطلب معرفة الأخبار[٧].

ولا تنافسوا: الرغبة في الشيء، وفي الانفراد به[٨].

لا تدابروا: لا يُعط كلُّ واحد منكم أخاه دُبره وقفاه فيُعرض عنه ويهجره[٩].

لا تناجشوا: من النجش، وهو الزيادة في ثمن السلعة ولا يريد شراءها، ولكن ليغرر بغيره ليشتريها بالثمن المرتفع[١٠].

---

(١) أخرجها مسلم بعد حديث (٢٥٦٣/٣٠، بدون رقم) من حديث شعبة، عن الأعمش، وزاد في آخره: (كما أمركم الله).

(٢) عند مسلم زيادة: (ولا تدابروا، ولا تحسسوا) أسقطها المؤلف.

(٣) أخرجها مسلم (٢٥٦٣/٢٩) من حديث عبد العزيز، عن العلاء، وزاد في آخره: (وكونوا عبد الله إخوانا).

(٤) وانظر ما تقدم برقم ٢٣٥.

(٥) نقله المؤلف بهذه الصورة عن الجمع بين الصحيحين للحميدي (٢٢٨/٣ – ٢٣٠، رقم ٢٤٨٤). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٥١) أربع قطع منه.

(٦) النهاية في (ح س س).

(٧) النهاية في (ج س س).

(٨) النهاية في (ن ف س)، شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥٣٧.

(٩) النهاية في (د ب ر).

(١٠) انظر: معجم لغة الفقهاء ٤٤٥.

لا تهاجروا: والمراد النهي عن الهجرة ومقاطعة الكلام، وفي رواية ولا تهجروا بمعنى: لا تتكلموا بالهُجْر، وهو الكلام القبيح(١).

لا يخذله: من الخذل وهو ترك الإغاثة والنصرة(٢).

لا يحقره: لا يستهين به ولا يستصغره(٣).

الشرح الأدبي

تناول الرسول ﷺ بالتقويم في هذا الحديث برواياته المختلفة عدة أخطاء من شأنها - إن تركت - أن تنزع الثقة بين أفراد المجتمع وتبعث الريبة وتنمي الحقد والحسد والكراهية مما يفتت أمن المجتمع ويوهن قوته التي تتمثل في قوة أفراد وتماسكهم وترابطهم، كذلك تناول بالبيان علاقة المسلم بأخيه، وواجبه نحوه وأن يكون عند حسن ظنه فلا يخذله ولا يتكبر عليه، أيضاً بين الحديث برواياته، وأكد حرمة المسلم وما يتعلق به، ثم تطرق إلى قضية الإخلاص وثمّن غالياً نقاء السريرة ورفع قيمة التقوى حتى جعلها محل نظر الله في مقرها بالقلب لا بالظواهر، وقد استخدم لبيان هذه المعاني كثيراً من الألوان البلاغية في دقة وتناسق يشهدان بالعبقرية والتفرد منها:

١- بداية الحديث الأول بأسلوب التحذير حيث صدَّر بلفظ (إياكم) تعجيلاً بالإنذار، وإعلاناً لخطورة الخبر الأمر ولهذه اللفظة (إياك) ما ليس لغيرها من الإثارة والتنبيه واللفت والإيقاظ لما تعورف عليه في استعمالها في اللغة من كونها تتصدر الأمور الخطيرة والتي يتوقع من جهتها مكروه، والتعجيل بالإنذار المفهوم من هذه الصيغة مستفاد من بنائها على الإيجاز بحذف الفعل، والفاعل، لتكون علماً بذاتها على الخطر والمحذر منه هو الظن الذي علل له بقوله: (فإن الظن أكذب الحديث) حيث ربط

---

(١) شرح مسلم، النووي ١٥٧٣.

(٢) النهاية في (خ ذ ل).

(٣) المعجم الوسيط في (ح ق ر).

التحذير بما بعده بفاء السببية للإقناع ببيان العلة، فإذا علمنا أن بين الفاء والعلة حرف التوكيد (إن) رأينا جزماً بهذه العلة يقررها في الذهن وينفي عندها أي شك يمكن أن يحوم حولها، ولتأخذ طريقها في النفس دون عقبات أو اعتراضات[١].

٢- أساليب التوكيد ففي قوله: (فإن الظن أكذب الحديث) أكد الجملة بـ (إن) - كما ذكرنا سابقاً - مع اسمية الجملة ولعله تنزل المخاطبين منزلة المترددين لما رأي من استهانة الناس بخطر الظن؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ يستخدم أفعل التفضيل (أكذب) مبالغة في ذم الظن الذي لا يعتمد على سند فإن قيل الكذب من صفات الأقوال، والظن عمل نفسي يجاب بأن المراد به هنا عدم مطابقته للواقع سواء كان قولاً أم فعلاً[٢].

١- أسلوب النهي وقد ورد في عدة مواضع تقويماً لأخطاء متفرقة لا ينبغي أن يتلبس بها المسلم ومنها قوله (ولا تجسسوا) والتجسس تعرف الشيء من طريق الجس أي الاختبار باليد، والتجسس تعرفه من طريق الحواس ثم استعملا في البحث عن العورات وعيوب الناس[٣] والرسول ﷺ يريد من المؤمن أن يكون نقي القلب طاهر النفس مشغولاً بطاعة الله لا بعورات الناس لذلك جاء نهيه ﷺ عن مثل هذه الأمور حفاظاً على حال الفرد، والجماعة، كما ورد النهي في قوله: (ولا تحاسدوا) تقويماً لمرض نفسي خطير وتحصيناً للمؤمنين من شره لأن الحسد تمني زوال نعمة الغير ولا يصدر عن طهارة نفس أو سلامة قلب بل هو قرين نفس خبيثة وإنسان حقود، وقوله: (ولا تناجشوا) هو تفاعل من النجش قال أبو عبيدة: هو أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، ولكن ليسمعه غيره فيزيد، والنجش في الحديث إذاعته، واستخراج الشيء والبحث عنه[٤]. وعلى ذلك فنهى الرسول ﷺ عن التناجش من باب تطهير المجتمع من

---

(١) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ١٦٥.

(٢) انظر: عمدة القاري ١٥/ ٢١٨.

(٣) انظر: عمدة القاري ١٥ ٢١٨.

(٤) لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٤٣٥٣، مادة "نجش".

كل ما من شأنه أن يحدث الشقاق والخصام المؤدى إلى القطيعة؛ لأن النجش بهذه المعاني لا يخلو من الخداع والمخاتلة، التي توغل الصدور وتنمى الكراهية بين المتناجشين، ومن ثم ورد نهي الرسول ﷺ عن هذا الفعل نهياً صريحاً معطوفاً على ما قبله وهو جملة :(ولا تحاسدوا) بالواو المؤذنة بالمغايرة مع تكرار حرف النهى(لا) مع جملة (ولا تناجشوا) إشارة إلى استقلالية كلٍ منهما بحكم النهي ولاختلاف الفعلين إذ الأول (الحسد) من أفعال القلوب، والثاني (التناجش) من أفعال الجوارح.، وهو بهذا النهي ينقى المجتمع المسلم من تبعات الخديعة إذا فسرنا التناجش بمعنى أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها خداعاً لغيره.، وورد في قوله: (ولا تباغضوا ولا تدابروا) والتدابر كناية عن صفة القطيعة والإعراض والهجران وأصل التدابر أن يعرض كل شخص عن أخيه بوجهه ويوليه ظهره فاستخدم للمتهاجرين وسمى الإعراض الذي هو لازم التدابر تدابراً كناية عن صفة الإعراض والهجر وفائدة الكناية أنه أثبتت الفعل بدليله وبينته وهي التدابر.

والمتأمل لهذه النواهي المتتابعة وسر عطفها بالواو على بعضها يجد أنها متصلة من عدة وجوه:

(أ) كونها مشتركة في صفة سوء الخلق ولا تجتمع إلا في موصوف سيئ الملكة.

(ب) كون كل صفة من هذه الصفات تؤدي إلى ما بعدها فالظن السيئ المنهي عنه ضمنياً بأسلوب التحذير يؤدي إلى التجسس والتجسس يؤدي إلى التحسس وكلاهما يؤدي إلى التباغض والتباغض يؤدي إلى التدابر الذي هو الهجر والإعراض والقطيعة التي يحاربها الرسول ﷺ بكل صورها.

(جـ) اتفاق هذه النواهي في الأسلوب وزمن الفعل الخاص (الماضي) علاوة على الاتفاق في المسند إليه مما حسَّن الوصل بينها.

(د) يفهم من النهي عن هذه الصفات السيئة الأمر بالتخلق بأضدادها فالرسول ﷺ إذ ينهى عن سوء الظن والتجسس والقطيعة بأمر ضمناً بحسن الظن وبناء الثقة والتواصل والتراحم.

٤- أسلوب الأمر وهو من الأساليب البلاغية التي استخدمها الرسول ﷺ لتقويم الأخطاء وقد ورد الأمر في قوله ﷺ (وكونوا عباد الله إخواناً) وأمر الرسول ﷺ بالكينونة أمر ندب واستحباب أي كونوا كأخوة النسب والغرض من هذا الأمر أن يكون الشعور بين المسلمين كالشعور بين أفراد الأسرة الواحدة يسعى كل فرد لتحقيق مصلحة أخيه ودفع الضر عنه.

تجد هذا الشعور الحنون متطابقاً عملياً في نسق وتركيب العبارة النبوية (وكونوا عباد الله إخواناً) فالأمر دعوة خير للترابط والاتحاد و(واو) الجماعة شاهدة بذلك ثم حذف أداة النداء من هذا النداء الحنون إيذاناً بالقرب وإمعاناً في التقرب لدرجة لا يحتاج معها لمد الصوت وكأنه إذ يحدث صحابته من حوله، وإخوانه من بعده - يحدث نفسه حباً وكرامة، ثم إن هذا النداء نداء تكريم وتشريف يدلك على ذلك إضافة العباد لله بعد التعبير بلفظ العباد دون لفظ العبيد والإضافة مع دلالتها على التكريم والتشريف تنادي بضرورة رعاية حق العبودية من اجتناب للنواهي وتنفيذ للأوامر كما أمر رسول المعبود.

٥- المجاز المرسل وقد ورد في إطار تقويم الخطأ ببيان مدى قبح الظن وذلك في قوله: (فإن الظن أكذب الحديث) فالظن وهو عمل سيء عبر عنه الرسول ﷺ بأنه أكذب الحديث والحديث قول فقد أطلق السبب وهو الظن وأراد المسبب وهو الحديث الكاذب الناتج عن سوء الظن على سبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية.

٦- استخدام أسلوب النقي بياناً لأخلاق يجب أن يتبرأ منها المسلم وذلك في قوله: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله،ولا يحقره) وجاءت هذه الأفعال منفية على سبيل الإخبار بالنهي عن هذه الأفعال التي تنافي الأخوة وتأثر سلباً على العلاقات بين المسلمين لأنها من دواعي القطيعة والعداوة والبغضاء.

٧- أساليب الفصل والوصل وهي من الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ في تقرير المعاني التي أرادها في تقويم هذه الأخطاء على وجه ينبئ عن اتصال المعاني في نفسه وبثها إلى المخاطب بنفس الاتصال وفي حال الفصل بين الجمل قررت استقلالية

الحكم إشارة لأهمية الخبر وتنوع القضايا والأخطاء المتناولة بالتقويم واختلاف أساليبها تبعاً لذلك.

فقد وصل بين الجمل في قوله: (ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً) لوجود المناسبة التامة مع نوع من التغاير في المني عنه حقق المغايرة التي تقتضي العطف بالواو، وكذا في عطف الجمل في قوله (لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره)، أما الفصل فقد فصل جملة (المسلم أخو المسلم) عن التي قبلها وهي جملة (كونوا عباد الله إخوانا) فلأن بين الجملتين تبايناً تاماً لأن الأولى إنشائية لفظاً ومعنى، والثانية خبرية لفظاً ومعنى، وهو ما يسمى بكمال الانقطاع بلا إيهام.

أما الفصل بين جملة (بحسب امرئ من الشر أن يحقر) عن التي قبلها وهي قوله (ولا يحقره...) فلكمال الاتصال لأن الثانية نزلت من الأولى منزلة التوكيد المعنوي لأن جملة(بحسب امرئ. ..) في مضمونها النهي والتحذير عن احتقار المسلم لأخيه لكونه شراً عظيماً ومقتضى النفي في الجملة (ولا يحقره) كونه شراً أيضاً ولذلك نفاه الرسول ﷺ عن الأخلاق التي يجب أن يتصف بها المسلم وبذلك صارت كالتوكيد المعنوي لها أن يتصف بها المسلم وبذلك صارت كالتوكيد المعنوي لها مما اقتضى ترك العطف بالواو ولقوة الصلة المؤذنة بهذا الترك.

وفصل بين جملة (كل المسلم على المسلم حرام) عن الجملة (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه) لتنزيل الثانية من الأولى منزلة الجواب عن سؤال اقتضته الأولى؛ كأنه لما قال: (بحسب امرئ من الشر. ..) نتج سؤال مفاده: لماذا كان احتقار المسلم أخيه بهذه المثابة من الهلكة، فجاءت الثانية إجابة عليه، لأن كل المسلم على المسلم حرام) وهو ما يسمى بالفصل لشبه كمال الاتصال. (وتنزيل السؤال بفحواه منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة؛ إما لتنبيه السامع على موقع، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامه بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو

تقدير السؤال)[1] وتقدير السؤال هنا لتنبيه السامع إلى خطر احتقار أخيه المسلم مع وفرة من إيجازه واستمرارية للكلام حتى بلوغ المعنى المقصود وتقريره.

وفصل بين جملة (كل المسلم على المسلم حرام) والتي بعدها وهي قوله: (دمه وماله وعرضه) لنزول الثانية منزلة البدل من المبدل منه من الأولى، وهي إحدى صور الفصل لكمال الاتصال، وفصل بين جملة: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم) والتي قبلها وهي جملة: (دمه وماله وعرضه) لفقدان الجهة الجامعة بينهما والتي تسوغ العطف وهو ما يسمى بالفصل لكمال الانقطاع، وهو نفس المسوغ لفصل جملة (التقوى ههنا) عن جملة (إن الله لا ينظر إلى صوركم)، أما فصل الجملتين المكررتين (التقوى ههنا) كل منهما عن التي قبلها فلنزول كل منهما من التي قبلها منزلة التوكيد اللفظي وهو إحدى صور الفصل لكمال الاتصال المؤذن بقوة الصلة.

٨- التتميم حيث أتبع الرسول ﷺ نواهيه بما يتمم معناها ويضيف إليها في قوله بعدها: (وكونوا عباد الله إخوانا) فأكدت دلالة سابقتها وأفادت ضرورة التآخي بكل من يستوجبه هذا المعنى من اجتناب ما سبق النهي عنه من سيء الأخلاق والتخلق ما يجب وفاءً بحقوق الأخوة.

٩- مراعاة النظير ويسمى التناسب والتوفيق وهو الجمع بين أمر وما يناسبه وقد ورد في الحديث مستدعى من المعنى ينتقل بين جزئياته انتقالاً يسيراً صعوداً في الموضوع والبيان كدرجات السلم. فهناك مراعاة النظير بين (الظن والتجسس والتحسس، والتحاسد والتدابر، والتباغض فهذه الأمور مع اقترانها في الذهن واندراجها في سلك الأخلاق السيئة الذي يجمعها جميعاً تعتبر كمقدمات لنتيجة هي القطيعة بين أفراد المجتمع المسلم ومن ثم نظمها الرسول ﷺ في سلك النهي جميعاً.

١٠- التفصيل بعد الإجمال ففي قوله: (المسلم أخو المسلم) إجمال فصّله بقوله: (لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره) وهو من وسائل التشويق والإثارة مع ما يحققه من تأكيد المعنى ويثبته بذكره مجملاً ثم تفصيله.

---

(١) مفتاح العلوم، للسكاكي ص ٢٥٢.

١١- ذكر الخاص بعد العام حيث ذكر في قوله (دمه، وماله، وعرضه) هذه الثلاثة خاصة فيما يتعلق بحرمات المسلم بعد أن حرَّم كل ما يتعلق به في قوله: (كل المسلم على المسلم حرام) عناية بهذه الأمور وتنبيهاً على عظم جرم انتهاكها.

١٢- حسن التقسيم في قوله: (دمه وماله وعرضه) بعد قوله: (كل المسلم على المسلم حرام) حيث استوفى أقسام المحرم ولم يترك منها شيئاً حيث أن أكثر ما يتعلق بالمسلم يندرج تحت هذه الأقسام.

١٣- المقابلة التي تؤكد المعنى وتقرره ففي قوله: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم) مقابلة لقوله: (ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) حيث قابل بين الأجساد والقلوب وبين الصور والأعمال وهذه المقابلة تؤكد أن القلب الطاهر والعمل الخالص هما موضع نظر الرب ومنزل رحمته وأن الصور والهيئات دونها لا وزن لها.

وهذه المقابلة في إطار تقويم الخطأ يجعل كل مخاطب يبحث في نفسه ويحاول تطهير قلبه وإخلاص عمله لعله أن يحظى بنظر ربه.

١٤-الجناس وهو في قوله: (لا تجسسوا ،ولا تجسسوا وهو جناس ناقص حيث اختلفت اللفظتين في المعنى واتفقتا في أكثر حروفهما، وهذا الجناس في إطار تقويم الخطأ يحدث نوعاً من اجتذاب السمع والتنبيه مع تأكيد المعاني حيث أن السامع بادئ الأمر يظن أنه تكرار للكلمة نفسها وسرعان ما يتنبه إلى اختلافهما مما يثبت معنى الأولى ويؤكد الثانية، قال أبو موسى: (إنما استحسن لأن الكلمة الثانية لما كانت في صورة الكلمة الأولى توهم المخاطب أن القائل لم يزده بها فائدة فإذا رجع وأدرك معناها المغاير كان يكون قد حصل على الفائدة من غير أن يتوقعها، وجدها حيث لا يرجو وجودها وكانت كالنعمة المفاجئة. .. وهذه الحالة النفسية التي يحدثها الجناس عند من تخاطبه هي فائدته وهي وجه حسنه)[1].

١٥- السجع المطبوع (وهو موالاة الكلام على وزن واحد)[2] أو تواطؤ الفاصلتين من

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د. محمد محمد أبو موسى ص ١٢١.

(٢) إعجاز القرآن، للقاضي: أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح ابن محمد بن عويضة ص ٤٨.

النثر على حرف واحد[١] وهو معنى قول السكاكي: (وورد في الحديث عفوياً خدمة للمعنى في قوله (ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا) حيث اتفقت الجمل الأربع في تواطؤ فواصلها وكذلك قوله (لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره) وهو في إطار خدمة المعاني وتقويم الأخطاء يحقق الخفة على السمعة واللذة في النطق وتيسير الحفظ وسهولة نقله وتبليغه.

١٦- التكرار اللفظي لقوله (التقوى ههنا) وهذا التكرار مع ما سبق يؤكد المعنى ويقرره ويصعِّد الشعور به ويضمن له الثبوت والدوام والتكرار من وسائل التشويق والتنبيه إلى مواضع العناية والتأكيد على أن مركز صلاح الإنسان في قلبه حيث تستقر التقوى فترتفع به عن مستوى الشهوات، والشبهات وتطهر قلبه من أمراض النفس التي سبق ذكرها في الحديث وغيرها، ولا ننسى - إذ ننسى - دور الإشارة الحسية التي أكدت المعنى تأكيداً حسياً يدرك بالبصر المصاحب للقول المدرك بالسمع حيث أشار إلى صدره لحظة قوله: (التقوى ههنا) نضيف إلى ذلك الظرف المقيد للمكان المسبوق بهاء التنبيه متغلغلة بالتقوى في بواطن القلوب كتغلغل هاءات الرسول الست خارجة من أعماق صدره هاء إشارة وتنبيه وهاء ظرف خرجتا لفظاً من أقصى حلقه وخرجتا معنى من أعماق قلبه[٢].

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١- اشتمل الحديث على أمور نهى عنها الشارع وهي الظن، والتحسس والتجسس والتنافس، والتحاسد، والتباغض، والتدابر وغيرها[٣].

٢- في الحديث إخبار بتحريم الدماء، والأموال، والأعراض وهو معلوم من الشرع علماً قطعياً[٤].

---

(١) التبيان في علم المعاني والبيان والبديع للطيبي ص٥٠٢.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري، ٥٠.

(٣) انظر: سبل السلام ٩٧٢ – ٩٧٣ ط بيت الأفكار الدولية.

(٤) سبل السلام ٩٧٣ ط بيت الأفكار.

٣- حكم البيع على بيع الغير: أجمع الفقهاء[١] على تحريم البيع على بيع أخيه، والشراء على شرائه، والسوم على سومه فلو خالف فهو عاصٍ، ولكنهم اختلفوا في صحة العقد إذا وقع. فذهب جمهور الفقهاء الحنفية، ورواية للإمام مالك، والشافعية إلى صحة البيع، لأن النهي وارد على أمر خارج عن العقد[٢].

وذهب الإمام مالك في رواية[٣] والحنابلة وداود وأصحابه إلى بطلان البيع لأنه منهي عنه والنهي يقتضي الفساد[٤].

الراجح هو رأي جمهور الفقهاء.

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن سوء الظن.

ثانياً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التجسس والتسمع لكلام من يكره استماعه.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التنافس في الدنيا.

رابعاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن التهاجر.

خامساً: من موضوعات الدعوة: نشر التوادّ والتحاب بين المدعوين.

أولاً - من موضوعات الدعوة: النهي عن سوء الظن:

هذا واضح من قوله ﷺ: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث"، قال

---

(١) بدائع الصنائع ٢٣٢/٥، الجوهرة النيرة ٢٠٦/١، المنتقى شرح الموطأ ١٠٠/٥-١٠١، بداية المجتهد ١٣٣/٢، مغني المحتاج ٢٩٠/٢-٢٩١، حاشية الجمل ٨٩/٣-٩٠، المغني ١٤٩/٤-١٥٠، مطالب أولي النهى ٥٥/٣، شرح صحيح مسلم ١٥٩/١٠.

(٢) بدائع الصنائع ٢٣٢/٥، الجوهرة النيرة ٢٠٦/١، المنتقى شرح الموطأ ١٠٠/٥، ١٠١، بداية المجتهد ١٣٣/٢، مغني المحتاج ٢٨٠/٢، حاشية الجمل ٨٥/٣.

(٣) أنكر ابن الماجشون ذلك في البيع وقال إنما قال ذلك مالك في النكاح، بداية المجتهد ١٣٣/٢.

(٤) بداية المجتهد ١٣٣/٢، المنتقى ١٠٠/٥، ١٠١، المغني ١٤٩/٤-١٥٠، مطالب أولي النهى ٥٥/٣.

(٥) تقدمت معظم روايات هذا الحديث في الأحاديث رقم (٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥) وفيه بعض الزيادات التي يمكن شرحها دعويًا على النحو الوارد في المضامين المذكورة بعاليه.

النووي: "المراد: النهي عن ظن السوء، قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس، فإن ذلك لا يملك، ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر. فإن هذا لا يكلف به كما في حديث "تجاوز الله تعالى عمّا تحدثت به الأمة ما لم تتكلم أو تعْمد"[١][٢].

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا﴾[٣].

قال ابن كثير: "يقول الله تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محلّه، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليتجنب كثير منه احتياطاً. وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً"[٤][٥].

وقال أبو عبدالله القرطبي: "قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله بعد هذا: "ولا تجسسوا"، وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويتسمع ليحقق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك[٦].

وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عمّا سواها: أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر، كان حراماً واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأُونست منه الأمانة في الظاهر، فظَنّ الفساد به والخيانة محرّم، بخلاف من اشتهره الناس تبعاً في الريب والمجاهرة بالخبائث.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٢٨، ٥٢٦٩، ٦٦٦٤ ومسلم ١٢٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: "إن الله تجاوز لأمتي عمّا وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم" هذا لفظ للبخاري.

(٢) شرح مسلم مج٨/ج١٦/١٢٠ ط دار عالم الكتب.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد ١٠٩/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٥/١٣، ط دار عالم الكتب.

(٦) هذا كلام شيخه أبي العباس القرطبي في المفهم ٥٣٤/٦.

وعن النبي ﷺ: "إن الله حرّم من المسلم دمه وعرضه، وأن يظن به ظن السوء"(١).

وعن الحسن: كنا في زمنٍ الظّنُ بالناسِ فيه حرام، وأنت اليوم اعمل واسكُت وظن في الناس ما شئت أهـ.

وللظن حالتان: حالة تعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة، فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبينة على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد، وغير ذلك من قيم المتلفات وأرُوش الجنايات.

والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفاً"(٢).

وقال عبدالله البسام: "الظن هو ما يخطر بالنفس من تجويز الأمور المحتملة للصحة والبطلان، فيحكم بهذا الظن الذي لم يُبْن على قرائن قوية وأمارات صحيحة، ويعتمد عليه ويجرى عليه أحكام الحقائق الواقعة، وهذا هو الذي حذر منه هذا الحديث الشريف - إياكم والظن - وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٣). قال المفسرون: هو أن يظن بأهل الخير سوءاً، فالظن القبيح عمن ظاهره الخير لا يجوز، وهو المراد بقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وإنما كان الظن أكذب الحديث لأن الكذب مخالفة الواقع من غير استناد إلى أمارة"(٤).

ثانياً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التجسس والتسمع لكلام من يكره استماعه:

ذلك واضح من قوله ﷺ: "ولا تحسسوا ولا تجسسوا"، قال ابن كثير: "التجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٩٣٢ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وأطيب ريحك. ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٤٤١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٩/٣٩٦-٣٩٨، ط الرسالة.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢ .

(٤) توضيح الأحكام، ٦/٣١٨.

قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾[(١)]. وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا"[(٢)].

وقال النووي: "قال بعض العلماء: التحسس بالحاء: الاستماع لحديث القوم، وبالجيم البحث عن العورات، وقيل بالجيم: التفتيش عن بواطن الأمور. وأكثر ما يقال في الشر والجاسوس: صاحب سرّ الشر. والناموس: صاحب سرّ الخير. وقيل بالجيم: أن تطلبه لغيرك. وبالحاء: أن تطلبه لنفسك. قاله ثعلب. وقيل: هما بمعنى وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال"[(٣)]. وقال ابن عبدالبر: "هما لفظتان معناهما واحد، وهو البحث والتطلب لمعايب الناس ومساوئهم إذا غابت واستترت"[(٤)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[(٥)]. قال أبو عبدالله القرطبي: "ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله"[(٦)].

لذا فإن "التجسس على المسلمين في الأصل حرام منهي عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾؛ لأن فيه تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه"[(٧)]. وقد قال ﷺ: "يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتهم، فإنه من اتَّبَعَ عوراتهم يَتَّبِع الله عَوْرَتَه، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"[(٨)].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٥٨/١٣، ط دار عالم الكتب.

(٣) شرح صحيح مسلم مج٨/ج١٦/١٢٠-١٢١، ط دار عالم الكتب، وانظر تفسير القرطبي ٣٩٩/١٩.

(٤) التمهيد ١١٠/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٢ .

(٦) تفسير القرطبي ٣٩٩/١٩.

(٧) الموسوعة الفقهية ١٦٢/١٠.

(٨) أخرجه أبو داود ٤٨٨٠، وصححه الألباني، وصحيح سنن أبي داود ٤٠٨٣.

قال عبدالرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت، بَابُه مجاف على قوم، لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شَرْب[1]، فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم[2].

وقال أبو قلابة: حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو مِحْجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه[3].

ثالثاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التنافس في الدنيا:

هذا واضح من قوله ﷺ: "ولا تنافسوا" قال النووي: "أما المنافسة والتنافس فمعناهما الرغبة في الشيء وفي الانفراد به، ونافسته منافسة: إذا رغبت فيما رغب فيه. وقيل: معنى الحديث: التباري في الرغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها"[4].

وقال ابن عبدالبر: "المراد التنافس في الدنيا، ومعناه: طلب الظهور فيها على أصحابها، والتكبر عليهم، ومنافستهم في رئاستهم، والبغي عليهم، وحسدهم على ما آتاهم الله منها. وأما التنافس والحسد على الخير وطرق البرّ فليس من هذا في شيء"[5].

وإنما حذّر النبي ﷺ من التنافس في الدنيا لأنها قد تجر إلى الهلاك في الدين، فقال ﷺ: "فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم"[6].

---

(١) الشرْب بفتح الشين: القوم يشربون، القاموس المحيط في (ش ر ب).

(٢) أخرجه عبدالرزاق ١٨٩٤٣، والحاكم ٣٧٧/٤ والبيهقي ٣٣٣/٨، وصححه الحاكم.

(٣) أخرجه عبدالرزاق ١٨٩٤٤.

(٤) شرح مسلم مج٨/١٦/١٢١ ط دار عالم الكتب.

(٥) التمهيد ١١٢/٢٢ موسوعة شروح الموطأ.

(٦) أخرجه البخاري ٣١٥٨، ومسلم ٢٩٦١.

قال ابن حجر: "فيه أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين"(١).

وقال ابن حجر كذلك: "التنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه.... والمال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتمنع منه، فتقع العداوة المفضية إلى الهلاك"(٢).

وقال ﷺ: "تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض"(٣).

قال النووي: "قال العلماء: التنافس إلى الشيء المسابقة إليه وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد"(٤).

وقال ابن حجر: "وفيه إشارة إلى أن كلّ خصلة من المذكورات مسبَّبة عن التي قبلها"(٥).

رابعاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن التهاجر:

ذلك واضح من قوله ﷺ: "ولا تهاجروا"

قال النووي: "قوله: "لا تهجَّرو" كذا هو في معظم النسخ، وفي بعضها "تهاجروا" وهما بمعنى، والمراد: النهي عن الهجرة ومقاطعة الكلام.

وقيل: يجوز أن يكون "لا تهاجروا" أي لا تتكلموا بالهُجْر بضم الهاء، وهو الكلام القبيح"(٦).

قلت: إذا كان المعنى النهي عن الهجرة ومقاطعة الكلام فسيأتي ذلك مفصلاً في باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام إلا لبدعة في المهجور أو تظاهر بفسق أو نحو ذلك.

---

(١) فتح الباري ١٤٩٣/٢ ط بيت الأفكار شرح الحديث ٣١٥٨.

(٢) فتح الباري ٢٨١٧/٣ ط بيت الأفكار شرح الحديث ٦٤٢٥.

(٣) أخرجه مسلم ٢٩٦٢.

(٤) شرح مسلم مج٩/١٨/٩٢-٩٣ ط دار عالم الكتب.

(٥) فتح الباري ١٤٩٣/٢ ط بيت الأفكار الدولية، شرح الحديث ٣١٥٨.

(٦) شرح صحيح مسلم مج٩/ج١٨/١٢١ ط دار عالم الكتب.

وإمّا إذا كان المعنى النهي عن الكلام القبيح فقد تقدم في باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابّة، كما سيأتي في باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان.

خامساً- من موضوعات الدعوة: نشر التوادّ والتحاب بين المدعوين:

هذا واضح من الحديث برواياته، قال ابن عبدالبر: "لا يحلّ التباغض، لأن التباغض مفسدة للدين حالقة له، ولهذا أمر رسول الله ﷺ بالتوادّ والتحابّ حتى قال: "تهادوا تحابوا"[(١)].

وروى مالك[(٢)] عن يحيى بن سعد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: "ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال صلاح ذات البين، إياكم والبغضة فإنها هي الحالقة، وكذلك لا يحلّ التدابر، والتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحو هذا. وإنما قيل للإعراض: تدابر، لأن من أبغضته أعرضت عنه، ومن أعرضت عنه وليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببته أقبلت عليه وواجهته لتسرّه ويسرّك، فمعنى تدابروا وتقاطعوا وتباغضوا معنى متداخل متقارب، كالمعنى الواحد في الندب إلى التواخي والتحابّ، فبذلك أمر رسول الله ﷺ في معنى هذا الحديث وغيره، وأمرُ رسول الله ﷺ على الوجوب، حتى يأتي دليل يخرجه إلى معنى الندب"[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٥٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وإسناده حسن قاله الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/٧٠.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ١٧٤١ موسوعة شروح الموطأ.

(٣) التمهيد ٢٢/٩٧-٩٨ موسوعة شروح الموطأ.

الحديث رقم (١٥٧٣)

١٥٧٣- وعن معاوية رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: ((إنَّكَ إنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ أفْسَدْتَهُمْ، أَوْ: كِدْتَ أنْ تُفْسِدَهُمْ)). حديث صحيح، رواه أَبُو داود[1] بإسناد صحيح.

ترجمة الراوي:

معاوية بن أبي سفيان: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨١١).

غريب الألفاظ:

عورات: جمع عورة، وهي كل ما يستحي منه الإنسان إذا ظهر[2].

الشرح الأدبي

قول معاوية رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يؤكد الخبر لأنه تلقّاه من فم الرسول ﷺ مباشرة دون واسطة، وقول الرسول ﷺ (إنَّكَ إنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ أفْسَدْتَهُمْ) أسلوب خبري مؤكد تعظيما له تلاه أسلوب الشرط الذي يربط تتبع عورات الناس بإفسادهم يوجد بوجوده، وينتفي بانتفائه، والتعبير بالتتبع يوحي بالتخفي، والتستر، والريبة، والعورات جمع عورة قال الطيبي العورة سوأة الإنسان وأصلها من العار وذلك كناية لما يلحق في ظهوره من عار المذمة ويستحى منه إذا ظهر ولذلك سمى النساء عورة ومن ذلك العوراء للكلمة القبيحة) وإضافة العورات للمسلمين تزيد التنفير من الفعل لأنهم أولى بالستر والحفظ من غيرهم وقوله (أفسدتهم) جواب الشرط أي أوقعتهم في الفساد (أو كدت) أي قاربت أن (تفسدهم) لوقوع بعضهم في بعض بنحو غيبة أو لحصول تهمة لا أصل لها أو هتك عرض ذوي الهيئات المأمور بإقالة عثراتهم وقد يترتب على التفتيش من المفاسد ما يربو على تلك المفسدة التي يراد إزالتها والحاصل أن الشارع ناظر إلى الستر مهما أمكن.

---

(١) برقم (٤٨٨٨). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٧٦٠). أورده المنذري في ترغيبه (٣٤٥٠).

(٢) النهاية في (ع و ر).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: التوكيد.

ثانياً: من أهداف الدعوة: الحفاظ على عورات المسلمين ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم.

ثالثاً: من موضوعات الدعوة: البعد عن التجسس وبيان مضاره الاجتماعية.

أولاً - من أساليب الدعوة: التوكيد:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم"، حيث أكد ﷺ على أن من يتبع عورات الناس يكون سبباً في إفسادهم. وأسلوب التوكيد من أساليب الدعوة التي يستخدمها الداعية في تأكيد الحقائق للمدعوين، وضرورة امتثالهم لهذه الحقائق.

ثانياً - من أهداف الدعوة: الحفاظ على عورات المسلمين ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم:

يستنبط هذا من عموم الحديث، حيث بيّن رسول الله ﷺ أن تتبع عورات الناس يكون سبباً في إفسادهم، والشريعة الإسلامية دعت إلى الحفاظ على عورات المسلمين ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قال السعدي: يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ حيث قال: "إنما الاستئذان من أجل البصر"[2]، فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده[3]،

---

(١) سورة النور، آية: ٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود، ٥١٧٤، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود، ٤٣١٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥١٤.

وهـذا يـدل علـى الحـرص علـى الحفـاظ علـى حرمـة مـساكن المـسلمين ومراعـاة خصوصياتهم والمجتمع الذي يغلب عليه الطهر، لا يطفح فيه من الأخبار إلا ما كان طاهراً وعفيفاً، ويبقى المسر بالمعصية مستوراً بستر الله عليه، إلى أن يتوب، ويستره المؤمنون، لئلا يتجاسر على الجهر بها أو الإصرار عليها، وليكونوا عوناً له على الشيطان طالما أسر واستتر.

ومثلما استنكر رسول الله ﷺ حديث العاصي، الفاضح لنفسه، والكاشف لستر الله عنه، فقال: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يافلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه"[1]. فقد استقبح أيضاً شأن الفاضح لأخيه، لذلك وصف الله الذين يلوكون أعراض الناس بألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[2]، فتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

يقابل هذا الوعيد بشارة الذين يكتمون عيوب إخوانهم، بستر الله لهم في الدنيا والآخرة"، كما جاء في الحديث الصحيح: ((وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ))[3]،[4].

وهذه النصوص تؤكد هدف الدعوة الإسلامية في الحفاظ على عورات المسلمين، ومراعاة حرمة مساكنهم وخصوصياتهم.

ثالثاً – من موضوعات الدعوة: البعد عن التجسس وبيان مضاره الاجتماعية:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم". أي: أنك إذا بحثت عن معائبهم وجاهرتهم بذلك، فإنه يؤدي إلى قلة حيائهم

---

(١) أخرجه البخاري، ٦٠٦٩.

(٢) سورة النور، آية: ١٩.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٩٩.

(٤) هذه أخلاقنا: محمود محمد الخزندار، ٤٥١.

عنك، فيجترئون على ارتكاب أمثالها مجاهرة"[1].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[2].

قال الطبري: وقوله: "ولا تجسسوا" يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة أخيه، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذُمُّوا، ما لا تعلمونه من سرائر[3].

وقال ابن عاشور: والتجسس من المعاملة الخفية عن المتجسس عليه. ووجه النهي عنه أنه ضرب من الكيد والتطلع على العورات.

وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوءه، فتنشأ عنه العداوة والحقد. ويدخل صدره الحرج والتخوف، بعد أن كانت ضمائره خالصة طيبة، وذلك من نكد العيش.

وذلك ثلم للأخوة الإسلامية، لأنه يبعث على إظهار التنكر، ثم إن اطلع المتجسس عليه على تجسس الآخر ساءه، فنشأ في نفسه كره له، وانثلمت الأخوة ثلمة أخرى كما وصفنا في حال المتجسس، ثم يبعث ذلك على انتقام كليهما من أخيه.

وإذ قد اعتبر النهي عن التجسس من فروع النهي عن الظن، فهو مقيد بالتجسس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة. ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضر بهم.

فالمنهي عنه هو التجسس الذي لا ينجر منه نفع للمسلمين أو دفع ضر عنهم، فلا يشمل التجسس على الأعداء، ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص[4].

---

(١) عون المعبود ٢١٠٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢١/٣٧٤.

(٤) التحرير والتنوير مج١٠/٢٦/٢٥٠.

وقال ﷺ: "يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عز وجل عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته"[1].

قال الطيبي: "ولا تتبعوا عوراتهم فيما يظن"، أي لا تجسسوا ما ستروا عنكم من الأفعال والأقوال، وما ستر الله عليهم، والمراد بقوله: "يتبع الله عورته"، كشف ستره.

فإن التجسس والتتبع ثمرة سوء الظن بالمسلم، والقلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق، فيؤدي ذلك إلى هتك السر[2].

وتتبع العورات والتجسس على الناس يؤدي إلى إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم، وهذا منهي عنه وعقابه شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[3].

لذا تتضح أهمية البعد عن التجسس لما له من مضار اجتماعية.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤٨٨٠، وقال الألباني: حديث حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ٤٠٨٣).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢١٧/٩.

(٣) سورة النور، آية: ١٩.

الحديث رقم (١٥٧٤)

١٥٧٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً، فَقَالَ: إنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، ولكِنْ إنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ، نَأْخُذ بِهِ. حديث حسن صحيح، رواه أَبُو داود[1] بإسنادٍ عَلَى شَرْطِ البخاري ومسلم.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

التجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ورد في صورة خبرية تسرد قصة رجل شرب الخمر، ووقع بجنايته وسط الأبرار الذين لا يتركون منكرا في مجتمع الأطهار يكون دعاية سيئة لغيره من الغافلين، وسبة في جبين الصالحين، فتصدوا له، وأتوا به لابن مسعود رضي الله عنه الذي ينفذ بعقل العالم، وقلب المؤمن إلى بواطن الأوامر، ويرى المقصد الأسمى للشرع في الستر على المذنب لعله يتوب، ويقلع، أما إذا افتضح بذنبه، وصار معروفا بهذا الذنب وشهد عليه المؤمنون دون تتبع عوقب بما قرره الشارع، وقول الراوي (هَذَا فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً) قولهم هذا فلان كناية عن اسم المذنب، والكناية عنه أفادت ستره وقوله (تقطر) يصور الفاعل متلبسا بجنايته، وقول ابن مسعود رضي الله عنه (إنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ) أي نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن تتبع أحوال الناس بغرض الإيقاع بهم، واتصال ضمير الجمع بالفعل تعميم للنهي ينبيء بأهميته، وقوله (ولكِنْ إنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ، نَأْخُذ بِهِ) استدراك يقرر عدم ترك من ظهرت جنايته دون عقاب حتى لا يكون

---

(١) برقم (٤٨٩٠).

(٢) النهاية في (ج س س).

تشجيعا لغيره، وجرأة على حدود الله - تعالى - وقوله (نأخذ به) كناية عن إقامة الحد عليه، وعقابه بذنبه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﭫ على البعد عن التجسس.

ثانياً: من آداب الداعية: مراعاة فقه إنكار المنكر.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة ﭫ على البعد عن التجسس:

يظهر ذلك في قول ابن مسعود عندما أتى له برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال: إنا قد نهينا عن التجسس ..."الحديث.

وقد نهى القرآن عن التجسس، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[1]، فقد نهى القرآن الكريم عن التجسس، والمراد المنع من تتبع عورات الناس والبحث عن مثالبهم بأي طريق. فنكتفي منهم بالظاهر، ونكل إلى الله أمر الباطن[2]. وكذلك نهى رسول الله ﷺ عن التجسس فقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ. فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ. وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَافَسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا، عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً»[3].

فمن أجل النهي الوارد في الكتاب والسنة، كان الصحابة ﭫ حريصين على البعد عن التجسس، وإنما حكمهم يكون على الظاهر فقط.

فعن عبدالرحمن بن عوف ﭬ، قال: "خرجت مع عمر ﭬ ليلة في المدينة، فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج، فانطلقنا نؤمه. فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط. فأخذ عمر بيدي، وقال: أتدري بيت من هذا؟. قلت: لا، فقال: هذا بيت

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري ٥١٤٣، ومسلم ٢٥٦٣.

ربيعة ابن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[١] فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم.

وقال أبو قلابة: "حُدِّث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحابه في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه"[٢].

ثانياً - من آداب الداعية: مراعاة فقه إنكار المنكر:

يظهر ذلك في قول ابن مسعود رضي الله عنه: "إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن أن يظهر لنا شيء، نأخذ به"، ويقصد بفقه الإنكار، الأحكام الشرعية المتعلقة بالنهى عن المنكر، والتي تبين ماهية المنكر شرعاً، وكيفية التعامل معه من قبل الأفراد، إذ أن هذا الأمر في غاية الأهمية والخطورة، لما يترتب عليه أحياناً من التحول من منكر إلى منكر أكبر منه"[٣]. والمطلوب مراعاته من الداعية في إنكار المنكر، والذي يظهر في ذلك الحديث هو أن يكون ظاهراً بغير تجسس. وذلك لأن الإسلام جاء بالحكم على الظاهر، وترك السرائر إلى الله عز وجل، فلم يبح الإسلام عموماً كشف الناس عن أسرارهم حتى ولو كانت منكرات[٤].

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا وكونوا عبادالله

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن القرطبي، مج٨/١٦/٣٣٣، وإحياء علوم الدين، الفزالي، ٢/١٠٠٦.

(٣) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ١٥٩.

(٤) حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، د. حمد العمار، ١٤٥.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٢.

إخوانا"[١]. وقال ﷺ: "... فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته ..." [٢]، فعلى الداعية أن يراعي ضوابط إنكار المنكر التي حددها الشرع، حتى لا يقع في المحذور، ويتسبب في منكر أكبر من المنكر المراد إنكاره.

ولا بد أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عارفاً بالحكم الشرعي لما يأمر به أو ينهى عنه، فإن جهل الحكم فعليه أن يتعلمه قبل أن يأمر أو ينهي لئلا يخالف حكم الشارع وهو لا يدري، وكذلك لابد أن يدرس الموقف ويعرف عواقبه قبل أن يقدم عليه، فإن الشريعة سمحاء، وإن الواجب يسقط عنه إذا كان فيه تلف نفسه أو هلاك أهله، فإذا غلب على ظنه أن يعود بالضرر على الآخرين، فإنه يجب عليه التوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك لابد أن يقدر غلبة النفع واتعاظ المقابل عندما يأمره وينهاه، أما إذا غلب على ظنه وقوع الضرر، فإن الواجب يسقط عنه، وينتقل إلى مرحلة أدنى وهي الإنكار بالقلب[٣].

وقد وضح ابن تيمية قاعدة مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تتمثل في مراعاة المصالح والمفاسد من قبل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإن حصلت مصلحة أعظم من المفسدة وجب الأمر والنهي عليه، وإن كانت المفاسد أعظم من المصالح لم يجب عليه بل يحرم، أما إذا حصل التساوي والتكافؤ بين المعروف والمنكر؛ لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

وأما عند اختلاط المعروف بالمنكر فيدعو إلى المعروف دعوة مطلقة، وينهى عن المنكر نهيًا مطلقًا، هذا من جهة نوع المعروف ونوع المنكر، أما في الفاعل الواحد والطائفة الواحدة فيأمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه، أو فوات معروف أكبر منه[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٦٣.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٤١.

(٣) التربية الروحية والاجتماعية في الإسلام، د/ أكرم ضياء العمري، ص٢٩٣.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، ١٢٩/٢٨، ١٣٠، وانظر: التربية الروحية، د. أكرم ضياء العمري، ٢٩٤.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخلقية:

إن من أهم أهداف التربية الخلقية والتي يجدر بأهل التربية غرسها في نفوس المتعلمين، البعد عن التجسس وسوء الظن بالناس. وهذا ما أكده نص الحديث في قوله ﷺ «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا....إلخ».

"وقد ورد النهي عن التجسس والبحث عما استتر من أمور المؤمنين؛ لما في ذلك من التعرض لما لا يفيد ولا يعني المتجسس، وهذا لا يثمر إلا الضغينة"[1].

والعلاقة بين سوء الظن والتجسس وثيقة، فسوء الظن يكون من نفس مريضة لا ترى إلا العيوب والنقائص، وهي نفس تغفل عن عيوبها لتتحرى عيوب الآخرين، وتجدُّ في التفتيش عنها، وذلك بالتجسس على الآخرين للوقوف على نقائصهم لتكون هذه العيوب والنقائض أمارات وأدلة تبرهن على الظن السيئ بالناس، وعلى التقدير الزائف للذات.

وتتأكد أهمية غرس خلق البعد عن التجسس وسوء الظن في نفوس المتعلمين، عند معرفة أن التجسس وسوء الظن يشتركان في كونهما مظهرين يدلان على العجز عن التواصل الإيجابي الرشيد مع المجتمع، فالواحد منا قد يلمس فضولاً في نفسه لمعرفة أحوال الآخرين الذين يلتقي بهم في نطاق معاملاته اليومية، كزملاء العمل والجيران في الحي، وقد ينبع التجسس على هؤلاء من رغبة مخلصة في التواصل معهم، وحرص صادق على مشاركتهم أحوالهم.

وغنى عن البيان أن هذا مظهر سلبي للحياة الاجتماعية لا يليق بالعقلاء الذين يلجمون أنفسهم عن فضول الرغبة في معرفة أحوال الآخرين، ويتحلون بسلوك إيجابي، وهو التعامل مع الآخرين تعاملاً يهدف إلى تحقيق معاني الأخوة الصادقة، التي تجعل المرء في اطلاع على أحوال إخوانه بشكل عفوي تلقائي بعيد عن التجسس والفضول فيطمئن على سلامتهم

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٥.

وحسن تدبيرهم معاشهم دون أن يفعل ما يشين نفسه أو يسوؤها[1].

ثانيًا: التربية على تعميق روح الأخوة الإسلامية:

إن من أجل ما يجب غرسه في نفوس المتربين، تعميق روح الأخوة الإسلامية حيث إنها الرابطة النفسية التي تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام... مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية، ووشائج الإيمان والتقوى... فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة في اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون، والإيثار، والرحمة، والعفو عند المقدرة ... واتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم... ولقد حث الإسلام على هذه الأخوة في الله، وبين مقتضياتها وملتزماتها[2]، وهذا ما ورد جليًا في حديث الباب من قوله ﷺ: «... الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ هَا هُنَا». وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمِ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ...إلخ».

"وفي ترسيخ معنى الأخوة الإسلامية، يستمد المؤمن قوته من إخوانه المؤمنين، فهو يشعر بأنهم له وهو لهم، يعينونه إذا شهد، ويحفظونه إذا غاب، ويواسونه عند الشدة، ويؤنسونه عند الوحشة، ويأخذون بيده إذا عثر، ويسندونه إذا خارت قواه، فهو حين يعمل يحسّ بمشاركتهم، وحين يجاهد يضرب بقوتهم، إذا حارب جيشًا من ألف مؤمن شعر كل فرد منهم أنه يقاتل بقوة ألف لا بشخصه وحده، وشعر أن هؤلاء الألف يعيشون في نفسه - كما يعيش هو في أنفسهم - حبًا لهم، وحرصًا عليهم، وضنًا بهم، فإذا ضربت الألف، في ألف كان المجموع المعنوي ألف ألف رجل في الحقيقة، وإن كانوا ألفًا واحدة في لغة الإحصاء والتعداد"[3]، لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس روح الأخوة الإسلامية في نفوس المتعلمين والمتربين.

۞ ۞ ۞

---

(١) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٤/٧٥، ٧٦.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ١/٣٦٢.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ٢٣١.

٢٧٢- باب النهي عن سوء الظنّ بالمسلمين من غير ضرورة

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

الحديث رقم (١٥٧٥)

١٥٧٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((**إيَّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَدِيثِ**)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

الحديث يحذر من سوء الظن الذي يترتب عليه فساد ذات البين بين المسلمين، ويشغل القلوب، و ويشعل الصدور لذلك صدَّر الحديث بأسلوب التحذير بلفظ (إياكم) تعجيلاً بالإنذار، وإعلاناً لخطورة الخبر الأمر ولهذه اللفظة (إياك) ما ليس لغيرها من الإثارة والتنبيه واللفت والإيقاظ لما تعورف عليه في استعمالها في اللغة من كونها تتصدر الأمور الخطيرة والتي يتوقع من جهتها مكروه، والتعجيل بالإنذار المفهوم من هذه الصيغة مستفاد من بنائها على الإيجاز بحذف الفعل، والفاعل، لتكون علماً بذاتها على الخطر والمحذر منه هو الظن الذي علل له بقوله: (فإن الظن أكذب الحديث) حيث ربط التحذير بما بعده بفاء السببية للإقناع ببيان العلة، فإذا علمنا أن بين الفاء والعلة حرف التوكيد (إن) رأينا جزماً بهذه العلة يقررها في الذهن وينفي عندها أي شك يمكن أن يحوم حولها، ولتأخذ طريقها في النفس دون عقبات أو اعتراضات[2]. وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣)، وهذا طرف من الحديث الذي تقدم برقم (١٥٧٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٥١).

(٢) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ١٦٥.

جاءت أساليب التوكيد في تناسق دقيق مع بقية الأساليب لتحقيق المعنى ففي قوله: (فإن الظن أكذب الحديث) أكد الجملة بـ (إن) - كما ذكرنا سابقاً - مع اسمية الجملة ولعله تنزل المخاطبين منزلة المترددين لما رأي من استهانة الناس بخطر الظن؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ يستخدم أفعل التفضيل (أكذب) مبالغة في ذم الظن الذي لا يعتمد على سند فإن قيل الكذب من صفات الأقوال، والظن عمل نفسي يجاب بأن المراد به هنا عدم مطابقته للواقع سواء كان قولاً أم فعلاً[1].

المضامين الدعوية[2]

---

(١) انظر: عمدة القاري ١٥/ ٢١٨.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (١٥٧٢)

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على اجتناب سوء الظن:

إن سوء الظن مدعاة إلى تحقير المؤمنين، وإلى إيقاع الضرر بهم[١]؛ لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه تحذير المربين من سوء الظن امتثالاً لأمر النبي ﷺ كما ورد في حديث الباب من قوله: «إياكم والظن....إلخ».

فالمرء الذي رُبِّي تربية إسلامية سليمة يحسن الظن بالآخرين، وهذا الإحساس ملكة لا تكتسب إلا برقابة النفس، وإخضاعها لسلطان العقل والدين والتماس الأعذار للآخرين، وهذا لا يتم إلا إذا كان صدر المسلم سليمًا ونواياه حسنة تجاه الآخرين، أما سوء الظن فهو دليل على سوء التربية وسوء النية، ودغل القلوب وأحقادها، وحتى يحقق التحذير من سوء الظن غايته ومراده، وجب بيان ما يترتب على هذا الخلق المرذول من آثار سيئة.

وأول هذه الآثار المترتبة على سوء الظن: "وقوع الإنسان في إثم كبير، فظنه السيئ بالآخرين وليد ارتيابه بهم، واحتقاره لهم، وكفى بالمرء إثمًا إن يحقر أخاه الإنسان. ويضاف إلى ذلك أن الظنون الباطلة تجلب الشرور والأذى بمن يساء بهم الظن، فمن أساء الظن بأحد فقد وضعه موضع الاتهام والارتياب، وأفسد سمعته لدى الناس، وربما دفعهم ذلك إلى تحاشي التعامل معه...، وكان من هذه الآثار تورط صاحبها في رذائل وآفات سلوكية منها الكذب المحرم في القوانين والشرائع والأديان، وإن الارتياب في الناس وإدامة الظن السيئ بهم يؤديان إلى تصور الإنسان أوهامًا غير حقيقة، فإذا ما واجه الناس بالحق الذي يبدد الظنون، واستبان له خطؤه في حق الآخرين، اضطر إلى الاعتذار، واختلاق الحجج المسوغة لإقدامه على الظن السيئ، ومثل ذلك يخلق مناخًا صالحًا للكذب، فاعتياد الإنسان على الارتياب بالآخرين يدفعه إلى اعتياد الكذب عليهم"[٢].

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ٢٣٥.

(٢) انظر: موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٥/٤، ٦٨، ٦٩.

قال ابن حزم: "كثرة الريب تعلم صاحبها الكذب، لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب، فيجترئ عليه ويستسهله"[١].

وكما يرتبط الظن السيئ بالكذب فإنه يرتبط كذلك بالغيبة، فمن زل في ظن سيئ بأخيه أطلق فيه لسانه، وظن نفسه خيرًا من المحيطين به. فاحتقرهم، حتى يبدو الأمر سلسلة من الرذائل يؤدي بعضها إلى بعض، مصدرها سوء الظن الذي يعد مدخلاً من مداخل الشيطان إلى القلب[٢].

"فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا شرًا. فمهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن خبثه يترشح منه!، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق"[٣].

"لذا وجب على المربين الحث على اجتناب سوء الظن والبعد عن مسالكه، ومما يساعد على ذلك ذكر حال السلف في اجتنابهم لسوء الظن وتوصيتهم بذلك، فعن سعيد بن المسيب قال: "كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، وما كافيت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تعالى فيه"[٤].

ثانيًا: التربية بالتحذير:

لقد ورد هذا الأسلوب التربوي التوجيهي في الحديث من تحذير النبي ﷺ من سوء الظن، وذلك في قوله: «إيّاكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذَبُ الْحديث» والتحذير هو التحرز

---

(١) الأخلاق والسير، ٢٣٦.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق، ٤/٧٠.

(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣٦١٢.

(٤) شعب الإيمان، البيهقي، ٣/١٥٠

من إتيان فعل أو امتناع عنه لكونه سببًا في غضب الله تعالى وعذابه أو سببًا في إلحاق ضرر بالأمة والمجتمع المسلم، مما يدفع باتجاه الاستعداد والتأهب لتجنب حصول ذلك، وأي ضرر يلحق المجتمع المسلم ويفت في عضده[1] من سوء الظن الذي يقطع أواصر الثقة والمحبة والألفة بين أفراده.



(١) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٤٩، ٢٥٠.

٢٧٣- باب تحريم احتقار المسلمين

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَومٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيْمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات: ١١] وقال تَعَالَى: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لمزَةٍ﴾[الهمزة: ١].

الحديث رقم (١٥٧٦)

١٥٧٦- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ**)) رواه مسلم[١]، وَقَدْ سبق قريبًا بطوله.

ترجمة الراوي:

ابو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يحقِر أخاه: يستهين به ويستصغره[٢].

الشرح الأدبي

الحديث يدور حول رعاية مشاعر الناس وأحاسيسهم في التعامل فيما بينهم بأن ينظر المسلم لأخيه من خلال دينه نظرة المثلية في البشرية، والإسلام، وتكريم الله له، لا أن ينظر إليهم نظرة تعال وتكبر، وهو ما حذر منه بقوله (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ) أي حسبه وكافيه من خلال الشر ورذائل الأخلاق احتقار أخيه المسلم، وهو يقتضي تعظيم جرم احتقار الناس فقوله (بحسب امرئ) مبتدأ والباء فيه زائدة

---

(١) برقم (٣٢/٢٥٦٤)، وتقدم برقم (١٥٧٢)، وانظر ما تقدم برقم ٢٣٤، ٢٣٥، أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٥١).

(٢) الوسيط في (ح ق ر).

وقوله (أن يحقر) خبره، والتعبير بلفظ (أخاه) إشارة إلى موجبات الأخوة من الرحمة، والمودة ورعاية المشاعر، ووصفه بالمسلم يزيد من تقبيح الفعل لأن تلك الرابطة لها حقوق يجب رعايتها، واختصاصه بالإسلام فيه مزيد تكريم بعد كونه من بني آدم فلا يجب احتقار من كرمه الله تكريما بعد تكريم وفيه تحذير عظيم من ذلك لأن الله تعالى لم يحقره إذ خلقه ورزقه ثم أحسن تقويم خلقه وسخر ما في السماوات وما في الأرض جميعاً لأجله وإن كان له ولغيره فله من ذلك حصة ثم إن الله سبحانه سماه مسلماً ومؤمناً وعبداً وبلغ من أمره إلى أن جعل الرسول منه إليه محمداً ﷺ فمن حقر مسلماً من المسلمين، فقد حقر ما عظم الله عز وجل وكافيه ذلك فإن من احتقار المسلم للمسلم أن لا يسلم عليه إذا مر ولا يرد عليه السلام إذا بدأ به، ومنها أن يراه دون أن يدخله الله الجنة أو يبعده من النار.

المضامين الدعوية[1]

(١) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٢٣٤، ٢٣٥، ١٥٧٢)

الحديث رقم (١٥٧٧)

١٥٧٧- وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: ((**لا يَدْخُلُ الجنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**)) فَقَالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فَقَالَ: ((**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**)) رواه مسلم[1].

ومعنى: (**بَطَرُ الحَقِّ**) دَفْعُه، (**وغَمْطُهُمْ**): احْتِقَارُهُمْ[2]، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا فِي باب الكِبْرِ.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

مثقال: مقدار [3].

الذَرَّة: ما يُرى في الضوء إذا دخل النافذة في الحجرة المظلمة [4].

بَطَر الحقّ: التَكبُّر عن الحقّ وعدم قبوله [5].

غَمْطُ الناس: الاستهانة بهم واستحقارهم [6].

الشرح الأدبي

استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم عدة أساليب بلاغية لبيان خطر الكبر، والفرق بين اتخاذ الزينة المباحة، وبين الكبر منها: بداية الحديث بأسلوب النفي في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) حيث قدم المسند المنفي الذي يشكل الحكم على المسند إليه هنا، وكون هذا المسند فعلاً مضارعاً له أثره في تمكين الحكم، والتأثير به تأثيراً قوياً يلفت الذهن إلى خطورته، ولعل ذلك ما دعا إلى الاستفسار عنه،

---

(١) برقم (٩١/١٤٧)، وتقدم برقم (٦١٢). أورده المنذري في ترغيبه (٤٢٩٥).
(٢) نقلهما عن الترغيب للمنذري (٥٤١/٣).
(٣) النهاية في (ث ق ل).
(٤) النهاية في (ذ ر ر).
(٥) النهاية في (ب ط ر).
(٦) النهاية في (غ م ط).

ثم دفع إيهام ما قد يتصور من وجوه غير داخلة في معناه، ثم البلوغ في نهاية الأمر إلى وضع دلالة لغوية موضحة لدقائق هذا المعنى في أسلوب محدد، ثم جاءت أساليب التوكيد لتمهد النفس وتلفت الانتباه وتثير الاهتمام لتصحيح خطأ التصور وتحديد المفاهيم، وتعريفها كما جاء في الرد على السائل بقول الرسول ﷺ (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس)، فقد أكدَّ الجملة بـ (إن) مع اسمية الجملة لدفع شك السامع، وتردده في فهم المعنى، وإجابته بأسلوب يتساوق مع أسلوبه حيث قال: (إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً) فرد عليه ﷺ بنفس درجة التأكيد (إن الله جميل) تصحيحاً لتصوره الخاطئ بأن محبة الثوب الحسن والنعل الحسن من الكبر وبيَّن له أن الكبر ليس بالتجمل واتخاذ الزينة من الثياب، بل هو أمر نفسي يرجع إلى أحوال النفوس وصفات القلوب، فهو التكبر على الحق، فيزهو بأصله، أو بجنسه، أو يتيه بمنصبه، وجاهه، أو يصعِّر خده للناس بقوته وماله، أو يحتقر من سواه من خلق الله ممن لا يساوونه، أو غير ذلك من مظاهر الكبر[1]، وهذا ما بيَّنه بقوله: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس) موضحاً ومحدداً لمفهوم الكبر، وقد فصَّل هذه الجملة عن سابقتها وهي جملة: (إن الله جميل يحب الجمال)، لأن الثانية وقعت إجابة لسؤال مقدر نتج عن الأولى، فكأنه لما سمع قول الرسول ﷺ: (إن الله جميل يحب الجمال) سأل: فما الكبر إذن؟ فجاء قوله ﷺ (الكبر بطر الحق وغمط الناس)، وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال، وهذا النوع من الفصل يعطي النص حيوية، ويوثق الصلة بين المتكلم والمخاطب، ويشعر بالتواصل بينهما، والحديث في مجمله تحديد بليغ ودقيق لمفهوم الكبر، وبيان لشدة عقابه، وأنه يحرم صاحبه من كل خير بحرمانه من الجنة، وفيه عقاب لما يؤدي إليه الكبر من بطر الحق وغمط الناس مما يستجلب كراهية الناس لهذا المتكبر، الأمر الذي يحدث التصدع في وحدة المجتمع المسلم[2].

المضامين الدعوية[3]

---

(١) أحاديث نبوية شريفة، د. محمود فرج العقدة ، ص٨٥.

(٢) ينظر بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، د. ناصر راضي الزهري١٥٧.

(٣) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦١٢).

الحديث رقم (١٥٧٨)

١٥٧٨- وعن جُندب بن عبد الله ﵁ قَالَ: قَالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ : ((قَـالَ رَجُـلٌ: وَاللّهِ لا يَغْفِـرُ اللّهُ لِفُـلانٍ، فَقَـالَ اللّهُ ﷻ: مَـنْ ذا الّـذِي يَتَـأَلّى عَلَـيَّ أنْ لا اغْفِـرَ لِفُـلانٍ! فَـإنِّي قَـدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَاحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

جندب بن عبدالله البَجَليّ: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٣٢).

غريب الألفاظ:

يتألى: يحلف، وهو من الأليّة: اليمين[2].

وأحبطت: أبطلت[3].

الشرح الأدبي

الحديث يقرر خطر الخوض في الغيبيات بالحكم على الناس بالنار أو بالجنة لأن هذه الأمور اختص الله بها نفسه، وقلوب العباد سريعة التقلب فلا يقطع إنسان بمصير إنسان، وقوله (قال رجل) يحتمل أنه من هذه الأمة، أو من غيرهم ويشير إلى أن الخطأ قولي (والله لا يغفر الله فلان) حكاية قسم الرجل تصور الخطأ بالجزم بمصير غيره مع جهله بما يخوض فيه، وتمهد لما بعده من الرد لأنه قاله استكثارا أو استكبارا لذنبه أو تعظيما لنفسه حين جنى عليه، وقول الله - تعالى - (من ذا الذي يتألى علي ؟) استفهام إنكار وتوبيخ ومعنى يتألى أي : يتحكم علي ويحلف باسمي أنى لا أغفر، وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة أولا حكاية لصنيعه إلى غيره وإعراضا عنه، وقوله (فَإنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ) أكد العبارة بعدة مؤكدات ليقابل بها إنكار هذا الجاهل، وقوله (وَاحْبَطْتُ عَمَلَكَ) أي أبطلت عملك أو أبطلت قسمك وجعلت حلفك كاذبا ، والمقابلة بين غفرت،

---

(١) برقم (١٣٧/٢٦٢١). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٦٤) والسياق له.

(٢) النهاية في (أ ل ي).

(٣) النهاية في (ح ب ط).

وأحبطت تؤكد المعنى، وتقرر خلاف ما ظنه في حسن عمله، وسوء عمل صاحبه، وفيه بيان لخطر الكلمة، فانظر إلى هذا الرجل؛ تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، هلك كلّ عمله وسعيه؛ لأن إعجابه بنفسه، واحتقاره لأخيه، واستبعاده رحمة الله حمله على أن يقول هذه المقالة، فحصل بذلك أن أوبقت هذه الكلمة عمله.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: أهمية التواضع وعدم احتقار المسلمين والتألي على الله.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على التأدب مع الله تعالى وعدم الجزم بأمور اختص الله تعالى بها.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: بيان سعة رحمة الله ومغفرته.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: التحذير من الاغترار بالعمل.

أولاً - من موضوعات الدعوة: أهمية التواضع وعدم احتقار المسلمين والتألي على الله:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: قَالَ رَجُلٌ، وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّه لِفُلانٍ، فَقَالَ اللَّه عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ إنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». الحديث.

قال القرطبي: (وقول المتألي: والله لا يغفر الله لفلان) ظاهر في أنه قطع بأن الله تعالى لا يغفر لذلك الرجل، وكأنه حكم على الله، وحجر عليه. وهذه نتيجة الجهل بأحكام الإلهية، والإدلال على الله تعالى بما اعتقد أن له عنده من الكرامة، والحظ، والمكانة. وكذلك المذنب من الخسة والإهانة؛ فإن كان هذا المتألي مستحلاً لهذه الأمور فهو كافر، فيكون إحباط عمله لأجل الكفر، كما يحبط عمل الكفار، وأما إن لم يكن مستحلاً لذلك، وإنما غلب عليه الخوف، فحكم بإنفاذ الوعيد فليس بكافر، ولكنه مرتكب كبيرة، فإنه قانط من رحمة الله، فيكون إحباط عمله بمعنى: أن ما أوجبت له هذه الكبيرة من الإثم يربي على أجر أعماله الصالحة؛ فكأنه لم يبق له عمل صالح.

(وقوله: من ذا الذي يتلى عليَّ ألا أغفر لفلان) استفهام على جهة الإنكار والوعيد،

ويستفاد منه: تحريم الإدلال على الله تعالى، ووجوب التأدُّب معه في الأقوال، والأحوال، وأن حق العبد أن يعامل نفسه بأحكام العبودية، ومولاه بما يجب له من أحكام الإلهية والربوبية[1].

قال ابن عثيمين: وكان هذا الرجل عابدًا معجبًا بعمله محتقرًا لأخيه الذي رآه مفرطًا، فأقسم أن الله لا يغفر له، فقال الله عز وجل: "من ذا الذي يتألى علي، والفضل يؤتيه من يشاء، إني غفرت له وأحبطت عملك"، أعوذ بالله، تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، أهلكته، لأنه قال ذلك معجبًا بنفسه محتقرًا لأخيه فأقسم أن الله لا يغفر له، فغفر الله لهذا الرجل، لأن معاصيه دون الشرك، أو لأن الله تعالى مَنَّ عليه فتاب، وأما الآخر فأحبط عمله؛ لأنه أعجب بعمله، والعياذ بالله، وتألى على ربه، وأقسم عليه أن لا يغفر لفلان، والله تعالى كامل السلطان لا يتألى عليه أحد[2]. قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار"[3].

قال الطيبي: والكبر هو الإعراض عن الحق وتحقير الناس، والتواضع هو الإذعان للحق وتوقير الناس... فالمعنى: من تكبر على الله وعلى الخلق ابتلاه الله تعالى بالذل والهوان في الدنيا والآخرة[4].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على التأدب مع الله تعالى وعدم الجزم بأمور اختص الله تعالى بها:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان...".

(وقوله: فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك) دليل على صحة مذهب أهل السنة: أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، وهو موجب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

---

(١) المفهم ٦/٦٠٧، ٦٠٨.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٧٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢٦٢٠، وابن ماجه ٤١٧٥ واللفظ له، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ٣٣٦٦).

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/٢٥٣.

يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]. وأن لله تعالى أن يفعل في عبيده ما يريد من المغفرة والإحباط؛ إذ هو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء[2].

فالغفران وعدمه لله تعالى لا يشاركه فيه أحد، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[4].

قال ابن كثير: أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر مهما فعل فعدل، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»[5]،[6].

فينبغي على المسلم التأدب مع الله تعالى وعدم جزمه بأمور اختص الله بها.

ثالثًا - من أهداف الدعوة: بيان سعة رحمة الله ومغفرته:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "... فقال الله عز وجل: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ إنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ".

فالرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق، صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع علمه المحيط بكل شيء، أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة، ولذلك كان من صلاة الملائكة له[7]. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[8].

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٨.

(٢) المفهم ٦٠٨/٦.

(٣) سورة الفتح، آية: ١٤.

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٢١.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٦٩٩، وصححه الألباني (صحيح سنن أبي داود ٣٩٣٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم، ٢٧٠/٦-٢٧١.

(٧) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٢٠٢.

(٨) سورة غافر، آية: ٧.

فالله واسع المغفرة، رحيم بعباده، يغفر للمذنب، ويتجاوز عن المخطئ، رحمة ومغفرة منه، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

رابعًا- من موضوعات الدعوة: التحذير من الاغترار بالعمل:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت له، وأحبطت عملك"، قال ابن القيم: إعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل، يبتغي به مرضاة الله، مطالعًا فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو الذي مَنَّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته، ونظر قلبه، لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه، وغيبته عن شهود منَّة ربه وتوفيقه وإعانته. فإذا غاب عن تلك الملاحظة، وثبت النفس، وقامت في مقام الدعوى، فوقع العجب مفسد عليه القول والعمل، ... فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس... فمن رأى نفسه في العمل، ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة. فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدًا فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه إذا لم يوفه حقه.

والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه، ناظرًا فيه إلى نفسه، يمن به على ربه راضيًا بعمله(٢).

فالغرور هو أن يحتقر المرء كل من عداه، وأن يتطاول إلى ما ليس في قدرته، وأن يتدخل فيما ليس من شأنه، وأن يحكم على ما لم يُحِط به علمه.

حتى أن المغرور ليترفع عن الإصغاء إلى نصيحة، أو الاستماع لرأي، أو الخضوع لكبير، أو الإجلال لعالم.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٥٣.

(٢) انظر: الفوائد، ابن قيم الجوزيه، ٢٢٢-٢٢٣.

وهذا المرض تبتلى به الأمم الضعيفة، المنتقلة من طور الخمول إلى دور اليقظة، أو المتردية من شامخ العزة إلى درك الضعف والذلة.

وإنه لمرض يتفشى في أمتنا اليوم، وحسبك أن تستمتع إلى أحاديث الناس في المجتمعات العامة؛ لترى كيف يحمل كثير منهم مبضع الطبيب، يجرح به هذا، ويقطع به ذلك، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء، ونظره فوق الأنظار، وعلمه فوق كل علم.

وهو لا يفتأ في حديثه يصف الناس بالحماقة، وأهل العلم بالجهالة ونحو ذلك..

وحين تبتلى الأمة بهذه البلية فإنها تستعصى على نصح الناصحين، وتتحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين، وتتراكم عليها المصائب، وهي تظن أنها أقوى من جميع أعدائها، تهزمهم بصرخة، وتردهم بإشارة، وتدفعهم عنها بالضجة، والثرثرة[1].

---

(١) الهمة العالية، محمد إبراهيم الحمد، ٢٥٤، ٢٥٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الخُلُقية:

إن التربية الخُلُقية تعد من أهم ما عُني به الإسلام في عملية تربية النشء المسلم على عدم التهكم والازدراء والسخرية والاحتقار للآخرين، لما في ذلك من تمزيق لأواصر الأخوة الإسلامية، والتي أوجب الإسلام مراعاتها وحفظها في كل زمان ومكان.

حيث إن احتقار الآخرين داء خبيث، ينشأ عن جهالة سادرة، وغفلة شائنة؛ لذا أشار النبي ﷺ في حديث الباب إلى كون ذلك شرا ما بعده شر[1]، وذلك في قوله: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمسْلِمَ»، بل إن لم يسارع المسلم إلى تطهير نفسه من ذلك، حال بينه وبين رضوان ربه عز وجل، فلا يدخل الجنة[2]، وهذا ما أكده النبي ﷺ في نص الحديث من قوله: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»...إلخ. فاحتقار الناس ضرب من الكبر، والكبر مهما قل مقداره يحرم صاحبه من دخول الجنة، ونيل ثواب الله عز وجل[3]؛ لذا كان من أهداف التربية الخلقية احترام الغير، وعدم تحقيرهم، لتأكيد وحدة الجماعة ونشر المودة بينها، والقضاء على أسباب الفرقة والعداوة، فلا استهزاء بأي فرد من الناس ذكرًا كان أم أنثى ولا تحقير له بالقول أو الإشارة باليد أو اللسان أو نحو ذلك لمجرد رؤيته رث الهيئة فقيرًا أو ذا عاهة، إذ ربما كان المستَهْزَأُ به خيرًا من المستهزئ فيكون هذا قد ظلم نفسه بتحقير من وقره الله، فضلاً عن أن المستَهْزَأَ به لن يرضى عن ذلك بل سوف يحمله الهزء على أن يفتش عن عيوب المستهزئ به ويذيعها، وإن لم يجد فيه ما يعيبه اختلق له معايب ونسبها إليه وألبسها ثوب الصدق فيتناقلها الناس، وفي ذلك ما فيه من الضرر بالمستهزئ نفسه.

فإذا علمنا ذلك كله أدركنا أن السخرية والاحتقار، باب توريث البغضاء في

---

(١) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ٢٥٨.

(٢) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٥٨.

(٣) المرجع السابق، ٢٥٩.

القلوب، وقطع روابط المودة بين الأفراد[١]؛ لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس التربية الخلقية باحترام الغير، وعدم احتقاره وازدرائه في بناء النشء المسلم.

ثانيًا: التربية بالترهيب:

بني هذا الأسلوب التربوي الإسلامي على ما فطر الله عليه الإنسان من الرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير[٢]، وهذا ما ترائى جليًا في أحاديث الباب من ترهيبه ﷺ من احتقار المسلمين، وذلك في قوله: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ الْمسلِمَ»، وقوله ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، وإخباره ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى في الحديث القدسي قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ، فَإِني قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ».

والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية، ليكونوا دائمًا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي[٣].



(١) روح الدين الإسلامي، عفيف عبدالفتاح طبارة، ٢٣٣، ٢٣٤ باختصار.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبدالرحمن النحلاوي، ٢٣٠.

(٣) المرجع السابق، ٢٣١.

٢٧٤- باب النهي عن إظهار الشماتة بالمُسْلِم

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠] وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾[النور: ١٩].

الحديث رقم (١٥٧٩)

١٥٧٩- وعَن وَاثِلَةَ بن الأسقع رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: ((**لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيكَ**)). رواه الترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن).

وفي الباب حديث أَبي هريرة السابق في باب التَّجسُّس: ((**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ ...**)).

ترجمة الراوي:

واثلة بن الأسقع: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٨٤٤).

غريب الألفاظ:

الشماتة: فرح العدو ببلية تنزل بمن يعاديه[2].

ويبتليك: من البلاء المحنة تنزل بالمرء ليختبر بها[3].

الشرح الأدبي

الحديث ينهى عن الشماتة في المسلمين لأنه يعلم المسلم أن يحب لأخيه، ما يحب لنفسه حتى يستكمل إيمانه ولا شك أن من يحب لأخيه ما يحب لنفسه يكره لأخيه ما يكره لنفسه، ولا يشمت فيه وقول الرسول ﷺ (لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ) أسلوب نهي عن إظهار الفرح بمصيبة غيرك لعداوة بينك، وبينه أو غيرها، وهو معنى الشماتة

---

(١) برقم (٢٥٠٦) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. قال الحافظ العلائي في النقد الصريح (ص: ٤٠): وهو حسنٌ كما قال الترمذي، لكنه غريبٌ، كما ذكر لتفرد القاسم به. أورده المنذري في ترغيبه (٣٦٢٤).

(٢) النهاية في (ش م ت).

(٣) المعجم الوسيط في (ب ل ي).

والتعبير بلفظ أخيك تذكير برابط الرحم التي تستلزم المودة والرحمة والمواساة في المحنة وليس الشماتة لأن بينه، وبين أخيه رحم الإسلام التي يجب أن توصل، وقوله (فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ) فيه عقوبة من جهتين الابتلاء بتلك البلية ثم إظهاره بين الناس وإن ستره على نفسه، والطباق بين يرحمه، ويبتليك يؤكد المعنى ويشير إلى سرعة تبدل الحال بعكسها نكاية في صاحب النفس اللئيمة التي فرحت في مصاب المسلم بدلا من أن تواسيه فاستحق ما حاق به، وفي الحديث سجع بديع يعطيه خفة في السمع، وقبولا في النفس، وثباتا في العقل.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: النهي.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: اجتناب الشماتة فيما يصيب الإنسان من أذى.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: خطر الشماتة على المسلم.

أولاً - من أساليب الدعوة: النهي:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تظهر الشماتة لأخيك ..."

حيث نهى رسول الله ﷺ المسلم عن الشماتة في أخيه المسلم. وأسلوب النهى من أساليب الدعوة التي تستخدم في النهي عن الأشياء التي تخالف أحكام الإسلام وآدابه وأخلاقه، وهو أسلوب يكون تأثيره في نفوس المدعوين قويًا حيث يشعرهم بأهمية اجتناب ما نهوا عنه.

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: اجتناب الشماتة فيما يصيب الإنسان من أذى:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك". فنهى رسول الله ﷺ عن إظهار الشماتة بالفرح فيما يصيب المسلم من مصيبة، وذلك لأن المسلمين إخوة، فلا يصح أن يفرح المسلم في مصيبة أخيه المسلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1]، قال السعدي: هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أى

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم[١]، ولهذا قال النبي ﷺ آمرًا، بالأخوة الإيمانية "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره)[٢].

وقال ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوًا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٣]. وقال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٤].

فالأخوة الإيمانية، والتراحم والتعاطف بين المسلمين، وإحساس بعضهم ببعض، وحبهم الخير لإخوانهم، يتنافى مع إظهار الشماتة والفرح في بلية أو مصيبة المسلم، فلذلك ينبغي على المسلم اجتناب الشماتة في أخيه المسلم.

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: خطر الشماتة على المسلم:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك".

قال المباركفوري: (قوله: "لا تظهر الشماتة لأخيك"، الشماتة: الفرح ببلية من يعاديك أو من تعاديه (فيرحمه الله)، أي: فإنك إن فعلت ذلك يرحمه الله رغمًا لأنفك)[٥].

ولخطورة الشماتة ثبت عن رسول الله ﷺ، أمره بالاستعاذة منها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: "تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء وشماتة الأعداء"[٦].

وكذلك استعاذ بالله منها ﷺ فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ٧٤٤.

(٢) أخرجه مسلم ٢٥٦٤.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٤) أخرجه البخاري ١٣، ومسلم ٤٥.

(٥) تحفة الأحوذي ١٩٤٢/٢.

(٦) أخرجه البخاري ٦٦١٦، ومسلم ٢٧٠٧.

كان يدعو: «اللَّهُمَّ احفَظْنِي بالإسْلاَمِ قَائِمًا واحفَظْنِي بالإسْلاَمِ قَاعِدًا، وَاحفَظْنِي بالإسْلاَمِ رَاقِدًا، وَلاَ تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا وَلاَ حَاسِدًا ...»[1]. وقد حكى الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

قال أبو عبدالله القرطبي: (فلا تشمت بي الأعداء)، أي لا تسرهم، والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا. وهي محرمة منهي عنها، وفي الحديث عن النبي ﷺ: "لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك".

وقال الشاعر:

إذا ما الدّهرُ جَرَّ على أُناسٍ ... كَلاكِلَه أناخَ بآخرينا

فقل للشَّامتين بنَا أفيقوا ... سَيَلْقَى الشامتون كما لَقِينا)[3]

وقيل لأيوب عليه السلام أي شيء من بلائك كان أشد عليك؟ قال: شماتة الأعداء.

وقال عبدالله بن أبي عتبة:

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى ... فتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الأعَداء

وقال ابن سيرين: عيرتُ رجلاً بالإفلاس فأفلست.

وقال آخر: عبتُ شخصًا قد ذهب بعض أسنانه، فذهبت أسناني، ونظرت إلى امرأة لا تحل لي، فنظر زوجتي من لا أريد[4].

فالشماتة من الأشياء التي تسبب الكراهية بين المسلمين، وعدم محبة الخير لبعضهم البعض، فهي من الأشياء الخطيرة على المسلم، وعلى المجتمع الإسلامي.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٢٥/١، رقم ١٩٦٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن مج ٢٩١/٧/٤.

(٤) الآداب الشرعية، ابن مفلح، ٣٣٩/١، ٤٤٠، ٤٤١.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالترهيب:

إن الترهيب هو العنصر التربوي الذي يمثل القوة الصَّادَّة عن الانحراف إلى سبيل الشر، التي ينهي عنها الإسلام، وذلك لأن إثارة المخاوف من سلوك سبيل ما، أو القيام بعمل ما، من شأنها أن تقلل من اندفاع الإنسان نحو ذلك السبيل أو ذلك العمل، وأن تضعف من قوته، وتجعله قلقًا حذرًا[1].

وهذا ما ظهر جليًا في نص حديث الباب من ترهيبه ﷺ من إظهار الشماتة بالمسلم، وذلك في قوله: «لا تُظْهِرْ الشَّماتَةَ لأَخيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّه وَيَبْتَليكَ».

فالرسول ﷺ لم يغفل عن أي طريقة أو أسلوب يوجه الإنسان ويرشده إلى السلوك الذي تصلح به حياته الدنيوية والأخروية، وكان الترهيب من أهم الأساليب التربوية التي استعملها النبي ﷺ - كما في حديث الباب - في تصحيح مسار الإنسان وزجره عن كثير من السلوكيات الخاطئة والانحرافات السيئة، من خلال ما أخبر به من وعيد وعذاب يرتقب المخالفين والمنحرفين والمقصرين، فكان له أكبر الأثر في استقامة المخاطبين ووضعهم على جادة الصواب[2]، لذا وجب مراعاة التربية بالترهيب عند النهي عن كل ما يخالف الشرع.

ثانيًا: التربية على غرس خلق الأخوة الإسلامية:

هذا ما تراءى جليًا من حديث الباب، حيث النهي عن إظهار الشماتة بالمسلم، وإعلان الأخوة الإسلامية في أبهى معانيها، وأجمل صورها.

فمن حق المسلم على أخيه أن يكره مضرته، وأن يتبادر إلى دفعها، فإن مَسَّهُ ما يتأذى به شاركه الألم، وأحس معه بالحزن، أما أن يكون ميت العاطفة قليل الاكتراث، لأن المصيبة وقعت بعيدًا عنه فالأمر لا يعنيه. فهذا تصرف لئيم، وهو مبتوت

---

(١) أساليب الدعوة الإسلامية في السنة النبوية، د. زياد محمود العاني، ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٥١.

الصلة بمشاعر الأخوة الغامرة التي تمزج بين نفوس المسلمين فتجعل الرجل يتأوه للألم ينزل بأخيه. مصداق قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1][2].

وحدثوا أن جيشًا من المسلمين كان بينه وبين عدوه نهر فأمرهم القائد أن يخوضوه، ولبوا الأمر، وخاضوا النهر، والعدو يشهدهم من بعيد دهشًا مرتاعًا... وفي وسط النهر شهدهم العدو يغوصون في جوف الماء مرة واحدة كأنما غرقوا، ثم ظهروا فجأة... فسأل العدو ما شأنهم؟ فعرفوا أن رجلاً منهم سقط منه قَعْبُه -إناؤه- فصاح، قعبي.. قعبي... فغاصوا جميعًا يبحثون عن قعب أخيهم... فقال الأعداء في ذهول: إذا كانوا يصنعون مثل هذا في قعب سقط من أحدهم، فماذا يصنعون بنا إذا قتلنا بعضًا منهم؟؟ وفت ذلك في عضدهم، وكانت العاقبة التسليم للمؤمنين[3]، فبذلك تتربى الناشئة على خلق الأخوة الإسلامية، والذي يبني لأمة الإسلام عزها ومجدها.



(١) أخرجه البخاري، ٦١٢٢.

(٢) انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، ١٦٦ بتصرف.

(٣) الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ٢٣١.

٢٧٥- باب تحريم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿والَّذينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٨٠)

١٥٨٠- وعن أَبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: **((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بهم كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ))**. رواه مسلم[1].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

النِّياحة: البكاءُ على الميت بجزعٍ وعويل[2].

الشرح الأدبي

الحديث يحذر من بعض أعمال الجاهلية التي تدخل الإنسان بابا من الكفر، والحديث يقوم على أسلوب التوشيع وهو ذكر مثنى ثم تفصيله، وهو أسلوب يحقق التوكيد، و يحقق التشويق، وقوله (اثنتان) مثنى مبهم وصفه بجملة لم تزل إبهامه بل زادت الترقب لمعرفة هاتين الصفتين وقوله :(فِي النَّاسِ) يصعِّد الشوق لمعرفتهما لأن كل مخاطب يخاف أن يكونا فيه أو إحداهما وقوله (هُمَا بهم كُفْرٌ)، وقيل المراد بالكفر وجهان : أحدهما أن يكون كفر النعمة فإن من طعن في نسب غيره فقد كفر بنعمة الله عليه بسلامته من ذلك الطعن ومن ناح على ميت فقد كفر نعمة الله عليه إذ لم يكن هو الميت والثاني أن يكون المعنى أنهما من أفعال الكفار لا من خلال المسلمين.

---

(١) برقم (١٢١/٦٧). أورده المنذري في ترغيبه (٥١٧٦).

(٢) الوسيط في (ن و ح).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: شناعة الطعن في النسب والنياحة على الميت.

ثانيًا: من آداب المدعو: التأدب بآداب الإسلام وعدم الطعن في النسب والنياحة على الميت.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: شناعة الطعن في النسب والنياحة على الميت:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

قال القاضي عياض: وقوله: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت": أي من أعمال أهل الكفر وعادتهم وأخلاق الجاهلية، وهما خصلتان مذمومتان محرمتان في الشرع، وقد كان النبي ﷺ يأخذ على النساء في بيعتهن ألا ينحن، وقال: "ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"[(١)]، وكذلك نهى النبي ﷺ عن السخرية واللمز والنبز بالغيبة والقذف، وكل هذا من أعمال الجاهلية، وقال النبي ﷺ: "إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[(٢)] الجاهلية..."[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[(٤)]، فعرف نعمته بالأنساب للتعارف والتواصل، فمن تسور على قطعها والغمض فيها، فقد كفر نعمة ربه وخالف مراده، وكذلك أمر تعالى بالصبر، وأثنى على الصابرين، ووعدهم رحمته وصلاته، ووصفهم بهدايته، وحتم الموت على عباده، فمن أبدى السخط والكراهة لقضاء ربه، وفعل ما نهاه عنه، فقد كفر نعمته فيما أعد للصابرين من ثوابه، وتشبه بمن كفر من الجاهلية[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٩٤، ومسلم ١٠٣.

(٢) العُبِّيَّةُ: الكبر والفخر. انظر: المعجم الوسيط مادة: عَبَّ.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٩٥٥، ٣٩٥٦، وحسنه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣١٠٠، ٣١٠١).

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١/٣٢٦.

وقال القرطبي: (وقوله: "اثنتان في الناس هما بهم كفر" أي: من خصال أهل الكفر كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الطَّعْنُ فِي الأَحْسَابِ، وَالْفَخْرُ بالأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[1][2].

قال النووي: "وفيه أقوال، أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. والثاني: أنه يؤدي إلى الكفر. والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان. والرابع: أن ذلك في المستحل. وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة، وجاء في كل منهما نصوص معروفة"[3]. منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[4].

قال ابن عاشور: "ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة. منها خلةٌ من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب الناس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهن، ويليطون[5] بعض الأولاد بغير آبائهم بهتانًا، أو سوءَ ظن إذا رأوا بعدًا في الشبه بين الابن وأبيه، أو رأوا شَبَهه برجل آخر من الحي، أو رأوا لونًا مخالفًا للون الأب أو الأم، تخرصًا وجهلاً بأسباب التشكل، فإن النسل ينزع في الشبه وفي اللون إلى أصول من سلسلة الآباء أو الأمهات الأدنَيْن أو الأبعدين، وجهلا بالشبه الناشئ عن الرحم. وقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت ولدًا أسودَ (يريد أن ينتفي منه) فقال له النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانهن؟ قال: حمر. قال: وهل فيها من جمل أورق؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعله عِرقٌ نزَعَه. فقال النبي ﷺ فلعل ابنك نزعه عِرق»[6]، فنهاه عن الانتفاء منه. فهذا كان شائعًا في مجتمعات الجاهلية فنهى الله

---

(١) أخرجه مسلم ٩٣٤.

(٢) المفهم ١/٢٥٧.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٣٩.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٥) يليطون: أي يلصقون ويلحقون. انظر: المعجم الوسيط، مادة: لاط.

(٦) أخرجه البخاري ٥٣٠٥، ومسلم ١٥٠٠.

المسلمين عن ذلك"[١].

ومما يدل على شناعة الطعن في الأنساب توعد الله بالويل للطاعنين، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٢]، قال القاسمي: "أي: لكل من يطعن في أعراض الناس ويغتابهم"[٣].

وما يدل على شناعة النياحة على الميت، قوله ﷺ: "الميت يعذب في قبره بما نيح عليه"[٤]. فالنياحة من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة، لأنها تسخط بقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب[٥].

ثانيًا - من آداب المدعو: التأدب بآداب الإسلام وعدم الطعن في النسب والنياحة على الميت:

يستنبط ذلك من عموم الحديث، حيث قال ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ». فهذان الفعلان من أفعال أهل الكفر وأهل الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، ومن أجل ذلك ينبغي على المسلم أن يتأدب بآداب الإسلام، فإذا أصابته مصيبة من موت عزيز عليه صبر وطلب الخلف والصبر من الله، فيكون له الثواب، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٦].

وقال ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له"[٧].

فليس من أخلاق الإسلام النياحة على الميت والطعن في الأنساب، قال ﷺ: «لَيْسَ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور مج ٦/١٥/١٠٠.

(٢) سورة الهمزة، آية: ١.

(٣) محاسن التأويل مج ١٠/١٧/٢٥٠.

(٤) أخرجه البخاري ١٢٩٢، ومسلم ٩٢٧.

(٥) انظر: فتح المجيد، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، ٢٨٢؟.

(٦) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٧) أخرجه مسلم ٢٩٩٩.

المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ ولاَ اللَّعَّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيِّ»[١].

فينبغي على المدعو التأدب بآداب الإسلام، والبعد عن النياحة على الميت والطعن في أنساب الناس.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترهيب:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

حيث رهّب رسول الله ﷺ من الطعن في النسب والنياحة، لأنهما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة الفعالة، لأن فيه تخويفًا يحمل النفس وصاحبها على ترك المعاصي والآثام، واجتناب الجرائم والذنوب، وبيان ما أعده المولى عز وجل من شديد العقاب وأليم العذاب لمن طغى وبغى وعاند وعصى[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي ١٩٧٧، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٦١٠).

(٢) انظر: قواعد الدعوة الإسلامية، د. الشريف حمدان الهجاري، ٥١٥.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية بالترهيب والعقاب:

إن أسلوب التربية بالترهيب والعقاب من أهم الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي في كل زمان ومكان، حيث لا تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف المتربي أن هناك نتائج مؤلمة، وراء ما صدر منه من عمل معيب، مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك المعيب، والتربية الإسلامية تستخدم هذا الأسلوب التربوي، والأمثلة على ذلك يصعب حصرها[1]، وكان منها ما ترائى في حديث الباب من ترهيبه ﷺ من الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع، وذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

وعلى المربي أن يستخدم التربية الإسلامية بالترهيب والعقوبة، إذا لم يفلح الترغيب والثواب. "وحين لا تفلح القدوة ولا تفلح الموعظة"، ولا غير ذلك من أساليب تربوية..... ساعتها، لابد إذًا من علاج حاسم يضع الأمور في مسارها الصحيح... والعلاج الحاسم هو العقوبة.

وحين استخدم الترهيب والعقوبة، فإنما يستخدمان بدرجات متفاوتة، لدرجات من الناس. فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة، فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه، ويعدل بما هو مُقَدِمٌ عليه من انحراف. ومنهم لا يردعه إلا الغضب الجاهر الصريح، ومنهم ما يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ. ومنهم من لابد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه. ومنهم بعد ذلك فريق لابد أن يحس لذع العقوبة على جسمه لكي يستقيم[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٧، ونحو تربية إسلامية راشدة، محمد شاكر، ٩٢، تربية الطفل في الإسلام، أحمد محمود الحمد، ١٢٧.

ثانيًا: التربية الاجتماعية:

إن من أهداف التربية الاجتماعية الواجب غرسها في نفوس النشء المسلم، الحفاظ على روابط المجتمع المسلم من أي توهين أو تفكيك؛ لذا وجب عدم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع؛ لما في ذلك من إضعاف للأسرة التي هي نواة المجتمع الإسلامي، وبالتالي تفكيك لروابط المجتمع الإسلامي، وليس هناك أمر أصعب على الأمم التي انتشرت فيها الإباحة، من أمر الشك في الأنساب، أو قبولها للطعن.

وليس أقسى على الإنسان، من أن يُطعن في نسبه، بأي طريق من الطرق، سواء وقع الطعن عليه هو، أم على أجداده وآبائه، أم على أولاده. فهذا إيذاء يندرج تحت إيذاء المسلم بصفة عامة[1].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[2].

لذا وجب على القائمين على التربية والتوجيه التحذير من الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع لما في ذلك من هدم للأمة، وتفريق لوحدتها وقضاء على ثوابتها الأسرية.

ثالثًا: التربية على آداب الحزن في الإسلام:

يجب على المتربين والمتعلمين أن يعلموا أن الأمة العظيمة تكون قوية في أفراحها، قوية في أحزانها، لا تضعفها المصائب، ولا تزعزعها النوائب كالجبال الراسيات لا تنال منها الأحداث إلا بمثل ما تنال من الجبال الرياحُ الشديدةُ.

لهذا كله رسم لنا الإسلام منهجًا تربويًا في النوازل ينبغي أن نتبع خطاه ولا نبتعد عنه قيد شعرة إذا كنا من ذوي الإيمان الصحيح والعزيمة القوية.

ولما كانت غالبية الناس تنسى نفسها عند المصائب وتخرج عن طورها في النائبات حتى تقع في شر عملها، وتضاعف من مصيبتها وتظهر بمظهر القلق المضطرب والنائح

(١) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٨٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

الصارخ، جاءت السنة النبوية تربي أبناءها وجيل أمتها على التزام آداب الحزن ومنع ما استحكم من عادات جاهلية، والتي من أبرزها، النياحة على الميت[1]، لذا منعها الإسلام -كمنهج تربوي- وبين أنها من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية، وذلك في قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ» ثم ذكر ﷺ من ذلك: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه بيان أن النياحة على الموتى من التقاليد التي حاربها الإسلام، لما تحوي بين طياتها مظاهر من الغلو في إظهار الحزن والجزع[2]، والذي بدوره يؤدي إلى إظهار رفض ما قدره الله على العباد من ابتلاءات، وفي ذلك هلاك الإيمان وضياع الصبر اللذان يعينان المتربي على مواجهة مشكلات الحياة وتقلبات الزمان.



---

(١) نحو أسرة مسلمة، محمد مهدي الاستانبولي، ١٢٠ بتصرف يسير.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان، ٢/٩٩٠ بتصرف.

٢٧٦- باب النهي عن الغش والخداع

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: ٥٨].

الحديث رقم (١٥٨١)

١٥٨١- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: **((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا))**. رواه مسلم[1].

وفي رواية لَهُ[2]: أنَّ رسول الله ﷺ، مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أصابعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ: **((مَا هذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟))** قَالَ: أصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رسول الله. قَالَ: **((افَلاَ جَعَلْتَهُ فَوقَ الطَّعَامِ حَتَّى يرَاهُ النَّاسُ! مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا[3]))**.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

الصُّبْرَةَ: الكُومة المجتمعة من الطعام (البُرّ)[4].

أصابته السماء: أي المطر، وسمي المطر سماءً لأنه ينزل من السماء[5].

الشرح الأدبي

الحديث أسلوبه خبري يعلق الخروج عن الأمة المحمدية على حمل السلاح ضد المسلمين، وقوله (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ) كناية عن قتال المسلمين، وقوله (فَلَيْسَ مِنَّا " قَدْ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ: الْخُرُوجَ عَنْ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ إذَا حَمَلَ " عَلَيْنَا " عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ: كَانَ

---

(١) برقم (١٠١/١٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٢٥).

(٢) برقم (١٠٢/١٦٤). أورده المنذري في ترغيبه (٢٦٢٦).

(٣) لفظ مسلم: (منّي) والمثبت لفظ الترمذي (١٣١٥)، تبع المؤلف فيه المنذري في ترغيبه.

(٤) النهاية في (ص ب ر).

(٥) النهاية في (ص و ب).

قَوْلُهُ "فَلَيْسَ مِنَّا" كَذَلِكَ، وَقَدْ وَرَدَ مِثْلُ هَذَا فَاحْتَاجُوا إِلَى تَأْوِيلِهِ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ ((مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا))، وَقِيلَ فِيهِ : لَيْسَ مِثْلَنَا ، أَوْ لَيْسَ عَلَى طَرِيقَتِنَا ، أَوْ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ، وفي الرواية الثانية جاء استفهام الرسول ﷺ (ما هذا يا صاحب الطعام؟) إنكارا وتوبيخا لتكاسل الرجل واستهانته بإظهار العيب الذي لحق بطعامه ظنا منه أنه شيء بسيط، لكن الرسول ﷺ كعادته في علاج أمته يقف بكل حسم أمام الخطأ مهما كانت بساطته حتى لا يكبر ويتفشى ويصير وباء، وهو بذلك يؤسس مبدأً عظيماً من مبادئ الإسلام، وهو الأمانة التي يجب أن يتعامل على أساسها كل مسلم فضلا عن كل مؤمن، ولذلك جاءت جملة الختام لافتة مدوية (من غشنا فليس منا) تصعيداً للإنكار وترهيباً وتهديداً بخروج الغاش من ربقة الإسلام ورفقة المؤمنين.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١-حكم الغش: أجمع الفقهاء على تحريم الغش شرعًا، وأن فاعله مذموم عقلاً، لما فيه من الإضرار بالغير[١].

٢-حكم حمل السلاح على المسلمين: مذهب أهل السنة والفقهاء أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاصٍ ولا يكفر بذلك، فإن استحله كفر[٢].

وقال الصنعاني: (والحديث دليل على تحريم قتال المسلم والتشديد فيه، وأما قتال البغاة من أهل الإسلام فإنه خارج من عموم هذا الحديث بدليل خاص)[٣].

---

(١) التاج الإكليل ٣٤٤/٤، وتكملة المجموع للسبكي ٣١/١٢، سبل السلام ٩٦٨، نيل الأوطار ١٠٢٠، الموسوعة الفقهية ٢١٩/٣١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠٨/٢.

(٣) سبل السلام ٧٦، وانظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد ٣٨٣ - ٣٨٤.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: حرمة حمل السلاح على المسلم والغش.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

رابعًا: من واجبات الداعية: إنكار المنكر.

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث: "من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا"، وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة النافعة في الدعوة إلى الله، حيث يلفت انتباه المدعو ويشده إلى معرفة الجواب، ويبين له مدى ارتباط الشرط بالجواب، فالجزاء من جنس العمل، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط، قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: حرمة حمل السلاح على المسلم والغش:

يتضح هذا من الحديث: "من غشنا فليس منا"، وقوله: "من حمل علينا السلاح فليس منا"، وهذا يدل على حرمة حمل السلاح على المسلمين، والغش لهم، قال ابن حجر: "والمراد من حمل السلاح عليهم لقتالهم لما فيه من إدخال الرعب عليهم، لا من حمله لحراستهم مثلاً، فإنه يحمله لهم لا عليهم، وقوله: "فليس منا"، أي على طريقتنا، وأطلق اللفظ مع احتمال إرادة أنه ليس على الملة، للمبالغة في الزجر والتخويف"[3].

قال المازري: "لا حجة فيه لمن يقول: إن العاصي خرج من الإيمان، لأنه يحتمل أن يكون أراد من فعل ذلك مستحلاً له، أو ليس منا بمعنى ليس بمتبع هدينا ولا سنتنا،

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٣) فتح الباري ١٢/٢٠٥.

كما يقول القائل لولده: لست مني إذا سلك غير أسلوبه"[١].

وقال القرطبي: "وقوله "من حمل علينا السلاح فليس منا" أي: من حمل علينا السلاح مقاتلاً كما في الرواية الأخرى: "من سلّ علينا السيف فليس منا"[٢]، ويعني بذلك النبي ﷺ نفسه وغيره من المسلمين، ولاشك في كفر من حارب النبي ﷺ وعلى هذا فيكون قوله عليه الصلاة والسلام "فليس منا" أي: ليس بمسلم بل هو كافر، وأما من حارب غيره من المسلمين متعمدًا مستحلاً من غير تأويل فهو أيضًا كافر كالأول، وأما من لم يكن كذلك، فهو صاحب كبيرة إن لم يكن متأولاً تأويلاً مسوّغًا.

ومذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من المسلمين بارتكاب كبيرة ما عدا الشرك، وعلى هذا فيحمل قوله عليه الصلاة والسلام "ليس منا" في حق مثل هذا على معنى: ليس على طريقتنا ولا على شريعتنا، إذ سنة المسلمين وشريعتهم التواصل والتراحم لا التقاطع والتقاتل، ويجرى هذا مجرى قوله عليه الصلاة والسلام "من غشنا فليس منا"، ونظائره، وتكون فائدته الردع والزجر عن الوقوع في مثل ذلك[٣].

وقال النووي: ومذهب أهل السنة والفقهاء هو أن من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاص ولا يكفر، فإن استحله كفر. فأما تأويل الحديث فقيل: هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملة. وقيل: معناه ليس على سيرتنا الكاملة وهدينا، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يكره قول من يفسره بليس على هدينا ويقول: بئس هذا القول، يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر[٤].

وقال د. الحسيني هاشم: وحَمْل السلاح: كناية عن البغى والخروج عن جماعة المسلمين، ومعنى غشنا: أخفى الباطل بالحق، وفي الحديث التحذير من البغى والظلم

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/٧٣.

(٢) أخرجه مسلم ٩٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٥٨.

باستعمال القوة، وغش المسلمين والتحايل عليهم بغير حق[1].

وأما في التحذير من الغش كما جاء في الحديث فقد قال ابن علان: (ومن الغش خلط الجيد بالرديء ومزج اللبن بالماء، وترويج النقد الزغل، وقوله: "فليس منا" أي: ليس على هدينا ومن أهل طريقتنا، وفي الحديث ما يوجه إلى السلامة من الغش الذي هو أقبح الأوصاف القاطعة لرحم الإسلام الموجبة، لكون المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ومن قطع رحم الإسلام خشى عليه الخروج من عدادهم، كما ينشأ عن ذلك ما هو مقرر في شرعنا. والمراد بالغش هنا كتم عيب المبيع أو الثمن، والمراد بعيبه هنا، كل وصف يعلم من حال آخذه أنه لو اطلع عليه لم يأخذه بذلك الثمن الذي يريد بذله فيه)[2].

وقال السعدي: "إن الصدق والأمانة في المعاملات سبب لحصول الرزق وبركته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[3]. فرتب على التقوى التي أساسها الصدق وأداء الأمانة في المعاملة التيسير والخروج من كل ما ضاق على الناس، وفتح أبواب الرزق، وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: ((البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما))[4].

وإنما كان الصدق والبيان، وأداء الأمانة في جميع المعاملات سببًا للبركة وتيسير أبواب الرزق لأمرين مهمين.

أحدهما: وعد الله ووعد رسوله والله لا يخلف الميعاد، أن من سلك الطرق التي أمر بها، وتجنب ما نهى عنه، بارك الله له في سعيه ورزقه من حيث لا يحتسب، وفتح له من خزائن جوده وكرمه مالا يناله الناس بسعيهم وجدهم وحذقهم، وهذا أمر رباني وجزاء إلهي مشاهد معلوم بالتجربة.

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٤٢.

(٢) دليل الفالحين ١٦٣٣.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٤) أخرجه البخاري ٢٠٧٩، ومسلم ١٥٣٢.

والثاني: أن من عامل الناس وعرفوا منه الصدق والنصح اطمأنوا إليه، وركنوا إلى معاملته، ورغبوا في الأخذ منه وإعطائه، لأن قلوبهم إليه مطمئنة، ونفوسهم إلى أمانته منقادة واثقة، وحاز الاعتبار والشرف اللذين عليهما أسست المعاملات النزيهة الطيبة، وبذلك مشت أسبابه مع الناس.

وكذلك عقد الشركات بين الشركاء، إذا بنيت على الصدق والأمانة، أفادت أهلها خيرًا كثيرًا، فإنه من كان الله معه أيده بعونه وتوفيقه وتسديده؛ وكانت حركاته مقرونة بالنجاح مع ما في اتفاق الشريكين على مصالحهما واجتماع رأيهما، وحصول التشاور الذي هو مدار الأعمال، مع ما يقترن بذلك من التعاون البدني والسعي المشترك من المنافع، ودفع ما يخشى ضرره، كل هذه الأمور أسباب ومفاتيح لحصول الرزق وبركته ونمائه.

وضد ذلك إذا بنيت المعاملات والشركات على الكذب، وعدم النصح، وحصول الغش والخيانة، فإن الله ينزع بركته ويحل المحق بدل ذلك، وتتأخر المعاملة؛ وتنحط بالخيانة والكذب، وهذا كله مشاهد مجرب[1].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: "ما هذا ياصاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفيد المدعو، حتى ينتج حوارًا بينه وبين الداعية، ويلفت انتباه المدعو، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [2]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3] .

رابعًا - من واجبات الداعية: إنكار المنكر:

حيث جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها"،

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، ص٢١٦، ٢١٧.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

وقوله "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس"، وإنكار المنكر من أهم واجبات الداعية قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١]، وذم الله بني إسرائيل لتركهم المنكر، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[٢]، "وعلى الداعية عند إنكار المنكر، أن ينهي المدعو بالحكمة، ويعرفه أن ما هو عليه قولاً أو فعلاً منكر لا تقبله الشريعة، وأن يوضح للمدعو الأجر المترتب على ترك المنكر وأنه أجر عظيم، وأن يحذر المدعو من العقاب الأليم إذا استمر في منكره"[٣].

قال د. عبدالكريم زيدان: "وإزالة المنكر قولاً وفعلاً، إزالة لما يمنع الخير أو الحق، فإن المنكر في الأرض يدفع من الحق بقدره أو أكثر، فكان زواله أو إزالته تيسيرًا لتحقيق الحق والخير بين الناس. ولابد من الفقه والعلم بما يراد إزالته من المنكر، وكذلك الرفق في إزالته، وتجب ملاحظة المصالح والمفاسد، وتزاحمهما قبل الإقدام على إزالة منكر بعينه، ليعرف الداعي ما يترتب عليه من أضرار أو منافع"[٤].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨-٧٩.

(٣) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ١٦٩.

(٤) أصول الدعوة ٤٨٢، ٤٨٣.

الحديث رقم (١٥٨٢)

١٥٨٢- وعنه: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: ((لاَ تَنَاجَشُوا)) متفق عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

لا تناجشوا: من النجش، وهو الزيادة في ثمن السلعة ولا يريد شراءها، ولكن ليغرّر بغيره ليشتريها بالثمن المرتفع[٢].

الشرح الأدبي

هذا الحديث وسابقه يدور حول النهي عن النجش وقد ورد في الحديث الأول بنهي مباشر في أسلوب إنشائي في قوله: (ولا تناجشوا)، وفي الحديث الثاني جاء بأسلوب الخبر المنقول عن الرسول ﷺ (نهى رسول الله ﷺ عن النجش)، والتناجش: هو تفاعل من النجش قال أبو عبيدة: هو أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، ولكن ليسمعه غيره فيزيد، والنجش في الحديث إذاعته، واستخراج الشيء والبحث عنه[٣]. وعلى ذلك فنهى الرسول ﷺ عن التناجش من باب تطهير المجتمع من كل ما من شأنه أن يحدث الشقاق والخصام المؤدى إلى القطيعة؛ لأن النجش بهذه المعانى لا يخلو من الخداع والمخاتلة، التي توغل الصدور وتنمى الكراهية بين المتناجشين، ومن ثم ورد نهي الرسول ﷺ عن هذا الفعل نهياً صريحاً مباشراً، واتصال الفعل المنهي عنه بواو الجماعة يفيد العموم دلالة على خطره و(التناجش) من أفعال الجوارح، والرسول ﷺ بهذا النهي ينقى المجتمع المسلم من تبعات الخديعة إذا فسرنا التناجش بمعنى أن يزيد الرجل ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها خداعاً لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم (١٤١٣/٥٢)، وهو جزء من حديث تقدم برقم ٢٣٥.

(٢) معجم لغة الفقهاء ٤٤٥.

(٣) لسان العرب، لابن منظور ٤٣٥٣/٦، مادة "نجش".

فقه الحديث

١- حكم النجش: لا خلاف بين الفقهاء في أن النجش حرام[1] إذا ترتب على حصوله زيادة أو نقص في ثمن السلعة عن قيمتها، وأن الناجش عاصٍ بفعله إذا قام به من تلقاء نفسه، أما إذا كان النجش باتفاقٍ بينه وبين أحد المتعاقدين، فإن الإثم يكون مشتركًا بينهما ولا يختص به الناجش وحده[2].

٢- أثر النجش على العقد من حيث الصحة والفساد: ذهب جمهور الفقهاء الحنفية، والمالكية في المشهور، والشافعية، والحنابلة في المذهب إلى القول بأن العقد مع النجش صحيح يثبت به الملك ويجب به الثمن[3]. واستدلوا على ذلك بعموم قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[4]. فهي تدل على مشروعية البيع بكل صوره، ولأن النهي عن النجش يعود إلى الناجش لا إلى العقد أو العاقدين، وهو خارج عن العقد فلم يؤثر في صحة العقد قياسًا على البيع وقت النداء[5].

وذهب بعض المالكية والحنابلة في رواية وطائفة من أهل الحديث وبه قال عمر بن عبدالعزيز، إلى القول بأن العقد مع النجش باطل ولا يفيد الملك بل يجب فسخه[6].
واستدلوا بأن بالنهي الوارد في أحاديث الباب يقتضي فساد العقد[7].

---

(١) بدائع الصنائع ٥/٢٣٣، وتبيين الحقائق ٤/٦٧، والمعونة على مذهب عالم المدينة ٢/٥٨، وبلغة السالك ٢/٣٤، والحاوي الكبير ٥/٣٤٣، وروضة الطالبين ٣/٤١٤، والمبدع في شرح المقنع ٤/٧٨، والعدة في شرح العمدة ٢١٥.

(٢) حاشية الدسوقي والشرح الكبير ٤/١٠٩،و الأم ٣/٩١، وفتح الباري ٤/٤٣٤، وسبل السلام ٣/٢٨، ونيل الأوطار ٥/١٦٦.

(٣) بدائع الصنائع ٥/٢٣٢، بداية المجتهد ٢/١٣٤، الحاوي الكبير ٥/٣٤٣، المبدع في شرح المقنع ٤/٧٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٥) العناية على شرح الهداية ٥/١٠٨، والمهذب ١/٢٩١، والمغني ٤/٢٧٨، والمبدع في شرح المقنع ٤/٧٨.

(٦) المعونة ٢/٥٨، والمبدع في شرح المقنع ٤/٨٠، وتكملة المجموع ١٢/٨٧، وفتح الباري ٤/٤٣٥، وسبل السلام ٣/٢٨، ونيل الأوطار ٥/١٦٦.

(٧) المعونة ٢/٥٨، والمغني ٤/٢٧٨، والمبدع في شرح المقنع ٤/٨٠.

ويناقش هذا: بأن النهي في الأحاديث لا يقتضي فساد العقد قياسًا على البيع وقت النداء[١]، كما أن النهي في الحديث عائد إلى الناجش لا إلى العقد أو العاقد، والناجش خارج عن العقد فلم يؤثر في صحته[٢].

وذهب الحنابلة في رواية إلى القول ببطلان العقد إذا كان النجش بمواطأة البائع[٣]. واستدلوا على ذلك بأن البائع أحد ركني العقد، فارتكابه النهي يفسد البيع بخلاف الأجنبي[٤].

ويناقش هذا: بأن النهي عن النجش يعود إلى الناجش لا إلى العقد أو العاقدين، وهو خارج عن العقد فلم يؤثر في صحة العقد قياسًا على البيع وقت النداء[٥].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء.

٣-أثر النجش على العقد من حيث اللزوم وعدمه: ذهب الحنفية، والشافعية في الأصح، والحنابلة في رواية إلى القول بلزوم العقد وعدم ثبوت الخيار للمشتري[٦]. واستدلوا على ذلك بأن المشتري قد فرط في ترك التأمل حيث اشترى ما لا يعرف قيمته، ولم يرجع في ذلك إلى أهل الخبرة ممن يعرفون ثمن المبيع، فصح العقد منه ولزم[٧].

ويمكن أن يناقش هذا: بأن المشتري قد لا يستطيع الرجوع إلى أهل الخبرة إما لعدم توافر الوقت لديه أو لعدم معرفته بهم، أو لعدم تواجدهم في السوق حال إبرام العقد، كما أنه قد يكون تعاقد بناءً على تغرير الناجش فهو إذن غير مفرط، وفي ثبوت الخيار له مندوحة لدفع الضرر الواقع عليه دون إضرار بالبائع.

---

(١) المهذب للشيرازي ٢٩١/١.

(٢) العناية شرح الهداية ١٠٨/٥، المهذب ٢٩١/١، الأم ٩١/٣، المغني ٢٧٨/٤، المبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

(٣) المبدع في شرح المقنع ٨٠/٤، شرح الزركشي على مختصر الخرقي ٦٤٣/٣.

(٤) المبدع في شرح المقنع ٨٠/٤.

(٥) العناية على الهداية ١٠٨/٥، والمهذب ٢٩١/١، والمغني ٢٧٨/٤، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

(٦) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١٠٠/٣، ١٠١، وحاشية الشلبي ٦٩/٤، ومغني المحتاج ٣٧/٢، روضة الطالبين ٤١٤/٣، والمبدع في شرح المقنع ٧٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٠/٣.

(٧) المهذب ٢٩١/١، ومغني المحتاج ٣٧/٢، والمغني ٢٧٨/٤، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤.

وذهب المالكية، والشافعية في مقابل الأصح، والحنابلة في المذهب إلى القول بعدم لزوم العقد وثبوت الخيار للمشتري[١]. واستدلوا على ذلك بأن الناجش دلس على العاقد فثبت له الخيار، كما لو دلس عليه بعيب[٢].

والراجح هو رأي المالكية ومن معهم، لأن هذا الرأي يتفق مع مبادئ العدالة التي تقضي برفع الظلم عن المظلوم، وذلك بثبوت الخيار للطرف المتضرر.

المضامين الدعوية[٣]

أولاً: من موضوعات الدعوة: النهي عن النجش.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النهي.

أولاً- من موضوعات الدعوة: النهي عن النجش:

ذلك واضح من الحديثين: قال عبدالله البسام: "النجش معناه: أن يزيد الإنسان في السلعة لا لقصد شرائها، وإنما لقصد الإضرار بالمشتري برفع ثمنها عليه، أو لنفع البائع بزيادة الثمن له، وهو حرام، وإذا تحقق خُيّر المشتري بين الإمساك ورد البيع، لما ناله من الخديعة والمكر وزيادة الثمن"[٤].

قال ابن قدامة: "النجش: أن يزيد في السلعة لا يريد شراءها ليقتدي به المستام، فيظن أنّه لم يزد فيها هذا القدر إلا وهي تساويه، فيغتر بذلك، فهذا حرام وخداع، قال البخاري: الناجش آكل ربا خائن، وهو خداع باطل لا يحلّ ... ولأن في ذلك تغريرًا بالمشتري وخديعة له، وقد قال النبي ﷺ: "الخديعة في النار"[٥].

---

(١) مواهب الجليل والتاج والإكليل على هامشه ٣٧٧/٤-٣٧٨، وحاشية الدسوقي ١١٠/٤، ومغني المحتاج ٣٧/٢، وروضة الطالبين ٤١٤/٣، والمبدع في شرح المقنع ٧٨/٤-٧٩، ومطالب أولي النهى ١٠٠/٣.

(٢) بداية المجتهد ١٣٤/٢، والمهذب ٢٩١/١.

(٣) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث -١٥٨٢- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٨٣).

(٤) توضيح الأحكام ٣٣١/٦ وانظر التعريفات للجرجاني، ص٢٩٥.

(٥) المغني ٣٠٤/٦-٣٠٥.

وعبارة البخاري في صحيحه أنه بّوب في كتاب البيوع: باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع[1] ثم قال: وقال ابن أبي أوفى: "الناجش آكل ربا خائن" وهو خداع باطل لا يحلّ. قال النبي ﷺ: "الخديعة في النار، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ".

وقال ابن حجر في شرح هذا: "قوله: "باب النجش" بفتح النون وسكون الجيم بعدها معجمة، وهو في اللغة: تنفير الصيد واستثارته من مكانه ليصاد، وفي الشرع: الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. سمى بذلك لأن الناجش يثير الرغبة في السلعة ويقع ذلك بمواطأة البائع فيشتركان في الإثم، ويقع ذلك بغير علم البائع فيختص بذلك الناجش، وقد يختص به البائع، كمن يخبر بأنه اشترى سلعة بأكثر مما اشتراها به ليغر غيره بذلك[2] كما سيأتي من كلام الصحابي في هذا الباب. وقال ابن قتيبة: النجش: الختل والخديعة، ومنه قيل للصائد ناجش لأنه يختل الصيد ويحتال له. قوله: ومن قال: "لا يجوز ذلك البيع" كأنه يشير إلى ما أخرجه عبدالرزاق من طريق عمر بن عبدالعزيز: "إن عاملاً له باع سبيًا فقال له: لولا أني كنت أزيد فأنفقه لكان كاسدًا، فقال له عمر هذا نجش لا يحل، فبعث مناديًا ينادي: إن البيع مردود وإن البيع لا يحل، قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن الناجش عاص بفعله... قوله: وقال ابن أوفى: الناجش آكل ربا خائن هذا طرف من حديث أورده المصنف في الشهادات في " باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[3].

ثم ساق فيه من طريق السكسكي عن عبدالله بن أبي أوفى قال: أقام رجل سلعته فحلف بالله لقد أعطى فيها ما لم يعط فنزلت. قال ابن أبي أوفى: الناجش آكل ربا خائن، أورده من طريق يزيد بن هارون عن السكسكي[4]. وقد أخرجه ابن أبي شيبة

---

(١) وأخرج تحته الحديث ٢١٤٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن النجش.

(٢) قال ابن قدامة: لو قال: أعطيت بهذه السلعة كذا وكذا، فصدقه المشتري واشتراها بذلك ثم بان كذبه فالبيع صحيح، وللمشتري الخيار أيضًا، لأنه في معنى النجش المغنى ٣٠٥/٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦٧٥، قال حدثني إسحاق أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام قال: حدثني إبراهيم أبو إسماعيل السكسكي.

وسعيد بن منصور عن يزيد مقتصرين على الموقوف، وأخرجه الطبراني من وجه آخر عن ابن أبي أوفى مرفوعًا لكن قال: "ملعون" بدل خائن أهـ. وأطلق ابن أبي أوفى على من أخبر بأكثر مما اشترى به أنه ناجش، لمشاركته لمن يزيد في السلعة وهو لا يريد أن يشتريها في غرور الغير، فاشتركا في الحكم لذلك وكونه آكل ربا بهذا التفسير، وكذلك يصح على التفسير الأول إن واطأه البائع على ذلك وجعل له عليه جعلاً فيشتركان جميعًا في الخيانة، وقد اتفق أكثر العلماء على تفسير النجش في الشرع بما تقدم، وقيد ابن عبدالبر وابن العربي وابن حزم التحريم بأن تكون الزيادة المذكورة فوق ثمن المثل، قال ابن العربي: فلو أن رجلاً رأى سلعة رجل تباع بدون قيمتها فزاد فيها لتنتهي إلى قيمتها لم يكن ناجشًا عاصيًا بل يؤجر على ذلك بنيته، وقد وافقه على ذلك بعض المتأخرين من الشافعية، وفيه نظر إذ لم تتعين النصيحة في أن يوهم أنه يريد الشراء وليس من غرضه، بل غرضه أن يزيد على من يريد الشراء أكثر مما يريد أن يشتري به، فللذي يريد النصيحة مندوحة عن ذلك، أن يعلم البائع بأن قيمة سلعتك أكثر من ذلك ثم هو باختياره بعد ذلك، ويحتمل أن لا يتعين عليه إعلامه بذلك حتى يسأله للحديث الآتي "دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض، فإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه"[1]. والله أعلم قوله: وهو خداع باطل لا يحل، هو من تفقه المصنف، وليس من تتمة كلام ابن أبي أوفى، وقد ذكرنا توجيه ما قاله المصنف قبل. قوله: قال النبي ﷺ: الخديعة في النار، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"، أما الحديث الثاني فسيأتي موصولاً من حديث عائشة في كتاب الصلح[2].

وأما حديث الخديعة في النار، فرويناه في "الكامل لابن عدي" من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "المكر والخديعة في النار"

---

(١) أخرجه أحمد ٤١٩/٣، رقم ١٥٤٥٥ من حديث حكيم بن أبي يزيد قال حدثني أبي مرفوعًا: "دعوا الناس يصيب بعضهم من بعض، فإذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه. وقال محققو المسند: حديث صحيح لغيره أهـ، وانظر تتمة تخريجه في ١٩٣/٢٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٧٥، ومسلم ١٧١٨ واللفظ لمسلم.

لكنت من أمكر الناس، وإسناده لا بأس به. وأخرجه الطبراني في "الصغير" من حديث ابن مسعود والحاكم في "المستدرك" من حديث أنس وإسحق بن راهويه في مسنده من حديث أبي هريرة وفي إسناد كل منهما مقال، لكن بمجموعهما يدل على أن للمتن أصلاً، وقد رواه ابن المبارك في "البر والصلة" عن عوف عن الحسن قال: "بلغني رسول الله ﷺ قال: فذكره[1]. قوله "عن النجش" تقدم أن المشهور أنه بفتح الجيم وحكى المطرزي فيه السكون"[2].

ومما هو جدير بالذكر أن مجمع الفقه الإسلامي الدولي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي قد حرّم النجش وذلك في دورته الثامنة التي عقدت في بروناي دار السلام ١-٧ المحرم ١٤١٤هـ، ٢١-٢٧ يونيو ١٩٩٣م وقد أصدر قرارًا بذلك جاء فيه:

"النجش حرام، ومن صوره:

أ- أن يزيد في ثمن السلعة من لا يريد شراءها ليغري المشتري بالزيادة.

ب- أن يتظاهر من لا يريد الشراء بإعجابه بالسلعة وخبرته بها، ويمدحها ليغرّ المشتري فيرفع ثمنها.

ج- أن يدعي صاحب السلعة أو الوكيل أو السمسار ادعاءً كاذبًا أنه دُفِع فيها ثمن معين ليدلس على من يسوم.

د- ومن الصور الحديثة للنجش المحظورة شرعًا، اعتماد الوسائل السمعية والمرئية والمقروءة، التي تذكر أوصافًا رفيعة لا تمثل الحقيقة، أو ترفع الثمن لتغر المشتري وتحمله على التعاقد"[3].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥٨٤/٤ من حديث قيس بن سعد رضي الله عنه والحاكم ٦٠٧/٤ من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن حبان ٥٦٧ والطبراني في الكبير ١٠٢٣٤ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه البزار ١٠٣، كشف الأستار وابن عدي ١٦٣٤/٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في المراسيل ١٦٥ عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وانظر حاشية المحققين على تفسير القرطبي ٣٩٩/١٧ ط الرسالة.

(٢) فتح الباري ٣٥٥/٤-٣٥٦ ط السلفية.

(٣) نقلًا عن توضيح الأحكام ٤٧٤/٤.

ثانيًا - من أساليب الدعوة: النهي:

ذلك في قوله ﷺ "لا تناجشوا"، أي لا تفعلوا النجش[1]. كما جاء النهي أيضًا عن طريق إخبار الصحابي عن نهي النبي ﷺ عن ذلك. وجاء النهي عن النجش ليحمي المعاملات بين المدعوين من الغش والخديعة والاحتيال، مما ينتج عنه العداوة والبغضاء وأكل الأموال بالباطل.

(١) انظر: الموسوعة الفقهية ١١٨/٤٠، ومراجعها ومصادرها.

الحديث رقم (١٥٨٣)

١٥٨٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ، نَهى عن النَّجْشِ. متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣).

غريب الألفاظ:

النجش: الزيادة في ثمن السلعة، ولا يريد شراءها ولكن ليغرر الآخرين فيشتروها بسعر مرتفع[2].

المضامين الدعوية[3]

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٢)، ومسلم واللفظ له (١٥١٦/١٢).

(٢) معجم لغة الفقهاء ٤٤٥.

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥٨٤)

١٥٨٤- وعنه، قَالَ: ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَنَّهُ يُخْدَعُ في البُيُوعِ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ: ((مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ)). متفق عَلَيْهِ[١].

(الخِلاَبَةُ) بخاءٍ معجمةٍ مكسورةٍ وباءٍ موحدة، وهي: الخديعة.

ترجمة الراوي:

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

لا خلابة: لاخداع[٢].

الشرح الأدبي

الرسول ﷺ لا يسكت عن خطأ يراه أو يخبر عنه إلا قوّمه وقصة هذا الرجل الذي يخدع في البيوع من هذه النوعية، وقول الرسول ﷺ (مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ : لاَ خِلاَبَةَ) ومعنى لا خلابة لا خديعة أي لا تحل لك خديعتي أو لا يلزمني خديعتك وهو علامة صفاء تغرس الثقة بين المتبايعين بحيث لا يخدع أحدهما الآخر وتقوم المعاملة بينهما على الصدق فيبارك لهما.

فقه الحديث

١-حكم البيع بشرط الخيار: اتفق الفقهاء على جواز البيع بشرط الخيار[٣].

٢-حكم ثبوت الخيار للمغبون: ذهب جمهور الفقهاء، الحنفية، والمالكية في الأصح، والشافعية في الأصح والحنابلة في قول ضعيف إلى القول بعدم ثبوت الخيار

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٧)، ومسلم (١٥٣٣/٤٨) واللفظ له.

(٢) النهاية في (خ ل ب).

(٣) العناية شرح الهداية ٢٩٨/٦، والاختيار ١٤/٢، والمنتقى شرح الموطأ ١٠٨/٥، المجموع شرح المهذب ٢٢٤/٧، والمغني ٢٢/٤، والفروع لابن مفلح ٩٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٢/٣، وفتح الباري ٤١٤/٤.

للمشتري بالغبن[١]. وقالوا إن الحديث الوارد في الباب خاصٌ بحبّان بن منقذ، فلا يقاس عليه[٢].

وذهب المالكية في رواية، والحنابلة في الراجح إلى القول بإثبات الخيار للمغبون بشرط أن يبلغ الغبن ثلث القيمة، فإن كان دونه فلا يثبت له الخيار، واستدلوا بحديث الباب[٣].

وذهب ابن حزم إلى أن من قال حين يبيع أو يشتري لا خلابة فله الخيار مطلقًا سواء أكان مغبونًا أم لا، أما إذا قال لفظًا غير لا خلابة كما لو قال لا خديعة أو لا غش أو غيرهما فلا يثبت له الخيار[٤].

والراجح هو الرأي القائل بإثبات الخيار للمغبون غبنًا فاحشًا.

المضامين الدعوية

أولاً: من آداب المدعو: استشارة الداعية.

ثانيًا: من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: البعد عن الخداع في البيوع.

أولاً - من آداب المدعو: استشارة الداعية:

حيث جاء في الحديث: "ذكر رجل لرسول الله ﷺ أنه يخدع في البيوع؟" وهذا يدل على استشارته لرسول الله ﷺ عن أنه يخدع في البيوع، وقد قال الله لنبيه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٥]. قال الإمام ابن كثير:

---

(١) بدائع الصنائع ٢٢٦/٥، والاختيار ٣٦/٢، والمنتقى شرح الموطأ ١٠٨/٥، و المجموع شرح المهذب ٢٢٤/٧، والمغني ٢٢/٤، والفروع لابن مفلح ٩٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٢/٣، فتح الباري ٤١٣/٤، وسبل السلام ٤٩/٢.

(٢) المغني ٢٢/٤.

(٣) المنتقى شرح الموطأ ١٠٨/٥، والمنتقى ٢٢/٤، والفروع ٩٩/٤، ومطالب أولي النهى ١٠٢/٣.

(٤) المحلى ٣١٦/٧-٣١٧.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

"كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييبًا لقلوبهم ليكون فيما يفعلونه أنشط لهم"[١]. قال الإمام الماوردي:

"ومن الحزم لكل ذي لب، ألا يبرم أمرًا، ولا يمضي عزمًا، إلا بمشورة ذي الرأى الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور، فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأى، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشدًا، ولا يطيع مرشدًا. وقال عمر بن عبدالعزيز: إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم"[٢].

ثانيًا- من مهام الداعية: إرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

حيث جاء في الحديث: «مَنْ بَايَعْتَ فَقُلْ: لاَ خِلاَبَةَ» فأرشده النبي ﷺ إلى ما يفعله إزاء خداعه في البيع من الناس، وإرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم من أولى مهام الداعية، ذلك لأنهم يتوسمون فيه الخير دائمًا، ويثقون فيما يقول لهم، وقد بين النبي ﷺ ثواب من يرشد ويدل على الخير وعلى ما ينفع الناس، فعن ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ[٣] بِي فَاحْمِلْنِي. فَقَالَ: «مَا عِنْدِي» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَنَا أَدُلُّهُ عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ أو قَالَ عَامِله»[٤]. جاء في موسوعة نضرة النعيم: "لا تخفي حاجة المجتمعات والأفراد إلى الإرشاد والتوجيه والدلالة، على الخير وأبوابه، وبهذا المعنى الواسع، فإن الإرشاد بمعنى الهداية والتعليم والوعظ، من الأمور المهمة في الحياة"[٥].

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: البعد عن الخداع في البيوع:

يتضح هذا من سياق الحديث، قال ابن حجر: وقوله "لا خلابة"، أي: لا خديعة،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٤٩/٢.

(٢) أدب الدنيا والدين ٢٨٩.

(٣) أبْدِعَ بي: أي هلكت دابتي وهي مركوبي. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ٣٩/١٥.

(٤) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٥) موسوعة نضرة النعيم ١٧٩/٢.

والمراد لا خديعة في الدين لأن الدين النصيحة، قال العلماء: لقنه النبي ﷺ هذا القول ليتلفظ به عند البيع، فيطلع به صاحبه على أنه ليس من ذوي البصائر في معرفة السلع ومقادير القيمة، فيرى له كما يرى لنفسه لما تقرر من حض المتبايعين على أداء النصيحة"[1]، وقال شرف الحق العظيم آبادى: "وكان الناس في ذلك أحقاء لا يغبنون أخاهم المسلم، وكانوا ينظرون له كما ينظرون لأنفسهم"[2]. ومن هنا وجب على الدعاة أن يوجهوا الناس إلى البعد عن الخداع في البيع والشراء وسائر التعاملات، لأن ذلك ليس من أخلاق أهل الإسلام".

قال المازري: ذكر قوله ﷺ للرجل الذي شكا إليه أنه يخدع في البيوع، فقال ﷺ: "من بايعت فقل لا خلابة".

قال: غبن المسترسل وهو المستسلم لبيعه ممنوع، وإذا وقع فله القيام ولا يلزمه الغبن، وإن لم يستسلم لبيعه وما كسبه وكان بصيرًا بالقيمة عارفًا بها فلا قيام له، لأنه يكون حينئذ كالواهب لما غبن فيه وإن كان غير بصير بالقيمة، فهذا موضع اختلاف الأئمة.

وقد تجاذبوا الاستدلال بالكتاب والسنة واستدلوا أجمعون بقوله عز وجل: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[3]. فقال من أثبت الخيار بالمغابنة، إن إمضاءها عليه أكل المال بالباطل، وقد نهت عنه هذه الآية.

وقال: من أمضى البيع عليه فإن ذلك عن تراض وقد استثنته هذه الآية.

وكذلك أيضًا تجاذبوا هذا الحديث، فقال بعضهم: فإنه ﷺ أثبت له الخيار في بعض طرق هذا الحديث؛ فذلك يدل على ما قلناه من إثبات الخيار للمغبون.

وقال: من أمضى عليه المغابنة لو كان له ذلك بمجرد الغبن ما افتقر إلى الشرط، وهو قوله: "لا خلابة". ورجع من أثبت الخيار مذهبه بما قدمناه في حديث النهي عن تلقي

---

(١) فتح الباري ٤/٣٩٦.

(٢) عون المعبود ١٤٩٧.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٩.

الركبان، لأنه ﷺ أثبت للجالب الخيار إذا جاء إلى السوق، قالوا: وليس ذلك إلا للغبن وقد تقدم كلامنا على هذا الحديث في موضعه، فإذا قلنا بإثبات الخيار بالمغابنة، فإنما ذلك فيما خرج عن المعتاد منها، الذي لا تكاد تسلم منه البياعات، وقد حده بعض أصحابنا بالثلث، لأن أكثر البياعات لا تسلم من الغبن اليسير، ولهذا انتصب التجار، وعليه يقع أكثر البياعات، وكأن المغبون على ذلك دخل.

وقد قال بعض الناس: في هذا الحديث دلالة على أن الكبير إذا سفه لا يحجر عليه. وقال بعضهم: هذا لا تعلق لهم فيه لأنه لا يجب الحجر على المغبون وانتزاع ماله من يده إذا كان ممسكًا له، ولكنه ينهي عن التجارة المؤدية لإضاعته.

وقوله: "كان الرجل إذا بايع يقول: "لا خيابه" أشار بعضهم إلى أنه كان ألثغ فلهذا غَيَّر الكلمة"[1].

قال القاضي عياض: (وهذا الرجل هو حبان بن منقذ بن عمرو الأنصاري، والد يحيى، وواسع بن حبان، شهد أحدًا، وقيل: بل هو منقذ أبوه، وكان قد أتى عليه مائة وثلاثون سنة، وكان شج في رأسه في بعض مغازيه مع النبي ﷺ على بعض الحصون بحجر مأمومة، تغير منها لسانه وعقله، وذكر الدارقطني: أنه كان ضرير البصر، وروى أن النبي ﷺ جعل له هذه الثلاث، وكان أكثر مبايعته بالدقيق، شهر فيها وتبين غبنه. وقد روى أيضًا أن النبي ﷺ جعل له مع هذا خيار ثلاثة أيام فيما اشتراه، أو في كل سلعة ابتعاها.

وقد اختلف الناس في معنى هذا الحديث، فبعضهم جعله خاصًا لهذا الرجل وغيره، وأن المغابنة بين الناس ماضية وإن كثرت، وهو قول مالك والشافعي وأبي حنيفة، وقيل: للمغبون الخيار لهذا الحديث إذا كثرت، وإليه ذهب البغداديون من المالكيين وحددوها بالثلاث، وصار الحديث عامًا متعديًا.

وقد اختلف الأصوليون في قضايا الغبن، هل تعدى أم تقصر إلا بدليل؟ وقد اختلف

---

(١) المعلم بفوائد مسلم ١/٥٠٨، ٥٠٩.

المذهب عندنا فيمن يخدع في البيوع، هل يضرب على يديه أم لا؟ وقال بعضهم: فيه حجة على إمضاء بيع من لا يحسن النظر لنفسه وشرائه ما لم يحجر عليه، وفي مذهبنا في ذلك وغيره اختلاف معلوم[1].

وإذا كان قد ثبت خيار الشرط من خلال هذا الحديث (فإن حكمة تشريع الخيار: هو تلافي النقص الحاصل بعد تخلف شريطة لزوم العقد. وذلك بعد أن تحققت شرائط الانعقاد والصحة والنفاذ، أي أن الخيارات الحكمية لتخفيف مغبة الإخلال بالعقد في البداية لعدم المعلومية التامة، أو لدخول اللبس والغبن ونحوه مما يؤدي إلى الإضرار بالعاقد، أو في النهاية كاختلال التنفيذ.

فالغاية من الخيارات الحكمية تمحيص الإرادتين، وتنقية عنصر التراضي من الشوائب، توصلاً إلى دفع الضرر عن العاقد.

والغرض من الخيارات هو التأمل في صلوح الشيء له وسد حاجته في الشراء، وذلك للترفيه عن المتعاقد لتحصيل مصلحة يحرص عليها. والتروي سبيله أمران: "المشورة" للوصول إلى الرأي الحميد، أو الاختبار وهو تبين خبر الشيء بالتجربة أو الاطلاع التام على كنهه، قال ابن رشد: "والخيار يكون لوجهين: لمشورة واختبار المبيع، أو لأحد الوجهين. ويقول بعدئذ: العلة في إجازة البيع على الخيار وحاجة الناس إلى المشورة فيه، أو الاختبار.

وهناك ثمرة عملية أخرى لتحديد الغرض من الخيار، تلك هي أن أمد الخيار -وهو عند المالكية ملحوظ فيه العرف والعادة- شديد الارتباط بالغرض من الخيار. فإذا كانت العلة في إجازة المبيع على الخيار حاجة الناس إلى المشورة فيه، أو الاختبار، فحده قدر ما يختبر فيه المبيع، ويرتأى فيه ويستشار على اختلاف أجناسه، وإسراع التغير إليه وإبطائه عنه.. فأمد الخيار في البيع إنما هو بقدر ما يحتاج إليه في الاختبار والارتياء، مع مراعاة إسراع التغير إلى المبيع وإبطائه عنه، خلافًا للشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله في قولهما: إنه لا يجوز الخيار في شيء من الأشياء فوق ثلاث[2].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١٦٥/٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، ٤٦/٢٠، ٤٧.

الحديث رقم (١٥٨٥)

١٥٨٥- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : ((مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ، أَوْ مَمْلُوكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا)). رواهُ أَبُو داود[1].

(خَبب) بخاءٍ معجمة، ثُمَّ باءٍ موحدة مكررة: أيْ أفْسده وخدعه.

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

خبب: خدع، وأفسد[2].

الشرح الأدبي

الحديث خبري قصير خال من المؤكدات يسوق المعنى في هدوء، وثقة حتى يتم المعنى، والخب : الخداع، وهو الساعي بالفساد بين الناس رجل خب وامرأة خبة وقد تكسر خاءوه والمصدر بالكسر لا غير ومنه الحديث لا يدخل الجنة خب ولا خائن ومنه الحديث الآخر الفاجر خب لئيم ومنه الحديث من خبب امرأة أو مملوكا على مسلم فليس منا أي خدعه وأفسده كذا في النهاية والمجمع، وقوله : (من خبب زوجة امرئ) أي خدعها وأفسدها أو حسن إليها الطلاق ليتزوجها أو يزوجها لغيره أو غير ذلك (أو مملوكه) أي أو أمته أي أفسده عليه وقوله (فليس منا) نفي لكونه من المؤمنين يحرم به من رفقة الصالحين.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الإفساد بين الزوجين والخديعة.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: إصلاح ذات البين.

---

(١) برقم (٥١٧٠). وصحّحه ابن حبان (الإحسان ٥٦٨). أورده المنذري في ترغيبه (٢٩٨٨).

(٢) النهاية في (خ ب ب).

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث" من خبب زوجة امرئ أو مملوكه فليس منا" وأسلوب الشرط من أساليب الدعوة النافعة في إرشاد المدعوين، حيث يلفت انتباه المدعو ويشده إلى معرفة الجواب، ويبين مدى ارتباط الشرط بالجواب، فالجزاء من جنس العمل، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(٢).

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: خطورة الإفساد بين الزوجين والخديعة

حيث جاء في الحديث "من خبب زوجة امرئ أو مملوكة فليس منا" قال ابن الأثير: "والخب هو الخداع"، وهو الرجل الذي يسعى بين الناس بالفساد، وقوله في الحديث "خبب امرأة أو مملوكًا" أى خدعه وأفسده"(٣).

وقال شرف الحق العظيم آبادي: وقوله: "من خبب زوجة امرئ : أي خدعها وأفسدها أو حسن إليها الطلاق ليتزوجها أو يزوجها لغيره أو غير ذلك " أو مملوكه"، أى أو أمته أى أفسده عليه بأن لاط أو زنى به، أو حسن إليه الإباق أو طلب البيع ونحو ذلك، وقوله "فليس منا" أى ليس من العاملين بأحكام شرعنا"(٤).

وقال ابن علان: "ومعنى خبب أى: أفسدها عليه وأوقع بينهما الشقاق والتنافر فحملها على الخروج عن طاعته، والمراد بقوله "ليس منا" أى: ليس على هدينا لأن شأن المؤمن التعاون والتناصر وهذا بخلافه"(٥).

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٤.

(٣) النهاية ٢٥١.

(٤) عون المعبود ٢٢٠١.

(٥) دليل الفالحين ١٦٣٤.

وقال د. الحسيني هاشم: "وفي الحديث التحذير من إفساد النساء والخدم والعبيد والعمال بإغرائهم وإفسادهم على من هم من أتباعه"(١).

جاء في الموسوعة الفقهية: "والتخبيب مصدر خبّب ومعناه في اللغة إفساد الرجل عبدًا أو أمة لغيره أو صديقًا على صديقه، وتخبيب زوجة الغير خداعها وإفسادها أو تحسين الطلاق إليها ليتزوجها أو يزوجها غيره، والتخبيب لا يكون إلا في الشر وهو حرام، وأما عقوبة المخبب فلا خلاف بين الفقهاء في أن المعصية التي لاحد فيها ولا كفارة عقوبتها التعزير بما يراه الإمام مناسبًا، وفعل المخبب هذا لا يخرج عن كونه معصية لا حد فيها ولا كفارة"(٢).

ثالثًا - من أهداف الدعوة: إصلاح ذات البين:

إن الإسلام يدعو إلى الألفة والتجانس، والبعد عن العداوة والتباعد، ومن ثم حث أتباعه على ضرورة السعي بالإصلاح وترك الإفساد وما يؤدي إلى الخلاف والشقاق، ويتضح هذا من سياق الحديث، حيث حذر النبي ﷺ من يسعى بالتحريض والإفساد بين الزوجين أو بين العبد وسيده.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾(٣)، "فنهى سبحانه وتعالى عن طاعة الهماز الطعان، العياب المغتاب، الذي يمشي بين الناس بالوشاية والإفساد، لأنه باعث الفتن، وزارع الإحن، ومقطع الصلات، ومفرق الجماعات، يجعل الصديقين عدوين، والأخوين أجنبيين، والزوجين متنافرين، والولد حربًا لأبيه، والأب ضدًا لبنيه، فهو غراب بين، ونذير شر، وحمال حطب، ومشعل لهب. فكانت طاعته حرامًا، ونهيه لزامًا. فإياك أن تأخذ قوله مسلمًا، وترتب عليه عداء وتخاصمًا؛ فإنه فاسق. وقد أمرنا الله تعالى بالتثبت في خبره والتحري عن صدقه، قال

---

(١) شرح رياض الصالحين ٢ ٧٤٢.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية ١١/١٨-٢٠.

(٣) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.

سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[1]، بل إن كنت مؤمنًا كريمًا فلا تشغل نفسك بحديث الأنمّاء، ولا تضيع من وقتك في تسمع أخبار السفهاء. وظن الخير بإخوانك وأقربائك، واتهم النمام الجهول؛ بل قبح له عمله وبغض إليه نمّه، وقل له لا تفسد بيني وبين إخواني، ولا تبغض إلى أعواني، وخير لك أن تذكر ما يزيد الصلة متانة، وعرا الإخاء وثاقة، وإن من ينقل عن غيرك إليك أحاديث السوء، ينقل عنك إلى غيرك، فلا تجعله موضعًا لثقتك، واجعل وشايته دبر أذنك.

واعلم أن نقل الأنباء قد تكون فيه مصلحة شرعية، ومنفعة عمومية. كمن ينقل إلى شخص مكيدة[2]، يدبرها له الخصوم من قتل أو سرقة؛ وكمن يعرف الأئمة والملوك سيرة الحكام الظالمين، والموظفين الخائنين، فهذا لا حرج فيه بل ذلك واجب، حقنًا للدماء[3]، والأموال، ونصحًا للرعية والولاة. والدين نصيحة.

وقد بين الرسول ﷺ أن الجنة لا يدخلها قتات، لأنها دار المتقين، وهذا من المجرمين، ما لم يكن له من الحسنات ما يمحو أثر السيئات، أو الغرض من العبارة التحذير من القت، والتنبيه إلى خطر النم؛ أو المراد: لا يدخلها أول الأمر. حتى يطهر بالنار من خبث الوزر؛ ثم يدخلها طاهرًا طيبًا[4].

والذي يسعى بالفساد بين الزوجين أو بين العبد وسيده، إنما هو يلجأ إلى الكذب لتحقيق ما يصبو إليه.

"والكذب من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٢٠.

(٢) مكيدة: خديعة

(٣) حقنًا للدماء: حقن دم فلان: منعه أن يسفك.

(٤) الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ١٣٢.

يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا»[١]. والكلام وسيلة إلى المقاصد.

فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة.

فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب، أو إصلاح ذات البين إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن.

لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه، فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه،وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حرامًا في الأصل إلا لضرورة.

قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أو يَقُولُ خَيْرًا»[٢].

والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه.

قال النبي ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٣].

والكذب: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، وهو من سيء الأخلاق: والكذب من صفات المنافقين كما قال النبي ﷺ: «آيةُ المُنافِقِ ثلاثٌ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أؤْتُمِنَ خان»[٤].

والكذب ضربان: كذب في الأقوال، وكذب في الأفعال.

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٩٢ واللفظ له، ومسلم ٢٦٠٥.

(٣) أخرجه البخاري ١١٠، ومسلم ٣.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣، ومسلم ٥٩.

فكما يكون الصدق والكذب في الأقوال يكونان في الأفعال، فقد يفعل الإنسان فعلاً يوهم به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة.

والكذب في الأقوال أكثر من الأفعال؛ لسهولته، والكذب كله شر، والكذب في الأقوال خطير، وربما كان الكذب في الأفعال أشد خطرًا وأقوى تأثيرًا من الكذب في الأقوال، كما حكى الله من أقوال وأفعال إخوة يوسف حين ألقوه في الجب: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

فجمعوا بين كذب القول... وكذب الفعل.

ورخص الشرع في الكذب في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل مع امرأته، وحديث المرأة مع زوجها، وذلك على طريق التورية والتعريض دون التصريح به، كما سئل النبي ﷺ ممن أنت؟ فقال: "من ماء؟".

فورى عن الإخبار بنسبه بأمر محتمل.

وكما سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في طريق الهجرة عن الرسول ﷺ فقال: هاد يهديني السبيل، فظنوا أنه يعني هداية الطريق، وهو إنما يعني هداية سبيل الخير.

وأسباب الكذب ودواعيه كثيرة، ومنها:

جلب النفع، ودفع الضر، فيرى الكذاب أن الكذب أسلم وأغنم فيرخص فيه لنفسه؛ طمعًا في حصول ما يريده به.

ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبًا، وكلامه مستظرفًا، فلا يجد صدقًا يعذب، فيستحلي الكذب الذي يسهل اجتراره، وتطرب الآذان عند سماعه.

ومنها حب الترأس، وذلك أن الكاذب يرى له فضلاً على المخبر بما أعلمه، فهو

---

(١) سورة يوسف، الآيتان: ١٦-١٨.

يتشبه بالعالم الفاضل في ذلك.

ومنها أن يكون الكذب له عادة، ونفسه إليه منقادة، فهو يألف دواعي الكذب ويستملحه.

ومنها أن يقصد بالكذب التشفي من عدوه، فيسميه بقبائح يخترعها عليه، ويصفه بفضائح ينسبها إليه.

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها، ويعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ثم يهلك.

والكذب داء لا يصلح منه جد ولا هزل، يمزق الأمم، ويقطع الأرحام، وتؤكل به الحقوق، وتنتهك الحرمات، ويهدي إلى الفجور، كما قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ. فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ. وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»[1].

وقال ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكم بأكبَر الكبائر (ثلاثًا)؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالِدَين - وجلَسَ وكان مُتَّكِئًا فقال -: ألا وقولُ الزُّورِ. قال: فما زال يُكَرِّرُها حتّى قلنا: لَيتَهُ سَكَتَ»[2][3].

إن الإسلام حينما يمنع الإفساد في هذه الدائرة الضيقة، وهي دائرة الزوجة والعبيد والخدم، فإنما ذلك من أجل إقامة الوحدة الإسلامية في صورتها الأوسع والأكمل.

"ولقد حرص الإسلام على أن يقيم علاقة الجماعة المسلمة على أساس تقوية الروابط، وإصلاح ذات البين، ليجعل من المسلمين أمة قوية يحسب حسابها، ويرهب

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٥٤ واللفظ له، ومسلم ٨٧.

(٣) موسوعة فقه القلوب، محمد إبراهيم التويجري، ٣١٣٨-٣١٤١.

جانبها. ويوم أن كان المسلمون ينفذون هذه التعاليم، ويقيمون علاقتهم على هذه القواعد كانت رابطتهم أقوى من أن تحل، ووحدتهم أعصى من أن ينال منها عدو.

فلما فقدوا هذا الإحساس، وخمد فيهم هذا الروح، بدأ الضعف يدب في صفوفهم، وأخذت الفرقة تعمل عملها فيهم، مما نجم عنه أن أصبحت بلادهم نهبًا للاستعمار، ومناطق نفوذ لمن لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة.

وكان أن انقسم الوطن العربي، والعالم الإسلامي، أشلاء ممزقة، وأجزاء موزعة. وبدلاً من أن تكون الأخوة والوحدة هما الرباط القوي بين هذه الشعوب الكثيرة العدد، الواسعة الرقعة، الغنية بما وهبها الله من ثروات، فشت فيهم هذه الإقليمية المحدودة المفرقة، وما هي إلا نعرة من نعرات الجاهلية؛ ودعوة من دعوات العصبية التي حاربها الإسلام.

ولئن كان ذلك جائزًا بين الأمم الكافرة، التي لا تجد من الروابط الأدبية ما يجمع شتاتها، غير هذه الروابط المادية؛ فما يجوز ذلك بين شعوب تظللها كلمة التوحيد، ويقول كتابها: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1]. ويقول نبيها: «وكونوا عباد الله إخوانا»[2].

ولقد أدرك قادة الإصلاح هذه المبادئ، وعرفوا آثارها في الحاضر والمستقبل، فرأوا أن عليهم واجبًا؛ وأن لهم رسالة؛ وأنهم مسئولون عن إيجاد كيان موحد؛ يقف كالطود في وجه الأعداء؛ ويصد غارات المعتدين والغرباء، فدعوا إلى الوحدة وإلى التكتل والتجمع، وإلى النضال المشترك ضد الصهيونية والاستعمار، وما هذه الدعوة إلا إحياء لهذه الحكمة النبوية: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[3].

والغاية التي استهدفها الإسلام من أجل إقامة هذا الكيان، هي ما ذكره الله في قوله من سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾[4])[5].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠٦٥، ومسلم ٢٥٥٩.

(٣) أخرجه البخاري ٤٨١، ومسلم ٢٥٨٥.

(٤) سورة الحج، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

(٥) عناصر القوة في الإسلام، الشيخ السيد سابق، ١٩٢-١٩٣

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية الاجتماعية:

إن من أهداف التربية الاجتماعية السامقة، إيجاد الترابط بين المسلمين، لذا نهى الإسلام عن الغش في الأقوال والأفعال والسلوك، ليظل هناك ترابط وقوة بين المسلمين، بدلاً من إفساد الود والحب بسبب الآثار الجانبية الناتجة عن الغش، والخداع.

إن من أهم ما ينبغي أن يركز عليه القائمون على التوجيه والتربية اجتناب كافة وسائل وأساليب الغش في الحياة، والتحذير من العواقب الوخيمة لهذا الأمر، لأن ذلك يتنافى مع القيم والمبادئ الإسلامية، ويعد الغش من الصور السلبية في التعامل التي يجب على المسلم أن يربي نفسه على البعد عنها، واجتنابها والحذر من الوقوع فيها، ولذا أراد النبي ﷺ أن يعالج تلك الظاهرة الاجتماعية الخطيرة فأعلن التبرؤ ممن يقوم بغش المسلمين في قوله ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

ومن أجل إبعاد المسلمين عن كل ألوان الغش، نهى رسول الله ﷺ في حديث الباب عن النجش -في أن يزيد إنسان في البيع ليقع غيره فيه- وذلك في قوله ﷺ: «لا تناجشوا»، وقد أكد النبي ﷺ في أحاديث الباب على أهمية الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم، بل وحذر في ذلك أشد التحذير بالنسبة لمن يفسد زوجة إنسان عليه، أو يفسد عليه خادمه أو مملوكه، وذلك في قوله ﷺ: «من خبب زوجة امرئ....إلخ».

لذا ينبغي للقائمين على التربية والتوجيه أن يبرزوا منهج التربية الإسلامية في علاج ظاهرة الغش وأشكالها وصورها مما يؤدي إلى فقد الثقة بين المسلمين، وانتشار العداوة والبغضاء بينهم نتيجة تلك الممارسات الشاذة التي تنم عن عدم الالتزام بالمبادئ والقيم الإسلامية، وحالة الإفلاس الأخلاقي التي تنجم عنها هذه السلوكيات السلبية.

ثانيًا: التوجيه غير المباشر:

لقد أرسى النبي ﷺ معالم التربية الإسلامية، واستطاع أن يصوغ هذا المجتمع

الإسلامي المتلاحم المتماسك الذي يراقب الله تعالى في كافة الأمور والتي من جملتها المعاملات الجارية بين الناس والتي تتم بصور مختلفة، وإذا كان النبي ﷺ قد نهى عن الغش في كافة صوره وأشكاله، لأن ذلك يؤدي في العاجل إلى الكسب الحرام الذي سرعان ما يمحق وتعقبه الخسارة والندامة، فإنه ﷺ يوجه بأسلوب غير مباشر إلى التعامل المبني على الوضوح والصدق والشفافية، وبذل الأسباب المشروعة لتحصل الرزق الحلال، والوصول إلى الغايات المحمودة بالوسائل المشروعة، لأن ذلك أدعى لمرضاة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ، وسبب لحصول البركة، لأن المسلم حينما يتأدب بهذا الآداب الإسلامية ويوطن نفسه على هذا النمط التربوي السوي، يعيش في سلام نفسي، وانسجام ومحبة مع نفسه وإخوانه وجيرانه ومجتمعه، وكل من يتعامل معه.

ولذا فإن النبي ﷺ يوجه بأسلوب غير مباشر إلى أهمية الصدق والوضوح في المعاملات وهذا لا يتأتى بالطبع إلا إذا ابتعد الإنسان ونأى بنفسه عن مظاهر الغش والخداع، ومن الشواهد العملية على ذلك في حديث الباب قوله ﷺ: «... مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» - وذَلِكَ بعْد أنْ نَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً عنْدمَا وضَعها في طَعَام - قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

ثالثًا: التربية بالترهيب:

إن التربية بالترهيب من أبرز الأساليب التربوية تأثيرًا في النفوس، وهذا ما أكدته أحاديث الباب حيث رهّب النبي ﷺ من الغش والخداع، وذلك في قوله ﷺ: «... مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، وقوله ﷺ: «من خبب زوجة امرئ.... فليس منا» والترهيب هو التخويف للحمل على ترك فعل أو اعتقاد، أو تصور، وهو يقوم على وعيد بعقوبة أو حرمان منفعة، إذا لم يلتزم بما أمر به أو نهى عنه[1].

ومن الملاحظ في التربية بالترهيب ألا يلجأ إليها المربي إلا بعد أن يستنفذ وسائل الترغيب والثواب فهو آخر وسيلة للتربية إن لم تنفع الموعظة والتوجيه والإرشاد والملاطفة والاقتداء، فيكون العقاب بعد ذلك.

---

(١) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي، ٣٩٣.

وللترهيب في العملية التربوية درجات تبدأ من الكف عن التشجيع "وهذه في ذاتها عقوبة لمن كان يتلقى التشجيع من قبل"، إلى الإعراض المؤقت وإعلان عدم الرضا، إلى العبوس والتقطيب والزجر بصوت غاضب إلى المخاصمة الطويلة والمقاطعة "أو التهديد بالمقاطعة" إلى الحرمان من الأشياء المحببة للمتربي "أو التهديد بالحرمان منها"، إلى التهديد بالإيذاء، إلى الضرب الخفيف إلى الضرب الموجع، وتلك أقصى درجات الترهيب والعقاب"[1].



(١) تربية الطفل في الإسلام، د. أحمد محمود الحمد، ٢٢٤.

٢٧٧- باب تحريم الغدر

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة: ١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[الإسراء: ٣٤].

الحديث رقم (١٥٨٦)

١٥٨٦- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((أرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمرو بن العاص: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٣٨).

غريب الألفاظ:

خَصْلة: شعبة وصفة[2].

النفاق: إظهار الإيمان وإخفاء الكفر[3].

فَجَر: انبعث في الكذب والفسق والعصيان[4].

الشرح الأدبي[5]

المضامين الدعوية[6]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤) واللفظ له، ومسلم (٥٨)، وتقدم برقم (٦٩٠، ١٥٤٥). أورده المنذري في ترغيبه (٤٣٢٦).

(٢) النهاية في (خ ص ل).

(٣) النهاية في (ن ف ق).

(٤) النهاية في (ف ج ر)، وعمدة القاري ١٣/٦.

(٥) تقدم ذكره في شرح الحديث رقم (٦٩٠).

(٦) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم (٦٩٠).

الحديث رقم (١٥٨٧)

١٥٨٧- وعن ابن مسعودٍ، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم قالوا: قَالَ النَّبيّ ﷺ: ((لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ: هذِهِ غَدْرَةُ فلانٍ)) متفق عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

انس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

عبدالله بن مسعود: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٣٦).

غريب الألفاظ:

لواء: اللواء في الأصل بمعنى الراية، والمعنى في الحديث علامة يشهر بها في الناس لأن موضوع اللواء شهرة مكان الرئيس[2].

الشرح الأدبي

هذا الحديث والذي يليه يدور حول الترهيب من الغدر لأنه من الأخلاق الذميمة التي نهى عنها الإسلام، وهذا الحديث يشير إلى موقف من مواقف الخزي للغادر يوم القيامة، وقد تصدر الحديثين لفظ الشمول (كل) المتصل باللام، واللام للملكية، والاختصاص ولفظ الشمول يعطي الحكم اطرادا يشمل كل أفراد الأمة حتى تقوم الساعة تحذيرا من التلبث بهذا الذنب، والغادر هو الذي يعد، ولا يوفي، وقوله (لواء) قال أهل اللغة اللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب دعوة الجيش ويكون الناس تبعا له قالوا فمعنى لكل غادر لواء أي علامة يشهر بها في

---

(١) حديث ابن مسعود أخرجه البخاري (٣١٨٦)، ومسلم (١٢/١٧٣٦) واللفظ له.

وحديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١١/١٧٣٥). تنبيه: حديث ابن عمر أورده المنذري في ترغيبه (٤٤١٧).

وحديث أنس، أخرجه البخاري (٣١٨٧)، ومسلم (١٤/١٧٣٧). تنبيه: حديث ابن مسعود، مع أنس أخرجه البخاري جمعًا، ومسلم مفرقًا.

(٢) النهاية في (ل و أ).

الناس؛ لأن موضوع اللواء الشهرة مكان الرئيس علامة له وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحافلة لغدرة الغادر لتشهيره بذلك وأما الغادر فهو الذي يواعد على أمر ولا يفي به) وقوله في الحديث الأول (يَوْمَ القِيَامَةِ) يشير إلى عظمة الهول لأن هذه أكبر فضيحة يمكن أن تلحق بخائب في الدنيا، أو الآخرة، لاجتماع كل الخلائق، واشتداد الحر وكثرة العرق، وبحث الجميع عن مخرج، وزاد في الحديث الثاني قوله (عند استه) وهو يبين شدة قربه منه لمزيد الإهانة له، والتشهير به، وهو عذاب معنوي يتبعه عذاب حسي، وقوله (بقدر غدرته) يربط درجة الذنب بجزائه حتى يعلم كل فرد أنه يستقل أو يستكثر من سبب فضيحته، وقوله (يُقَالُ : هذِهِ غَدْرَةُ فلانٍ) فيه مزيد تشهير به زيادة في إهانته بالصوت، والصورة، وقوله فلان بن فلان كناية عن ندائه باسمه، وقوله في الحديث الثاني (ألاَ وَلاَ غَادِرَ أعْظَمُ غَدْراً مِنْ أمِيرِ عَامَّةٍ) وألا للتنبيه والأسلوب بعدها أسلوب نفي لأن يكون هناك غدر أعظم من غدر الأمير لأنه يعظم به الخطب وتعم به البلوى، بالإضافة إلى أنه لا يحتاج إلى الخداع .

المضامين الدعوية[1]

أولاً : من أساليب الدعوة: الترهيب.

ثانيًا : من موضوعات الدعوة: التحذير من الغدر.

ثالثًا : من موضوعات الدعوة: تحذير الحاكم من الغدر برعيته.

أولاً- من أساليب الدعوة: الترهيب:

يتضح هذا من سياق الحديثين حيث رهّب رسول الله ﷺ من الغدر؛ بأن لكل غادر لواء يوم القيامة يشتهر به ليدل على فضيحته وشناعة أمره. ومما لاشك فيه أن أسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفس المدعو وترهبه من المخالفات الشرعية، "والترهيب هو كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله، ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله

(١) تم دمج المضامين لهذا الحديث -١٥٨٧- مع المضامين الدعوية للحديث رقم (١٥٨٨).

وعذابه في الآخرة"[١]، هذا "وإن النفوس البشرية مختلفة الطباع، منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، ولهذا جاء القرآن والسنة بالأسلوبين، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس، كل حسب ما يناسبه، على أن يقدموا الترغيب، لأنه فعل إيجابي ومطلوب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين"[٢].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: التحذير من الغدر:

حيث جاء في الحديثين قوله في الأول: "لكل غادر لواء بوم القيامة" وقوله في الحديث الثاني: "لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة يرفع له بقدر غدره".

قال النووي: "الغادر هو الذي يواعد على أمر ولا يفي به، واللواء الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس تبعًا له، قالوا: فمعنى لكل غادر لواء، أى علامة يشتهر بها في الناس لأن موضوع اللواء الشهرة مكان الرئيس علامة له، وكانت العرب تنصب الألوية في الأسواق الحفلة لغدرة الغادر لتشهيره بذلك"[٣].

وقال ابن حجر: "قال ابن المنير: كأن الغادر عومل بنقيض قصده، لأن عادة اللواء أن يكون على الرأس، فنصب عند السفل زيادة في فضيحته، لأن الأعين غالبًا تمتد إلى الألوية، فيكون ذلك سببًا لامتدادها إلى التي بدت له ذلك اليوم، فيزداد بها فضيحته"[٤].

وقال ابن علان: "وينشر له اللواء زيادة في فضيحته وشناعة أمره وشهرته بذلك في ذلك الملأ العام"[٥]. ولاشك أن كل هذا يبين خطورة الغدر وعدم الوفاء.

ومما يدل على تحريم الغدر ما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

(٢) فقه الدعوة، د. بسام العموش، ٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم ١١١٧.

(٤) فتح الباري ٣٢٨/٦.

(٥) دليل الفالحين ١٦٣٥.

اللّه ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَٰذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»[1].

قال القاضي عياض: وقوله: "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، يقال: هذه غدرة فلان"، وفي بعض طرقه: "يعرف به"، وفي آخر"يرفع له عند استه". وفي آخر: "بقدر غدرته، ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة": أصل رفع اللواء للشهرة والعلامة، ولهذا قال: "لكل غادر لواء بقدر غدرته"، ولما كان الغدر مكتومًا ومستترًا به شهر به صاحبه، وكشف ستره لتتم فضيحته، ويتشنع ذلك معاقبة كما شهر امرؤ القيس في الآخرة بلواء الشعر، وبعد ذلك في الفخر والمجد شهرة نبينا ﷺ بلواء الحمد، واشتمل عليه عموم الحمد باسمه محمد وأحمد، فيكون من المبالغة في حمد فعاله وخصاله، ومن المبالغة في حمده هو نعم ربه وثناؤه عليه، كما قال: "فأحمده بمحامد" ثم يفتح عليه فيه من المحامد ما لم يعط غيره، ويبعثه ربه المقام المحمود كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون، وسمى أمته الحامدين. وفي هذا كله دليل على قبح الغدر، والوعيد الشديد عليه، لاسيما في معاهدة العدو.

وقد رأى بعض أهل العلم الجهاد مع الولاة الظلمة، وإن جاروا ولم يقسموا الغنائم وغير ذلك؛ إذ لو ترك الجهاد معهم لتغلب العدو، إلا إذا كانوا يعدون ويجهزون لهذا الذي قدمناه - والله أعلم - ورأى بعضهم الجهاد معهم على كل حال، وأباه بعضهم على كل حال[2].

وقال القرطبي: (قوله: "لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له" هذا منه ﷺ خطاب للعرب بنحو ما كانت تفعل؛ وذلك": أنهم يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليشهروا به الوفي، فيعظموه، ويمدحوه، والغادر فيذموه، ويلوموه بغدره. وقد شاهدنا هذا فيهم عادة مستمرة إلى اليوم، فمقتضى هذا الحديث: أن الغادر يفعل به مثل ذلك؛ ليشهر بالخيانة والغدر، فيذمه أهل الموقف، ولا يبعد أن يكون الوفي بالعهد يرفع له

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٦/٣٩.

لواء يعرف به وفاؤه وبره، فيمدحه أهل الموقف، كما يرفع لنبينا محمد ﷺ لواء الحمد فيحمده كل من في الموقف.

وقوله: "بقدر غدرته" يعني: أنه إن كانت غدرته كبيرة عظيمة رفع له لواء كبير، عظيم، مرتفع، حتى يعرفه بذلك من قرب منه ومن بعد.

وقوله: "عند استه" معناه - والله أعلم - : عند مقعده؛ أي: يلزم اللواء به، بحيث لا يقدر على مفارقته ليمر به الناس فيروه، ويعرفوه، فيزداد خجلاً، وفضيحة عند كل من مر به)[١].

إن المسلم الحق يعرف الوفاء، ولا يعرف الغدر، فإن الغدر ونقض العهود والمواثيق من شيم أهل النفاق والمنافقين.

"إن المؤمن صادق القول، وَفِيُّ العهد، ليس الغدر من شيمته، لأنه يخل بنظام الحياة، ويفسد على المرء تدبيره لمصلحته، وهو ضرب[٢] من الكذب. والكذب رأس النفاق. وإضرار بمن عاهده. ولا ضرر ولا ضرار.

وقد بين الرسول ﷺ في هذا الحديث أن الغادر يشهر به على رؤوس الأشهاد يوم القيامة حيث العالم كله مجتمع، فينصب له لواء، ويرفع له علم في الموقف بحيث تراه العيون. ويقال: هذه غدرة فلان بن فلان؛ تشنيعًا [٣]عليه وتقبيحًا وتوبيخًا له وتعذيبًا؛ وتصور أنك في حفلة جامعة. وأنك بين يدي مليك؛ ثم نادى مناد هذا فلان المجرم؛ هذا الذي غدر، هذا الذي كذب؛ ألا تكاد تصعق[٤] من هذه النسبة، إن كانت كاذبة فما بالك بها إن كانت صادقة؟ فإذا كان هذا الأثر في مجتمعاتنا الخاصة، فما بالك بالمحشر العام الذي لا يدع مخلوقًا -من يوم أن كان آدم عليه السلام إلى أن يورث الله الأرض ومن عليها- إلا ضمه ذلك الموقف، الذي يتجلى فيه رب العالمين ويحاسب كل إنسان

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣/ ٥٢٠.

(٢) ضرب: صنف ونوع.

(٣) تشنيعًا: شنع فلانًا: عابه وفضحه.

(٤) تصعق: صعق الرجل: غُشي عليه وهلك.

على الصغير والكبير؛ لاشك أن العذاب مبرح والهول مفزع؛ إذ تقول: ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله؛ وهذا اللواء المرفوع قد يكون لواءً حقيقيًا، فيه رمز لصاحبه، وإشارة إلى غدرته، وقد يكون الغرض إشهار الغدرة من غير ملاحظة أن يكون هناك لواء مرفوع.

والغرض من الحديث التنفير من الغدر، وبيان أنه جريمة كبيرة، وأن صاحبه عند الله مهين وعذابه أليم(١).

وقال شهاب الدين الأبشيهي: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه كن عليه؛ البغي والنكث والمكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(٤)، وكم أوقع القدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف، وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر. ويشهد لصحة هذه الأسباب ما جاء في القرآن من قصة الذي عاهد الله ثم غدر ولم يف بعهده، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(٥).

---

(١) الأدب النبوي، الشيخ محمد عبدالعزيز الخولي، ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) سورة يونس، آية: ٢٣.

(٣) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٤) سورة فاطر، آية: ٤٣.

(٥) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٨.

ومما يشتهر على الألسنة أن هذه الآيات نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري البدري، وهي قصة باطلة منكرة. قال ابن حجر: وفي كون صاحب هذه القصة إن صح الخبر، ولا أظنه يصح هو البدري المذكور قبله نظر.

وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول بن الكلبي إن البدري استشهد بأحد. =

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقًا يخزيه يوم فاقته وفقره. فأي خزي أرجح من ترك الوفاء بالميثاق؟ وأي سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق؟ وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوئ الأخلاق؟ وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره، في جنب نيل المكارم. قال الشاعر:

غَدَرْتَ بأمرٍ كنتَ أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمةُ الغدرُ بالعهد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلني الله إن خذلته. فقال ذلك ثلاث مرات. فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد في نفسي أن أمري لا يتم. فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وممن غدر، عبدالرحمن بن ملجم لعنه الله، غدر بعلي رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله. وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله، غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى، ثم غدر به وأخره، وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

= ويقوي ذلك أيضًا أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس في الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلًا يقال له ثعلبة ابن أبي حاطب من الأنصار أتى مجلسًا فأشهدهم؛ فقال: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية، فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة ابن أبي حاطب، والبدري اتفق على أنه ثعلبة بن حاطب، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ». انظر ما أخرجه مسلم ٢٤٩٥. وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر: "اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم"، أخرجه البخاري ٣٠٠٧، ومسلم ٢٤٩٤، فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل، فالظاهر أنه غيره. والله أعلم. (الإصابة، ١٥٦)

وقال الألباني عن كون صاحب القصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري البدري: وهذا حديث منكر على شهرته. وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٣٥/٣) سنده ضعيف. وقال الحافظ في تخريج الكشاف (١٣٣/٧٧/٤) إسناده ضعيف جدًا. انظر لسلسلة الأحاديث الضعيفة، ١١٢/٤] وانظر: [الدر المنثور، ٤٥٧/٧].

أينسى بنو العباس ذبِّي[١] عنهم ... بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها

فتحتُ لهم شرقَ البلاد وغربها ... فذلَّ معاديها وعزَّ نصيرها

أقطِّع أرحامًا علَيّ عزيزة ... وأبدى مكيدات لها وأثيرُها

فلما وضعتُ الأمر في مستقرّه ... ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورُها

دفعتُ عن الأمر الذي استحقّه ... وأوسقَ أوساقًا[٢] من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجأوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت. فجاء ابن عمه يطلبه، فوجده مُلْقىً، فتتبعها حتى قتلها، وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله ... يلاق كما لاقى مجير أم عامرِ[٣]

أعدّ لها لما استجارت ببيته ... أحاليب ألبان اللقاح الدرائرِ

وأسمنَهَا حتى إذا ما تمكنت ... فرته بأنيابٍ لها وأظافرِ

فقل لذوي المعروف هذا جزاء من ... يجود بمعروف على غير شاكر[٤]

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: تحذير الحاكم من الغدر برعيته:

حيث جاء في الحديث الثاني: "ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة"، قال النووي: "وفي هذه الأحاديث بيان غلظ تحريم الغدر، لاسيما من صاحب الولاية العامة، لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثيرين، وقيل لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء، وهذا الحديث وارد في ذم الغادر، قال القاضي عياض وغدره يكون للأمانة التي قلدها لرعيته، والتزام القيام بها والمحافظة عليها، ومتى خانهم، أو ترك الشفقة عليهم، أو

---

(١) الذب: الدفاع.

(٢) أحمل جموعًا.

(٣) مجير أم عامر: من كنى الضبع.

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٧٩-٢٨١ بتصرف.

الرفق بهم، فقد غدر بعهده[1].

قال القرطبي: (قوله: "ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" يعني: أن الغدر في حقه أفحش، والإثم عليه أعظم منه على غيره لعدم حاجته إلى ذلك.

وأيضًا: فَلِمَا في غدر الأئمة من المفسدة، فإنهم إذا غدروا، وعُلِم ذلك منهم، لم يأمنهم العدو على عهد، ولا صُلح، فتشتد شوكته، ويعظم ضرره، ويكون ذلك منفرًا من الدخول في الدين، وموجبًا لذم أئمة المسلمين. وقد مال أكثر العلماء: إلى أنه لا يقاتل مع الأمير الغادر، بخلاف الخائن، والفاسق. وذهب بعضهم إلى الجهاد معه. والقولان في مذهبنا. والله تعالى أعلم)[2].

وقال القاضي عياض: (وقوله: "ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" : لأن غدره متعد إلى كثرة وجماعة، بخلاف غدر الواحد للواحد. وقد يكون تعظيمه لغدر أمير العامة لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته وسلطانه على الوفاء، كما عظم في حقه الكذب في الحديث الآخر في قوله: "ثلاثة لا يكلمهم الله" الحديث، وذكر منهم: "ملك كاذب"[3]، ويكون المراد بغدر أمير العامة، إما الغدر في عهده معه، أو لرعيته بخيانته لهم وقلة حوطته عليهم، وغدره لأمانتهم التي قلدها، وعهدهم الذي لزم عنقه. أو يكون المراد: أن الأمير هو المغدور، كما جاء في الحديث الآخر في الثلاثة الذين لا يكلمهم الله: «ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطى له ما يريد وفى له، وإلا لم يف»[4]. وعظم هذا لإخفائه؛ لأن فيه الخروج على الأئمة، وشق العصا، وإثارة الفتن)[5].

وجاء في فتح الملهم: (وقوله: "بقدر غدره" يعني كلما كان الغدر أعظم، كان اللواء أرفع، وقوله: "ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" لكونه من أكثر الناس قدرة

---

(١) شرح صحيح مسلم ١١١٧.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣/٥٢١.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٣٥٨، ومسلم ١٠٨.

(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٦/٤١.

على الوفاء، والآمال معقودة عليه بذلك، فكلما خيب هذه الآمال بغير عذر استحق وزرًا أكثر من غيره، والله أعلم)[١].

وجاء في الموسوعة الفقهية: "ذهب الفقهاء إلى تحريم الغدر، لأنه من علامات النفاق ومن كبائر الذنوب، ولاسيما إذا كان الغادر من أصحاب الولايات العامة، لأن ضرر غدره يتعدى إلى خلق كثير. وقيل: لأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء.

واستدلوا على تحريم الغدر بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[٢]. وقول النبي ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَإِنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إذا أؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ»[٣].

والغدر محرم بشتى صوره، سواء أكان مع فرد أم جماعة، وسواء أكان مع مسلم أم ذمي أم معاهد.

ويجب على المسلمين الوفاء بشروط العهد مع أهل الذمة والمعاهدين، ما لم ينقضوا العهد، لقوله ﷺ: «المسلمون على شروطهم»[٤]. ولأن أبا بصير رضي الله عنه لما جاء إلى النبي ﷺ، وجاء الكفار في طلبه -حسب العهد- قال له النبي ﷺ: «يا أبا بصير إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك ... فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجًا ومخرجًا»[٥]. ولما روى من أنه «كان بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وبَيْنَ أهلِ الرُّومِ عَهْدٌ، وكانَ يَسِيرُ في بِلَادِهم، حتى إذا انْقَضَى العَهْدَ أغَارَ عليهمْ، فإذا رَجُلٌ على دَابة أو على فَرَسٍ وهو يقولُ اللهُ أكْبَرُ وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ، وإذا

---

(١) تكملة فتح الملهم، محمد تقي العثماني، ٢٧/٩.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣٤ واللفظ له، ومسلم ٥٨.

(٤) أخرجه أبو داود ٣٥٩٤، وقال الألباني حديث صحيح (صحيح سنن أبي داود ٣٠٦٣).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق ابن اسحاق عن مروان والمسور بن مخرمة وإسناده حسن لتصريح بن إسحاق بالتحديث عن الزهري، ٢٢٧/٩، حديث رقم ١٨٨٣١، ص ٢٨٠/٩.

هُوَ عَمْرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه، فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ عن ذلكَ، فقالَ سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَنْ كانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فلا يَحُلَّنَّ عَهْدًا ولا يَشُدَّنَّه[1] حتَّى يَمْضِيَ أمَدُهُ أو يَنْبِذَ إليهِم علَى سَوَاء، قال: فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ بالناسِ»[2]. ولأن المسلمين إذا غدروا وعلم ذلك منهم، ولم ينبذوا بالعهد على سواء، لم يأمنهم أحد على عهد ولا صلح، ويكون ذلك منفرًا عن الدخول في الدين، وموجبًا لذم أئمة المسلمين.

واتفق الفقهاء على أنه إذا دخل كافر حربي دار الإسلام بأمان، فيجب على المسلمين الوفاء له والكف عنه، حتى تنتهي مدة الأمان ويبلغ مأمنه، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[3]. ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عدْلاً»[4][5].

ومما يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الوفاء بالعهد وعدم الغدر ما جاء عن مصعب بن سعد عن أبيه: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم النَّاسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ اقْتُلُوهُمْ وإنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبدُ الله بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعبدُ الله بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبي السَّرْحِ فَأَمَّا عَبْدُ الله بْن خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حَرِيثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحابُ السَّفِينَةِ

---

(١) فلا يحلن عهدًا ولا يشدنه: أي لا يغير عهدًا ولا ينقضه بوجه حتى تنقضي غايته. انظر: تحفة الأحوذي ١٧٠/٥ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) أخرجه الترمذي ١٥٨٠، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ١٢٨٥).

(٣) سورة التوبة، آية: ٦.

(٤) أخرجه البخاري ٧٣٠٠، ومسلم ١٣٧١ واللفظ له.

(٥) الموسوعة الفقهية ١٤٣/٣١، ١٤٤.

أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لاَ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا ههُنَا فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلاَّ الإِخْلاصُ لا يُنَجِينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلأَ جِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ بَايِعْ عَبْدَاللهِ قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا كُلُّ ذلِكَ يَأْبَى فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ ثُمَّ أقبل عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: « مَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هذا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلَهُ» فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ قَالَ: «إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ»[1].

ومما يدل على ذلك أيضًا ما جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ[2]. قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ. قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا؟ فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ. فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ. فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللّهَ عَلَيْهِمْ»[3].

ولقد كان من وصية النبي ﷺ لأمراء جيشه وسراياه أن يقول: ((أغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اُغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا))[4].

ومن خلال هذا يتبين ضرورة أن يتجنب الحاكم الغدر، ويحرص على الوفاء بالعهد والوعد مع رعيته، ومع جميع الناس.

---

(١) أخرجه النسائي ٤٠٧٢، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٣٧٩١).

(٢) هو والد حذيفة بن اليمان رضي الله عنه واليمان لقب له. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١١٥٧.

(٣) أخرجه مسلم ١٧٨٧.

(٤) أخرجه مسلم ١٧٣١.

الحديث رقم (١٥٨٨)

١٥٨٨ - وعن أَبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ((لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ (عِنْدَ اسْتِهِ)[1] يومَ القِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدَرِ غَدْرِهِ، ألاَ وَلاَ غَادِرَ أعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أمِيرِ عَامَّةٍ)). رواه مسلم[2].

ترجمة الراوي:

أبو سعيد الخدري: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٢٠).

غريب الألفاظ:

لواء: اللواء في الأصل بمعنى الراية، والمقصود بها في الحديث: علامة يشهر بها في الناس لأن موضوع اللواء شهرة مكان الرئيس[3].

استه: دبره[4].

الشرح الأدبي[5]

المضامين الدعوية[6]

---

(١) هذه الزيادة عند مسلم برقم (١٧٣٨/١٥). جمعه المؤلف بين اللفظين في حديث واحد.

(٢) (١٧٣٨/١٦). أورده المنذري في ترغيبه (٤٤١٧).

(٣) النهاية في (ل و أ).

(٤) اللسان في (س ت هـ).

(٥) تم دمجه مع الشرح الأدبي للحديث السابق.

(٦) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٥٨٩)

١٥٨٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((قَالَ الله تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ انا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ اعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأجَرَ اجيرًا، فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ اجْرَهُ)). رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

الشرح الأدبي

هذا الحديث يفوح بعبق النبوة، وينضح بأنداء الوحي.. فهو يجمع بين جمال الحديث النبوي،وجلال الحديث القدسي.. حيث يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل.. ولنتأمل هذه البداية المشرقة: عن النبي ﷺ قال: "قال الله تعالى"، ومن جماليات الأداء الأسلوبي في هذا الحديث: الإجمال ثم التفصيل، والإيضاح بعد الإبهام؛ فالقارئ والسامع يزداد تشوقه لمعرفة من هؤلاء الثلاثة الذين باءوا بغضب من الله تعالى، واستحقوا أن يكون الله خصمهم يوم القيامة، وهذا التشويق لإحداث مزيد من التأثير، وسرعة الاستجابة.. والكف عن ارتكاب المخالفات التي تؤدي إلى هذه الخصومة ،وقوله: "أنا"، لإشعار هؤلاء المخالفين بهول الأمر، وفداحة الذنب،وقوله: "خصمهم".. مسند إلى ضمير المتكلم: "أنا"، وهو الله عز وجل، يوحي بأن هذه الخصومة من أعظم الخصومات لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذي يعلن ذلك.

ومن جماليات الأداء الأسلوبي: تكرار لفظ "رجل" ثلاث مرات في الحديث، حيث يتصدر بداية كل جملة من جمل الحديث في مقام التفصيل والإيضاح، وهذا التكرار يؤكد على أن الذين خاصمهم الله عز وجل مكلفون بالغون حملوا الأمانة، ولم يقوموا بحقها، ولفظ "رجل" يوحي بالتكليف وهو للتغليب، فالمرأة إذا ارتكبت هذه المخالفات

---

(١) برقم (٢٢٢٧). أورده المنذري في ترغيبه (٢٨٠٤).

الشرعية تستحق العقاب نفسه، ويكون الله عز وجل خصمها يوم القيامة.

ولنتأمل هذه المفارقات في هذه السلوكيات المخالفة: حيث تكون النتائج مخالفة للمقدمات، وذلك المسلك يخالف الفطرة السليمة، ويتصادم مع القانون الذي ينظم العلاقات بين الأشياء، إن هذا التناقض في السلوك ليس من صفة المسلم وليس من منهج المؤمن، فالعطاء يستلزم الوفاء به، ولكن المفاجأة والمفارقة تحدث في قوله: "ثم غدر"، والتعبير بـ"ثم" يوحي بالتريث والتفكير وتعمد الغدر، والصنف الثاني: باع حرًا فأكل ثمنه يتضمن مفارقة سلوكية وتعبيرية، فكيف يباع الحر؟ وبيعه يعطل عليه العبادات المختصة بالأحرار كالجمعة والحج والجهاد والصدقة، وقد ناقض هذا الذي باع حرًا - حكم الله في الوجود ومقصوده من عباده - وقوله "أكل ثمنه" كناية عن تضييع الحقوق، ولذلك عظمت جريمة هذا الصنف من الناس، والعطف بالفاء في قوله: "فأكل"، يرشد إلى سرعة هذا الرجل في الظلم، وإهدار كرامة الأحرار الشرفاء، والتضاد في مكونات الجملة الثالثة بين مقدمتها ونتيجتها يعلن عن فداحة الجُرْم في هذا السلوك، وصيغة الاستفعال في قوله: "استأجر، واستوفى"، تعلن عن الجهد الذي بذله الأجير، وعن حجم الثمرة التي جناها صاحب العمل، ولكنه ضيّع الحق ولم يعط الأجير أجره، فما أعظم هذا الجرم، والله عز وجل خصمه يوم القيامة.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء بالعهود وعدم الغدر.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من بيع الحر، وعدم إعطاء الأجير أجره.

رابعًا: من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالحقائق.

خامسًا: من أساليب الدعوة: الترهيب.

أولاً - من أساليب الدعوة: الإجمال والتفصيل:

حيث جاء في الحديث "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ..."، حيث ذكر رسول الله ﷺ قول الله تعالى: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة" على سبيل

الإجمال، ثم فصل بعد ذلك في قوله: "رجل أعطى بي... إلخ" الثلاثة المذكورين في الحديث، ومما لاشك فيه أن أسلوب الإجمال والتفصيل من أساليب الدعوة النافعة التي تقرب المعلومة للمدعوين، وتوضح لهم المراد، وبعد الإجمال يتطلع المدعو دائمًا إلى معرفة التفصيل للأمور، ففي هذا نوع تشويق للمدعو ولفت لانتباهه، وإثارة لفكره، وعلى الدعاة إلى الله استخدام هذا الأسلوب في دعوتهم، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الإجمال والتفصيل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ... ﴾[1] .

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: الحث على الوفاء بالعهود وعدم الغدر:

حيث جاء في الحديث: "رجل أعطى بي ثم غدر" قال ابن حجر: "وقد جاء رواية أخرى للحديث: ومن كنت خصمه خصمته" [2]، قال ابن التين: هو سبحانه وتعالى: خصم لجميع الظالمين إلا أنه أراد التشديد على هؤلاء بالتصريح. ومن هؤلاء... رجل أعطى بي ثم غدر"، التقدير أعطى يمينه بي، أى عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقضه"[3]، هذا وقد دلت النصوص الشرعية على حرمة الغدر وضرورة الوفاء بالوعد والعهد، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[5]، قال السعدي "هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أى بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، والتي بينه

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ١٨-٢٠.

(٢) أخرجه أحمد ٣٥٨/٢، رقم ٨٦٩٢، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٣) فتح الباري ٤٨٨/٤.

(٤) سورة المائدة، آية: ١.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٣٤.

وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع والإجارة، ونحوها والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم من التناصر والتعاون والتآلف، فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها"[١].

قال ابن عثيمين: "الغدر هو خيانة الإنسان في موضع الاستئمان، بمعنى أن يأتمنك أحد في شيء ثم تغدر به، سواء أعطيته عهدًا أم لم تعطه، وذلك لأن الذي ائتمنك اعتمد عليك ووثق بك، فإذا خنته فقد غدرت به"[٢].

وقال الشيخ محمد الغزالي: والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين، إذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تتجز ما التزمت به، التذكير والعزيمة، فإن ضعف الذاكرة وضعف العزيمة: عائقان كثيفان عن الوفاء الواجب، والإنسان لتجدد الحوادث أمامه، وترادف الهموم المختلفة عليه، يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه، فتخبو المعالم الواضحة، ويمسى ما كان بارًا في نفسه لا يكاد يبين. والذكر المُطرَّد اليقظ ضرورة لازمة للوفاء، فمن أين لناسي العهد أن يفي به؟ ويجب أن ينضم إلى هذا الذكر عزم مشدد على إنفاذه، عزم يمضي في سبيل الوفاء مهما تجشم من مشاق، وغرم من تضحيات، وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتًا شاسعًا في هذا المضمار، فإن ثمن الوفاء قد يكون فادحًا، قد يكلف المال أو الحياة أو الأحبة، بيد أن هذه هي تكاليف المجد المنشود في الدنيا والآخرة.

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ   الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتَّالُ[٣]

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: الترهيب من بيع الحر، وعدم إعطاء الأجير أجره:

يظهر ذلك في قوله ﷺ: "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة....، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه، ولم يعطه أجره"، وهذا يدل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٨١.

(٢) شرح رياض الصالحين ٢/١٦٧٥.

(٣) انظر: خلق المسلم ٥٥، ٥٦.

عل الترهيب من بيع الحر وأكل ثمنه، واستئجار الأجير ثم عدم إعطائه أجره.

وقوله: ("باع حرًا فأكل ثمنه" خص الأكل بالذكر لأنه أعظم مقصود، ووقع عند أبي داود من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: "ثلاثة لا تقبل منهم صلاة" فذكر فيهم " ورجل اعتبد محررا " وهذا أعم من الأول في الفعل وأخص منه في المفعول به، قال الخطابي: اعتباد الحر يقع بأمرين: أن يعتقه ثم يكتم ذلك أو يجحد، والثاني أن يستخدمه كرها بعد العتق، والأول أشدهما، قلت: وحديث الباب أشد لأن فيه مع كتم العتق أو جحده العمل بمقتضى ذلك من البيع وأكل الثمن، فمن ثم كان الوعيد عليه أشد، قال المهلب: وإنما كان إثمه شديدا لأن المسلمين أكفاء في الحرية، فمن باع حرا فقد منعه التصرف فيما أباح الله له، وألزمه الذل الذي أنقذه الله منه، وقال ابن الجوزي: الحر عبد الله، فمن جنى عليه فخصمه سيده)[1].

وقال العيني: (إن المسلمين أكفاء في الحرية والذمة، وللمسلم على المسلم أن ينصره ولا يظلمه، وأن ينصحه ولا يغشه، وليس في الظلم أعظم ممن يستعبده أو يعرضه على ذلك، ومن باع حرا فقد منعه التصرف فيما أباح الله له، وألزمه حال الذلة والصغار، فهو ذنب عظيم ينازع الله به في عباده)[2].

وقال ابن علان: (الْحِكْمَةُ فِي كَوْنِ اللَّهِ خَصْمَهُمْ أَنَّهُمْ جَنَوْا عَلَى حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّ الَّذِي أَعْطَى بِهِ ثُمَّ غَدَرَ جَنَى عَلَى عَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْجِنَايَةِ، وَالنَّقْضِ وَعَدَمِ الْوَفَاءِ، وَمِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُوَفَّى بِعَهْدِهِ، وَالَّذِي بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ جَنَى عَلَى حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ حَقَّهُ فِي الْحُرِّ إِقَامَتُهُ لِعِبَادَتِهِ الَّتِي خَلَقَ الْجِنَّ، وَالإِنْسَ لَهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾[3] فَمَنْ اسْتَرَقَّ حُرًّا فَقَدْ عَطَّلَ عَلَيْهِ الْعِبَادَاتِ الْمُخْتَصَّةَ بِالأَحْرَارِ كَالْجُمُعَةِ، وَالْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا وَكَثِيرًا مِنْ النَّوَافِلِ الْمُعَارِضَةِ لِخِدْمَةِ السَّيِّدِ، فَقَدْ نَاقَضَ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي الْوُجُودِ وَمَقْصُودَهُ مِنْ عِبَاده فَلِذَلِكَ

---

(١) فتح الباري ٤/٤٨٨.

(٢) عمدة القاري ١٢/٤٢.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦..

عَظُمَتْ هَذِهِ الْجَرِيمَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا بِمَنْزِلَةِ مَنْ اسْتَعْبَدَ الْحُرَّ وَعَطَّلَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَةِ، فَشَابَه الَّذِي بَاعَ حُرًّا وأَكَلَ ثَمَنَهُ فَلِذا عَظُمَ ذَنْبُهُ)[١].

وقال ابن حجر: (قوله: "ورجل استأجر أجير فاستوفى منه ولم يعطه أجره" هو في معنى من باع حرًا وأكل ثمنه، لأنه استوفى منفعته بغير عوض وكأنه أكلها، ولأنه استخدمه بغير أجرة وكأنه استعبده)[٢].

فإذا لم يؤد المستأجر للأجير أجره، أو أخره تأخيرًا بالغًا، فقد حمّل نفسه إثمًا عظيمًا ووزرًا وعذابًا أليمًا، وسيُقتص منه يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لتؤدن الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))[٣].

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: ((من كانت عندَه مَظلمةٌ لأخيهِ فلْيَتحللهُ منها، فإنه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهم، من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناتهِ، فإن لم يكن له حسَناتٌ أُخِذَ من سيِّئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليه))[٤].

وعن عبدالله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَعْطُوا الأجيرَ أَجْرَهُ، قبلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))[٥].

وخلاصة القول: إن بيع الحر وأكل ثمنه، وعدم إعطاء الأجير أجره من الكبائر التي ينبغي الترهيب منها والحث على اجتنابها؛ لأن ذلك ظلم، وقد ورد فيه وعيد خاص ليتبين رتبته من الظلم، وهو نوع منه، لأن الظلم وإن كان كبيرة من حيث الإطلاق ولكن بعضه أكبر من بعض[٦].

---

(١) دليل الفالحين ١٦٣٦.

(٢) فتح الباري ٤/٤٨٨.

(٣) أخرجه مسلم ٢٥٨٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٢٤٤٣، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٨٠).

(٦) انظر: تنبيه الغافلين، ابن النحاس ص ١٨٧.

فينبغي على الداعية أن يبذل وسعه في بيان حرمة بيع الحر، وخاصة في هذا العصر، إذ أن العالم الآن تحرم قوانينه بيع البشر، ومع ذلك هناك بعض الناس الذين لا أخلاق لهم يتجرون في سرقة الأطفال وبيعهم وخاصة أطفال الدول الفقيرة، التي يستغلون حاجة أهلها للمال، ويتعاونون مع عصابات منظمة في هذا المجال، فيأخذون الأطفال فيستخدمونهم في الجريمة المنظمة، وما يتنافى مع الدين والقانون والأخلاق، أو يبيعونهم الأغنياء كعبيد، وهذا اعتداء على حقهم في الحرية، وحقهم في الحياة الكريمة، وكذلك عدم إعطاء الأجير أجره، فهو أمر لا يقل أهمية بل يفوق بيع الأحرار من الأطفال، خاصة في هذ العصر الذي كثرت فيه الشركات، والمصانع الخاصة التي يستخدم فيها العمال، ولا تعطيهم أجورهم، أو تعطيهم أقل مما يستحقون، أو تكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون، فكل هذا خطأ كبير، وإثمه عظيم، فينبغي مواجهته، وإرشاد القائمين على هذه المؤسسات والهيئات وأصحابها إلى اجتناب هذه الأشياء، حتى يخرجوا أنفسهم من دائرة الإثم والعقاب، وخصومة الله عز وجل يوم القيامة.

رابعًا - من مهام الداعية: إخبار المدعوين بالحقائق:

حيث جاء في الحديث: قال الله تعالى: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة" وهذا يدل على أن من أولى مهام الداعية أن يخبر المدعوين ويعرفهم بالحقائق حتى تقوم عليهم حجة البلاغ، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1]، وأمر الله نبيه بالبيان فقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

قال د. عبدالكريم البكار: الوظيفة الأساسية للرسل عليهم الصلاة والسلام، ليست إعمار الأرض ولا توفير الرفاهية للناس أو إطعام الفقراء؛ وإنما تبليغهم الرسالة

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

التي حملهم الله تعالى إياها. وهذه الرسالة وإن كانت مفرداتها كثيرة إلا أنها تتمحور في النهاية حول قضية جوهرية ونهائية، وهي تذكير الناس وتنبيههم لساعة الوقوف بين يدي الله - تبارك وتعالى - وما تتطلبه النجاة في يوم الحساب من تبعات وتكاليف على مستوى الإيمان وعلى مستوى العمل، سلبًا وإيجابًا؛ وقد عبر لنا القرآن الكريم بجلاء عن ذلك الهدف المحوري من بعث الرسل حين قال سبحانه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[1]. إن الإحساس بيوم التلاق وتبعاته هو الذي ينبغي أن يسيطر على مشاعر الناس، حتى يستقيموا على الشريعة، ويعمروا الأرض، ويتراحموا بينهم.

والأنبياء وخلفاؤهم من الدعاة إذ يقومون بـ"البلاغ المبين" يكونون قد قاموا بالعمل الأساسي الذي تبرأ به الذمة أمام الله سبحانه وتعالى، وهناك آيات كثيرة تدل على هذا من نحو قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[3].

ويمكن أن نستجلي من الفوائد العظمى التي تجنيها الأمة من "البلاغ المبين" ما يلي:

١- جعل حياة الأمة مشدودة نحو هدف واحد، إذ أن تبليغ الرسالة يحول دون انسياق الأمة خلف أهداف مشتتة متناقضة ودنيوية. وإذا ما فقدنا "مركزية الهدف" فإن كثيرًا من أوجه التناظر والانسجام تصير شكلية، وتتحول من نقاط ارتكاز للتلاحم المجتمعي إلى معابر لتحقيق الأمجاد الشخصية والمنافع الخاصة!.

٢- إن القيام بعملية التبليغ أكبر ضمان لتحجيم الثورات الاجتماعية التي تعصف بالصالح والطالح؛ فمن خلال التذكير بالواجبات، والحث على ترك المنكرات، وبيان المبادئ الأساسية التي تنبغي مراعاتها، ينشط التبادل الاجتماعي الذي من طبيعته

---

(١) سورة غافر، آية: ١٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٣٥.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٨.

الإحساس المبكر بتأزمات المجتمع واختناقاته، كما أنه يؤمن نوعًا من التوجيه للحركة الاجتماعية في مساقات محددة.

٣- إن البلاغ المبين يُعلم الناس تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ودينهم ومجتمعهم؛ وما أصيبت الأمم بداء أخطر من فقد الشعور بالمسؤولية. ومن خلال الدعوة يتمكن الناس من معرفة ما يجب عليهم أن يفعلوه، وفي الوقت نفسه الثمن الذي عليهم أن يدفعوه إذا هم لم يستجيبوا، ومن خلال هذا وذاك تتولد الشخصية وفضيلة الشعور بالمسؤولية. ومن غير القيام بحق الدعوة والبلاغ يسود نوع من السبات والترهل في الوعي والإدراك، ونوع من الضبابية في علاقات الناس ببعضهم بعضًا.

٤- إن البلاغ المبين هو سفينة النجاة من أهوال تفسخ المجتمعات وانحلالها؛ إذ أن أضر ما يلحق المجتمعات من أذى، هو تراكم الأخطاء، وتحول العادات والتقاليد إلى شعائر وعبادات، وانتشار البدع والأنماط الخاطئة؛ مما يؤدي في النهاية إلى أن يفقد المجتمع الإحساس بهويته وأصالته.

٥- الدعوة تغرس في حسّ الناس وعقولهم وجود مرجعية عليا مطلقة "لا بشرية" توجههم، وترشدهم، وتؤطر تفكيرهم؛ وعندما تعم الفوضى، وتندرس معالم الطريق يجدون فيها شاطئ الأمان، وصلابة اليقين.

٦- إن أمة الإسلام لا تملك اليوم من الإمكانات المادية ولا من النفوذ العالمي ما يمكنها من فتح مجالات حيوية خارج حدودها؛ والشيء الوحيد الذي يمكن أن يلفت انتباه العالم إليها هو الدعوة والمضامين الحضارية الفريدة التي تحملها. إن إهمال أمة الإسلام للدعوة شوّه وجهها العالمي، وحرمها من الشعور بالتأنق والتميز الذي كان من الممكن أن يكون لها وحدها. أليس من الغريب العجيب أن تُدعى أمة لتتسلم مفاتيح العواصم والمدائن، فتأبى، ثم تتسوّل كوخًا!!.

إن القيام بالدعوة - مهما تكن النتائج - شرف عظيم؛ لكن نجاح الدعوة في الوصول إلى أهدافها لا يتم بمجرد وجود أية دعوة، وإنما يحتاج إلى شروط عديدة يجب توفرها في شخص الداعية وأسلوبه، وفي نفس المدعو أيضًا، إلى جانب نجاعة الوسائل

المستخدمة حتى تؤتي الدعوة ثمارها، ويدخل الناس في دين الله أفواجا[١].

خامسًا- من أساليب الدعوة: الترهيب:

حيث جاء في الحديث: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة" فرّهب المولى تبارك وتعالى من أفعال هؤلاء الثلاثة، وأي ترهيب؟ إنه ترهيب عظيم، إذ أنه خصومة الله، وهذا أمر خطير لا قبل لأحد به.

قال الصنعاني: (وفي الحديث دلالة على شدة جرم من ذكر، وأنه تعالى يخصمهم يوم القيامة نيابة عمن ظلموه) [٢]، وأسلوب الترهيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، وتحملهم على ترك المحظورات الشرعية، لأن النفس البشرية بطبيعتها تحذر العقوبة والوعيد، "والترهيب كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله ويكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة[٣].

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ١٤٣-١٤٥.

(٢) سبل السلام ص ٥٦٧.

(٣) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان، ٤٣٧.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً: التربية على الوفاء وعدم الغدر:

إن الوفاء بالعهد وعدم الغدر من الركائز التربوية التي قدرها الإسلام في تربية النشء المسلم، ونظرية الإسلام التربوية بصفة عامة في جميع السلوكيات البشرية وخاصة في الوفاء وعدم الغدر تقوم على أساس الصلة الربانية المرتبطة بالتقوى، فليست المصلحة البشرية أو العرف الجماعي هما الباعث الأخلاقي لغرس الوفاء وعدم الغدر في النفوس، بل الرقابة الإلهية هي القائمة بذلك، وهذا ما أكده النبي ﷺ في حديث الباب من قوله ﷺ: «قال اللهُ تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصمُهم يومَ القيامةِ : رجُلٌ أَعطى بي ثمَّ غَدَرَ...إلخ».

فالخصم هنا -عند الغدر وعدم الوفاء بالعهد- هو الله جل جلاله، وهذا معنى قوله تعالى: «ثلاثة أنا خصمهم»، ومن ثم ينبغي للمتربي والمتعلم أن يستمدا القيم والمقاييس من الله بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه، ومن ثم فإن الذين يخالفون العهد ويغدرون بالأمانة، ويشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً، فهؤلاء لا خلاق لهم ولا نصيب لهم في الآخرة، وعلاوة على هذا فإنهم يتصفون بصفات اليهود، ولا يليق بالمؤمن أن يشبه نفسه ويختلط عمله باليهود الذين عرفوا بالغدر والخيانة[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

وحتى يتسنى لدعاة التربية والتوجيه غرس هذه الركيزة التربوية من الوفاء بالعهد وعدم الغدر، كان عليهم القيام بعنصرين، إذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تتجز ما التزمت به، فإن الله أخذ على آدم أبي البشر، عهدًا مؤكدًا ألا يقرب الشجرة

(١) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الأعظمي الندوي، ٢٣٧، بتصرف.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

المحرمة، لكن آدم ما لبث أن نسي وضعف، ثم نكث في عهده.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(١).

فضعف الذاكرة، وضعف العزيمة، عائقان كثيفان عن الوفاء الواجب. والإنسان - لتجدد الحوادث أمامه، وترادف الهموم المختلفة عليه - يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه: فتخبو المعالم الواضحة، ويمسى ما كان بارزًا في نفسه لا يكاد يبين، ولهذا افتقر إلى مذكر دائم يغالب أمواج النسيان. ويمسك أمام عينيه ما يوشك أن يذهل عنه. وما أكثر آي القرآن التي تواردت لتصون هذا الذكر.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(٢).

والذكر المطرد اليقظ، ضرورة لازمة لتحقيق الوفاء بالعهد والبعد عن الغدر لذلك ختمت آية العهد بعنصر التذكير: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

فوجب على دعاة التربية غرس الذكر المطرد اليقظ في نفوس المتربين لتحقيق الوفاء بالعهد والبعد عن الغدر، فضلاً عن إيقاظ الهمة والعزيمة الوقادة في تجشم المشاق لتحقيق الوفاء بالعهد وعدم الغدر(٤).

كما ينبغي أن يكون المربي أمثل قدوة للمتربي في الوفاء بالعهد وعدم الغدر، فكثير من الوالدين إذا أراد التخلص من إحراج أحد الأولاد - وعده بالوعود الكثيرة، فيعده بشراء الحلوى، أو بالذهاب إلى الحديقة، أو بشراء دراجة، أو غير ذلك، وربما لا يقوم الوالد بذلك أبدًا، مما يجعل الولد ينشأ عن إلف ذلك الخلق الرذيل. فالذي يليق بالوالد، بل ويجب عليه إذا وعد أحدًا من أبنائه وعدًا - أن يتمه ويفي به، وإن حال بينه

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٤) خلق المسلم، محمد الغزالي، ٥٥، ٥٦ باختصار.

وبين إتمامه حائل اعتذار من الولد، وبين له مسوغات ذلك[١].

ثانيًا: التربية على أداء الحقوق والواجبات:

إن الإسلام كمنهج تربوي يحيط حقوق الناس بسياج قوي بين القول والعمل وبين الحدود والتعازير حتى يعيش المجتمع الإسلامي في جو آمن كريم[٢]، لذا وجب على دعاة التربية والتوجيه غرس التربية على أداء الحقوق والواجبات في نفوس المتعلمين والمتربين.

وهذا ما ظهر في حديث الباب من قوله ﷺ عن رب العزة: «ثلاثةٌ أنا خَصمُهم يومَ القيامةِ: ...، ورجلٌ باع حُرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيراً فاستَوفى منهُ ولم يُعطِه أجرَه».

ومما لا شك فيه أن أكل الحقوق وعدم أداء الواجبات، داءٌ عضال، إن أصاب الأمة أفقدها توازنها الإيماني، وأهدم ميزانها الأخلاقي، وأورثها ذلاً يدهده عزها، ويكسّر ولاء أفرادها، فلا نجد فيها إلا مجتمعًا لصوصيا، سُرق فيه الحق، وأُضيع فيه الأجر، فكيف يرجى من أفراده إعزاز دينهم ونصرة أمتهم، وقد فقدوا هويتهم وانتمائهم؛ لذا كان من أوجب الواجبات وأقدس المهمات التربوية التي تقع على كاهل دعاة التربية والتوجيه غرس أداء الحقوق والواجبات في نفوس المتربين؛ لما في ذلك من بث روح الإخاء والعدل بين المسلمين لخلق جو إسلامي كريم يحافظ على تماسك بناء المجتمع ويرقى به.

ثالثًا: التربية بالترهيب:

إن الغدر وعدم إيفاء العهود من أعظم ما شُدد فيه النكير، وعظم فيه النذير، وهذا ما دللت عليه أحاديث الباب حيث تم الترهيب من ذلك بربط الغدر والنفاق في خصلة واحدة، حيث قال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا...إلخ»، وقد اشتد الترهيب في تربية النفوس على عدم الغدر، في أحاديث الباب من ذكره ﷺ الأثر السيئ، لخصلة الغدر يوم القيامة، إذ يعلن عن صاحبها ويخزى بين الخلائق[٣].

وذلك في قوله ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، ...إلخ».

---

(١) رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، محمد إبراهيم الحمد، ١٣٨.

(٢) دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، د. محمد لقمان الندوي، ٢٣٩.

(٣) الأخلاق في الإسلام، د. عبداللطيف محمد العبد، ٢٧٤.

وبلغ الترهيب منتهاه ببيان أن الغادر محروم من رحمة الله ورضوانه، بل إنه خصم له يوم القيامة، فيمن يكون خصمًا لهم، وذلك في حديث الباب من قوله ﷺ وعن رب العزة "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ...إلخ".

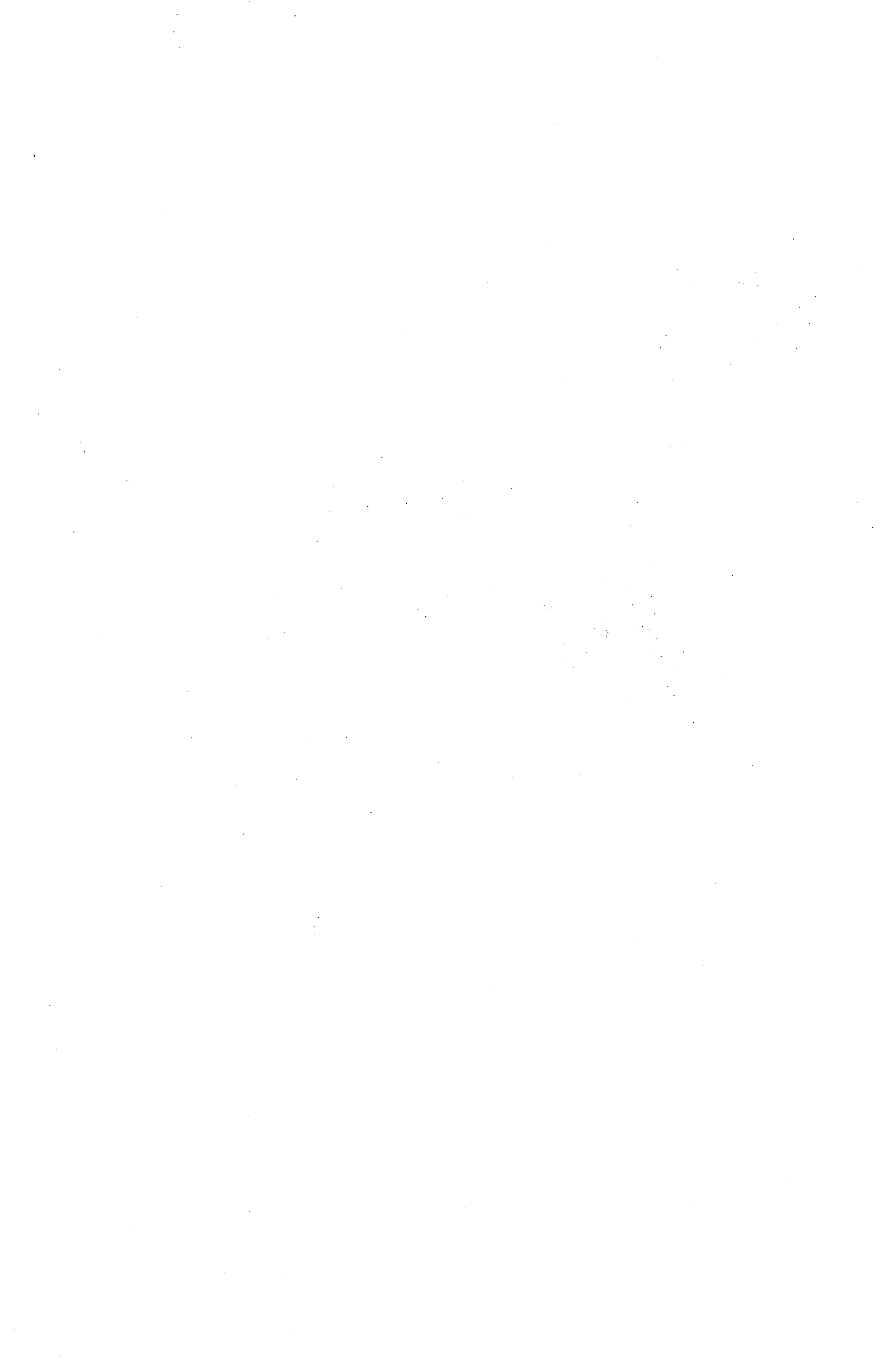
"وبناء على ذلك، كان الترهيب من أعظم الأساليب التربوية التي لا يستغنى عنها المربي في كل زمان ومكان إذ لا يمكن أن تجدي التربية وتحقق أهدافها ما لم يعرف النشء أن هناك نتائج مؤلمة، وراء عمله وسلوكه المعيب، مما يجعل الإنسان يتحكم في سلوكه، ويعدل فيه بمقدار معرفته بنتائج ذلك السلوك"[1].



(١) أصول التربية الإسلامية، د. سعيد إسماعيل القاضي، ١٨٦.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الموضـــــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة